إشراف

بيير بورديو

بؤس العالم

LA MISERE DU MONDE

الجزء الأول

رغبة الإصلاح

ترجمة: محمد صبح

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

علي مولا



بؤس العالم

الجزء الأول

رغبة الإصلاح

العنوان الأصلي للكتاب:

PIERRE BOURDIEU

LA MISERE DU MONDE

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية
في السفارة الفرنسية في سورية

Livre publié
En collaboration avec
Le Ministère français des Affaires Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

إشراف: بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الأول

رغبة الإصلاح

ترجمة : محمد صبح

مراجعة وتقديم : د. فيصل درَّاج

بؤس العالم / الجزء الأول / رغبة الإصلاح

إشراف: بيير بورديو

ترجمة: محمد صبح

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

الناشر: دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org

E-mail: kanaanbook@yahoo.com

طبعة خاصة: 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com

http://www.neelwafurat.com

بمنزلة تقديم

د . فيصل درَّاج

رحلة كابوسية متعددة الوجوه في أرجاء «الرأسمالية القائمة فعلاً».
هذا هو قوام «بؤس العالم»، الكتاب الضخم، الذي أنجزه بيير بورديو ومعاونوه، متواطئين، وبشكل حميم، مع سلسلة بشرية متعددة الوجوه والقضايا، وقد يبدو الكتاب مربكاً، تتمازج فيه الحكايات الحزينة وسير ذاتية ناقصة واستقصاء اجتماعي وإشارات فلسفية وتعليقات سياسية، إلى درجة تُوهم «هواة الاختصاص المعرفي» أن الكتاب يهرب من «المعرفة العميقة»، ويكتفي بنثارها. غير أن بورديو، الذي يوظّف المعرفة من أجل خدمة البشر المضطهدين، يقوم بغير ذلك تماماً، معطياً درساً نموذجياً في إنتاج المعرفة الصحيحة. ولهذا يدفعه مسعاه النبيل إلى حوار البشر وقراءة الشروط المشخصة التي يعيشون فيها، ذلك أن المعرفة تتراءى في أرجاء الحياة اليومية، ولا تستولد من صفحات الكتب الجاهزة. وبورديو، في هذا، يقول بأولوية أسئلة الحياة على الجهاز المفهومي، ويقوم باختبار الأخير على ضوء المعيش العاري، الذي يتطيّر منه «الأكاديميون التقليديون» عادة.

مداخل عديدة تفضي إلى مركز الكتاب، الذي ينزاح عن موقعه دائماً لا لشيء إلا لأن مركزه يقوم في حكايات البشر، بعيداً عن «عقل متكوّن»، يقرّر مركز الكتاب قبل كتابته. والمدخل الأول، الذي تُردّ إليه المداخل جميعاً، هو: العنف الاجتماعي، الصادر عن أرواح مكبوتة ومحرومة، أو عن حرمان

يراكم الكبت، قبل أن يطلقه عنيفاً وقاسياً، يحوّل المستقبل إلى أحجية، قبل أن يتجلى في كسر النوافذ وحرق السيارات والتسلح بالكلمات البذيئة والأدوات القاطعة. كل شيء يبدو مكسوراً، أو قابلاً للكسر والانكسار، المغربي المهاجر اللاهث وراء كسرة خبز في ضواحي باريس، والشاب الفرنسي الكاره لمدرسة تبعثره قبل أن تنظم عقله، والمدرّس الذي يهينه التلاميذ وهو يعطيهم درساً في مبادئ الأخلاق، والعامل الذي تستدعيه المصانع حين تشاء وتطرده خارجاً حين تشاء أيضاً، والمرأة العنصرية التي تشتق الشر من «الوجه العربي»، والوعي البائس الذي يساوي بين السلع الباذخة والمأجور البسيط الذي يبيعها.

يقرأ بورديو «الوعي الفقير» في «بؤس العالم»، حيث الوعي المغترب لا يرّد إلى «جوهر إنساني» مزعوم، بل يردّد ما لقنته شروط حياة تفتقر إلى الحياة. وشروط الحياة هي شروط الإنتاج الاجتماعي في «رأسمالية جديدة»، أو في «ليبرالية جديدة»، تضع الدولة في مكان ملغّز، ترى منه البشر ولا تراهم أيضاً: تراهم وهي تضع سياسات اقتصادية وثقافية وإعلامية تفقر البشر في الاتجاهات جميعاً، ولا تراهم وهم يتفكّكون في حاضر لا أفق له. ولهذا يبدو العنف، في مستواه الظاهري، مرتبطاً بالأفراد ومحكوماً بعلاقات بين الأفراد، قبل أن يتكشّف عارياً وشديد الوضوح في مستواه العميق، أي في سياسات الدولة، أو في شروط الإنتاج التي تفضي، وبعد توسطات عدة، إلى شكل معين من الدولة. وإذا كانت أزمنة الارتقاء الاجتماعي، التي تتيح تخليق وعي يسيّس العلاقات الاجتماعية، تسمح بأسئلة حقيقية وبإجابات محتملة، فإن زمن الليبرالية الجديدة، وهو انتقام من زمن سبق، يترك «الوعي الفقير» في العراء، حيث على الفقراء أن يأكلوا بعضهم، تاركين الدولة في وضع مطمئن، لأنهم لا يرونها، أو لأنها منعت عنهم شروط الرؤية الصحيحة.

العنصرية مرآة من المرايا المتعددّة التي يتكشّف فيها «بؤس العالم». والعنصرية هي ذلك الوعي التعيس الذي يعطي إجابات متوّهمة لأسئلة

فعلية، ويحوّل إجابته المتوّهمة إلى قاعدة عملية في الحياة. ولذا يرى العنصري الفرنسي في المغربي المهاجر عدواً له واعتداء على نمط حياته، بل تلويثاً لحضارته بعادات وتقاليد وتصورات مغايرة لها. وبما أن كل عنصرية تستولد أخرى، فإن المهاجر العربي يردّ بـ «عنصرية تابعة» تائهة الممارسات، ذلك أن ميزان القوى يخترق كل شيء، بما فيه الوعي التعيس، الذي تترجمه العنصرية. وقد يبدو الأمر محتملاً وقابلاً للمحاكمة لدى المهاجر العربي العاثر الحظ، الذي ولد في بلد وبحث عن لقمة الخبز في بلد أجنبي مغاير، لأنه وهو يصد عنصرية رئيسة بأخرى تابعة، يعود إلى إرث ثقافي وروحي يستجير به، حتى لو اخترع الإرث من حكايات الشتاء، على خلاف ابنه المقوّض، الذي ولد في فرنسا وحمل جنسية فرنسية. فهذا الولد، الموزّع على أزمنة لا متكافئة، يحمل اسماً عربياً ولا يحمل إرث أبيه، إلا مصادفة، ويحمل جنسية فرنسية، ويرى فيه الفرنسيون غريباً ومتطفلاً. وعن هذا التمزق، المحصّن بوعي بائس، يصدر عنفٌ، لا يطوّقه الآباء ولا تداويه المدرسة الفرنسية، مفضياً إلى معادلة تراجيدية تساوي بين المهاجر العربي والشر الطليق.

وقد يرد المهاجر العربي، ابناً وولداً، على العنصرية التي تفتك به، باللواذ بشيء غائم ومشروع يُدعى بـ: الهوية. ففي مقابل فرنسي ينتسب، وهماً أو حقيقة، إلى نابليون وروسو وشرعة حقوق الإنسان، يقف عربي **مخذول يدافع عن نفسه بالحجاب والتعاليم الدينية وأسماء يلفظها** الفرنسي بصعوبة. غير أن هذه الهوية، ورغم ثرثرة سعيدة عن حوار الحضارات، لا تفضي إلى شيء كثير، بسبب «ثقافة الفقر»، التي تلفّ العنصرية المسيطرة والعنصرية الخاضعة. فلا هوية دون ذات واعية ومفكرّة، تتكئ على فرديتها المتميزة، قبل أن تضيف إليها صفات أخرى، دينية كانت أو قومية. لكن «بؤس العالم»، المنسوج من البطالة والفقر والعنف والعنصرية والمدرسة الخائبة وهراوات البوليس، ينتج أقنعة بشرية متناظرة، لا فرديات متميّزة، لا تعرف «الحوار»، أو ما هو قريب منه. ولذلك لن تكون

الهويات في «الوعي الفقير»، المتكئ أبداً على «ثقافة الفقر»، إلا اختراعاً تراجيدياً، يخترع الذات وما يواجهها، منتهياً إلى تنابذ، يجعل الواقع ضيقاً ومحاصراً، والعقل أكثر ضيقاً وحصاراً.

وواقع الأمر، أن أسئلة العنصرية والهوية والإنسان المقوّض، وبالمعنى الحقيقي، تقوم في مكان آخر، يدعى: الشمال والجنوب، حيث الاحتكارات والسيطرة الاستعمارية والسياسات المستبدة المحلية، ترحّل الخيرات والثروات والعقول المفكرة من الجنوب إلى الشمال، تاركة الأول يذهب إلى جوع يتزايد يوماً بعد يوم. فهذه الاحتكارات تفتك بإنسان الجنوب مرتين، مرة أولى وهي تقوّض، بشكل متسق، اقتصاده الوطني، ومرة ثانية وهي «تهبه»، بغطرسة كبرى، حق العمل في بلدان الشمال، بشروط مهينة، علماً أن «اقتصاد الشمال» بحاجة إلى اليد العاملة التي تأتي من الجنوب.

بيد أن سلطة الإعلام الرأسمالي المسيطر، بل سطوته، وقد تركّز في قبضة احتكارية، تطمس إشكالية العربي المهاجر الموضوعية، مكتفية بقصة جاهزة عن عربي متسلّل وشرير. وفي تصور كهذا، يتم اختراع المهاجرين قبل الحديث عن قضاياهم، حيث القضية الجوهرية هي العنف الصادر عن نفوس شريرة. وبهذا المعنى، فإن ما يدعى بـ«الأصولية الإسلامية»، وبالمعنى السلبي قطعاً، هي أثر من آثار الإعلام الرأسمالي. بل إن هذا الإعلام روّج وسوّق هذه «الأصولية» أكثر مما فعل لها المنتسبون إليها. كما لو كانت هذه «الأصولية» مشجباً إيديولوجياً ضرورياً، يعلّق عليها «العامل الفرنسي» أسباب توتره وقلقه وبطالته. وفي صناعة إعلامية متقنة، تروّج الوعي الضليل، يرحّل «العامل الفرنسي» نقمته إلى أرض المهاجرين، ويقرأ المهاجرون أوجاعهم في مرآة مقلوبة. والإعلام هناك، مستقر في التلفزيون والراديو والصحافة، يقرن بين «أحمد» والخديعة، وبين «أحمد» والجريمة، وبين «أحمد» والعجوز الفرنسية التي فقدت كلبها.

غير أن هذا الإعلام، الذي يخلق الظواهر كما يشاء، لا يتلف النفس البشرية وهو يخلق العنصرية فقط، بل أنه يتلفها، سواء كانت فرنسية أو

أمريكية أو عربية، بأدوات أخرى. ومن هذه الأدوات إنتاج وتوزيع إيديولوجيا الاستهلاك، وذلك في مفارقة غريبة، توقظ الحرمان وتزيد المحروم حرماناً وهياجاً. فوفقاً لمنطق الدعاية السلعية، فإن السلعة متاحة للجميع، وأن التمتع بها حق من حقوق الجميع. و«الخطأ» البسيط، أن هذه السلعة تصل إلى من يقدر على شرائها لا أكثر، متنائية عن الفقير، وقد ازدادت سحراً وجمالاً كلما ابتعدت عنه. وعن جدل الإثارة والمنع يصدر عنف يحطّم المخازن، أحياناً، وعنف يحطم صاحبه، في أحيان أخرى. ففي شروط فقيرة، تؤمّن عملاً فقيراً، لا يكون أمام «الوعي الفقير» إلا اللجوء إلى العنف والقتل وتجارة المخدرات والدخول إلى عوالم مظلمة وقاتمة. ولعل الإحالة في هذا الكتاب إلى «حالات أمريكية»، يقيم صلة واضحة بين الجريمة وايديولوجيا الاستهلاك في مجتمع لا مساواة فيه. فحين لا يكون العمل الشريف مدخلاً موافقاً لتأمين حاجات الحياة، يغدو العمل «المغاير» مدخلاً ملائماً. والعمل المغاير المتاح، لمن أضاعوا الأمل أو لم يلتقوا به أصلاً، هو الاحتفاء بالممنوع، الذي ينفتح على السرقة والقتل والبغاء وتجارة المخدرات، وينفتح أكثر على حياة لا معقولة، يكون فيها القتل لعبة يومية.

إن كان الإعلام، في شروط «ثقافة الفقر»، يخلق عنصرية تطارد عنصرية أخرى، وهويات متوّهمة متحاربة، فإن إيديولوجيا الاستهلاك الإعلامية، وفي شروط البؤس الاجتماعي والوعي البائس، تخلق الجريمة وتروّج لها. وفي الحالين، فإن صناعة الوعي البائس، التي تقيم حاجزاً سميكاً بين الإنسان وأسباب حرمانه، تنطوي، لزوماً، على صناعة أخرى هي: صناعة الإذعان. فالبؤس لا يخلق تمرداً، لأن الوعي بالبؤس هو المدخل إلى التمرد. وعلى الليبرالية الجديدة، التي تقيّد وعي الإنسان قبل أن تقيّد يديه، أن تنتقل من صناعة ايديولوجية تدميرية إلى أخرى، كي لا يبقى من الإنسان إلا ظلّه. والظلال تأتي وتذهب ولا تغير شيئاً. وإذا كانت الحياة الفقيرة، بالمعنى الاقتصادي، مرجعاً لـ«ثقافة الفقر» ومتكأ لها، فإن الليبرالية الجديدة، رغم الحديث عن السوق والوفرة والمبادرة الحرة والديمقراطية،

تنتج، وبشكل موسع وغير مسبوق، شكلاً جديداً من «ثقافة الفقر»، بل الشكل الأكثر فقراً بامتياز.

تتضمن «ثقافة الفقر»، تعريفاً: التكرار، الاستظهار، المواضيع القليلة المتماثلة. فالوعي الفقير يكرّر ولا يبدع، يستظهر ولا يقول، مؤمناً بالتلقين ومدافعاً عنه، ويكتفي بمواضيع قليلة مرجعها زمن فقير، ويظل فقيراً حتى لو قال إلى أزمنة واسعة. والليبرالية الجديدة، محصنة بالسلطة الإعلامية المختلفة، تعيد إنتاج «ثقافة الفقر»، متجاوزة الشرط الاقتصادي والمعايير الاجتماعية المألوفة. ولذلك لن تكون ثقافة الليبرالية هذه إلا عبادة الاستهلاك، أو أسطورة الاستهلاك بشكل أدق، الرياضة، وقد تحوّلت إلى دين يومي غريب، وهوس الهويات المتقاتلة. ويمكن أن يضاف إلى هذه العناصر الثلاثة عنصر رابع، وإن كان تميّزه وخصوصيته هو: الفساد ذو الأبعاد الكونية، الذي، وإن كان يمس مجتمعات متقدمة، يقذف بإنسان ما دُعي ذات مرة «العالم الثالث» إلى عالم رابع وخامس وسادس، ربما.

هذه العناصر الثقافية البائسة، التي يدور حولها جهد بيير بورديو الكبير والنبيل معاً، تشكل القاعدة المادية الصلبة، التي تنتج وتعيد إنتاج العنف الاجتماعي، السافر منها والمضمر في آن. ولعل كل نبل رسالته الفكرية، التي يتطيّر منها دعاة ما بعد الحداثة، يكمن في الانتقال من سطح الظواهر إلى جوهرها، وفي النفاذ إلى مصادر العنف، اعتماداً على مواد توثيقية مباشرة، تضيئها، وبشكل متناوب، تعليقات نظرية. وقد يبدو تعبير «بؤس العالم» مبالغاً فيه، وهو يسائل قضايا اجتماعية في بلد واسع التحضير مثل فرنسا. غير أن بورديو، وبرهافة عالية، يضع في أفق القارئ أطروحتين متلازمتين، تقول الأولى منهما: إن كان للبؤس مساحته الضرورية في بلد مثل فرنسا، فإن المساحة هذه تتضاعف إلى ما لا نهاية في بعض بلدان الجنوب. وتقول الأطروحة الثانية: يشكل المهاجرون، في عذاباتهم المختلفة، مجازاً لبؤس الجنوب، لأن الإخفاق التاريخي لسياسات بلادهم، يحوّلهم إلى بضاعة رخيصة وأرواحاً مهانة. مع ذلك، فإن البؤس المجزوء،

كما البؤس المسيطر، أثر لرأسمالية متوحشة، تموّه وجهها بلغة متطهرة، مفرداتها: الليبرالية، اقتصاد السوق، حقوق الإنسان..

يقرأ بورديو وجوه الاغتراب في المجتمع الرأسمالي، متكئاً على مقولات تكشف عن العنصرية والعنف والهوية المأزومة.. لكنه، وهو يعطي درساً نموذجياً في أخلاقية المعرفة، يشير إلى الانحلال القيمي، الذي يختلس التفاؤل ويصادر المستقبل، أي أنه، واعتماداً على جدل المعرفة والمسؤولية، يدعو إلى مقاومة جديدة، تعيد الاعتبار إلى الإنسان والقيم الإنسانية. وبسبب ذلك، فإن بورديو، وهو يتأمل «بؤس العالم»، يتعرّض، وقدر المستطاع، إلى العلاقة بين البؤس الراهن المعيش وانهيار المشاريع السياسية، التي كانت تدعو إلى مستقبل إنساني أفضل، أي إلى المشروع الاشتراكي. ولعل هذا الانهيار، الذي تحصنّه وتوطد أركانه إيديولوجيا رأسمالية منتصرة، هو الذي يلقي بملايين البشر إلى الفراغ وإلى الحلول الزائفة.

إن كان غياب السياسة، كما تصنيع الوعي اللامسيّس، يبدو نعمة في الايديولوجيا الليبرالية الجديدة، تحت عنوان انهيار الايديولوجيات وانهيار الحكايات الايديولوجية الكبرى، فإن بورديو، وهو يرى إلى بؤس العالم، يوحي بتصور نقيض، وربما يكون مرجع التصوّر هو الفردية الطليقة، أو الذات المتحررة، أي الإنسان الذي يحسن الربط بين الظواهر وأسبابها، ويؤمن بأنه قادر على مجابهة ظواهر قديمة وتوليد ظواهر جديدة. وفردية كهذه لا تستقيم إلا بفعل سياسي وتصور طليق لمعنى السياسة وممارستها، كما لو كانت الذاتية المستقلة منطلقاً للفعل السياسي المبدع، بقدر ما تكون الممارسة السياسية الحقل الملائم الذي يعيد صياغة الذاتية المبدعة. وبهذا المعنى، فإن «بؤس العالم» هو بؤس الإنسان الذي يعيش فيه، الذي يمنعه وعيه البائس عن اقتراح عالم جديد.

يقدم بيير بورديو في «بؤس العالم» درساً نموذجياً في أخلاقية المعرفة، تاركاً هواة الاختصاص في أقفاصهم المقفلة، حيث «المعرفة المحض»، الهاربة من غبار الشوارع وأحزان البشر، حليف للعبودية والاستبداد لا أكثر.



بيير بورديو

كلمة إلى القارئ

إنها شهادات نقدمها هنا، باح لنا بها رجال ونساء حول وجودهم وصعوبة ذلك الوجود، نسّقناها وعرضناها، آملين أن تنال من القارىء نظرة متفهّمة، بالقدْر الذي تفرضه علينا مقتضيات المنهج العلمي، وتسمح لنا به. ولهذا نطمح في أن يتلطف باتباع المسعى المقترح، وهذا على الرغم من أننا نتفهم تفضيل البعض قراءة (دراسات الحالات) كيفما اتفق، باعتبارها نوعاً من القصص القصيرة، معرضين عن التمهيدات المنهجية والتحليلات النظرية التي نزعم أنها لا تقل أهمية، لأجل فهم صحيح للحوارات[1].

كيف لا نشعر بالقلق فعلاً ونحن نعلن على الملأ أحاديث خاصة، وأسراراً حصلنا عليها انطلاقاً من علاقة قوامها الثقة بين شخصين؟ لقد قبِل محادثونا دون شك، التسليم لنا باستعمال أحاديثهم كما نشاء. بيد أنه لا يوجد عهد مثقل بالمطالب المضمرة مثل ذاك العهد القائم على الثقة. إذ ينبغي علينا أولاً السهر على حماية أولئك الذين أفضوا لنا بأسرارهم، (وخاصة بتغيير العلامات التي من شأنها إتاحة التعرف عليهم، كأسماء الأماكن والأشخاص) ولكن كان علينا أن نضعهم بشكل خاص في مأمن من

---

[1] أحلنا إلى نهاية المؤلف العرض المفصل للفرضيات التمهيدية الابستمولوجية المتعلقة بعمليات التحقيق وكتابة النص والتحليل والأحاديث.

المخاطر التي نعرض أقوالهم لها، بتركها دون حماية، نهباً لسوء الاستعمال، «ليس لنا الرثاء ولا الضحك ولا الكراهية، بل الفهم». ما من فائدة في أن يتبنى عالِم الاجتماع نصيحة سبينوزا هذه، إذا لم يكن قادراً على إعطاء الوسائل لاحترامها. ولكن كيف يمكن إعطاء وسائل الفهم، أي أخذ الناس كما هم، دون تقديم الأدوات اللازمة لإدراك ضرورتهم، وذلك بإرجاعهم بصورة منهجية إلى العلل والأسباب التي جعلتهم على ما هم عليه؟. وكيف السبيل إلى التفسير دون تجريم؟ كيف نتجنب مثلاً إعطاء نص الحديث بمقدمته التحليلية، هيئة عرض حالة مرضية مسبوق بتشخيص تصنيفي؟ إن تدخل المحلل صعب بقدر ما هو ضروري؛ إذ عليه أن يفصح عن نفسه دون أية مواربة، وأن يعمل في نفس الوقت دوماً على التنحّي جانباً. وهكذا تمّ توزيع الحالات المحلَّلة بشكل يستهدف التقريب، في زمان القراءة، بين أشخاص تختلف وجهات نظرهم تماماً، لديهم الفرص لمواجهة بعضهم بعضاً، إن لم نقلْ مجابهة بعضهم لبعض في الحياة، كما يسمح هذا التوزيع بتوضيح الصفة التمثيلية للحالة المحلَّلة مباشرة، سواء أكانت أستاذاً أم تاجراً صغيراً، وذلك بتجميع «حالات» حوله، تكون بمنزلة تنوعات. أما في نص الحديث نفسه، الذي يُخضع الخطاب الشفهي إلى تحول حاسم، فالعنوان والعناوين الفرعية (المستعارة دائماً من أقوال مَن نستجويه)، والنص الذي نقدم به للحوار خاصة، كل ذلك يستهدف لفت نظر القارىء إلى الملامح الهامة التي قد لا يلتفت إليها الإدراك الغافل.

كل هذا له وظيفة التذكير بالظروف الاجتماعية والإشراطات التي كان صاحب القول نتاجاً لها، وكذا مساره وتكوينه وخبراته المهنية، أي كل ما يكون خافياً وظاهراً معاً في الخطاب المكتوب، ولكن أيضاً في النطق ونبرة الصوت التي أهملها النص المكتوب، مثل لغة الجسم كلها بما فيها من حركات ومظهر وإيماءات ونظرات علاوة على السكوت، وما يضمَر ولا يقال، وزلاّت اللسان.

لكن المحلل لا يمكن له أن يأمل بقبول تدخلاته الأكثر ضرورة، إلا

نتيجة عمل (تدوين) لا غنى عنه للمواءمة بين أهداف مزدوجة التناقض؛ أي تقديم كل العناصر الضرورية للتحليل الموضوعي لوضع الشخص المستجوَب، وتفهم المواقف التي يتخذها، دون أن تقام معه مسافة «مموضعة»، وتنزل به إلى درَك الحشرة الغريبة. وتبنيّ وجهة نظر تكون الأقرب لوجهة نظره، دون أن يسقط المحلّل ذاته، دون وجه حق، في هذا الأنا الآخر الذي سيبقى، سواء أردنا أم لم نردْ، موضوعاً، من أجل أن يصنع منه بصورة تعسفية مادة نظرته للعالم. ولن يكون نجاحه في مهمته بالتموضع المشارك، إلا إذا توصل إلى إعطاء مظاهر الوضوح والطبيعية، إن لم نقلْ الخضوع الساذج للمُعطى، إلى إنشاءات يملؤها تفكيره النقدي تماماً.



بيير بورديو

فضاء وجهات النظر

لفهم ما يجري في أماكن مثل «الأحياء» أو «المجمعات الكبرى»، أو بعض المؤسسات المدرسية أيضاً، حيث تقرب هذه الأماكن بين أناس لا يجمع بينهم أي شيء، بإجبارهم على التعايش، سواء مع الجهل أو عدم الفهم المتبادل، مع صراع كامن أو صريح، بكل المشقات الناجمة عن هذا التعايش، لا يكفي اعتبار وجهات النظر كلاً على حدة. بل يجب أيضاً مواجهة بعضها ببعض، كما هي في الواقع، ليس للتخفيف من حدتها باللعب على تقاطع الصور إلى ما لانهاية له، بل على العكس، إظهار ما ينتج عن المواجهة بين رؤى مختلفة أو متضادة للعالم، وذلك بالتأثير البسيط للتجاور. أي، بعبارة أخرى، إظهار المأساوي الذي يتولد في بعض الحالات من المواجهة بين وجهات نظر متنافرة، من دون أي استعداد لتنازل أو تسوية، لأنها تتساوى من حيث أنها مؤسسة على مصلحة اجتماعية.

وإذا كان قد تمّ تصميم الأحاديث وإنشاؤها كمجموعات مستقلة قائمة بذاتها، ويمكن أن تُقرأ منفصلة (أو كيفما اتفق)، فإن هذه الأحاديث قد تم توزيعها بطريقة يكون فيها الناس المنتمون إلى فئات يمكن التقريب بينها أو مواجهة بعضهم ببعض في المجال الفيزيائي

(كحراس المساكن الشعبية والسكان من بالغين ومراهقين، عمالاً حرفيين وتجاراً يسكنون هذا النوع من المساكن) قريبين في القراءة أيضاً. والأمل من وراء ذلك إحداث أثرين: إظهار أن الأماكن المسمّاة (صعبة) (كالحي أو المدرسة كما هما اليوم) هي أولاً صعب وصفها وتذهّنها. ومن ثم ينبغي الاستعاضة عن الصور المبسطة والوحيدة الجانب (تلك التي تتناقلها الصحف على الخصوص) بتصور معقد ومتعدد، يقوم على التعبير عن الوقائع نفسها بخطابات مختلفة لا يمكن التوفيق بينها أحياناً. والنحو منحى روائيين كفوكنر وجويس أو فيرجينيا وولف، حيث تُترك وجهة النظر الأحادية، المركزية، المهيمِنة، التي تكاد تكون إلهية، ويضع فيها الملاحِظ نفسه مع قارئه (ما دام لم يشعر بأن الأمر يعنيه على الأقل)، ويُستعاض عنها بمنظورات متعددة، تتناسب مع تعدد وجهات النظر المتواجدة، والمتزاحمة بشكل مباشر أحياناً[1].

ليس في هذه المنظورية شيء من النسبية الذاتية، التي قد تقود إلى شكل من اللامبالاة أو العدَمية، بل إنها قائمة بالفعل على أساس الواقع الاجتماعي، وتُسهم في تفسير جزء كبير مما يصير في هذا العالم، لاسيما عدد من الأوجاع التي نشأت عن تصادُم المنافع والاستعدادات، وأساليب الحياة المختلفة التي يساعد عليها تعايش أناس يختلفون في كل شيء، في أماكن السكن والعمل خاصة.

إنه في داخل كل مجموعة مستديمة (جيران الحي أو البناية، زملاء المكتب.. إلخ) حيث تتعايش كل التجارب، تدرَك وتُعاش التعارضات التي تتصل على الأخص بنمط الحياة الذي يفصل بين الطبقات والقوميات أو بين الأجيال المختلفة، مع كل الأخطاء (في

---

[1] يمكن استذكار نموذج (دون كيشوت) الذي بإعطائه أسماء مختلفة، تفسر بمسوغات اشتقاقية لغوية متنوعة، لنفس الشخصيات، أو بلعبه على مستويات مختلفة للغة، يحاول أن يستعيد (الارتباطات المتعددة التي تملكها الكلمات بالنسبة للعقول المختلفة) ويستعيد في نفس الوقت المنظورات التي تشكل اشتباك الوجود الإنساني والتباسه.

تحديد الهدف خصوصاً) الناجمة عن أثر الستار. **وحتى عندما نلتقي** أحياناً مع أشخاص تميل بهم سيرتهم ووضعهم **إلى نظرة يطبعها التمزق** والانقسام على الذات (أتذكر بائعة لأدوات الرياضة في حي «**صعب**» تعتقد اعتقاداً راسخاً بحقها في الدفاع عن نفسها ضد اعتداءات الفتيان، مع أنها تنظر إليهم نظرة متفهّمة)، فإن المواجهة المباشرة للاختلافات، تؤدي إلى زيادة الوعي المُغرِض والجزئي في الجدال (كحالة تلك المهاجرة الإسبانية، عندما ذكرت الفوارق بين بنى الأسرة الأوروبية التي تتسم بمعدل خصوبة ضعيف وانضباط شديد في الحياة غالباً، وبين الأسر المغاربية الشديدة التكاثر، حيث تسود الفوضى بفعل أزمة السلطة الأبوية الناتجة عن ظروف المهاجر السيِّء التلاؤم الذي يعيله أولاده أحياناً). وحتى تجربة الوضع الذي يشغله الفرد في العالم الاجتماعي الأكبر تتحدد أو على الأقل تتحوّر، نتيجة الأثر المباشر المحسوس للتفاعلات الاجتماعية داخل هذه العوالم الاجتماعية الصغرى، كالمكتب والورشة والمنشآت الصغيرة والجوار علاوة على الأسر الممتدة أيضاً. وتقدم مسرحية باتريك سوسكند (الكونترباس) صورة بليغة بصورة خاصة، لتجربة مؤلمة يمكن أن يعاني منها في العالَم الاجتماعي كل أولئك الذين يشغلون وضعاً متدنياً وغامضاً، ضمن عالم مهيب ومحظوظ، على غرار عازف الكونترباس. ويزيد من ألم هذه التجربة، **أن هذا العالم الذي يشاركون فيه بما فيه الكفاية فقط** للشعور بانحطاطهم النسبي، يقع في منزلة أعلى من المجال الكلي. إن بؤس الوضع النسبي هذا، من وجهة نظر من يعانيه وهو حبيس حدود العالم الأصغر، مصيره أن يبدو نسبياً جداً كما يقال. أي أنه غير واقعي بتاتاً فيما لو اتخذنا وجهة نظر العالم الأكبر وقارناه بالبؤس العظيم للحياة، وهو معيار يستعمل يومياً لغايات الإدانة («ليس لك ما تشكو منه») أو المواساة («هناك أسوأ، كما تعلم»). لكن اتخاذ البؤس العظيم مقياساً وحيداً لكل أشكال البؤس، يعني الامتناع عن رؤية وفهم جزء

كبير من الأوجاع التي تميز نظاماً اجتماعياً، جعل البؤس العظيم يتراجع دون شك (أقل مما يقال غالباً) ولكنه من خلال تمايزه، ضاعف المجالات الاجتماعية (ميادين، وميادين فرعية متخصصة) التي خلقت بدورها الظروف المواتية لنمو جميع أشكال البؤس الصغرى، بصورة لم يسبق لها مثيل. ومن هنا، لا يمكن إعطاء تصور صحيح لعالَم كالعالَم الاجتماعي الذي يختص بإنتاج ما لا حصر له من تصورات عن نفسه، إذا لم نفرد مكاناً لائقاً لوجهات نظر هذه الفئات التي تتعرض بشكل خاص للبؤس الصغير، وهي تلك المهن التي مهمتها معالجة البؤس العظيم، أو الكلام عنه، مع كل التشويهات المتصلة بخصوصية وجهة نظرها.

شارع النرجس

عرف هذا المجمع ذو الأبنية المتنافرة في البداية، تحت الأحرف الأولى البيروقراطية (ZUP) أي (منطقة إعمار ذات أولوية)، ثم أعيدت تسميته بـ «فال سان مارتان» بنوع من التلطيف الذي يَقصد به المسؤولون عن «عمليات» «التنمية الاجتماعية للأحياء» «تغيير صورة» الأحياء الواجب تجديدها. ويُعتبر هذا المجمع مع سكانه، الأثر المرئي للسياسات الصناعية المتعاقبة، مثل الرواسب، على الأراضي الزراعية القديمة الممتدة أسفل جبل سان مرتان وكنيسته الرومانية. فبعدما تم هدم البرج ذي الأربعة عشر طابقاً، في بداية التسعينات، لم يبقَ اليوم سوى صف من المنازل الصغيرة لبرنامج «الحصول على الملكية» تسكنها أسر لعمال مؤهلين، كرئيس فريق أو رئيس عمال في صناعة التعدين، وأكثرهم من أصول أجنبية، وجزائرية على الخصوص. نحو النصف منهم عاطلون عن العمل أو في نظام ما قبل التقاعد، نتيجة لعمليات «إعادة الهيكلة» المختلفة، لصناعة الحديد.

يسكن السيد لوبلوند والسيد أميزيان متقابلَين، على جانبي شارع النرجس. وهو جادة عريضة دون أشجار، تحفّ به منازل صغيرة، لكل منها حديقة صغيرة جداً (أربعة أمتار مربعة)، يحيط بها حائط منخفض، تجدها في الغالب مليئة بأوراق متناثرة ولعب مكسورة وأوعية مرمية. تحتوي هذه

المنازل على مرآب للسيارات وحمام ومغسل للثياب في الطابق الأرضي، وشقة من ثلاث غرف يُصعد إليها بدرج شديد الميلان من الإسمنت الخام، كما هو الحال عند السيد أمزيان، حيث تُرك كما هو، وعليه بعض قطع من الخيش لمسح الأحذية.

يبقى شارع النرجس خاوياً تقريباً، فيما عدا ساعة الخروج من المدارس، حيث يتحول عندئذ إلى ساحة للعب، فهو لا يحتوي على شيء مما يبعث الحياة في المدينة عادة، كالجزار والخباز والبقال والمقهى وبائع الجرائد وبائع التبغ. وبالتالي فهو يذكّر بالطبع بكلمة (صحراء) التي يستعملها أناس المنطقة للإشارة لما حصل لبلادهم بعد إغلاق المصانع وهدم الأبنية التي لم يقتصر الفراغ الذي تركته على الأرض فقط.

يشبه سكان شارع النرجس نوعاً ما، الناجين من كارثة جماعية عظيمة، وهم يعلمون هذا. إذ زال مع إغلاق المصانع كل مبرر لوجودهم؛ لأنهم كانوا يدخلونها بصورة طبيعية، مبكرين غالباً، منذ سن الرابعة عشرة، بعد حصولهم على الشهادة الابتدائية، متأثرين خطى آبائهم وهم يهيئون أبناءهم بالطبع لنفس المصير، أما الآن فهم يجتهدون في الحفاظ على ماضيهم، وعلى عالم العلاقات المهنية، نوعاً ما، باستغلال كل الفرص للاجتماع في المقهى أو السوق، حيث يُمضون وقت الضحى كله يتناقشون على الرغم من الطرق السريعة التي تفصل السوق عن سكناهم. لكنه **مستقبلهم على الخصوص الذي هو استمرار ومبرر لماضيهم. وهو مستقبل** أولادهم وبناتهم الذين عليهم الآن تمديد فترة دراستهم في مدرسة ثانوية كل جدواها أنها تبعدهم عن المصنع، دون أن يكون في مقدورها أن تقدم لهم شيئاً آخر، غالباً، سوى شهادات فقدت من قيمتها، أي وعداً بالبطالة في هذه المنطقة المأزومة.

وافق السيد لوبلوند وزوجته على استقبالنا، بناءً على توصية من شخص تربطه بهما صلة قرابة بعيدة. كان السيد لوبلوند في راحة ذلك الصباح، وبنتاه في المدرسة. وما أن سمعوا السيارة حتى فتحوا لنا باب

الطابق الأرضي قبل نزولنا منها. بقيتْ السيدة لوبلوند في الأعلى، لكنها ظهرت مباشرة على قمة الدرج. لقد اعتنيا بمظهرهما وملابسهما؛ فقد لبس قميصاً بمربعات، بينما ارتدت فستاناً مزهّراً، وكانا بهذا يُظهران تضامنهما، وكلٌّ منهما يستمد شعوراً بالاطمئنان من وجود الآخر بجانبه. كانا وجِلَين نوعاً ما، غير عارفَين بما يُنتظر منهما (سألا في النهاية: «ولكن ماذا ستفعلون بكل هذا؟»). وكانا يلجآن مثلنا لعبارات المجاملة المألوفة في مثل هذه الأحوال. جلستْ ملتصقة به، ولم تغادره إلا لجلب القهوة من المطبخ (كانت القهوة جاهزة، فأخرجت فناجين البورسلان من صوان السفرة) ولم تستجب لمحاولاتنا إجراء حوارين منفصلين. كان يشركها في الحديث بنظرة منه، وكانت أثناء كلامها تلتمس موافقته، فيبدي الموافقة برزانة، لكن دون أن يتدخل احتراماً لها.

جلسنا وجهاً لوجه حول طاولة كبيرة تكاد تشغل غرفة المائدة كلها. هي مركز الحياة الأسرية؛ فالبنتان تقومان هنا بواجباتهما، بينما تشتغل أمهما الصوف أو تخيط (كنزة صوفية موضوعة على الرف مع أوراق، بالإضافة إلى دفاتر البنتين، وسراويل ينبغي تقصيرها). عالم دافئ، لكنه مغلق على نفسه، مكتفٍ بنفسه تماماً. هذا صوان السفرة المصقول بحب، تزينه صور البنتين، وتُحفٌ تحيط بالشهادة المتوسطة للبنت الكبرى، وهذا رف الكتب الخاص بها المزيَّن هو الآخر بالتُحف والصور، ويحتوي على ثلاثة صفوف من كتب الثقافة الشعبية. وهذه كنبة مغطاة بوسائد طرِّزت بألوان زاهية، قبالة التلفاز. وتلك نباتات نضِرة. وهذا كلب السيدة الصغير. كل أولئك على صورة السيد لوبلوند وزوجته بوجهيهما البشوشين الباسمين المطمئنين، على الرغم مما يبدو عليهما من قلق بل وخشية عند ذكر بعض مشكلات الجوار بعبارات مبهمة. إنهم من أواخر الأسر الفرنسية الأصل التي مازالت تعيش في شارع النرجس، والسيدة لوبلوند هي التي أشارت إلى ذلك في نهاية الحديث «نحن هنا في هذا المكان.. لو تعلم سبعة فرنسيين.. لأنه حتى قبالتنا.. ليس إلا المنازل الصغيرة.. هناك..» ثم أضافت لتوها «لو تعلم.. أنا لا أخرج كثيراً».

ليست هذه سوى إشارات، وهي أكثر الإشارات إيلاماً على التردّي الفردي الذي رافق التردّي الجماعي للمنشآت الصناعية للناحية. أما السيد لوبلوند الذي أفلت بأعجوبة من موجات التسريح الكبرى (وهي كلمة محرّمة، إذ أن المسؤولين عن «إعادة هيكلة صناعة الحديد» يتكلمون عن «إلغاء الوظائف مع مخطط اجتماعي») ونجح في الاحتفاظ بوظيفته عوناً للمراقبة (النهائية للمعدن)، فيتحدث عن علامات تدهور ظروفه المهنية: فالراتب نقص من 30٪ إلى 40٪ (باعتباره لم يعد يعمل طيلة الأسبوع وحتى في عطلة نهاية الأسبوع كما في السابق). وقد قُلّصت فِرق العمل من حيث عدد عمالها إلى النصف أحياناً، كالفريق الذي ينتمي إليه والذي أصبح أربعة بعدما كان تسعة. مع أن هذه الفِرق تستقبل جزءاً يزداد شيئاً فشيئاً من العمال غير المؤهلين (عمال قدماء ينبغي إشغالهم انتظاراً للتقاعد) أو الذين أُعيد تدريبهم بصورة سطحية. وكل ذلك من أجل إنتاج ثابت أو حتى في ازدياد. بالإضافة إلى تزايد القيود والرقابة، للحد من التغيب حتى في حالة المرض («لا ينبغي أن نمرض، فليس هناك من يحل محلنا»)، («ينبغي الآن طلب ترخيص للوقوع في المرض»)، («فيما لو كُسرت رجل أحد أو ذراعه، هناك سيارة في المصنع، تأخذه إلى البيت وتعيده إليه كل يوم»). أما النقابات فقد دبّ الوَهن في أوصالها، نتيجة صعوبة تعبئة عمال يشعرون بخيبة أمل، وتحملِهم الظروف على اعتبار أنفسهم سعداء لمجرد أنهم يعملون («سئمنا تكراره.. نعم سئمنا تكراره، -أنت تعمل، فاعتبر نفسك سعيداً-. أنا لم أتوقف عن العمل بسبب مرض منذ سبع سنوات، وحدث أن توقفت في شهر أيلول بسبب التهاب معوي تسعة أيام فقط، فما كان من رئيس مصلحتي إلا أن استدعاني عند عودتي للعمل وبادرني بالقول إنني سيء النية، قبل أن يسألني عما بي. وأخيراً غياب تشغيل الشباب، وهو ما يوضح أن دورة إعادة إنتاج المنشأة، ومعها الأسر المرتبطة بها قد قُطعت «- هل هناك شباب يدخلون؟ - في هذه الآونة، لا. إن هذا ما نوده، لاسيما أن هرم الأعمار في لونغوي مسن جداً، ولهذا تناضل النقابات للتقاعد في سن 50-55 وإدخال الشباب بالمقابل»).

إن أزمة إعادة الإنتاج هذه، المرتبطة بتأثيرات المدرسة في جزء كبير منها، هي دون شك من الهواجس الكبرى. فسواء تعلق الأمر بالوضع بالمصنع أم دراسة البنتين، فإن الحديث يعود بالطبع دائماً لتلك الأزمة. فالكبرى تريد أن تكون ممرضة و«تحب الأطفال جداً» («لو أعطيتها أطفالاً تحرسهم، فستفعل ذلك لأنها تحبه جداً»). أما الصغرى فهي في الصف الثامن (صف انتقالي) وستذهب إلى الثانوية عن طيب خاطر منذ أن بدأت تقشر الخضار أو تعمل الحلوى أو القطايف لأطفال الحضانة. ومن الأسباب التي تذكر لعزوف الشباب عن العمل في المصنع («ربما كنا في الماضي، أقل تطلباً من الشباب الآن»). وتُذكر المدرسة أولاً لما ترسخه من طموحات محددة جداً ومحصورة جداً «إن المدرسة تكوّن الشباب وتملأ رؤوسهم أكثر من اللازم. حسناً، ستتعلم المهنة الفلانة، وستكون لك المهنة الفلانة. وعندما يتخرج الشاب بشهادة الكفاءة المهنية، ويجد عملاً قريباً من اختصاصه، لا يَقبل به لأنه ليس من اختصاصه، وأعتقد أنها غلطة المدرسة هنا».

لكنه يُلاحظ في نفس الوقت، أن كثيراً من الآباء «يدعون الله أن يذهب أولادهم إلى المدرسة لأطول مدة ممكنة» وهم بذلك يوافقون أمنيات أولادهم الذين لا يريدون سماع أي شيء عن المصنع، ويتكلمون بلسان ابن أحد زملائه إذ يقول: «طالما أنا في المدرسة، فلست عاطلاً عن العمل». يتكلم السيد لوبلوند عن هذا الشاب بشيء من الإعجاب (إنه حاصل على شهادة الكفاءة المهنية في الطبخ، ويحضر للشهادة الثانوية التقنية، توطئة للدخول إلى مدرسة لسقاة الخمر) لكنه يرى: «إن قول هذا محزن، لكننا هكذا» ويرى أن من الطبيعي جداً لابنته التي تريد أن تكون ممرضة «لديها سبع سنوات أخرى في المدرسة».

ومع ذلك فهو يفهم ما يتميز به جيله (عمره الآن أكثر قليلاً من 40 سنة) الذي ما لعبت المدرسة بالنسبة له دوراً كبيراً، عن الجيل اللاحق: فبعد سنة أخيرة دون اجتهاد في المدرسة الابتدائية (تركه المعلم آخر الصف لنزاع بينه وبين الأب)، وحصوله خطأً على الشهادة الابتدائية (يذكر ضاحكاً أنه عمل 52 خطأً إملائياً). توجه وكان في الرابعة عشرة من عمره بصورة

طبيعية إلى مركز التدريب في المصنع الذي يعمل فيه والده، ودخل بعد عامين نفس المصلحة، لكن في مصنع آخر، واكتشف بطريقة لا شعورية من خلال (الزيارات) المهيئة لهذه الغاية، عالم المصنع الحقيقي الذي كان يتوقعه عبر حكايات الوالد. كان يعرف الكثير عن المصنع «كنا مع ذلك نذهب لزيارة الورشات في المصنع.. حسناً.. كنا ندرك أن هناك أماكن حيث الرجال، لم يكونوا.. كنا نذهب إلى الأفران العالية، وورشة الصلب، لم تكن أماكن.. هنا تحصل الصدمة، هنا ترى خليط الفحم والمعدن، ومصنع الكوك.. إن الرجال الذين يمضون ثماني ساعات هنا.. إنهم بالفعل..». ومثل رواية السيدة لوبلوند لسنوات عملها في المصنع، ليس هنا سوى ارتجاف في الصوت، ونظرات تقرأ فيها ذكرى تجربة مخيفة لا توصف، ولحظات صمت على الخصوص (بقيت الجمل الثلاث ناقصة، وكأنها معلقة إزاء ما لا يوصف) لاستذكار عنف الصدمة التي مثلها أول احتكاك مع عالم المصنع، على الرغم من التهيئة والإذعان المسبقين.

كان التكوين يجري في الميدان، من خلال تدريب عملي، دون أية شهادة: «ليس بين يدي أية شهادة، لا شيء لدي، وعلى كل فإن شهادة الكفاءة المهنية لعون مراقبة المعدن لا تفيد شيئاً» نعم، لقد اقترحوا عليه التحضير لشهادة الكفاءة المهنية، سنة زواجه، أي بعد دخوله المصنع بثلاث عشرة سنة، لكنه توقف بسرعة بسبب الجبر، وهو الذي بقي في مستوى (الكسور). وبينما يتذكر الماضي، لا يرى ما كان يمكن أن يُكسِبه تكوين نظري بحت حتى في الفيزياء والكيمياء، ما لم يكتسبه بالممارسة «بالجهد والكد»: «إنني أعرف الآن جيداً أنه لو كان لدينا صلب بمقدار من الكربون ومقدار آخر من المنغنيز، سنحصل على الشيء الفلاني، وإذا كان لدينا مقدار من الكبريت، فسنحصل على بنية مختلفة ، نعم، فلنقل إنني تعلمت هذا بالممارسة». وهو عندما يوازن بين العمال الذين تكوّنوا بالطريقة القديمة وأولئك الذين كوّنتهم المدرسة، فإنما يرسم صورته نوعاً ما دون أن يدري وبلا أي أثر للفخر: «حسناً، إن لديهم شهادات، ولديهم التقنية لكن تعوزهم الممارسة، وهو ما يحتاجه المصنع الآن، إذ هناك نقص شديد في العمال

المتمرّسين الذين يعرفون آلتهم، كما أقول دائماً. كان لدينا في الماضي عجوز يعرف آلته؛ فما أن يخبروه بوجود عطّل، مهما كان معقداً، حتى يأتي ويشاهده ويذهب، ثم يكرر المسافة مرتين جيئة وذهاباً، ويعود قائلاً: «مصدر العطّل هنا» ولم يكن يخطيء، لم يكن يخطيء، أما الآن فوجود عطّل معضلة، نبحث هنا وهناك، وعندما نجد، لا نعرف أين وجدنا، لأنه ليس من شخص هنا ليقول». إنه يعبّر بجملة واحدة ويفعل التصحيح الذاتي عن التباس التميز الذي تمثله استمرارية كهذه، والتكيف الداخلي التام مع الوظيفة التي يشغلها، وكل ذلك بشيء من الاعتزاز الذي يتضمن أيضاً استسلاماً عميقاً للضرورة: «إن المشكلة هاهنا، فلقد كان لنا في مركز التدريب لحسن حظنا أو لسوئه فرصة لمعرفة المصنع».

إن هذا الاندماج العميق في النظام الصناعي وبالتالي النظام الاجتماعي هو ما يفصله دون شك عن السيد أميزيان، وليست التقاليد الدينية ولا نمط الحياة. السيد أميزيان العامل ذو الأصل الجزائري الذي ألقي به إلى البطالة أثناء التسريحات الواسعة في أعوام الثمانينيات، ويسكن أعلى قليلاً في الطرف المقابل من الشارع (يصرح السيد لوبلوند ببعض مؤشرات اندماجه؛ فبفضل تدخل رئيسه، حصل من إدارة المساكن الشعبية (H.L.M) على حق تبديل شقته بشقة زميل يوشك على الانتقال. تلك الشقة التي كان حصل عليها عند زواجه بفضل دعم من رئيس نادي كرة السلة، حيث يشغل وظيفة الحكَم. وتمنحه هذه الوظيفة بعضاً من السلطة على شباب الحي، وحتى على شباب الناحية. وهو عضو في جمعية أولياء التلاميذ، وبهذا يكاد يعرف الجميع، كما يسهم في الحياة النقابية مع أنه لم يتخذ أي موقف نضالي منذ أن انخرط دونما تحفظ في نضال السبعينيات ضد تقطيع أوصال صناعة الحديد والصلب).

إن بين السيد لوبلوند والسيد أميزيان، وأسرتيهما، وشقتيهما أيضاً، كل المسافة التي تفصل بين البروليتاري، مع انخفاض مستواه أو تردّيه، بدخله المنقوص لكن المنتظم، وحساباته المضبوطة، ومستقبله المؤمّن نسبياً على الرغم من كل شيء، وبين العامل السابق الذي سقطت به البطالة، دون

حماية أو ضمان، إلى وضع ما دون البروليتاري. إنه مُعدَم، مشوَّش، هاجسه المحافظة على البقاء كيفما اتفق، يوماً بيوم، بين الكراء غير المسدَّد والديون غير القابلة للوفاء، (تعطي شقة السيد أميزيان انطباعاً بالبرودة والفاقة، بالأريكة ذات الغطاء البلاستيكي، والسجادة الرخيصة التي تمثل صورة مسجد، والطاولة المنخفضة المصنوعة من الحديد المشغول).

عندما وصل السيد أميزيان إلى فرنسا عام 1960، اشتغل أولاً في عدة منشآت، ستة أشهر في واحدة، 15 يوماً في أخرى («لقد كان صاحب العمل شديداً، فطلبتُ حسابي») وشهراً ونصف في ثالثة، وهكذا دواليك، مضطراً للعمل كل مرة بأشغال البناء الشاقة والقليلة الأجر. وقد عُين في منشأة بلونغوي في كانون الأول 1962، حيث بقي 22 عاماً، فيما عدا انقطاعاً مدته عامان (أربعة أشهر عطلة في الجزائر، عمل بعدها في مرسيليا لشهرين ثم في شامبيري، قبل أن يعود إلى منشأته في لونغوي، وهي تابعة لأوزينور، وتصنع مواد بناء من بقايا صناعة الحديد والصلب، وكانت حفظت له وظيفته كسائق عربة رافعة، واستدعته بوساطة ابن عم له، يعمل فيها أيضاً). وعندما سُرح عام 1984 دون الاستفادة من حق التقاعد (لم يبلغ الخمسين)، وجد عملاً بوساطة ابن عم له أيضاً في هوت – سافوا. لكن هذا العمل اتصف بالاستغلال وقلة الأجر (يقبض 3600 فرنك شهرياً، لتسع ساعات عمل يومياً) فعاد إلى لونغوي، حيث تابع دورة تعلم فيها الطلاء والتبليط، علاوة على القراءة والكتابة (إنه يتأسف، إذ لا يزال أمياً، ويتكلم الفرنسية بصعوبة كبيرة)، لكنه وقع فريسة للبطالة حتى حصل في إطار عقد عمل تضامني على عمل لنصف الوقت، يدرّ عليه 3900 فرنك شهرياً، يُضاف إليها 700 فرنك، مساعدة اجتماعية. لكن عليه أن يخصص أكثر من نصف هذا الدخل لتغطية النفقات الثابتة، أي 1400 فرنك، للكراء (2400 فرنك شهرياً تنقص منها 1400 فرنك مساعدة اجتماعية للكراء) و500 فرنك للضرائب المحلية، بالإضافة إلى استهلاك الكهرباء والغاز والماء..إلخ.

عندما نقدر ما يبقى بـ 1500 فرنك، كحد أقصى للقيام بأوَد عائلة من ستة أشخاص، منهم أربعة أطفال (انضمت زوجته إليه في فرنسا عام

1980 مع طفلين ثم ولد لهما اثنان آخران في فرنسا)، فإننا ننسى الديون المتنوعة جداً والهامة جداً، والدعاوى المتصلة بالغاز والكراء (يعتقد أنه مَدين بـ 20.000 فرنك لإدارة السكن، لكن صديقاً كان يحضر الحديث، يدّعي بأن المسألة مزاح عمل له) وقد أقامت الشركة الوطنية للسكك الحديدية («دعوى ضد زوجتي، العام الماضي، تطالبها فيها بـ2000 فرنك لأنها أضاعت تذكرة القطار، وستبلغ الغرامة 2200 فرنك، ولذا سأدفع لها الآن») وللمستشفى (هنا أيضاً، إنها 2000 فرنك إلى 3000 فرنك») وهكذا يجد نفسه مضطراً إلى تدبيرات لا تنتهي. وإذا كان لا يستطيع دفع ديونه دفعة واحدة («ماذا سيأكل الآخرون من بعد؟») والتي يقدرها بـ 10.000 فرنك إلى 12.000 فرنك، فإنه يعمل جاهداً («للدفع بهدوء») وذلك بإعطاء هذا 150 فرنك «لتهدئته قليلاً» و200 فرنك لذاك. ومع ذلك كان عليه النضال وتقديم شرح مفصّل بدخله ليُقبل في مطاعم القلب[1].

سينتهي عقد عمله 5 تموز، ولا يدري ما سيفعل بعد ذلك: «آه، لا أدري ما سأفعل، لقد سئمت، سأغادر! هكذا. إنها الحقيقة، لِمَ لا أفعل هذا؟ أربح أربعة فلوس، وأخسر ثمانية». ولكن هل بمقدوره العودة إلى الجزائر حقاً، كما يتمنى هو وزوجته؟ على الرغم مما يؤكده بكثير من الإلحاح بأنه «ليس خائفاً» وأن لديه بيتاً وأرضاً صالحة للزراعة («زوجتي ستقلب الأرض بالرفش، وأنا أغرس وراءها») فإنه يعلم بأنه (محشور) من كل جهة: إذ الوقت متأخر لإيجاد عمل هناك، وسيضيع تعويضات البطالة الهزيلة التي يحصل عليها. ويوجز الجار، وهو جزائري مثله، الوضع قائلاً: «نحن كالأقدام السوداء الآن[2]، فإن ذهبنا إلى هناك فلسنا بجزائريين، وإن بقينا هنا فلسنا فرنسيين»).

وعندما سئل عن جيرانه (أي الفرنسيين، كما فهم) وعن علاقاته

---

[1] هي سلسلة من المطاعم المنتشرة في فرنسا، تقدم فيها وجبات مجانية للمعوزين، أسسها الممثل الكوميدي (كولوش). (المترجم).

[2] الأقدام السوداء هم فرنسيو الجزائر من المعمرين الذين فروا وقت استقلالها إلى فرنسا (المترجم).

معهم، أجاب بنفس عبارات السيدة لوبلوند تقريباً: إذ لا يستطيع دون شك، ولأسباب متنوعة، القول بأنها حسنة أو سيئة، فيصفها بأنها معدومة أو حيادية، أي أنها تقتصر على «صباح الخير، مساء الخير» التي تلخص أو ترمز للاإنسانية علاقات العمل، بالنسبة للعمال والمستخدمين الذين استجوبتهم في سنوات الستينيات في الجزائر. أما الحساسية الشديدة التي يُبديها عند ذكر أصله الجزائري فتؤكد تأثره إزاء اعتداءات أولئك الذين يلومون الجزائريين لأنهم استولوا على عمل الفرنسيين، ويطالبونهم بالرجوع إلى بلادهم. إنها ليست حالة السيد لوبلوند من دون شك، عندما يقول، ويمكن تصديقه، إنه يحترم الجزائريين وينتظر أن يحترموه بالمثل، لكن قسمات وجه زوجته بفمها المزموم وعينيها المرفوعتين إلى السماء تعبر عما لا يستطيع قوله، عند ذكر علاقات الجوار وصعوبات الحياة في الحي. إن مسارعتها للقول بأنها لا تخرج أبداً، وأنها قللت من علاقاتها بالجوار إلى الحد الأدنى، وإشارته هو نفسه إلى نسبة الأطفال المهاجرين المرتفعة بين التلاميذ (يقدرها بنحو 80٪، بينما كانت 1988 «فقط» 244 جزائرياً و144 مغربياً من 651 تلميذاً في المدارس الابتدائية و260 أجنبياً من 463 تلميذاً في الإعدادية) والصعوبات التي تعترض المعلمين في الناحية، التي سمحت له عضويته في مجلس أولياء التلاميذ بمعرفتها عن كثب؛ والتحفظات التي يبديها عند الحديث عن زملائه الجزائريين («لقد كان لي زميل منهم وكان طيباً، يجب الاعتراف بذلك. بالنسبة لعربي، لقد كان طيباً») أو الانتقادات التي يوجهها ضد المعاملة الخاصة لهم في رمضان. كل ذلك يبين أن التقاليد والمعتقدات الأممية واللاعنصرية التي اكتسباها عبر تربيتهما والتزاماتهما السياسية (لقد عملت السيدة لوبلوند هي أيضاً في المصنع، لخمس سنوات حتى ولادة ابنتهما الأولى) والتي تعزّزت بالإدانة الرسمية للتفرقة والأفكار العنصرية المسبقة، هذه التقاليد والمعتقدات، وُضعتْ في امتحان صعب يومياً، لدى مجابهة الصعوبات الواقعية للتعايش (يمكن معرفة ذلك من شهادات استقيت من خلال علاقات أكثر حميمية، حيث يمكن قول كل شيء دون مواربة أو ريبة، مثل شهادة هذه المناضلة الاشتراكية القديمة التي لم

يعد باستطاعتها احتمال الضوضاء والروائح، في البناء الذي تشعر بأنها مقيدة إليه، لاسيما في الصيف وفي فترة الأعياد. أو شهادة ذلكما الزوجين، وهما مناضلان شيوعيان قديمان، اضطرا للانتقال على مضض لنفس الأسباب، شاعرين بأنهما تخليا عن كل معتقداتهما).

من الخطأ اعتبار جهود السيد لوبلوند الواضحة في تطبيق قيم التسامح أو الفهم ببساطة أكثر، تنازلات اقتضتها قواعد اللياقة، وفَرَضها وضع الحديث والعلاقة مع من يفترض أنهم يحملون قيماً رسمية («إنني أضع نفسي مكانهم» كررها عدة مرات). لكن ينبغي سماعه أيضاً حين يصف كم هو «بشع» بالنسبة إليه، الوضع في رمضان «إنه بشع لأنه.. سأقول إنه بشع، سماع الصغار وهم يتذمرون نهاراً، فالكبار هادئون. لكن الصغار.. الصغار، إنهم في الشارع، ينبغي سماع الصغار وهم يتذمرون، أما هم، فيبدؤون حياتهم في العاشرة مساءً، وبما أنك تتوجه إلى النوم.. فستكون الضوضاء من نصيبك. إذن، هنا..» أو عندما يميز بين المهاجرين (يعزل «الجزائري والمغربي» عنهم، لكنه يسارع للتذكير بأنه «لدينا المشكلات نفسها مع البرتغاليين والإيطاليين» وأن كثيراً من المشكلات الموجودة في الحي تعود لعائلة وحيدة من أصل فرنسي) بالقياس إلى قدراتهم على التلاؤم مع الحياة الفرنسية والتي تقدر في رأيه بالدرجة التي «على الأطفال فيها أن يسيروا كالفرنسيين».

وفعلاً فإن أصعب تأثيرات التعايش على التحمل، من مشاجرات وعبث وإتلاف، تعود إلى هؤلاء الأطفال أو المراهقين المحكوم عليهم بالحرمان والفقر، والإخفاق والمهانة في جو المدرسة التي لا شيء فيها يهيئهم (240 من 651 تلميذاً في المدارس الابتدائية و274 من 463 تلميذاً في الإعدادية يعانون من تخلف سنة أو أكثر) فيفلتون من الرقابة الأسرية بصورة كلية أحياناً، كابنيّ السيد أمزيان الكبيرين. ويمكن استشعار ذلك من أول وهلة عندما ظهر أحدهما (ربما كان الذي ضرب إحدى معلمات المدرسة بكُرة، مسبباً لأبيه غرامة 2000 فرنك) ساخراً، عدوانياً، من باب الشقة، بينما حضرت أمه لبرهة وجيزة لتقديم الشاي، أو عند سماع لهجة هذا

الأب على الخصوص، وهو غير مكترث في الظاهر والمغتاظ نوعاً ما، مع أنه يائس في أعماقه، يتكلم عن ولديه، وهو يضم ابنته الصغرى بحنان طيلة الحديث «آه، إنني لا أنشغل بالآخرين -يتكلم عنهما كأجنبيين- لِمَ أنشغل؟ (..) إنهما لا يستمعان إلي، لا يستمعان إلي.. فإذن» ويصحح الجار قائلاً: «إنه ينشغل بهما جيداً.. لكنهما لا يرغبان في الاستماع..» ثم ينتقل للحديث عن الصغيرين، محوِّلاً خيبة أمله إليهما نوعاً ما، إذ ليس هناك ما يلومهما عليه حتى الآن («آه، كل شيء على ما يرام الآن، حتى يصبح في 12 سنة أو 15 سنة. ولا أدري ما سيكون بعد الآن. الجميع سيكونون الشيء نفسه») وهو بهذا يستبق الزمن الذي سيفلتان فيه أيضاً من رقابته. أي الوقت الذي سيكتشفان فيه، مثل ابنيه الكبيرين، أن العاقبة عند الخروج من المدرسة، واحدة سواء اجتهدا في المدرسة أم لا («لن تجد شيئاً حتى النهاية، صفر، إنهم جميعاً في الوضع نفسه، سواءً اجتهدوا أم لم يجتهدوا») وهو إذ يعطي الحق للسيد لويلوند عندما يرجع صعوبات التعايش الرئيسية إلى أزمة السلطة العائلية في الأسر المغربية، فإنه يجتهد في العثور على تفسير بل مسوِّغ لتمرد أبناء المهاجرين، من خلال استذكار خيبات الأمل التي تؤدي إليها المدرسة، أو الإخفاق في المدرسة، أو إخفاق حملة الشهادات المدرسية في سوق العمل، على الأصح. وهنا نترك له الكلمة الأخيرة: فإن ما يجب تلافيه، هو سوء الطالع المتمثل في البطالة الجزئية التي يعاني منها، بصورة مضاعفة، ضحايا الإخفاق المدرسي والتمييز، إذا ما أريد لشارع (فال سان مارتن) أن يستحق يوماً اسم الزهور الذي أُعطي له بشيء من التسرع، من قبل بعض التكنوقراطيين المكلفين بـ «التنمية الاجتماعية العمرانية».

مع أسرتين عماليتين

حديث أجراه بيير بورديو وروزين كريستان

«نحن نعيش معاً[1]»

(بدأت الحديث عن البنتين اللتين وُضعت صورتاهما على صوان المائدة)

❖ الكبرى، الممرضة.. والصغرى..

ل: لا تدري ما تريد عمله.

❖ في الرابعة عشرة من عمرها..

ل: إن قلنا لها «تلعبين لعبة العروس» أو قلنا لها «أتريدين أن تكوني طيبة» ستجيب بنعم. مشكلة كبيرة.

❖ لكنها أمضت كل سنوات المدرسة هنا.

سل: نعم، نعم، كانت دائماً في هذه الثانوية.

ل: في كلية الدراسة الثانوية.

❖ في أي صف هي؟

ل: إنها في صف انتقالي، لنقل إنه للانتقال إلى الرابع التقني أو الرابع لشهادة الكفاءة المهنية، لنرَ كيف سيوجهونهم.

---

[1] السيد لويلوند: ل.
السيدة لويلوند: سل - المترجم -

❖ وهل تدري ما ستفعل نوعاً ما؟ أم ليس كثيراً؟

ل: حسناً، إنها تذهب إلى الحضانة، وتقشر (..) كل هذا.. إنه يعجبها.. تصنع شيئاً من الحلوى وشيئاً من.. في المدرسة.. إنه يعجبها.

سل: نعم، إنها تتدبر أمرها جيداً.

ل: الأمور حسنة! لنقل إنها تذهب إلى المدرسة هذه السنة، عن طيب خاطر مع ذلك.

❖ ألم تحب المدرسة من قبل؟

سل: كلا.

ل: حسناً، لم تكن تستطيع متابعة بعض المواد من قبل، فكانت تغادر. لنقل إنها كانت تذهب للمدرسة.. وحتى الأساتذة يجدونها هذه السنة أفضل.. لم يكن الأمر حسناً. لم تكن تشعر بالارتياح.. كانت..

❖ ألم تكن تفهم، أم أن الأمر لم يكن يروق لها؟

سل: إنها أشياء لم تكن تفهمها، لكنها لم تكن تجرؤ على سؤال الأستاذ، فتبقى إذن كما هي، لم تفهم، لم تفهم، وكنا نقول لها «اسألي الأستاذ».

❖ والآن، هل يعجبها ما تعمله؟

سل: أجل يعجبها، إنها تقشر الخضار، وسيصنعون القطايف اليوم للحضانة، يعجبها.. نعم.. نعم.. فيمكن لها أن تذهب إلى شهادة الكفاءة المهنية أو شيء من هذا القبيل.

سل: أجل، طباخة، شيء من هذا القبيل.

ل: أجل، كيف يسمونه؟ لم أعد أعرف.

❖ هناك وظائف، هنا، لا نعرف بعد..

ل: أوه، وظائف (ضحك) هناك الكثير في الوكالة الوطنية للتشغيل، ولكن لا يوجد الكثير منها في الواقع، الوظائف، الوظائف، أجل، كان زمن

فيه وظائف، أما الآن، مع كل ما نراه، الشيء نفسه، هناك الكثير من المؤسسات تنشأ. لكن هناك الكثير من المؤسسات تحل، بنفس السرعة التي أنشئت بها. وهذا يؤدي إلى وظائف. فإذا أخذنا حصيلة بلدية لونغوي، فقد تم إحداث وظائف. لكنهم لم يحدثوا شيئاً في الواقع، وكل ما في الأمر تغيير الاسم. نعم هناك مؤسسة تنشأ، لكن هناك الكثير من المؤسسات أنشئت، وكثير منها أُغلقت، للأسف.

(..)

❖ نعم، بما أن الشباب ذهبوا للمدرسة، فليس لديهم رغبة كافية للذهاب للمصنع في كثير من الأماكن، وهذه هي المشكلة.

ل: هنا المشكلة، فنحن في مركز التدريب، كان حسن الحظ، حسن الحظ أو سوء الحظ بالتعرف على المصنع، لأننا كنا نذهب إليه، ونقوم بزيارات..

❖ كانت تلك مرحلة انتقالية، أليس كذلك؟

ل: كنا نذهب ونشاهد.. حسناً، والذين كانوا يحضرون شهادة الكفاءة المهنية كانوا يذهبون للعمل، واتّباع دورات في المصالح التي كانوا يهيئون لها، وهكذا كان الناس يرون ما سيكون عليه عملهم، أما الآن، فيخرج الشباب من المدرسة، ومهما قلنا لهم..

❖ نعم، يبقون حتى سن 16 سنة، وماذا بعد..

ل: ماذا بعد، إنهم يدخلون مدارس أخرى.. حسناً.. يذهبون إلى مدارس أخرى، وعندما يصلون إلى المصالح.. لنقل إن الشباب الآتين، ربما يكونون أكثر تأهيلاً من الناحية التقنية النظرية، لكن عليهم تعلم كل ما يتعلق بالممارسة.

❖ وما هي الفرص المتاحة لهم هذه الأيام؟

لابد أنكم تتحدثون عن هذا الأمر مع الزملاء؟

ل: حسناً، إنهم يدعون الله أن يبقى الأبناء في المدرسة لأطول فترة

ممكنة، إنه قول يؤسف له، لكننا هكذا، لي زميل حصل ابنه على شهادة الكفاءة المهنية في الطهي، ويحضر للثانوية التقنية، ويود الآن أن يعود لتقديم امتحان الشهادة الثانوية المهنية هذا العام. الثانوية التقنية، والآن يرغب في الدخول في مدرسة لسقاة الخمر، إذ لم يجد وظيفة.

❖ أليس لهذا علاقة بما تعلمه؟

ل: كلا، بل لأقول لكم حتى لا يكون عاطلاً عن العمل.

❖ إن الأمر كيفما اتفق.. نعم هو كذلك..

أليست لديه الرغبة في الدخول للمصنع؟

ل: أوه، كلا، فلا ينبغي التحدث معه عن المصنع، وعلى كل فقد تخصص بفرع آخر غير المصنع، لكن لنقل أنه كانت لديه الفرصة لعمل دورات هنا وهناك، ورؤية الأمور، وإن وجد مدرسة للسقاة فسينتسب إليها.. وكما يقول: «طالما أنا في المدرسة، فلست عاطلاً عن العمل». إنه قادر على العمل في فندق، ويستطيع تأسيس منشأته الخاصة به، مطعمه الخاص به، لكن ليس لديه التمويل.

❖ نعم هو ذاك، ينبغي وجود الرأسمال.

ل: ليس لديه الرأسمال، ليس لوالديه رأسمال يشترون به شيئاً، فيقول: «الذهاب للعمل أجيراً في مصلحة هنا أو هناك»..

❖ لكن ولداً كهذا مُكلِف، فماذا يصنع؟ هل يقوم ببعض الأعمال الصغيرة؟

ل: إنه يعمل نهاية كل أسبوع، إما في فندق، وإما في مطعم، فهو قادر على تحضير وجبات.. يعمل وجبات..

❖ هو ذاك، إنه يقوم باحتياجاته، لكن هناك أناساً..

ل: هناك أناس لا يستطيعون ذلك.

❖ أنا لا أدري، فعندما يحصلون على شهادة الكفاءة المهنية في المحاسبة مثلاً، هكذا..

ل: لا أعلـم كيـف يفعـل هـؤلاء، حقـاً هنـاك تدبـيرات كالمخيمـات الصيفية، لكن ينبغي عمل شـهادة (BAFA) وهـي تكلـف هـذه الأيـام 1800 فرنك.

سل: 1800 فرنك.. نود أن نضعها لابنتنا الكبرى.. نعم.. إنها تود..

ل: ماذا تريد أن تفعل؟

سل: العمل في المخيمات الصيفية، لكن عليها أن تعمل تلك الشهادة، ولن يكون هذا قبل سن 17 سنة.. وإذن.

ل: لنقل إنها تحب معاشرة الأطفال.

سل: إنها تحب الأطفال جداً، فينبغي انتظار السابعة عشرة، فإذا حصلت على الشهادة، كان بها، وإلا.. فإننا سنوفر الفلوس..

ل: ما هي إلا الشهادة الأولى، وإذا أرادت الاستمرار، فهناك شهادتان أخريان.

❖ تريد أن تكون ممرضة، أليس كذلك؟

سل: نعم، نعم، الأمور على ما يرام، إنها تتعلم جيداً وتتدبر أمرها بشكل مُرضٍ.

❖ هناك مسابقة، لا أدري كيف تجري..

سل: هناك مسابقة للدخول، وتدوم الدراسة سبع سنوات.

ل: سبع سنوات على الأقل، نعم، في الاختصاص الذي اختارته.

❖ هل تستطيع، فيما لو سُرِّحتَ الآن، الحصول على وظيفة؟

ل: في هذه الآونة، كلا؛ فهم يطلبون شباباً ذوي خبرة.

في سن الخمسين، قيل له: «اترك العمل».

❖ هكذا، هو ذاك، كما لو أن الأمر ممكن!

ل: أينما نظرت: شاب وخبرة، حسناً، ربما تكون لدي الخبرة، لكنني تجاوزت الأربعين..

❖ يريدون الحصول على كل شيء، دون أن يدفعوا شيئاً، كما يقال..

ل: نضحك أحياناً حينما نرى على سبيل المثال: 20-25 عاماً مع خمس سنوات أقدمية. أود جداً أن أجد شاباً في الخامسة والعشرين مع خمس سنوات أقدمية، ولكن أين؟ المشكلة إذن هي ما أن نبلغ الأربعين، حسناً.. حيثما أردنا الذهاب.. لا أقصد أنهم لم يعودوا يريدون، لكن لنقل..

❖ نعم، أو هناك الذين يتركون العمل بحسب نظام التقاعد المسبق.. يبدو أن الأمر صعب جداً للبعض، هو هذا بالضبط، فالبعض لا يقبلون بسهولة.

ل: نعم.. لقد استاء البعض منه، وينبغي أن نضع أنفسنا مكانهم، حقاً، يجد الرجل نفسه بين يوم وليلة.. مثل مغادرة العمل في الخمسين، هناك من بلغوا الخمسين فطردوا. الرجل الذي دخل المصنع في الرابعة عشرة وربما أقل، فإذا بلغ الخمسين يقال له: «اترك العمل فما عدنا بحاجة إليك». لقد كانوا مضطرين لطرده بسبب..

❖ حتى مع راتب تقاعدي جيد؟

ل: حتى مع الراتب.. لأنهم خرجوا صفر اليدين. الأوائل لم يكونوا تعساء عند خروجهم، أما الذين خرجوا بعدهم فلديهم مال أقل، لكنهم مع ذلك ليسوا تعساء، لا ينبغي..

❖ إذن ما المشكلة، أهو العمل؟

ل: لقد كان عملهم، الرجل الذي أمضى عمره في المصنع، في نفس المصلحة، ونفس القطاع، وكان له..

❖ رفاقه..

ل: أجل، وبين عشية وضحاها، لاسيما في البداية، لقد قالوا للرجال: «سنرسلكم للتقاعد في سن الخمسين، أي التقاعد المسبق، لكننا سنشغل شباباً..».

❖ نعم، والأمر لم يكن صحيحاً من بعد.

ل: إن الرجل الذي لديه شباب في المنزل، ربما يخرج عن طيب خاطر، ولكنه خلال سنة، يرى الولد في المنزل دائماً دون أن يعين. وهكذا فالذين كان من المفترض خروجهم من بعد، لم يعودوا يرغبون في الخروج. وما من أحد هنا راضٍ بالذهاب إلا المغاربة. لقد ذهبوا إلى المغرب وعادوا وقد ازدادت أعمارهم خمس أو ست سنوات ثم ذهبوا ثانية، ولكن..

❖ وماذا عن الآخرين؟

ل: تكلمت عن المغاربة، لكنني لا أقصد أنهم جميعاً من طينة واحدة، فهناك من وجب إخراجهم، لكن الكثيرين استغلوا الفرصة، لاسيما في السنوات الأخيرة، عندما عرفوا أن كل شيء سائر إلى نهاية. هناك من ذهب منهم في شهر حزيران وقد بقي عليه أربع سنوات من العمل، وإذا به يعود في نهاية العطلة في شهر تموز أو آب وعمره خمسون سنة. لقد حصلوا على أوراق من المغرب تشهد بأنهم بلغوا 50 سنة، ما العمل إزاء هذا؟ فلقد وُلدوا بين الأحراش هناك.

❖ بالطبع، إن الحالة المدنية هي نوعاً ما..

❖ لقد ولدوا في الشهر الفلاني، فلم يكن هناك سوى اليوم والشهر. أما السنة فغير معروفة.. آه.. حسناً.. هنيئاً لهم!. وتعساً لمن سيبقون.. فترك العمل شيء جميل، لكن هناك من هم تعساء في المنزل، لا قدرة لهم على إشغال أنفسهم.. ولا يصلون إلى شيء.

سل: نعم.. إن هذا يحصل، إنهم يتسكعون..

ل: وهناك من كانت لديهم مناشط خارجية، فأوقفوا كل شيء.

❖ هل تخلوا عنها؟

ل: طالما كانوا في المصنع. وعندما غادروه إلى المنزل، لنقل أنه كان بإمكانهم الإفادة من تجمعهم أكثر، وإذا بهم يقطعون العلاقات ويتوقفون.

❖ نعم، ويظهر أن هذا يسبب شجاراً في الأسر، سيء كل هذا! أليس كذلك؟

ل: بين الأزواج، أجل هذا صحيح.

❖ هل سكنتم دائماً هنا؟ هل السكنى جيدة ولطيفة هنا؟

ل: عند زواجنا، سكنا في بناية، لكنني.. البناية..

❖ كنتم مستأجرين؟

ل: نعم، كما نحن الآن.. أنا لم أستطع التعود على البنايات، ولا تعجبني على كل حال.. ولهذا بذلت كل جهدي، مع أنه لم يكن في البناية سوى أربعة طوابق.. وكانت الشقة جيدة وهادئة.. بذلت كل جهدي للحصول على مسكن فردي أو ما يسمونه فردياً.. وأخيراً وبعد العديد من الخيبات والتدبيرات، أعلمت رئيس فريق كرة السلة الذي ألعب معه وقلت له: «اعثر لي على مسكن فردي، وإلا سأتوقف عن اللعب» حسناً، على الإنسان أن يرفع عقيرته أحياناً.. وهكذا توصلت للحصول على مسكن.

❖ ولديكم المرآب في الأسفل؟

ل: لدي المرآب في الأسفل؛ مرآب ومطبخ وغرفة، وثلاث غرف في الأعلى. ثلاث غرف والحمّام.

❖ إنه اكتراء، وكم تدفعون؟ إن لم يكن في ذلك فضول..

ل: لا، إن الكراء الآن 1900 فرنك.. ولدي المساعدة للمسكن، يبقى 1600 فرنك من جيبي.

❖ لديكم مساعدة للمسكن، هذا حسن، أنتم تسكنون جيداً..

ل: نعم، لكن هذه هي المشكلة، فنحن نتوصل إلى إغلاق كل شيء، صحيح إن هناك أطفالاً أقل، فنحن في منطقة تربوية ذات أولوية. لدينا في الإعدادية 80٪ من الأجانب بالنسبة لعدد التلاميذ.

❖ كم تقول؟

80٪ من الأجانب..

أحقاً ما تقول؟ لم أعرف أن هنا..

من أين هم.. إيطاليون؟

ل: جزائريون، مغاربة، تونسيون، برتغاليون، لدينا هنا كثافة سكانية من أناس..

❖ لكنهم أين يعملون؟

ل: .. أناس مهاجرون. إنهم جميعاً في المصنع، أعني أنهم كانوا جميعاً في المصنع والكثير منهم الآن إما متقاعدون وإما من الشباب العاطلين عن العمل، لسوء الحظ.. الذين يقولون عن أنفسهم عاطلين.. لأن في هذه المسألة كثيراً من الاحتيالات.. وعلى كل فلسنا هنا لـ..

سل: أتعلمون أننا لو قمنا بالإحصاء في هذا المكان! فنحن سبعة فرنسيين، سبعة فرنسيين، لأنه حتى في مواجهتنا، هناك، لا شيء سوى المنازل الصغيرة.. هناك(..)

❖ وهل الأمور على ما يرام؟

سل: حسناً! أنا لا أخرج كثيراً كما تعلم.

ل: إن المكان هادىء هنا، لنقل إنه هادىء، وحقاً فإنه أحسن مما كان عليه في وقت ما.

سل: نعم لقد كان أكثر ضجيجاً، لكنني لا أخرج فيما عدا.. أبقى في بيتي وليس سوى صباح الخير - مساء الخير.. وهذا كل شيء ولا أكثر، لا أحب كثيراً، لست جافة.. ولكنني لا أحب..

ل: إن الفترة الصعبة شيئاً ما هي في رمضان، على الرغم من أنها كانت هادئة السنة الماضية.

❖ كيف كان الوضع؟

ل: لا.. لا.. لقد كان بشعاً.. حسناً. حقاً إنهم ينامون نهاراً، فالكبار هادئون إذن. لكن الصغار.. الصغار، إنهم في الشارع. ينبغي سماع الصغار يتذمرون. أما هم فيبدؤون حياتهم في العاشرة مساءً، وبما أنك تتوجه عندئذ للنوم.. فستكون الضوضاء من نصيبك.

سل: ما إن يتحسن الجو حتى ترى الصغار في الخارج.

ل: الصغار في الخارج. إن الأمر لا يطاق في الخارج، لأن الولد يذهب إلى المدرسة نهاراً، هذا إذا ذهب إليها.. أؤكد إذا ذهب إليها، إنهم يذهبون إليها أحياناً للنوم.. لأنهم في الليل.. ولد في الحادية عشرة ليلاً أو منتصف الليل، ما يزال في الخارج. إن هذا لا يضايقهم. والصغير قد تعب لكنهم لا يضعونه في سريره، لأن الكبار يأكلون، إذ يحق لهم الاحتفال..

سل: والنافذة مفتوحة..

ل: هه، الصغير في الخارج. حسناً، هناك الصغير الذي يصرخ في النهار لأنه جائع، ولا يقدم له الطعام، مع أنهم لا يصومون، ولكنهم لا يريدون إطعامه لا سيما في أواخر رمضان، إن هذا واضح. في البداية على الأقل.. حقاً إنه.. لكن في آخره، لا بد أن يكون الأمر قاسياً بالنسبة لهم أن لا.. إنني أضع نفسي في مكانهم، إعطاء كسرة خبز لطفل، ثم أن يكون لك حق في الأكل، لاأعني انعدام الحق، بل أعني أن الأمر سيان، إنه حق لأنهم يريدونه فعلاً.

❖ لكن ألا يصوم أكثريتهم في رمضان؟

ل: لنقل إنه يتلاشى، فلم يعد يصومه سوى المسنين.

❖ المسنون، هو ذاك.

ل: إنه يتلاشى لدى الشباب، لأن الصيام..

سل: إنهم يذهبون إلى المدرسة، هه..

ل: أوه.. الصوم، إنهم يفعلون الكثير من الأشياء.. عرفت شاباً كان يلعب كرة السلة عندنا، وكان يصوم في المنزل. فإذا أتى للعب في مباراة معنا وأكلنا. كان يأكل معنا ويعيش.. ولم تكن هناك مشكلة.. إنني أقول على كل حال؛ ما ينبغي معرفته هو أنني لم أستطع احتمال محاباة هؤلاء الذين يصومون رمضان في المصنع. إذ ليس لي حق إلا بعشرين دقيقة آكل فيها أثناء عملي، أما هم فلهم الحق في العشرين دقيقة مرتين، لأن لهم حق الأكل

في بداية عمل الليل الساعة الثانية والعشرين، وحق الأكل ثانية في نهاية العمل، قبل شروق الشمس، وهكذا يمنحون العشرين دقيقة مرتين. ومن هنا أقول، أنا الفرنسي المسكين أو الإيطالي، أو ما تريد ممن لا يصومون رمضان، لا أحد يهتم به إن كان عمله مضنياً أو متعباً.. لديك عشرون دقيقة للأكل.. فعليك السكوت. مع أنه ليس فرضاً، أنا أقول أنه ليس فرضاً أن يصوموا رمضان، ولا أفهم كيف سكتت المصالح الطبية في المصانع عن هذه الأمور. لأنه إذا لم يأكل الرجل ليلاً فليست هناك مشكلة، لكنني رأيت رجالاً لا يشربون حتى كأس ما في النهار، ويعملون ثماني ساعات في الحرارة الشديدة..

❖ إن في ذلك خطراً فعلاً.

ل: أنا أقول أنه كان على طب العمل أن يقول لا.

❖ بالطبع.

ل: لأن الإنسان قد يتحمل.. ويأتي اليوم الذي يسقط فيه في مطحنة، ولا يستطاع إنقاذه. إذ لو سقط على الأرض لما كانت خطورة، لكنه إن سقط في المطحنة، حسناً، كان هناك مع ذلك رجال في مصنع الصلب، ورجال في آلة التصفيح. وإذا سقط الرجل في اسطوانة، فكيف سيخرج؟

❖ ألم يكن جزائريون في فريقك؟

ل: لم يعد معي أحد، لم يعد أحد. كان لي زميل منهم وكان طيباً، ينبغي الاعتراف بذلك: فبالنسبة لعربي كان طيباً، عندما كان لوحده. آه، نعم لقد حصلت لنا عدة قصص في المطعم، لأننا نعيش معاً (ضحك). أمر عادي عندما يكون الناس خارج أوضاعهم، وأماكنهم ويلتقون. أنا أضع نفسي، إذا ما ذهبت للعمل في الخارج، والتقيت مع فرنسي. فسأكون مسروراً بالتكلم معه والعمل معه.

❖ نعم، لكنهم من باب اللياقة، وعندما يكون هناك فرنسيون، عليهم التكلم.. نعم، وهؤلاء الشباب العاطلون أكثر الأحيان عن العمل؟ هؤلاء الشباب الجزائريون؟

ل: لنقل إن هناك صنفين، المغاربي أعني الأجنبي، لاسيما الجزائري والمغربي والذي أدعوه عربياً.. هؤلاء مسرورون لأنهم هنا. يذهبون فيبكون جيداً، وتعطى لهم المساعدات ويهدؤون، وهناك الصنف الآخر الذي يعيش على الطريقة الفرنسية، وقد تكيّف جيداً، ويعمل على أن يسلك أطفاله كالفرنسيين، وهنا المشكلة. لأن لدي في الرياضة العديد من الشباب العرب، حسناً، إنهم ليسوا أسوأ، أقصد أنهن لسن أسوأ، لأنهن فتيات كلهن، لسن أسوأ من الأخريات، هناك بعض الأسر..

❖ نعم، هناك في كل مكان..

ل: الشيء نفسه في المدارس، إنها مشكلات في المدارس مع بعض الأسر. نفس المشكلات دائماً على كل حال.لا ينبغي أن ننزعج، فالمشكلة لدينا منذ روضة الأطفال، ولكن لا يقتصر على الأجانب فقط، ليس إلا المغاربة والجزائريون. إذ لدينا المشكلات نفسها مع البرتغاليين والإيطاليين.

❖ لكن الإيطاليين، منذ وقت طويل وهم.. أليس كذلك؟

ل: أوه، نعم، أولئك الموجودون هنا.. عندما يكون الجزائريون مبدئياً هنا منذ مدة طويلة أيضاً، إن ما حدث هو أنه في وقت من الأوقات كان الكثيرون يذهبون للزواج في الجزائر ثم يجيئون بزوجاتهم، لكن لم يعد يفعل ذلك إلا القليل هذه الأيام. ثم جاء لفيف من الأتراك في وقت ما، ولم يكونوا عند وصولهم وديين هم أيضاً، أما الآن فلا شيء يُسمع عنهم. كل ما ألوم به (مناطق الإعمار ذات الأولية). أنها لم تفعل شيئاً لهؤلاء الناس أيضاً، لأن لدينا مما هب ودب.. ما أعنيه هو أنهم حَشروا هؤلاء الناس معاً، لقد كان هنا برج، برج بأربعة مداخل..

س: بل خمسة.

ل: خمسة مداخل، منها اثنان لا حاجة للدخول إليهما.

إن إدارة السكن العائلي، وضعت هؤلاء الناس معاً.

❖ أهذا صحيح؟

ل: أوه، لا حاجة للدخول إليهما. هيه! فقد كانت تجري فيهما

أحداث لا تصدق، لكن لماذا؟ لأنهم وضعوا هؤلاء الناس معاً، فكان منهم من يربي خرفاناً في الشرفات، وأرانب في الحمامات بصورة منتظمة، فماذا كانت الإدارة تفعل؟ كانت تُسكن كل هؤلاء الناس معاً، وليس هذا ما كان ينبغي أن تفعله، كما فعلت البلدية، بل كان ينبغي توزيع هؤلاء الناس قليلاً حتى يتعودوا على العيش نوعاً ما، فهم لم يعودوا في أحراشهم. حسناً، أنا أضع نفسي مكانهم: الرجل في أحراشه يعمل ما يشاء، ثم يصل إلى هنا، حسناً، لكن هذا ليس من المنطق في شيء. يجب الوصول بهؤلاء الناس إلى الحياة الجماعية.

❖ ألم يعد البرج موجوداً هنا؟

ل: لقد هدموه، ليس لأنه كان محتاجاً للكثير من الإصلاحات التي كان على الإدارة أن تقوم بها، فلقد أصبح مصدر خطر على كل حال، فقد كان هناك الكثير من الناس الذين (وُضعوا فيه؟)، ولا بد من عمل الكثير لإصلاحه.. مع الوضع السيء في الناحية.. حسناً.. هناك من..

سل: يجب عليهم أن ينشئوا مكان البرج شيئاً جديداً..

ل: مركزاً اجتماعياً. حسناً، لقد وضعوا السياج، وسيبدؤون الأشغال حينما يتحسن الطقس.

❖ أليس الحي خطراً على الفتيات؟

سل: كلا، كلا، الأمور على ما يرام.

ل: أوه، ليس أكثر خطراً من..

سل: كلا، الأمور على ما يرام، لقد دائماً في الحي..

❖ أقصد الضوضاء وما شابه ذلك.

سل: بالنسبة لابنتي، فهذا لا يمنعهما، منذ كم؟ منذ 14 عاماً ونحن في هذا الشارع، لقد كنت حبلى بـ س عندما أتينا، حسناً، إنهما تنامان في الواجهة، ويوجد حقاً في الصيف أولاد في الخارج يصرخون، لكن هذا لا يمنعهما من النوم، وحتى مع الضوضاء.

ل: حسناً، إذا كانتا مثلي، فإن الضوضاء لا تمنعني من النوم..

❖ أليست هناك بعض السرقات الصغيرة، أو ما شابه؟

سل: كلا، كلا، كلا.

ل: على كل، ليس أكثر من أي مكان آخر، حسناً، هناك من يُزعَجون، لكن ينبغي معرفة فيما إذا كان هذا صحيحاً، أعني، ينبغي معرفة إن كان هذا صحيحاً.

سل: نعم، ينبغي المعرفة..

❖ ماذا يقولون؟

ل: حسناً، هناك من يُسرق غسيلهم أو تُثقَب عجلات سيارتهم. حسناً، أرغب في تصديق ذلك، لكنني لم أرَ أبداً رجال الدرك يأتون إليهم. وهذا يعني أن لديهم تأميناً صالحاً، ثم هناك سرقة راديو سيارة أو سرقة أي شيء.

❖ نعم، لكن هذا يحدث في كل مكان.

سل: هناك منازل تقع أسفَلنا قليلاً. إنهم فرنسيون، ويشكون دائماً من السرقة أو ثقب العجلات، ولا نرى رجال الدرك يأتون، فهذا نتيجة كراهية بعض الناس لهم، حسناً هو ذاك.

ل: بلى، إنه صحيح، يجب الاعتراف بذلك، فمنشّر غسيلهم أمام الباب وهم يتركون الغسيل ليلاً..

❖ إن هذا يغري الشيطان نفسه!

سل: معك حق، ولذا نحن نغلق من الخلف، ولا أترك الغسيل في الخارج ليلاً.

ل: أما أنا، فسيارتي في الخارج، ومن المؤسف أن أقول إنني ما بدأت أغلقها بالمفتاح إلا بعد مجيء الفرنسيين الذين يسكنون أسفلنا بمنزلين، ولم أكن أغلقها بمفتاح من قبل أبداً، مع أنها في الخارج طوال اليوم فلم أكن أغلقها بالمفتاح. كانت فيها أوراق السيارة وأشياء أخرى، فلم يؤخذ منها

شيء. وعندما أضع السيارة في قاعة الرياضة، لا يحصل لها شيء، مع أنني أطرد الكثير من قاعة الرياضة كل أسبوع. هناك ربما الطريقة أيضاً لـ..

❖ نعم، الطريقة التي يحيا بها الإنسان..

ل: كيفية سلوك الإنسان؛ فلا يجب أن نظهر لهؤلاء الناس أننا خائفون، فإذا أظهرنا لهم الخوف، سيشعرون بأنهم أقوياء. ومن ثم يأتي صغيرهم ذو الثلاثة أعوام حتى كبيرهم، لأنهم سيسعون جميعاً، سأمسك الخشب، فمنذ وجودي هنا، وممارستي الرياضة لستة أعوام أو سبعة أعوام في م.

❖ نعم، هو ذاك، فأنت تعرفهم من الرياضة، وهم يحترمونك.

ل: أنا أحترمهم، وليس من سبب كي لا يحترموني.

❖ نعم، هو ذاك، هو ذاك.

ل: لا ينبغي.. ما داموا في قاعة الرياضة منضبطين وحسِني السلوك، فإذا ما أثاروا الفوضى، طردتهم، وعند طردهم أقول لهم: «هذه سيارتي، اذهبوا إليها وسأعرف الفاعل». لأن الكثير من الناس يقولون: «هذا هو، هذا هو، لكنهم لا يذهبون للشرطة خوفاً» أما أنا فأعرف، عندما أطرد أحداً من قاعة الرياضة، ويحدث شيء ما لسيارتي أنني سأستدعي رجال الدرك، وسأقول لهم من الفاعل. وقد لا يكون هو الفاعل، لكنهم سيذهبون إليه وأنا معهم. فإن لم يكن هو الفاعل، عليه أن يدل عليه. ولسوء الحظ لا يفعل رجال الدرك هنا شيئاً أيضاً. إن الدرك والشرطة هم.. فقد حدثت لنا حقاً مشكلات منذ سنتين، مع الأساتذة. وكان علينا أن نحل المشكلة بأنفسنا تقريباً والذهاب إلى الدرك والشرطة. فقال الدرك إن الأمر ليس من اختصاصهم فهناك الشرطة. والشرطة.. حسناً أعتقد..

❖ هل حلّلتم المشكلة مع جمعية أولياء التلاميذ؟

ل: فيما بين الأساتذة والأولياء.

❖ ماذا كانت المشكلة؟

ل: لقد ثقبوا عجلات سيارات الأساتذة، وكسروا زجاج سياراتهم، ووُضِع السكر في البنزين.. آه.. لقد أصبح الأمر حقاً.. حتى تعقّدت الأمور حينما خرج أستاذ ووقع على شاب، وقد فعل شيئاً ما كان عليه فعله، إذا عاجَله بلكمة على أنفه (ضحك). وبما أن والدي الشاب يعرفان القانون جيداً، فقد قاما ضد الأستاذ. لكن المشكلة لم تحدث داخل المدرسة وإذن لا دخل لوزارة التربية، ولا دخل لأحد فيها، أما الوالدان فقد توجها ضد وزارة التربية يطالبانها بوقف الأستاذ عن العمل.. لكن معلوماتهم لم تكن صحيحة هنا.

❖ هل الأساتذة أو المعلمون هنا من نفس المنطقة؟

ل: من المنطقة، نعم جزء منهم من المنطقة، فعندما يكون الأستاذ أو المعلم شاباً يأتي هنا..

❖ المهمة شاقة، في البداية؟

ل: إنهم يفكرون مرتين، فإن لم يكونوا من المنطقة، لا يفكرون إلا بشيء واحد هو الانتقال.

❖ هل تعرفونهم؟ أهم من سكان وأبناء المنطقة؟

ل: الكثير منهم شباب، ولدوا في المنطقة وبقوا هنا. أو معلمون قدماء بدؤوا حياتهم العملية هنا. لنقل أمضوا حياتهم المهنية هنا.

❖ وهل تعرفون الكثير من أبناء عمال التعدين الذين بقوا في المنطقة كمعلمين أو أساتذة؟

ل: لا، ليس هناك الكثير منهم.

❖ من الذين نجحوا في المدرسة؟

ل: لنقل إن هناك الكثير، كثيرون من الشباب هنا، وعمال تعدين سابقون، ذهبوا إلى الشرطة والدرك والسرايا الجمهورية للأمن.. وما يشبه

ذلك. لنقل إنهم استفادوا عامي 1968-1969 من أن السرايا الجمهورية للأمن والشرطة قد طوعتا عدداً لابأس به من الشباب. من الشباب إذن - لكنني لا أعني أنهم شباب جميعهم- بل كثيراً من الشباب الذين كانوا على مفترق طرق ثم..

❖ ثم جاء جيل أخذ ينتظم في المدرسة، لأن هذا بدأ نحو 1970 إنهم..

ل: عندما أخذ الرجال يخرجون من المصنع بعربات التحميل الرافعة، ويذهبون بها، كان الواجب إعطاءهم حافزاً، وإلا فإن الرجل منهم يذهب ويحطم كل شيء أمامه. ولقد رأيت بعضهم يخرج معنا إلى المظاهرات ومعه المسدسات والبنادق، إنها أمور لا تُفعل بالطبع. فلم نقف مكتوفي الأيدي، وكنا نأخذ الأسلحة ونضعها عند آخر وانتهى الأمر. ومع ذلك كان يأتي البعض مسلحين، ومن الحق القول إن الطرف المقابل، أي قوات حفظ النظام لم تكن هينة هي أيضاً.

❖ ينبغي القول إنها كانت صدمة بالغة القسوة.

ل: كانت هناك صراعات حادة بالمعنى المحمود للكلمة، ثم صراعات حادة بالمعنى المذموم للكلمة، وعلى كل فما حدث قد حدث. وأسفي الوحيد الآن هو أنني لم أحافظ على ما قصصته مما كتبته الصحافة.. وما شابه ذلك.

❖ وما رأي الشباب الآن بكل هذا؟ إنهم لا يأبهون به أليس كذلك؟

ل: لا يأبه الشباب بهذا، على كل حال، لأنهم لم يعرفوه، أولئك الشباب الذين يعرفون فراغ الحاضر. ولهذا قلت إنها خسارة نوعاً ما، لأنني لم أحفظ الجرائد حتى يروا. لنقل إنني سأخبر ابنتي: هنا كان المصنع، وهناك كان كذا. حسناً، كان هناك شيء ما.

❖ إنهما غير مسيّستين، والأمر سيان عندهما.

ل: نعم، إنك تصنع الآن من الشباب ما تشاء. يأتي الشاب اليميني

ويعدهم بالعجائب، ومن يستطيع الانتخاب سينتخب. وإذا جاءهم آخر من اليسار، فالأمر نفسه. ستجري الأمور هكذا لفترة قليلة ثم يصاب الشاب بخيبة الأمل، فماذا يفعل؟ هذه هي المشكلة. إنهم الآن يوجهون الكثير من الكلام للشباب؛ حسناً، ستحصلون على هذا -هذا ما كنت أقوله قبل قليل عن المدرسة- فالشابة التي تتدرب على الحلاقة النسائية، ستكون حلاّقة نسائية، حلاّقة نسائية، وبمقدورها أن تحلق للرجال إلى جانب ذلك. لكنها تعترض قائلة: لم أتعلم لأكون حلاّقة للرجال، وسأكون حلاّقة للنساء. فلن أذهب إلى هناك.

شباط 1992

عبد المالك صياد

أسرة في غير موضعها

إنها محلة عمالية في محيط باريس المباشر، تباين الترتيب النموذجي للضواحي، بما في هذه الضواحي من أبراج، وصفوف طويلة من البنايات. وهي تشكل استثناء لأنها في منأى نسبي، تتكون من منازل فردية قديمة ذات طابقين؛ اصطلح على تسميتها «منازل حجري الرحى». استَملَكت البلدية عدداً من هذه المنازل حين عُرضت للبيع، وخصصتها لإسكان بعض الأسر المهاجرة بصفة استعجالية، حتى قبل إتمام أعمال التجديد أو إعادة التأهيل. وقد أدى هذا التخصيص المخالف للقواعد المرعية عادة في توزيع المساكن الشعبية (المساكن ذات الكراء المعتدل) على الأسر الأكثر فقراً، أدى إلى بروز صراعات في الجوار من نوع جديد: فقد دفعت هذه الصراعات من حيث طبيعتها المهاجرين إلى التفكير في المضايقات التي يُلامون عليها أي في المعنى الحقيقي لـ«الضوضاء» و«الروائح» مثلاً، والشكل الأفضل للعلاقات الاجتماعية (وتيرتها، عمقها، مدتها.. إلخ) حتى تكون مناسبة للعادات المتصلة بالتعايش، أما بالنسبة للآخرين، أي سكان الجوار الفرنسيين، فلم يعد موقع الصراع هو العلاقات الفردية وما بين الأشخاص، (أو ذاتياً محضاً) كالعادة، لكنه يمس جماعياً (الجارة الفرنسية لأسرة مهاجرة تعبر عنه جيداً) كل الأشخاص المعنيين، إذ ينغمس الجميع في هذه الصراعات

بكل وجودهم الاجتماعي. أي بالفكرة التي يحملونها عن أنفسهم أو هويتهم الاجتماعية، بحسب اللغة السائدة اليوم، (التي هي الهوية الوطنية هنا في نفس الوقت، وبالتالي هوية جماعية إلى أقصى حد) إن هذه الصراعات ذات دلالة، باعتبارها لا تستند تقريباً على أي أساس موضوعي. ولذا ينبغي فهمها على أنها آخر مظاهر المقاومة، من قبل هذه الشريحة من السكان الذين حصلوا أخيراً على المنزل الفردي الذي طالما حلموا به، لكل المجال (الجغرافي والاجتماعي) المقترن به. مجال أسقطوا عليه كل تطلعاتهم وآمالهم في الرقي الاجتماعي، واستثمروا فيه أموالهم وأنفسهم، إنها مقاومة ضد عمليات التردّي، ونقصان القيمة، والإقصاء التي يخشون أن تحيق بهم.

إن المقابلة بين التحقيقين اللذين تم القيام بهما بأسلوب يسمح بالتعبير عن وجهتي نظر مختلفتين كلياً، تنطلقان من مواقف اجتماعية متمايزة بل متضادة، يمكن أن تُسحب على نفس الواقع الاجتماعي. هذه المقابلة تثير ثلاثة أنماط من الخطاب. أولاً، من جانب الأسرة المهاجرة؛ خطاب الأب الذي يستعيد تاريخ نشأة الأسرة وإقامتها في ديار الهجرة، وهو خطاب تاريخي تم باللغة العربية، وهو الوحيد الذي يعني الأب حصراً وبصورة كلية ويتصل بصلاحياته. ثم يأتي خطاب الأبناء جماعياً، ويتطرق للوضع الحاضر وحالة المسكن الراهنة. وأخيراً خطاب المحيط والبيئة المباشرة للأسرة المهاجرة، تمثله الجارة الفرنسية الأقرب، التي تجد نفسها موزعة، بين الدفاع عن المصالح المادية والرمزية الخاصة (بمعنى الحصر) بفئة متميزة من السكان، وهو دفاع وتوضيح للخصال التي تعطي الحق في الحظوة بسكن متميز، من جهة، ومن جهة أخرى، السخط والاحتجاج على وضع تضطر معه إلى تعايش تراه مهيناً ومُذلاً، مع أناس، هم أنفسهم أذلاّء ومحتقَرون ومُهانون.

ترجع أصول أسرة بن ميلود إلى منطقة بسكرة، في الجنوب الجزائري. وصلت إلى فرنسا عام 1960، أو على الأصح، انضمت السيدة بن ميلود إلى زوجها في فرنسا في هذا التاريخ. أما أبناؤهما فقد ولدوا جميعاً في فرنسا. كان السيد بن ميلود، الذي يبلغ الآن الرابعة والستين، جاء إلى

فرنسا لأول مرة عام 1949 وعمره آنذاك 21 عاماً. هو الآن متقاعد بعدما قضى وقتاً طويلاً تحت نظام المرض الطويل والعجز. ونظراً لمرضه العضال، فإن حالته تتطلب عناية مركزة، وإقامة متكررة في المستشفى. ويبدو أن العمل قد أنهكه، بصرف النظر عن مرضه الطويل.

بناءً على اتفاق ضمني بين الوالدين والأبناء، مؤسّس على مصالح وكفاءة هؤلاء وأولئك، أخذ الوالد يستذكر الماضي بطيبة خاطر أكثر من الوضع الحاضر، الذي يتعلق الحديث فيه بالأبناء (لاسيما البنات)، محتفظاً لنفسه -على سبيل المقارنة- بتذكير الجميع (أبنائه الذين بدا عليهم الانتباه الشديد في هذه الحالة) بما كانت عليه هجرة الأسرة، في زمن مضى: «وصلتُ (إلى فرنسا) عام 1949، في عنفوان شبابي (..) وفعلت في السنوات الأولى ما كان يفعل الناس، كما كنا نفعل في ذلك الزمان. أي نعمل فترة في فرنسا ثم نعود عودة كأنها نهائية، وما إن تمضي شهور حتى نعود. نعود لنبدأ من جديد، ومع ذلك فالوقت الذي كنا نقضيه في فرنسا كان الأطول في المحصلة. عندما أحصي الآن السنين والشهور والأيام، أرى أنني قضيت في فرنسا أكثر من نصف حياتي -أو أكثر بكثير- (..). كانت البداية عملاً في المصنع، حتى ليس في باريس، بل في الشرق. لكن، ومنذ 1960، أي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، كان عملي في ورشات البناء باستمرار، دون أي يوم عطلة. إذ كانت العائلة هنا في فرنسا، وجاء الأبناء (وُلدوا). وكان ذلك يتطلب مالاً، فلا بد من العمل كثيراً (..). وبما أن العائلة في فرنسا، فلم تعد هناك ضرورة للذهاب والإياب (أي بين فرنسا والجزائر) لأن شملنا التأم. لقد حدث أن كنا نذهب جميعاً إلى الجزائر لقضاء العطلة. لكن ذلك مُكلف جداً. أما الآن وقد كبر الأبناء فلا نذهب إلا قليلاً؛ فهم كبار يقررون ما يريدون بأنفسهم. نحن (الأبوين) لم تعد لنا القوة اللازمة للأسفار والتنقلات. فليس لدينا إذن إلا البقاء والانتظار».

لقد تصادف انضمام زوجته إليه في فرنسا -لم يكن لديهما أولاد بعد- مع انتقاله إلى قطاع الأشغال العمومية والبناء، واستقراره الدائم فيه (حتى صرْفه من العمل نتيجة العجز والتقاعد). وقد حصل بفضل أول رب

عمل في البناء، على المسكن الذي أتاح له استقدام زوجته. وتحتفظ الأسرة لهذا المسكن بذكرى راسخة. وليس من الصعب فهم أسباب هذا الافتتان والحنين؛ فلقد كان منزلاً فردياً يكاد يكون ريفياً، بمنأى عن مركز العمران. صحيح أنه كان مهجوراً لمدة طويلة، ويحتاج إلى إصلاحات، إلا أنه بدا مناسباً جداً لأسرة ريفية الأصل، تخوض هنا تجربتها في تعلم حياة المدينة. إنه منزل فسيح ذو ثلاثة مستويات، مستقل تماماً، ليس له جيران مباشرون، تحيط به أرض واسعة (حُوِّل جزء منها إلى بستان استُغل في زراعة الخضراوات). وتلك مميزات أوهمت هذه الأسرة الريفية الأصل، بأنه من الممكن استئناف ما تعودت عليه في منزلها التقليدي. أيمكن الأمل في انتقال أمثل من هذا لتسهيل التلاؤم مع أسلوب الحياة المدنيّة؟ وعلاوة على ذلك، فقد قُدِّم المنزل الذي كان مهجوراً مجاناً من قبل المنشأة (من قبَل «المعلم» كما يقولون). وهي منحة عينية تضاف إلى الراتب، وتتيح توفيراً لا يستهان به، لاسيما في تلك الفترة الحرجة بشكل خاص، التي اتصفت بندرة شديدة للمساكن المخصصة للعمال، وبالتالي غلاء الكراء من جهة، والحاجات المتعددة والمتنوعة التي تواجهها أسرة مهاجرة، وصلت لتوها إلى فرنسا في حالة من الفاقة التامة، تعوزها حتى أبسط الأشياء وأكثرها ضرورة للحياة اليومية، وهي أشياء تجعل الاستقرار مكلفاً جداً للأسرة، من جهة أخرى.

بما أن المنزل كان مصيره الهدم، بسبب المرور الوشيك لطريق سريع «أوتو روت»، فقد سلم لأسرة بن ميلود، انتظاراً للهدم، باعتباره سكناً مؤقتاً لمجرد الإيواء. وحين جاء موعد الهدم وجدت الأسرة نفسها في الشارع. هنا، وعلى غرار الكثير من رفقاء الحظ العاثر الذين كانوا في غالبيتهم عمالاً في قطاع البناء، من الجزائريين وغيرهم، كان لابد للأسرة من اللجوء إلى (مساكن اليأس والحضيض) -كما يسمونها- أي الأحياء الصفيحية «جحيم الأكواخ»، وباعتبارها على الأرجح من آخر الأسر التي انضمت إلى حي الصفيح القديم في نانتير، حينما بدأت إزالته من الخريطة، ونظراً لوجود أربعة أطفال صغار، استطاعت أسرة بن ميلود الإفادة من أولوية تخصيص المسكن المخصصة للحالات المستعجلة. ووجدت في البداية نفسها في

جينيفيلييه حيث كانت لها كما تقول، تجربتها الأولى في التعايش بنفس الطابق مع أسر أخرى من الجيران، وهي تجربة يحب السيد بن ميلود روايتها بكل ما علمته إياه، عن انعزال بعض الأسر الفرنسية وبؤسها الأخلاقي، والغيظ الذي تشعر به عند الاحتكاك بالعائلات المغاربية الكثيرة العدد، والتي تكثر زيارات الأهل والأصدقاء إليها. وبعد الكثير من المساعي، والمعونة من عدة مساعدات اجتماعيات (مكتب العمل الاجتماعي للبلدية، والمصالح الاجتماعية للمنشأة)، استطاعت الأسرة الحصول على مسكن في باريس نفسها، لكن الشقة التي خصصت لها كانت ضيقة، فجدّدت الأسرة الطلب للحصول على مسكن أوسع، وهذا ما أدى بها إلى المسكن الذي لازالت فيه إلى اليوم.

مع سكان محلة عمالية

أجرى الحديث ، عبد المالك صياد

«لم يبقَ لنا جيران، ولا يكلم بعضنا بعضاً»

الابنة: يوجد هنا احتجاج وانزعاج، ولهذا أسبابه، لكننا لن نغادر المكان أبداً، ولا مجال للبحث فيه. إن والديَّ تعودا عليه، وهما مسنان الآن ومريضان. إن أبي الذي يحتاج إلى عناية مركزة، كثيراً ما يقيم في المستشفى هنا، غير بعيد. وأمي التي لا تكاد تخرج أبداً، ولا تستطيع استخدام المواصلات، يكفيها استدعاء سيارة أجرة تأخذها من أمام البيت إلى المستشفى ثم تعيدها. كم يكلف هذا؟ مائة فرنك ذهاباً وإياباً. إنه مقبول، أما إذا أرادوا طردنا، فإننا لن نقبل بسبب ذلك فقط.

الابن: وليس هذا فحسب، إذ لا مجال للعودة إلى البنايات، لقد كنت صغيراً لكنني أذكر، ليس نانتير وحي الصفيح، بل البنايات، أي الأحياء كما يقال اليوم. إنه كالذهاب إلى الكورنوف أو فال فوريه. كل الناس تعرف هذا الآن، فقد أثار كثيراً من الضجة.

الابنة: لا سيما وأننا لا نستطيع القول بأننا تعودنا عليه، بل على العكس، أتمنى دائماً.. أستطيع القول بأننا لم نسكن أبداً شقة في بنايات، تلك البنايات. وإذن فليس من أجلها وأجل عينيها أو بسببها سنغادر هذا المكان. إنها لا تتمنى سوى هذا، إذ سيسرها كثيراً. وهي تريد بلوغ هذه

الغاية. ومن أجل هذا ليس إلا، سنناضل ضد إدارة (المساكن المعتدلة الكراء)، وضد البلدية، وضد المحافظة، وخصوصاً ضد هذه الشركة التي أوكل إليها إصلاح هذا المنزل. ماذا سيحصل لنا كل هذه المدة؟ متى؟ كيف؟ لا نعرف شيئاً. وليس هذا فقط الذي لا نعرفه.

❖ أنا لم أفهم، ما المشكلة؟

الأب: إنها جارتنا.. تجانبنا تماماً، لا يفصلنا عنها إلا هذا الجدار وبضعة سنتيمترات.

الابنة: نعم، هذا ما أردت قوله. خذ هذا المثال: إنك ترى هذا الدرج الذي يصعد إلى الطابق الأول. ترى السيدة أننا نسبب الكثير من الضوضاء عندما نصعده أو ننزله. أتدرك ذلك؟ إنها أدراج من الخشب، ويسمع ذلك من منزل إلى آخر. ينبغي أن يكون الإنسان مجنوناً حتى يجرؤ على قول كهذا. وحتى لو كانت عصابية، فلن يمنعها ذلك من النوم كما تدعي.

لدي ثلاث قطط، وأنا أحب هذه الحيوانات الرائعة!. لقد اشتكت في كل مكان: للجيران، في الشارع، للشرطة، للبلدية. ولم يأخذها أحد بجدية لحسن الحظ. كتبتُ رسائل ورسائل، وحاولتْ عمل عريضة يوقعها الناس لطردنا بحجة «الإخلال بالنظام العام وبهدوء الحي». وهذا ما وصلنا إليه الآن (..) وأحسن ما وصلت إليه بشأن القطط، لا يصدق، إذ تدّعي أنها تسبب الضوضاء. إن لديها كلباً، لكنني لن أدعي بأن كلبها يمنعني من النوم. أما آخر شيء فهو أن قططي تسبب كثيراً من الضوضاء عندما تنزل الدرج، مسببة لها الإزعاج وتمنعها من النوم (..)

«ما يدعون أنه ضوضاء، لم يكن سوى سهرات»

الابن: هي هكذا وانتهى الأمر. إنها تحمل الضغينة ضدنا حقاً، ولا تحتمل جوارنا، ولا وجود العرب في هذا الحي الذي تعتبره أنيقاً ومتميزاً. والواقع أنه ما عليك إلا رؤية أية أكواخ هنا. لكن، لكل امرىء قدراته وإمكاناته. وأنا أيضاً لا أراعيها. لقد قالت الشرطة لي، بأنها فعلتْ ذلك مع

الذين كانوا هنا قبلنا.. لبعض الوقت، مع أنهم لم يكونوا عرباً (..) أعرف ذلك لأن لدي صلاتي بالشرطة، أنا أيضاً. لقد قلت لهم كل شيء. وهم الذين أخبروني بأنها كتبت عدة شكاوى ضدنا.. يكتفون الآن بحفظها. طبعاً، فأنا ألعب كرة القدم مع الشرطة في ناديهم، وبالتالي نتحدث فيما بيننا بأشياء، كرفاق. وليس لدي من جهتي أسباب للتلطف معها، فلتفعل ما بدا لها. وما كل هذا إلا لنكف شرّها وندافع عن أنفسنا إزاءها، وهذا كل شيء، فلا نشتكي منها أبداً.

الابنة: ليس هذا كل شيء. فالنزاع الكبير يتعلق بالحديقة العامة. إن السيدة تتخيل أنها لها وهي ملكيتها الشخصية، لقد قالت هذا لي. إنها كاذبة (..) إن الضوضاء.. والقطط، لا آبه بها، ولتقل ما تشاء.. أما عن الساحة والمكان العمومي، ولم لا يكون الشارع أيضاً والأرصفة؟ فأنا هنا غير مستعدة للتساهل. إنها غيورة، لا تحتمل أيام السبت والأحد أو أيام الأسبوع التي نستقبل فيها طفليه (تعني أخاها المطلّق وله طفلان يحتفظ بحضانتهما أيام العطل والأعياد ويسلمهما إلى والديه) فأصطحبهما للعب في الحديقة. إنها لا تستطيع بالطبع الشكوى من هذا رسمياً، لكنها وجدت حجة القطط ثانية. ذهبتْ إلى البلدية زاعمة أن قططي، وليس قطط أحد آخر، تحفر في أحواض الرمل لقضاء حاجتها، وأن هذا سيؤدي إلى مرض الأطفال، ومرض كلبها قبل كل شيء. استدعتني مصلحة الصحة، فذهبتُ مع البطاقات الصحية للقطط التي تشير إلى أنها ملقحة لا تحتاج إلى شيء، مع أسمائها وتواريخ ولادتها وأطواق هويتها وأرقامها الموشومة بها. هذا ما نحن عليه الآن.

الابن: إنها القصة نفسها دائماً، فعندما لا يستطيعون قول أن التجاور مع العرب أمر سيء، لأنهم قذرون وكريهو الرائحة، ويصدرون كثيراً من الضوضاء، ولديهم الكثير من الناس؛ عندما لا يستطيعون قول كل هذا، فإنهم يخترعون شيئاً آخر. إذ يمكن إيجاد شيء دائماً.

الابنة: في الوقت الذي يمكن لنا فيه أيضاً أن نقول نفس الشيء عنهم. الحقيقة، أظن بل إنني متأكدة من أنهم أقذر منا، وما الزينة إلا عناية بالمظهر الخارجي. أعتقد أن الزينة لا تفيد إلا في هذا.

الأب: يقولون فعلاً: «أنت يا المزوّق من الخارج، واش حالك من الداخل» مثل عربي.

الابن: إن ما يصفونه بالضوضاء، ليس ضوضاء فعلاً ولا «ديسيبيل»[1]، كما يقول الأصدقاء، لكنها الأغنية العربية التي لا يحبونها ولا يفهمونها وتزعجهم. وربما يغير الراي هذا الرأي قليلاً بعدما أضحى موضة. إن هذا هو ما يسبب الضوضاء. وينبغي المقارنة في الواقع، إذ إن جميع أغاني الروك أكثر ضجيجاً على السمع من الأغاني العربية.

الابنة: والشيء نفسه بالنسبة للروائح أيضاً. لقد قرأتها في الصحف عندما حدثت.. تلك القضية (..) روائح المرقاز[1]. لقد قالتها الصحف: «إن الفرنسيين يحبون أكل الكسكسي والمرقاز جداً، لكن عندما لا يكون عندهم، فإن رائحة الطبخ العربي لا تُحتمل».

الأب: لدي قصة سأحكيها لكم. إن الأولاد يعرفونها من قبل. حدثت عندما كنا في بنايات (السكن المعتدل الكراء). كان جيراننا في الطابق رجلاً وزوجته، مسنّين يقيمان في شقة صغيرة. لم نر أبناءهما أبداً. وما عرفنا بوجود الأبناء إلا عندما تعكّرت علاقتنا معهما وبدأنا نعرف من هما. لقد كنا نُعينهما كثيراً، ونقضي لهما بعض الحاجات، ونقدم لهما من الكسكسي غالباً، وإذا بهما يشتكيان من أننا نسبب كثيراً من الضوضاء. وبالكلام معهما، فهمت ما يقصدان بالضوضاء. الواقع أن هذين المسنّين اللذين لا يريان أحداً، ولا يأتي أحد ليراهما وحتى أبناؤهما -أعتقد أن لهما بنتاً وولداً تنكّبا الطريق المستقيم- يعيشان منعزلين تماماً. يراقبان كل شيء، ويتنصتان على كل شيء. لقد أشفقتُ عليهما بكل صدق، لاسيما وأنني كنت وقتها أكثر شباباً. وما كنت أحب لأبويّ أن يكونا في مثل هذه الحالة. لم أكن أفكر في نفسي بعد، وأنني سأصبح مسناً أنا أيضاً. كنت أرثي لهما كثيراً، الحق أنهما كانا تعيسين، لأن الحياة قد انسحبت بالنسبة إليهما، ويعيشان

---

[1] ديسيبيل: وحدة قياس التفاوت بين شدة صوتين (décibels).

[1] مقانق جزائرية تحتوي الكثير من البهارات والثوم. (المترجم)

انتظاراً للموت. لقد قالا لي كل هذا، عندما كنت أصادفهما على عتبة الباب في الطابق، وأحاول التحدث معهما، ومعرفة أخبارهما (..) وفي أحد الأيام، وكنا نتحدث، لم أكن أريد معاتبتهما بعنف على ما قالاه بحقّنا، ولو كان الأمر يتعلق بشخص في مثل عمري لتعاملت معه بالكلمات. وحولتُ الحديث إلى مشكلة الضوضاء، وكم كانت دهشتي لما قالاه لي، إن الضوضاء بالنسبة إليهما كانت في الواقع تلك الزيارات المتعددة التي نتلقاها. هذا صحيح، فهذه عاداتنا، وما أن يحل السبت والأحد حتى يتتالى الأهل، وأبناء العم والأصدقاء، لاسيما في ذلك الزمان الذي لم يكن فيه الكثير من الأسَر في فرنسا، وكان الرجال يعيشون عزّاباً، فالمجيء لبيتنا يعني استعادة الجو العائلي. وكان من الطبيعي أن يجلبوا معهم كلما جاؤوا، شتى الهدايا من فواكه أو أفخاذ خروف كاملة، وليس باقات من الزهور (ضحك) فذلك ما نقدمه بعضنا لبعض بمناسبة الزيارات. هذا ما كانوا يدعونه بالضوضاء، أي الذهاب والمجيء والسهرات. فمن المؤكد أن هناك غيرة في الأمر.

الابنة: كنا سعداء عند دخولنا المنزل، فكل شيء نظيف، وظننّا أن كل شيء عاد إلى ما كان. لكن الواقع أنهم قاموا بتنظيف سريع قبل تسليمنا المفاتيح، وقد تحققنا بعد وقت من أن كل هذا لم يكن سوى عملية تجميل سطحية. غلطة مَن هي؟ لا أحد يدري. أهي البلدية التي أرادت ذلك؟ أم هي إدارة (المساكن المعتدلة الكراء)؟ مَن؟ أهُم الذين خُدِعوا لأنهم لم يشاؤوا متابعة الأشغال والتحقّق منها في عين المكان؟ أم أن ذلك عُمل قصداً، والجميع متفقون عليه؟ يتساءل الناس دائماً (..) وقد قمنا نحن أيضاً بعمل ما بوسعنا؛ إذ تابعنا تحسين المكان، وإضافة المزيد من الراحة، وتغيير النوافذ التي لم تكن تبدو مناسبة، أما ورق الجدران، فنحن الذين وضعناه ثم أعدنا الطلاء. لكن ما العمل الآن؟ ولِمَ العمل؟

الأب: ما الضمان الذي نملكه حتى نقوم بالمصاريف؟ فنحن جميعاً (الأب وأولاده) أولاد مهنة نوعاً ما، ونستطيع عمل كل شيء بأنفسنا، وأحسن من الحرفيين ومن المنشآت المحترفة بكثير. فبتقدير تقريبي، نحتاج إلى

ثلاثين ألف فرنك للمواد الأولية فقط، دون حساب كلفة اليد العاملة، لتجديد المنزل.

الابنة: لا ندري منذ وجودنا هنا، مَن يقرر ماذا. ولا ندري حتى ما هي الهيئات التي تمر. ولا ندري حتى لِمَن ندفع الكراء، أهذا ما تسألني عنه؟ نحن ندفع الكراء، وهذا مؤكد لأنه يخرج من جيبنا، ولا أحد يأتي للمطالبة به، فإذن هو يصل إلى المكان المناسب. فلا أحد يهدينا شيئاً (..) إن الذين يأتون اليوم هم الذين عليهم القيام بالأشغال. ولا ندري مَن هم، ولحساب من يعملون؟ هل يعملون لحسابهم أم لإدارة (المساكن المعتدلة الكراء) أم للبلدية؟ أم للمحافظة؟ إنهم مهذبون ويأتون للمعاينة غالباً، ولكن لا تقدم يُذكر.

لا ندري بشغلهم ولا بما هم مسؤولون عنه؟ وهم لا يقولون شيئاً، عما إذا كان الأمر سيتم خلال سنة أو عشر سنوات أو لن يتم أبداً!. إن ما نتمنى أن نعرفه منهم هو إلى أين وصلت الأمور؟ وبمَن تتعلق؟ وبماذا؟ ولِمَ ننتظر هكذا؟ فهذا قد يدوم طويلاً!. إذا كانوا يظنون أنهم سيُتعبوننا حتى نغادر المكان.. إذا كان هذا ما يريدونه، فإنهم مخطئون، ولن نذهب من هنا أبداً. نحن هنا ونحن باقون. وليس لديهم أي سبب لطردنا (..)

(موافقة عامة. الكل يساند كلام الابنة، حول نوايا الأطراف المختلفة التي تتدخل في موضوع الإسكان. والكل متفقون أيضاً في مشاطرتها شكوكها في إخلاص هؤلاء الأطراف أنفسهم. وهو الإجماع نفسه عندما يتعلق بإعلان إرادة الأسرة البقاء في المنزل، مهما كانت نتيجة مشروع الإصلاح، وسواء حصل الترميم أم لا. وقد زاود أحد الأبناء على كلام أخته، مؤكداً بلهجة قاطعة أن مشروع الترميم ليس إلا خدعة، تستهدف إجبار السكان على إخلاء منازلهم)

الابن: لن تبدأ الأشغال إلا عندما يتأكدون من استطاعتهم طرد الجميع، لإسكان الأسر التي تلائمهم فقط. وعلى كل فنحن نعرف منذ زمن طويل، أنهم إن فعلوا شيئاً فلن يكون لمصلحتنا، أو أنهم سيزيدون مبلغ الكراء إلى القدر الذي لا نستطيع معه البقاء، وسنضطر عندئذ للمغادرة، أو أنهم

سيعيدون إسكاننا في الأحياء الحقيرة بحجة عدم دفع الكراء. إنه أسلوب معروف جيداً. مؤكد أن هذا ما يريدونه وليس شيئاً آخر. لقد فهمت هذا من زمن طويل، ولا أفتأ أردّده هنا. إنهم يسخرون منا، وهذا كل شيء. لن نحصل على شيء، ويمكننا الانتظار دائماً. فهم لا يعملون من أجلنا. إنهم يلعبون بنا (تعبير عربي، هو الجملة الوحيدة التي تلفظ بها الشباب طوال الحديث، بينما لم يستعمل الأبوان سوى العربية).

إنهم ليسو من القطط يشتكون، بل منا

الابنة: ثلاث قطط هي (حيوانات بيتية) حقاً وتعد جزءاً من الأسرة، ولأجلها النزاع لأنهم يشتكون منها. إنهم ليسوا من القطط يشتكون.. بل منا، من أصحاب القطط. وهكذا فإن قططي تسبب الضوضاء!.. وكيف ذلك؟ انتبه جيداً، بنزولها الدرج. لقد قلته لك.. إنهم يسمعون القطط وهي تعدو!. هذا أحسن ما وجدوه.. ثم يقولون أنهم يحبون الحيوانات. لا أدري أية حيوانات؟ إنهم يحبونها جميعاً دون شك، بشرط أن لا تكون عند جيران.. من العرب!.

إن السيدة نفسها لديها كلب أيضاً، وتجد الأمر عادياً أن تطلق كلبها في الحديقة المقابلة، حتى أنها لا تمسك به من قيده، وتعتبر أن من حقها أن تكون في الحديقة كما في بيتها، إن الحديقة لها كما قالت لي، لا أدري كيف ولماذا تكون لها.. إنه طريقتها في قول: إن فرنسا لي، إن فرنسا ملكها. أما نحن فلسنا من فرنسا هذه، وليست لنا، ولا ننتمي إليها. إنها مقتنعة بذلك، فقد قالت لي يوماً أنه إذا كان لنا حديقة قبالة المنزل فبفضلها، لأنها هي التي كتبت لرئيس البلدية ونالتها، مع أن الحديقة هنا منذ قرن، وتهددنا بمنعنا من الدخول إليها، أي دخول أرض عمومية (..)

الابن: ولا ننس الماء الذي يسيل.. الحنفيات.. دورة المياه. كل هذا يسبب ضوضاء كالرعد.. إزعاج لا يحتمل كما تقول. لقد وَشَت بنا بحجة أننا كثيرون في المنزل. وأن المنزل مشغول أكثر من اللازم كما تقول.. أو كما

قيل لها أن تقول، لأنني لا أعتقد -فيما بيننا- أنها من الذكاء والتعليم بحيث تستطيع كتابة هذا.. إن المنزل باسم والدينا بالطبع، وقد تربينا هنا وكبرنا، فهو منزلنا إذن، فلا يأتين أحد ويقول لنا بأن لا حق لنا بالسكن فيه.

الابنة: سواء سكنا أم لم نسكن هنا، فهي مسألة تخصنا، ولا تخص أحداً غيرنا.. لاسيما الجيران. فما عليهم إلا الاهتمام بما يجري في بيوتهم..

الابن: إن لدى كل منا، في الواقع، بيتاً يسكنه، فلسنا هنا لأننا لا نمتلك مساكن. هذا خطأ ويمكننا البرهنة على ذلك، بوصولات كراء لمن يريد ومتى يريد: فأختي تقيم في بيتها، وتمر هنا بالطبع كل يوم. وتُشاهَد هنا دائماً، لأنها تأتي لترى والديها، وهو شيء عادي، لتطمئن أن الأمور على ما يرام. وقد تبقى لتنام هنا، إذ لكل منا غرفة أو سرير هنا، مع أن لديها بيتها.. نحن هكذا، لا نهمل الوالدين أو نأتي لنراهما ببساطة مرة كل الـ 36 من الشهر (..)

الابنة: ولدى كل من أخوي مسكنه: فالأول لديه غرفة وملحقاتها ليست بعيدة عن هنا، ويتردد هو أيضاً ما بين المنزل وغرفته. والآخر لديه شقته في انتظار الزواج ثانية. فلا يأتِ أحد ويقول إننا جميعاً هنا على نفقة الوالدين (..) بالطبع، يستطيع كل منّا أن يقيم هنا، فلكل من سريره هنا ومكانه على المائدة، لكن المنزل للوالدين. إنهما في بيتهما. ثم إنه لم يبقَ إلا هذا.. أنت في بيتك وأنا في بيتي، ثم تأتي لتأمرني فيما بعد إذا كنت أستطيع استقبال الزائرين أم لا، وتحصي عدد من هم في المنزل ومن حول المائدة. ليسوا هم الذين يطعموننا (..) إنها غيرة خالصة وهذا كل ما في الأمر. يستطيعون المجيء والمراقبة.. لكنها إلى الآن لحسن الحظ مجرد أقاويل وغيرة الجيران: إنكم كثيرو العدد ولهذا تطلقون الضوضاء، أو إن (السكن المعتدل الكراء) أو المجمّع ليسا موجودين لإسكان كل هؤلاء الناس!. إنها غيرة خالصة، لأنهم يريدون إعطاء الوالدين فقط جحراً صغيراً لا قيمة له. حيث لن يكون لأحد منا مكان.

الابن: إذا ما استطعت فهم شيء من كل هذا، فهو أنهم ببساطة، لا يريدون أن نكون هنا، أو فيما إذا كنا هنا فلا حق لنا في الظهور. لا قطة ولا كلب ولا شارع ولا حديقة ولا طفل وما شابه ذلك. إننا هنا في بيتنا مع ذلك، ويكادون أن يقولوا لنا بأن لا مكان لنا مع والدينا.. (..) هو هذا المجتمع، مع أننا جميعاً أولاداً وبناتاً نتمتع بالجنسية الفرنسية، لكن اذهب وقل لهم هذا. وعلى كل فهو شيء لن أقوله أبداً، فقد يسرّهم ذلك.

الابنة: غير مؤكد.. إذ يقولون أحياناً: حتى أنهم أعطوهم الجنسية الفرنسية، وهو الشيء الأكثر نفَاسة في نظرهم.

الابن: لا يهمني، ولن يكون هذا الأمر من قبلي دفاعاً عن النفس على كل حال. لن أقول لهم: «لِمَ أنتم عنصريون؟ فأنا فرنسي» فهذا يعني أنهم يستطيعون أن يكونوا عنصريين مع أبي؟ أطرح السؤال: فإذا كانوا عنصريين مع أبي فليكونوا كذلك معي على الرغم من أن جنسيتي الفرنسية، إنها مسألة كرامة.

الأب: (على سبيل التلخيص) كل هذا لا يهم إلا قليلاً، هناك شيء ينبغي معرفته وهو أننا لن نغادر هذا المكان!. (سكون طويل من الجميع، عندما تكلم الأب برصانة هذه المرة، لافتاً انتباه الجميع وأنا أولهم) لأنه لا مكان نذهب إليه في مثل سننا. (إنه دون شك الاعتراف الأكثر إيلاماً لمهاجر، أي لإنسان كان يجتهد كل حياته للاعتقاد بأن له بلداً و(وطناً) يعود إليه).

عليهم أن يقدموا هذه الحسابات

لكن ليس لي، بل لفرنسا..

(على الرغم من أن الحجة التي كان ينبغي استعمالها، لتسويغ التحقيق، تمنع كل استفهام حول الصفات الاجتماعية للشخص، استطعنا - دون قصد- معرفة أن الأسرة، وهي دون أولاد، استقرت عام 1975، آتية من باريس حيث كانت تسكن بضيق، غرفة وملحقاتها. وقد امتلك الزوجان

المنزل الذي يسكنانه بفضل مبلغ ورثته الزوجة عن أبويها. يعمل الزوج في (إدارة النقل الباريسي) أما الزوجة، وتبدو أسن منه بوضوح، فلم تعمل قط)

❖ إنني أقوم بجولة في الحي، وأرغب في التحدث مع هؤلاء وأولئك، ورؤية جميع سكان هذا الحي الذي لا يتكون إلا من منازل: ما رأيهم بإطار حياتهم، وكيف يرون مستقبل هذا الحي، ما التغييرات التي حدثت في جوارهم وفي بيئتهم منذ استقرارهم، وهل كانت هذه التغييرات نحو الأفضل فيما يتصل بظروف الحياة والسكن أم على العكس نحو التردّي؟ (..) ليس لدي أسئلة محددة أطرحها عليكم، بل أرغب في التحدث معكم والحصول على رأيكم وانطباعاتكم.

السيدة مونيير: أهكذا؟ نعم! بمعنى آخر، إنهم الآن مضطرون للاعتراف بما هم فاعلون. لأنهم لم يعودوا قادرين على إخفائه. لقد فهموا أننا على علم بكل شيء، إنهم يستيقظون.. لأنهم كانوا يظنوننا عمياناً، ولا نفهم شيئاً من دسائسهم.

❖ ماذا تقصدين؟ أية دسائس؟ وما هو الذي لا يمكنهم إخفاءه؟ وما هو الشيء الذي يفعلونه ويعترفون بفعله، في نفس الوقت؟

س. م: لأنك لا تعرفه؟ إنك لن تستطيع جعلي أصدق هذا، بينما يعرفه الجميع، ويراه الجميع..

❖ ما الشيء الذي يُرى؟

س. م: قريباً. سوف يتغير سكان الحي جميعاً، فالناس يغادرون، وكل شيء هنا للبيع. وإذا تجولتُ بك في الحي، سأريك أن منزلاً من كل اثنين للبيع. وهذا يسبب سعادة سماسرة العقارات. وهم لا يأبهون، بشرط أن تسير مصالحهم. إنه لمن يدفع أكثر أو لأول من يأتي ويعرض عليهم.. إنهم لا يأبهون.. فليسوا هم الذين يسكنون هنا.. إنهم.. إنهم لا ينظرون إلا إلى الأموال التي ترِد إليهم.

❖ لِمَ يبيع الملاّك هنا منازلهم؟ وهل يحدث هذا أكثر من أماكن أخرى؟ أو أنه الشيء نفسه في كل الأحياء المشابهة لهذا؟

س. م: لا أدري، فأنا أعرف هذا الحي، ولا أعرف غيره. ولكن لابد أن يكون الشيء نفسه في أماكن أخرى بالتأكيد، إذا كانت الأمور مشابهة لما يحدث هنا.. لقد لاقينا الأمرّين للحصول على هذا، لأجل بيت لنا. دفعنا الثمن غالياً وضحينا بالكثير. وما كدنا ننتهي من السداد حتى بدأ الناس يغادرون.

❖ لِمَ يغادر الناس، كما تقولين؟

س. م: لو كان زوجي هنا، لأجابك أفضل مني. لقد كان سكان الحي السابقون، عندما وصلنا إلى هنا.. أناساً مسنين. والملاّك من المتقاعدين. ثم حصل الفراغ؛ فبعضهم ذهب والبعض الآخر في دور المتقاعدين وملاجىء العجزة. وليس الأبناء من يستطيعون الاستمرار في السكن هنا. ولا يُعرف مكانهم.. ولذا تُؤجّر المنازل لأجانب. أجانب عن الحي، وليس دائماً لمهاجرين. وحتى المستأجرون، لا يبقون طويلاً.

❖ ومن يشتري؟

س. م: أناس أجانب دائماً، يأتون من كل مكان. وحتى هؤلاء الناس الذين يصلون كملاّك جدد، لا يبقون طويلاً، لا يبقون طويلاً. وغالباً ما يبيعون بعد ثلاث أو خمس سنوات.

❖ لماذا؟

س. م: لأن السكن هنا لا يحقق أو لم يعد يحقق مصلحتهم. والحي يخيب أملهم: فكل هذه المساكن الفردية صغيرة عموماً، وليست مريحة.. ولابد دائماً من أشغال تُعمل. وهي الحال معنا: أشياء ينبغي تبديلها في التدفئة والتمديدات الصحية، والسقف. وكل هذا يكلف غالياً. وهكذا فبعد سنوات من شرائنا للمنزل، نبيعه ونترك المكان. السكان يتبدّلون دون انقطاع، وليس إلى الأحسن دائماً.

❖ ماذا تقصدين بلَيس إلى الأحسن دائماً؟

س. م: إن الحي كله متأثر بذلك. ونحن الموجودين هنا منذ حوالي 15

سنة، نشعر بكل هذه التغييرات. لا أريد هجوماً على أحد ولا أريد اتهاماً. وما سأقوله ليس من باب العنصرية. (إن هذا هو المزعج، فما أن نشكو بأن الحي يجنح للتردي، ويسوء سكانه، حتى نُتّهم بالعنصرية). فليس من باب العنصرية، قَوْلي بأن هنا عائلات مهاجرة، وعائلات عربية أكثر فأكثر. إنني لا أعرف أصولها، أهي جزائرية، مغربية، عائلات مغاربية. وهذا ليس من شأنه تحسين الأمور لجعل الحي مقبولاً. ولذا ترى الجميع يتركونه في نفس الوقت.

❖ من أين تأتي هذه الأسر المهاجرة «العربية» كما تقولين؟ إن الحي مكوّن من منازل، وليس من مساكن شعبية كما في الأحياء الأخرى. وليس بمقدور كل إنسان أن يسكن هنا ويشتري منزلاً.

س. م: أوه، لا، ليس الأمر كما تظن، إنهم يأتون أكثر فأكثر، ويصل منهم كل يوم تقريباً، انظر، إن كل التجار هنا من العرب تقريباً، وكل محلات البقالة بأيديهم. لكن هذا ليس كل شيء، وليس هو الأخطر، بل الأخطر هو أن الحي يميل إلى أن يصبح شعبياً. حياً كتلك الأحياء التي يتكلمون عنها. نرى الأشياء تتحول بسرعة، بسرعة كبيرة. لم يعد الحي حي إقامة كما كان أو كما كنا نظنه عندما اشترينا المنزل وبالثمن الذي دفعناه. كانت هناك خدعة. لقد سرقونا ويستمرون في سرقتنا، لقد كبّلتنا الديون، ونسدّدها باهظة بكل غباء. الآن انتبهنا إلى خداعهم لنا، فلقد مرّغونا في الطحين.

❖ كيف ذلك؟ فإذا اضطررتم لبيع منزلكم مثلاً، فإنكم لن تخسروا من ثمنه؟ هذا غير ممكن.

س. م: أبداً.. من المؤكد أننا سنخسر. إذ أن الجميع يهربون، والحي يتردّى من كل الجوانب. ولن نحصل أبداً على الأموال التي دفعناها. فإذا بعنا هنا مثلاً ورغبنا الشراء في مكان آخر أو مدينة أخرى أكثر أمناً، ووضعها أفضل من هنا، فإننا لن نستطيع أبداً.

❖ إنني لا أفهم جيداً ما تسمينه «الجميع يهربون»، «الحي يتردّى»؟ ومع ذلك فأنا لا أرى شيئاً من هذا. بل نظافة وهدوءاً وسكاناً لائقين.

س. م: لا. إنها المظاهر الخادعة. صحيح بالنسبة لمن لا يعرف الحي لاسيما في السابق، لكننا مقيمون منذ 15 عاماً ونشاهد كيف تتردّى الأمور.. فكل شيء يتردّى.

❖ من أين يأتي هذا التردّي؟ وفيمَ يتمثل؟ أفي الخدمات أو البناءات أو السكان؟

س. م: نعم.. هذا هو.. هو ما تقول بالضبط. فمنذ اللحظة التي يفقد فيها الحي سكانه، سكانه الحقيقيين الذين بنوه بأنفسهم أكثر الأحيان، لا يعود موضع عناية، ويُهمل كل شيء، لأن الناس لا يقومون بالإصلاحات اللازمة، ويصير كل شيء بشعاً: انظر، أرأيتَ زهرة أو نبتة على نافذة في هذا الشارع؟ إنها لا توجد إلا عندي. وتمر أوقات أتساءل فيها عن جدوى هذا، ولِمَ كل هذا؟ وكأنك تقدم المربى للخنازير. لكنني آتية مع ذلك، وليكن ما يكون، إذا كان هذا استفزازاً. ولِمَ لا؟ إن هذا ما يحصل عندما يكون المنزل مهملاً. إننا هنا منذ 1977، ولم أعد أعرف أحداً في هذا الحي. فأستطيع الخروج طيلة اليوم لأتنزّه في الناحية أو لأقضي ساعات وساعات في الحديقة العمومية، دون أن أجد شخصاً يحيّيني أو أحيّيه، مع أن الناس كثيرون. ولم يعد لنا جيران. ولا نستطيع الاعتماد على أي شخص، ولا يقدم أحد خدمة للآخر. إن كل هذا يذهب أيضاً، وحياة الحي لم تعد موجودة، وهكذا نرى الأشياء تتغير، لكن ليس للأحسن.

❖ ماذا على سبيل المثال؟

س. م: البريد مثلاً ليس إلا. فلقد انتهى الانتظام. من قبْل كان سُعاة البريد دائماً هم أنفسهم. كنا نعرفهم، وكانوا يعرفون الناس كلهم. والتوزيع يتم في نفس الساعة تقريباً وكأنما يتم بناءً على ساعة يدك، فلا حاجة بك للنظر إلى الساعة. أما الآن فالسُعاة يتبدلون دائماً، ولم تعد الثقة موجودة. ويمكن للتوزيع أن يكون في أية ساعة؛ التاسعة صباحاً أو الواحدة ظهراً. والشيء نفسه بالنسبة للغاز والكهرباء والماء والزبالة، أي الخدمات. إننا نشعر باللامبالاة في كل مكان ولا نستطيع قول شيء. نشعر بأن البلدية قد

هجرت الحي ولم تعد تعيره اهتماماً، لأنها التفتت إلى جهات أخرى أكثر أهمية لها.

❖ لماذا؟ وما أسباب ذلك؟

س. م: اذهب واسألهم.. وسترى ما يقولون لك.. هذا إذا جرؤوا على قول أي شيء لك، قول الحقيقة! أود أن أعرفها أنا أيضاً. ولكن على كل حال فهذا ما أراه.

❖ ألم تحاولوا فيما بينكم أن تحتجّوا، وتقوموا بمسعى لدى البلدية لطلب خدمات أفضل؟

س. م: ولكننا نعمل ذلك، ينبغي أن نكون كثراً ومتفقين على رأي واحد، بيد أننا -كما قلت لك- لا يعرف بعضنا بعضاً، ولا يكلم بعضنا بعضاً. فلن أطلب من جيراني الذهاب معي لتقديم شكوى، والاجتماع، وبحث ما يجب فعله، كالاحتجاج أو توقيع عريضة أو مجرد رسالة فقط. وكل شيء كهذا.

❖ من هم جيرانك؟

س. م: كيف ذلك؟ ألم ترهم؟ لقد رأيتهم قبل مجيئك لعندي؟ وعلى كل فستراهم لأنك تمر لترى الجميع.. الأفضل إذن أن أقول لك كل شيء، وبهذا لن يفلتوا منك. وحتى لو كنت لا تنوي الذهاب إليهم، فإنك ستسارع لرؤيتهم بعدما تسمع ما سأقوله لك عنهم، لتنقله إليهم، وهو شيء جيد.. يجب أن تقول لهم رأيي فيهم.. إن لم يكونوا يعرفونه، لكنهم يعرفونه لأنهم في أنسب مكان لمعرفته، إننا لا نتسامح في أي شيء. ليس من مشكلة مع الوالدين، فهما هادئان لا يُشاهَدان كثيراً ولا يُسمعان. المشكلة مع الأبناء، أبنائهم وخاصة ابنتهم. لا أدري من تظن نفسها هذه. إنها تنظر إليك من علٍ! ولا أخطئها أبداً كلما استطعت. قد أكون على خطأ، ولكنني أعترف بذلك. إنهم يظهرون لنا جيداً، بأن لا أهمية لنا.

❖ من هم؟

س. م: لكنك تعلم جيداً من هم. فإذا كانت البلدية أو إدارة (السكن المعتدل الكراء) أو لا أدري من، أرسلوك هنا، فلأجلهم وليس لأجلي. فأنا لا أهمية لي، ولا يأبه بي أحد، كل الناس يهملونني.. أنا لا أهمية لي.. لا أهمية لأحد هنا الآن. وهم يظهرون لنا بأن لا أهمية لنا، وأننا كمية مهمَلة، وأن لا أهمية إلا لهم.

❖ من هم؟ أنا أهتم بكل السكان هنا، ولا فرق بين الواحد والآخر، ولست أنا الذي يقرر مَن مهمّ ومن ليس مهمّاً كما تقولين. أنا مستعد للإنصات إليك بانتباه وتذكّر كل ما يمكن أن تقولي. ولهذا أدون كل شيء، وأسجل كل ما تقولينه لي، إذا ما قبلت. إن وجهة نظرك تستحق الاعتبار نفسه الذي يُعطى لوجهة نظر جيرانك ولكل من يسكن هذا الحي. فمن هم جيرانك إذن؟ ومن الآخرون الذين تتكلّمين عنهم؟

س. م: هم.. عائلة عربية، مغاربيين. لا أدري لكنني أظن أنها عائلة جزائرية.

❖ وإذن، ما الشيء الذي لا يسير على ما يرام معهم؟

س. م: حسناً! لا شيء، ولا شيء يمكن أن يسير، فلا يمكننا التفاهم. ليست لدينا الأذواق نفسها، ولا العادات نفسها. ولا نعيش الحياة نفسها. ولا نرى الأشياء نفسها بالطريقة نفسها. وإذن فلا مجال للاتفاق، ولسنا متفقين.. على أي شيء.

❖ هل اشتروا؟ هل هم مالكون؟ كيف وصلوا إلى هنا؟

س. م: سأقول لك. منذ ساعة وأنا أقول بأن كل شيء قد تغير هنا. حسناً، هذا ما أردت قوله: لم أبدأ بهذا، لأنك كنت ستصرخ يا للعنصرية. كنتَ ستقول جهراً أو بينك وبين نفسك: كم هي عنصرية هذه المرأة. لكنك الآن ستفهم. إنهم جيراني مباشرة، ولا يفصلنا سوى جدار مشترك، جدار يفصلنا. لقد كنا هنا قبلهم، وكنا هنا عندما جاؤوا، عندما وضعتهم البلدية هنا.. لأن البلدية هي التي استقدمتهم.

❖ كيف استقدمتهم البلدية؟

س. م: كيف؟ ألم يقولوا لك في البلدية؟ كنت أظن أنهم أعطوك أسماء كل الأسر الموجودة هنا. إن المنزل الذي يسكنونه ملك البلدية (..) (وتروي قصة هذا المنزل الذي أضحى مهجوراً بوفاة مالكيه فاشترته «البلدية أو مكتب السكن المعتدل الكراء» وخصصته لإحدى الأسر) إن الأمر يبدأ دائماً هكذا: أسرة واحدة، أسرتان في البداية، الواحدة تجلب الأخرى، وهكذا دواليك، وقريباً جداً سيصبح الحي كأحياء ليمينجيت، لاكورنوف أو فال فوريه. إنهم يتحدثون عنها لدرجة أصبح معها الجميع يرغبون بأن يكون الشيء نفسه عندهم. لأن هذا هو ما أرادته البلدية.. هذا الحي سيصير حياً شعبياً كالأحياء الأخرى، لقد عانينا الأمرّين ليكون لنا بيتنا.. وكنا نظن أنفسنا في بيتنا.

❖ لكن ما هي المساوىء التي أدى إليها وجودهم هنا؟ وفيمَ يزعجك جوارهم؟ إن هذه المنازل منفصلة ومعزولة، الواحد منها عن الآخر. وليست مثل البنايات التي تتلاصق فيها الشقق، ويؤدي ذلك إلى الضيق بالضوضاء والذهاب والإياب والروائح.. إلخ.

س. م: آه نعم! إن الأبناء مدعون.. سريعو التهيج (..) وما أن تفتح فمك حتى يتهموك بالعنصرية، وأي شخص لا يشاطرهم رأيهم فهو عنصري في نظرهم.. والواقع أنهم هم العنصريون.

❖ لكن هل لديك أمثلة؟ وهل حدث بينك وبين أشخاص آخرين، أو جيران آخرين منازعات؟ وما هي الأسباب الأكثر تكراراً لهذه المنازعات؟ إذا استطعتِ إعطائي أمثلة فسأفهم بشكل أفضل.

س. م: حسناً.. لو أردتَ المنازعات.. فهي دائمة، ولن تتوقف أبداً. وما يجعل المنازعات غير عنيفة، ودون ضجة، هو أنني أتظاهر بالصمم، وأغض طرفي لأنني لا أريد أن أرى.. وهذا يعني أن المنازعات دائماً مكتومة.. فنحن نتجنب.. منازعات.. ماذا أقول؟ إنها منازعات خرساء، إذ لا حاجة للكلام فنظر بعضنا لبعض يكفي. إن الأخير فيهم.. الصغير.. هناك اثنان وهما

حفيداهما.. حسناً.. ما أن يرياني حتى يكشرا في وجهي، ويخرجان لسانيهما لي. نعم، مع أنني لم أفعل لهما شيئاً. وبعبارة أخرى، إنهما يتعلمان فعل هذا داخل الأسرة. وبما أن الأمر هكذا، فأنا الآن لا أخطئهما من جهتي، حتى لو قيل عني: إنها مجنونة وشرسة، وامرأة راشدة تتسلط على الصغار، فلا يهمني ذلك. إنني لا أخطئهما، ليس لأنهما المذنبان في الحقيقة بل أهلهما المذنبون. أما الصغيران المسكينان فلم يفعلا لي شيئاً. وإذن فمن أجل هذا فقط، هناك دافع للشجار.

❖ لكن كيف تجري الأمور؟ هل تذهبين لرؤية الأهل للشكوى، وهناك يحدث الشجار.. هل تزجرين الصبيين ويتدخل الأهل.. ما الذي يجري؟

س. م: أوه.. ليس هذا. فأنا لا أجرؤ أبداً على الذهاب والشكوى. لأن طرق بابهم سيؤدي بي إلى سماع ما لا يرضيني. وسيكون ذلك استفزازاً من جهتي، يجعلونني أدفع ثمنه غالياً. إن مشكلاتي معهم هي مع ابنتهم، إحدى بناتهم، تلك التي تعيش معهم وتعمل في المستشفى.. ولا أدري لماذا؟ فلا تفاهم مع هذه أبداً. فالمشكلة إذن من امرأة لامرأة أو بين نساء، كما يقول زوجي (..) والأمر كما يقول بالضبط. فأنا وحيدة من جانبي وإذا كانت هناك ملاسنة مع هذه البنت -لأنه ليس بيننا إلا الملاسنة فلا ضرورة للمبالغة، ولا نتماسك بالشعر بل نتقاذف بالكلام وهذا كل ما في الأمر- أقول: إن كانت هناك ملاسنة، فلا تلزم سواي مع أنني أدافع عن مصالح المجموعة السكانية بأكملها في حقيقة الأمر. إنها منازعات مني.. ومني فقط، ولا يسهم زوجي في هذه المنازعات. ولا أحرضه حتى على أن يكون في صفي، ولا أقول له شيئاً. فما دام الأمر بين النساء فليبق بينهن. لكنني متأكدة من أنها تتكلم نيابة عن الجميع، وأن كل أسرتها معها ضدي، أبوها، أمها، إخوتها، وأخواتها وأولاد أخواتها وكل أبناء عمومتها وكل قومها. فالأمر بالنسبة لهم إذن ليس محصوراً بيني وبينها فقط.. ولذا أشعر بأنني كمن يصارع وحيداً ضد عشرة، فأهجم ولا أدع شيئاً يمر، وليكن ما يكون، حتى لو دفع الصبيان الثمن. إنها ليست غلطتهم ولكنها ليست غلطتي أيضاً.. فإلى الأمام.. دون هدنة.

❖ لكن لا توجد منازعات مع الآخرين، مع الشباب مثلاً؟

س. م: لقد قلت لك، ففيها الكفاية. إذ أنها تتشاجر بالنيابة عن الجميع، وهم متفاهمون على ذلك، هي مُهاجمتُهم ومقاتلتُهم. وهكذا يتمكنون من البقاء في الخلف والمشاهدة فقط متظاهرين بالحياد ومعتمدين عليها. أنت ترى إذن -اسمح لي- وضع الكفيف الذي أجد نفسي فيه. أنا هي الشريرة، أما هم فاللطف والجمال مجسدان.. أنا الفرنسية هي الخبيثة والعنصرية. هذا هو الفخ فلقد انقلبت الأدوار.

❖ لكن الرجال، الشباب؟

س. م: لست على صلة بهم، لأنني أعتقد أنه لو حدث لي ملاسنة معهم، فسيتدخل زوجي. وهنا تتعقد الأمور ويحصل ما لا تُحمد عقباه. وأشعر بأن الجميع يعرفون هذا، فزوجي بمظهره الهادئ لا ينتظر إلا هذه الفرصة. وهم يشكّون في ذلك وأنهم إذا تجاوزوا الحدود، قد يصبح الأمر في غاية الخطر لهم.

❖ على ماذا تُحمل منازعات النساء في هذه الحالة؟

س. م: إذا أردت قول الأشياء كما هي، فليس بإمكاني القول بأنها أشياء هامة حقاً أو أنها تُحمل على أشياء خطيرة، إنها تُحمل على كل شيء ولا شيء.. أي على تفاهات. لكن الأمور هكذا.

سخافات تافهة

❖ أين كان آخر اشتباك ولو خفيف بينكما؟ وكيف كان؟ ولماذا؟

س. م: إنه دائماً بصدد الشيء ذاته، حول سخافات تافهة كالقطط والكلب والأطفال.

❖ كيف ذلك؟

س. م: نعم، القطط. لنبدأ بالقطط. ابنتهم، تلك التي تعيش مع أبويها، لا أعرف كم عمرها.. ثلاثون عاماً بالتأكيد، لكنها دائماً مثل صبية

صغيرة تعيش مع أبويها. لديها قطيع من القطط.. ثلاث، أربع، خمس. أنا لست ضد هذا لأنني أحب الحيوانات أيضاً ولدي كلب أنا أيضاً. ويظهر أنها مفتونة بالقطط، فلكل امرىء ما يحبه، وهي تحب القطط التي ليست لي ولكنها تثير فيَّ الشفقة! إذ ما إن يفتح الباب صباحاً، حتى أراها تعدو مجتازة الشارع إلى الحديقة، حيث تبقى حتى ساعة توقف المرور. أترى هذا؟ فربما يلتقطهن أحد يوماً.. أو تدهسهن سيارة. إن هذا يؤلمني ولا أستطيع تخيله بالنسبة لامرأة تدّعي أنها تحب القطط، قططها، دون أن تحسب حساباً لذلك. وعندما تكون القطط في الحديقة، ماذا عساها تفعل؟ إنها تستعمل الأرض والممرات وأحواض الرمل المخصصة للعب الصغار لقضاء حاجتها. أترى هذا؟ إن ذلك ليس من النظافة في شيء وليس صحياً على الخصوص. ولكن الأمر هكذا وعلينا التعايش معه. اذهب وقل لهم. وإنني لأسمع من هنا ما سيقولونه، ما سيصرخون به «لسنا في بيتك، الحديقة ليست لك، اهتمي بكلبك وحسب، نحن لم نأت لنطلب منك حساباً». «نحن لسنا في بيتك» بل هم في بيتي لو يعلمون، في فرنسا، ولست أنا التي في بيتهم. لا يجب قلب الأمور.. «لم نأت لنطلب منك حساباً» هو ذاك: يجب تقديم الحساب.. يجب أن يقدموا هذه الحسابات، ليس لي وإنما لفرنسا. وأنا لا أقول إن فرنسا هي أنا. لكن عليهم أن يضعوا هذا في حسابهم وفي رؤوسهم، لاسيما الشباب منهم.

إن المشكلات تحوم حول أشياء كهذه دائماً.. توافه ربما، لكنها ذات معنى. نعم، إن الأمور التي نشتبك فيها وليس فيها تفاهم بيننا، هي الأشياء الخارجية دائماً، فأنا لا أتدخل بالطبع فيما يجري لديهم لأنه لا يعنيني. وحتى الضوضاء التي يتسببون فيها، لا آبه بها! إنها تضايقني قليلاً، لكن الأمر ليس بذي خطر.. إن ما يجري لديهم لا أتدخل فيه حتى لو سمعت أشياء.

❖ مثلاً.

س. م: لقد سمعت -لكنني لم أدخل عندهم، ولا أتدخل فيما لا يعنيني- أنهم حوّلوا المرحاض لديهم إلى حمام كما يفعلون في بلادهم.

❖ كيف ذلك؟

س. م: يظهر أنهم يسخّنون الماء في قدر كبيرة على موقد الغاز. وهكذا يحصلون على البخار. ثم يأخذون حمّام بخار كما في حمّاماتهم. لكن تخيل ما سيحصل على المدى الطويل ومع تكرار العملية.. من تلف في الطلاء والتمديدات الصحية وخشب الأبواب والنوافذ. وإنني لأتوقع هذا منذ الآن.. وعلى كل فهذا ما يقال، وعلى هذا القياس قِسْ (..) وهذا ما لا يمكن تحمله إلى ما لا نهاية. فيجب أن تقول هذا ويجب أن يُعرف.. (..) حتى وإن كنت لا أغفر لهم مما يحصل في الخارجْ شيئاً، ولا مجيء الصغيرين مع عمّتهما إلى الحديقة حيث يوسخان كل شيء ويكسران ويزعجان. ومع أن اللعب بالكرة ممنوع في الحديقة إلا أنهم يفعلونه، وعندما يكونون في الحديقة، أمنع كلبي.. ولا أُخرجه. لأنهم بإثارته وتخويفه قد يدفعونه إلى عضّهم، وعندئذ علي تحمل النتيجة بما فيها من مزعجات تسببوا فيها قصداً. وهكذا سينتهون إلى التحكم في كل شيء هنا. ولو وُجدت أسرتان أو ثلاث أخرى على هذه الشاكلة، فلن يكون لنا حق في الخروج. وكل هذا من أجلهم! ولهذا أقول في نفسي أن علي التحرك قبل فوات الأوان.



روزين كريستان

كلٌّ في بيته

عرفتُ والدة فرانسواز عام 1962، فقد كانت بوابة في الدائرة 13 في باريس، وكان زوجها عاملاً مختصاً لدى رونو. وحافظنا خلال السنين على علاقات وديّة على الرغم من تباعدها ومن تغيير محل الإقامة مراراً. لكن هذه العلاقات استمرت بشكل خاص مع ابنتها فرانسواز.

وقعت الأسرة في ارتباك شديد في 1987. وقد روَت لي فرانسواز عدة مرات خلافاتها مع مالك المنزل الملاصق لمنزلها، والمساعي التي قامت بها لإنهاء وضع ترى أنه لا يطاق. ظهرت لي روايتها مألوفة، كحدث قليل الأهمية، مع أن ما كنت أعرفه عنها وعن أهلها كان يفرض السماح لي بإعطاء حديثها دلالة. لكنني كنت أعرف الأسرة بالقدر الذي لا يسمح لي بملاحظتها. وقد أعطتني النهاية السعيدة للنزاع (فالعائلة تعيش الآن «في منزل لكوادر الشركة الوطنية للسكك الحديدية» المسوغ لحديث يدخل في نطاق البحث حول السكنى، حيث يمكن لفرانسواز أن تصف لي المساكن المتتالية التي شغلتها مع الإلحاح على أسباب ونتائج مختلَف التنقلات).

وصلت فرانسواز إلى بيتي في الموعد يوم 27 آذار 1991 أي اليوم التالي «لأحداث سارتر فيل» التي أثارها اغتيال شاب من البور[1] («جمال»

[1] Les Beur هو اسم يطلق على الفرنسيين ذوي الأصول الجزائرية.

الذي قتله حارس مجمع تجاري). كانت ملابسها تنم عن ذوق كلاسيكي، تلبس حذاء موكسان أسود اللون، شعرها قصير صُفِّف دون تجعيد، وليس على وجهها أثر للزينة. وكانت هادئة كعادتها ولا غبار على هيئتها. لكن نظرتها القلقة، وصوتها المرتجف التماساً للاستحسان، كانا يشيان بحالتها، وقد أدركت بسرعة أهمية ربط الأحداث الأسرية مع التسلسل الزمني للمساكن لتفسير هذه (الأزمة).

تزوج والداها عام 1948 في أشير، وأقاما بضعة أشهر في بيت صغير ملحق بالحديقة التي تمتلكها الجدة.. ومن ثم..لا تدري حقاً إن كان بإمكانها قوله.. «احتلالاً دون حق مع زوجين آخرين قصراً في أشير، إذ كان في ذلك الزمان منازل جميلة ومهجورة.. وكان الأمر مقبولاً عندئذ، وليس كما هو الآن».. «لقد بدءا حياتهما هكذا» وكان أبوها يعمل في فيبر وسيمان بالقرب من بواسي.

كان عمرها سنتين عام 1950 عندما عثرت أمها على مسكن بواب في بناية تابعة لبلدية باريس، واجهتها من الآجر الأحمر، على مقربة من مصفاة السكر التي كانت تنفث دخاناً كثيفاً منتن الرائحة في الدائرة 13: شقة مكونة من غرفة رئيسة وحجرة نوم ومطبخ «كانت جيدة.. كشقة صغيرة نوعاً ما». وبعد فترة وجيزة كان أبوها فيها عاطلاً عن العمل، وكانت أمها تذهب للحصول على قسائم الحليب للرضيعة في البلدية، دخل عند رونو حيث بقي حتى وفاته. كان العمل شاقاً أحياناً بالنسبة له، لأنه لم يكن منخرطاً في النقابة أبداً «كان ضد كل هذا» «كان يريد الذهاب إلى العمل دائماً». وهي تذكر أنه أثناء إضرابات 1968، كان العمال النقابيون يستفيدون من تعويض في بلدية مسكنهم، لكن أباها لم يكن له الحق فيه لأنه لم يكن يملك بطاقة النقابة. لم يكن يستطيع السماح لنفسه بالإضراب، إذ كان (عاملاً مختصاً) «لم يستطع الارتقاء أبداً». ولم يكن راتبه كثيراً، فكان أبواها «ينحتان الصخر للوصول إلى الكفاية»، ولا عطلات، ولا نزهات. وقد مرضت الأم مرضاً خطيراً عام 1957، فاضطروا لترك المسكن الذي يقتضي

واجبات ثقيلة، لا تستطيع القيام بها. وعندما تذكرت فرانسواز تلك الفترة، اعترفت لي قائلة: «نحدث أنفسنا أنا وأمي أحياناً قائلين: عندما نفكر من أين أتينا وإلى أين ذهبنا، يدخل الخوف إلى نفوسنا».

سكنت الأسرة عندئذ في شقة مكونة من حجرتين ومطبخ في الطابق الأول من نفس البناية، فوق مسكن البواب بالضبط. وقد وُلدت باتريسيا، البنت الثانية، قبل الأوان «وإذ ذاك أضحى الأمر أكثر صعوبة، فكراء ينبغي تسديده، وطفلة أخرى» وأخذت أمها بخدمة المنازل في البنايات المجاورة. أما الوليدة فبقيت في حاضنة بالمستشفى «وعندما أعادوها إلى أسرتها، كانت المرشدات الاجتماعيات يأتين لرؤية فيما إذا كانوا قادرين على تربيتها، وفي أية ظروف». وهكذا، علاوة على الصعوبات المادية، أضيفت الإهانة الموجهة لخصالها المعروفة والمشهورة بها في الحي، كأم وربة بيت. إنها تتكلم أيضاً عن ذلك أحياناً ولكن ليس كثيراً؛ إذ هناك أشياء من الأفضل نسيانها. وفي عام 1965 انتصبت بنايات جديدة قبالة مصفاة ساي للسكر، فقدمت أمها طلباً للسكن «بحجة قِدَم مسكننا ووجود طفلتين». ولم يروا الدخان الأسود أو يشموه «هنا.. كانت قمة السعادة.. على ما يرام حقاً، ولم يكن أحد قبلنا. كان سرور باتريسيا عظيماً حتى أنها أرادت النوم في حوض الاستحمام، إذ ما كان عندنا حمام من قبل قط. وهكذا بدأتْ الفترة السعيدة، حيث بدأت الأمور تتضح أمامنا على الرغم من زيادة الأعباء نتيجة للكراء الأكثر ارتفاعاً أيضاً، لكننا حصلنا على حق تعويض السكن فسُمح لنا هنا بمعيشة لائقة».

«إنهم يتنفسون الصعداء قليلاً». في عام 1968 ورثت أم فرانسواز جزءاً من منزل أبيها في بورنيشيه، أي 30.000 فرنك استثمرتها في الحال بشراء شقة صغيرة في نفس المدينة «من أجل العطلات» وتلك ميزة عسيرة المنال. أما فرانسواز، فبعد شهادتها في المحاسبة بدأت تعمل ثم تزوجت تييري 1972، وهو مساعد ميكانيكي في السكك الحديدية، وكانت تعرفه منذ زمن طويل. فبما أن والد تييري كان يعمل بالسكك الحديدية، قرر الغلام

منذ الرابعة من عمره أن «يعمل في القطارات»، فدخل للتدريب في السكك الحديدية عندما كان في الرابعة عشرة، حيث مكث ثلاث سنوات، حصل بعدها على شهادة الكفاءة المهنية في الإلكتروميكانيك. وأخذ يرتقي السلم شيئاً فشيئاً، فمن مساعد ميكانيكي إلى ميكانيكي ثم رئيس قطر بعد ست سنوات من الدراسة المسائية. وقد حافظ تييري على افتتانه الطفولي بالقطارات، ولهذا لا يريد الارتقاء كثيراً في المراتب المهنية، لأنه سيكون حينئذ «في المكاتب» وليس «مع الآلات» كما يحب. وتشعر فرانسواز بالضيق قليلاً من هذا الاهتمام الحصري، لكنها تذعن لأنها في المقابل تقود الأسرة كما تشاء، تقرر في شأن تربية الأولاد، وتسيّر الميزانية وينصاع تييري دائماً. وهي لا تتكلم عنه إلا قليلاً. وكأن زواجها من طبيعة الأشياء، حتمي ولائق. توفي والدها بالسرطان عام 1976، وكان في الثانية والخمسين من عمره «لقد حدث الصدع يومها والحياة توقفت في تلك اللحظة. لتبدأ حياة أخرى، من أسوأ ما يكون.. كارثة» ولم يكن لأمها «حق في أي شيء» لمدة سنتين لأنها لم تتجاوز 48 عاماً، وكان ينبغي انتظار الخمسين حتى يكون لها حق في منحة التقاعد. ثم توقف الضمان الاجتماعي بعد سنة. وقلنا في أنفسنا «إنها الكارثة، ولن ننهض أبداً».

حدثت الوفاة في وقت بدأت فرانسواز فيه بناء حياتها كما تتصورها. فقد توقفت عن العمل («ليس مثيراً للاهتمام قضاء اليوم في تقليب الأوراق») وهي تربي ابنتها كارول وتوزع وقتها بين تدبير المنزل، وشغل الصوف. وأمسيات طويلة تقضيها مع أمها تتحدثان أحاديث دون أوهام.

كان مستقبل تييري يبدو واعداً في السكك الحديدية، لكن راتبه ما زال قليلاً. وأختها باتريسيا 19 سنة لم تجد عملاً بعد. وفرانسواز تفكر مع أمها التي أضحت دون أي مورد بأن «كل شيء سينهار». وتشعر بأنها مهدّدة هي وأهلها. لذا اتخذت دور (رب الأسرة) لتقوم بمساع حثيثة، فتعلم أن بإمكان أمها الإفادة من منحة تعادل خمس سنوات من راتب زوجها «لو لم نطالب.. إن الاستجداء ليس محبّباً، لكن كان علينا أن نعيش».

لكن تلك المنحة كانت زهيدة فليس لأمها الحق إلا في نصف تقاعد، دون ضمان اجتماعي. ولذا وجب إيجاد حل «والمنزل كان الحل». منحة الوفاة ستكون الدفعة المالية الأولى، وستعيش الوالدة مع ابنتها. وتستأنف فرانسواز العمل لدفع الأقساط، وبهذا يقترب تييري من عمله في محطة سان لازار.

لقد خالوه منزلاً عصرياً، لكن على طراز «جزيرة فرنسا» العريق، في مكان قريب من مانت، في مقسم جميل. حوله أشجار وخضرة، مطبخه واسع جيد الإضاءة مع حجرة لكل واحد وحمامين على الأقل. لكن المنزل الذي اشتروه كان «على النمط القديم» رقّع قليلاً، في شارع ضيق عادي من سارتروفيل. أما المطبخ فكان ضيقاً، والمنزل في مجمله أضيق من أن يتسع لخمسة أشخاص. لقد كانت فرانسواز مسرورة على الرغم من كل شيء فقد رتبت الأثاث الذي وهبتها إياه عمة عجوز، والمؤلف من غرفة طعام كاملة من طراز هنري الثاني لم تكد غرفة المائدة تتسع لها، وسرير «قديم» هو مبعث اعتزازها. «وتدبرنا أمرنا بما كان لدينا فيما يتعلق بالباقي، وبما أتانا من والديّ، وهو ليس بالكثير».

جرت الحياة خلال عامين هادئة. فتييري يحضر لامتحاناته ويزداد راتبه. وبعد ولادة ابنهما الثاني جان باتيست، استطاعت فرانسواز ترك عملها من جديد دون تأسف، لأنها منذ اليوم الأول الذي اكتشفت فيه -في وظيفتها الأولى- تزوير الوثائق والاختلاسات التي كان يقوم بها رئيسها المباشر، أخذت تنظر للحياة المهنية بريبة وتقزز. وبما أن العالم يعج بالمحتالين فينبغي إعطاء الأسرة كل شيء والحفاظ عليها. وهذا من اليقينيات الكبرى التي تتقاسمها مع أمها.

أما العلاقات مع مالك المنزل المجاور -والتي كانت مقبولة إلى حد الآن، صباح الخير ومساء الخير فقط- فقد توترت فجأة عندما بدأ الجار، وهو بنّاء برتغالي، بتعلية منزله طابقاً دون سابق إنذار. وقرر

بالإضافة إلى ذلك فتح نافذة «مع شرفة»لإدخال الضوء، تطل على منزل أسرة ميناجيه. وبما أن أسرة ميناجيه لم تحتمل هذا التطفل، فقد كتبوا إلى مديرية التجهيز في المحافظة، مطمئنين إلى أنهم على حق. فأُجري تحقيق، وشعر الجار بالإهانة، وبدأت من هنا سلسلة الصراعات. ولم تكن فرانسواز ولا تييري هما الأقوى في هذه اللعبة. إذ إن الأسرة البرتغالية لا تخاف الضجيج، وتعيش على صوت راديو- لشبونة. وقد وُلد لها وَلد ثالث. فيجب توسيع المنزل والقيام لهذه الغاية بأشغال كبرى ستستمر عدة سنوات، وبوتيرة تتناسب مع الفصول والمشاغل المهنية لرب الأسرة. ولأن شيئاً من الفوضى لا يفزِع هذا الجار الثقيل، فقد حول حديقته الصغيرة على الرغم من الاستنكار العام إلى قن للدجاج وزريبة للخنازير، ولم يكن يتردد في اجتياز النافذة المختلَف بشأنها، لرمي القاذورات، أو ببساطة، سرقة البندورة التي يعتني تييري بزراعتها.

كانت فرانسواز وزوجها حائرَين. إنهما يعلمان أن القانون في صفهما، لكنها لم يستطيعا الحصول على حقوقهما.. لقد وقفت مديرية التجهيز إلى جانبهما، وهو ما جعل الجار يكتفي في الفترة الأولى بسد النافذة المخالفة. وكان لابد من استئناف المساعي لدى الإدارة. وقد استقبلهما رئيس البلدية الشيوعي عدة مرات بأدب جمٍّ، لكن هذه الزيارات لم تؤدِّ إلى شيء. فعملا على تعبئة الجيران وتوقيع العرائض أو الكتابة للنائب العام، لأن السبل الإدارية والنظامية المعتادة لم تكفِ كما يبدو، لكنهم اصطدموا بجدار من اللامبالاة، إن لم نقل بالتشكيك، من قبل إدارة طفح بها الكيل. وكانت فرانسواز هي الأكثر تأثراً إذ لم تؤذِ أحداً في حياتها قط، فاجتهدت في التصرف برصانة مع احترام الأخلاق والأعراف وتبعاً لقوانين بلادها. وأخذت تشعر من جديد بانعدام الأمن، وترى اقتراب المخاطر التي كانت تظن أنها أبعدتها نهائياً عن حياة أسرتها والمتمثلة في البذاءة والمخالطة السوقية، والتي بدا لها

لفترة من الزمن أنها تحررت منها عند شرائها المنزل رمزاً للياقة والملكية والتميز ببيت خاص. وإذن فما من مَخرج من «هذا» (هكذا تشير إلى الخطر المبهم خلال المحادثة كلها) إلا الموت، موتها أو موت الآخر. بعد بيع المنزل، حققت الحفاوة التي استُقبلت بها من ساكني (الإقامة)، وهم جميعاً كوادر في السكك الحديدية، كل تطلعاتها وبعثت في نفسها آمالاً جديدة: فقد وجدت هنا بيئة دافئة وجديرة بالاحترام. كان تييري وفرانسواز وجلَين قليلاً بين هؤلاء الكوادر الراسخين في مراكزهم ويرفضان أحياناً -بدافع من التحفظ- المشاركة في بعض الحفلات، مع قبولهم في اليوم التالي الدعوة «لأكل ما تبقى». ولقد كانت العلاقات عموماً متفقة مع أصول السلوك اللائق التي رفعتها فرانسواز بسذاجتها إلى مستوى القاعدة الأخلاقية.

أما الآن، في 1991 فقد تبدلت الأشياء. إذ أخذت الشركة الوطنية للسكك الحديدية تؤجر لأي كان وليس للكوادر دائماً. ولم تعد الأمور كما كانت. وأضحى المستأجرون السابقون مسنّين، ولم يعد الخروج يروق لهم. أما الجدد فلا يهمّهم هذا. اختلف المحيط إذن.

تقول فرانسواز عن نفسها إنها تكثر من التفكير، وهذا يسهم في عزلتها، وأطفالها مثلها، فهم يختلفون عن الآخرين من أترابهم، وربما لا يكون هذا شيئاً جيداً، إذ ليس لديهم الكثير من الأصحاب. إنها «تفكر دائماً فيما قد يصيب أسرتها. والكوارث التي تحاول تلافيها». لكنها لم تستطع توقع موت أبيها ولا تلك المخاطر المبهَمة، والاعتداءات المتكررة والإهانات المذِلّة، أي كل «هذا» كما تقول. إنها دائمة الخوف. لاسيما على أطفالها هذه المرة. ففي الطرف المقابل للجادة، غير بعيد عن بيتها تقع أحياء أشير، شانتلو دي فينيه وسارتروفيل وهي تعج بـ«مغاربيين، شباب، أناس دون عمل». من هناك تأتي العصابات المتخاصمة التي تدفقت يوماً على المراكز السكنية باحثة عن العنف دون سبب واضح، أو عن تصفية حسابات غامضة. إن حي الشارع الوطني حيث أمضت طفولتها، كان جزائرياً في غالبيته لكن

«الأمور تجري على ما يرام»، حتى أنها لعبت مع صغار من الجزائريين. أما الآن «فلم تعد الأمور كالسابق»، وهي لم تعد تفهم. إذ يزداد عدد الشباب (المغاربيين) باضطراد في مدارس الناحية حيث «المستوى منخفض جداً»، ولذا اضطرت إلى وضع أطفالها في مؤسسة تعليمية دينية بعيدة وكان عليها أن تتعلم قيادة السيارة. وتعترف بأن «وضعهم في هذه المدرسة سيؤدي أيضاً ..» وتفكر في المراسيم والأعياد الدينية العديدة وفي مخالطة رفاق «مدلَّلين جداً من جهة مصروف الجيب». لكنها مضطرة وتريد إعطاء أطفالها فرصهم.

تحب فرانسواز كثيراً البقاء في البيت، وتقول أمها مازحة بأنه لا يمكن اقتلاعها منه. ويحتاج ذلك إلى ما لا يقل عن نصف ساعة من التحضيرات، قبل كل خروج حتى لو كان لمسافة قصيرة: كالتحقق من صنبور الغاز وإغلاق جميع النوافذ وبعض الستر، وتدوير المفتاح في القفل عدة مرات. «لم تأخذه مني كل هذا الهوَس» تضيف السيدة روجيه، التي قبل أن تستلقي ليلاً على ديوان صالون ابنتها المرتب جيداً، كانت تعيش دائماً في الفوضى العفوية والإلفة التي تميز هؤلاء الذين ليس لديهم الشيء الكثير ليخفونه. إنها تفكر مثلي دون شك بطاولة غرفة الطعام في شقتها ذات الغرفتين بالدائرة 13 التي كانت تتراكم فوقها دفاتر البنتين مع استمارات الضمان الاجتماعي التي ينبغي ملؤها أو مع الصفوف الأولى لكنزة صوفية، ولم يكن أحد وقتها يفكر في إخلاء الطاولة لأن الأكل كان يتم في المطبخ أكثر الأحيان. ولهذا لا تفهم السيدة العجوز الارتباك الناجم من القلق الملازم لملكية «بيت خاص» تم الحصول عليه أخيراً وبعد لأي.

مع صاحبة منزل في الضاحية

حديث مع روزين كريستان

«لقد عشنا جحيماً»

(..)

فرانسواز: بدأت المشكلات بالضوضاء، وجاءت من بعدُ الإهانات الشخصية، والتهديدات بالقتل.. إلخ، لقد وصلت الأمور إلى هذا الحد.. وهكذا أصبحت منهارة كلياً. كان معه مطرقة.. لقد فقدتُ أعصابي فأخذتُ بضرب الحائط المشترك، فخرج وخرجتُ أنا أيضاً، وحدث الأمر بيني وبينه لأن تييري كان في الحديقة ولم يشعر بشيء. كنا وجهاً لوجه، هكذا، وإذا به يقول «سأسلخ جلدك» وهو يهددني بأداة في يده. ومنذ ذلك اليوم أصبح كل شيء مخيفاً بالنسبة لي.. وقد لحقت بي هذه الحالة خارج المنزل، في الشارع وفي المدرسة. وانعكس هذا على الشخص.. على الأشخاص. (..)

كانت تصل الأمور إلى هذا الحد

كان الأطفال يذهبون إلى المدرسة معاً، وكان لهم ثلاثة أطفال: الصغير الذي وُلد حديثاً واثنان أكبر من كارول. لكنهما كانا على شاكلة

والديهما لسوء الحظ ويهددان كارول في المدرسة. وكم من مرة حاولوا دهسي بسيارتهم الكبيرة على الرصيف، عندما كنت أرافق كارول إلى المدرسة. تصل الأمور إلى هذا الحد. وعندما كنت أمرّ عند (..) وأذهب حتى صندوق البريد، كان هناك مقهى يكوّن زاوية مع بيتي. وفي أحد الأيام كنت في طريقي لوضع رسالة في الصندوق، وإذا بهم ينعطفون بسيارتهم حول زاوية الشارع بالقرب مني حتى أوشكوا على دهسي وكأن شيئاً لم يكن. وهكذا لم أكن في أمان حتى في الشارع إذ كانت لدي تلك الرهبة دائماً. حتى أنني لم أعد أخرج، وأخذ تييري يرافق الأطفال إلى المدرسة أكثر فأكثر. إلا أنني اضطررت للذهاب لرؤية المديرة لأشرح لها ما يزعجون به كارول. فهم يضربونها ويهددونها. إلى هذا الحد، لم تعد الحياة تُطاق. ولم يقتصر الأمر على الضوضاء بل شمل الاضطراب كل ما تبقى. صحيح أن الضوضاء شيء لا يُحتمل، لكن لو لم تكن التهديدات لكانت خفّت، فلا يُعقل أن يقوم بالأشغال طيلة حياته.. ربما.. مازلت آمل..

❖ هل تظنين أن هذا الشيء يحصل غالباً في الضاحية؟

فرانسواز: سمعت عن الضوضاء، لأنني اتصلت بسبب ما حدث معي بأشخاص آخرين اضطروا للذهاب بسبب الضوضاء. لكن تهديدات كهذه.. لم أسمع عنها أبداً، إنها المرة الأولى. لقد كانوا أناساً يشربون ولديهم خلل عقلي بالتأكيد. والأهم هو أننا لم نكن أول من يحصل له هذا. لأننا عندما كنا نقوم بالمساعي وما تبع ذلك، عرفنا أن كل الذين سكنوا هذا المنزل أو حتى كانوا في منازل الجهة المقابلة اضطروا للذهاب بسبب هذا، ونتيجة لتهديدات جسمية أيضاً.

- هل كان الجيران لطفاء على وجه الإجمال؟

فرانسواز: نعم، بالضبط، أعني في البداية، عندما وصلنا.. أعتقد أن هناك حواجز تفصل بين الناس في الضاحية. ولذا فهم غير اجتماعيين. لقد استغرق الأمر على الأقل.. حتى ولادة جان باتيست، أي ثلاث سنوات. عشنا فيها منعزلين، ندخل ونخرج ولا أحد يحيينا. لم يكن هناك سوى

شخص واحد قدم نفسه إلينا يوم انتقالنا للمنزل، وكان لطيفاً جداً فقال لنا: «إذا كنتم بحاجة إلى شيء» وتوقف الأمر عند هذا الحد، ولم نره بعد ذلك ولم نلتق معه لأن توقيته لم يكن متوافقاً مع توقيتنا. ولم يكلمنا أحد من بعد. وحتى الناس المجاورون لنا لم يكونوا يكلموننا. وقد توجب أن يُولد جان-باتيست حتى بدأ الناس بـ.. بنوع من الفضول ثم شيئاً فشيئاً.. أما خلال ثلاث سنوات فيمكن القول بأننا عشنا دون أن نتعرف على الناس. وعندما تركنا المنزل في ظرف ست سنين كان هناك أناس، بينما كنا نجتاز الشارع. لم نكن نعرفهم.

ما كان يجب المسّ بهؤلاء الناس

وإذن، لم يكن سكان الضاحية اجتماعيين، لكنهم أخيراً وعندما حصلت لنا كل هذه المزعجات، تضامنوا معنا وساندونا. وينبغي أن أعترف بأننا دُهشنا لأنهم لم يكونوا يكلموننا ولا يوجهون لنا حتى صباح الخير، وجاؤوا يستفهمون عما حدث، وحاولوا تفهّم الوضع ومساندتنا في اليوم التالي لاستدعائنا الشرطة عندما نفد صبرنا. وتبعاً لهذا قمنا بعمل عرائض، فذهب الجميع إلى البلدية، كلهم، ولا يمكن قول العكس. كنت ذهبت مع تييري من قبل إلى البلدية لرؤية رئيسها عدة مرات أيام المقابلات، وشرح ما يجري، كل هذا لكن.. أف! كانت هناك ظروف دائماً.. فما كان يجب المسّ بهؤلاء الناس. وفي النهاية، عندما رأى الناس الحالة التي وصلنا إليها في ذلك الوقت، قرروا عمل عريضة وعرضها على الناس المجاورين للمنزل لتوقيعها، أي كل المنازل المحيطة بأولئك الناس. وقد وقع أكثرية الناس، وحصلنا (..) من أناس لم نكن نعرفهم. أخذنا نطرق الأبواب ونشرح لهم ما كان يجري، فانزعجوا أيضاً لأن حديقتهم محاذية لهذا المنزل. الجميع انزعجوا بصورة أو بأخرى، لقد كان الناس لطفاء إلى حد المساندة.

وبعد هذا بعثنا بالعريضة إلى رئيس البلدية فاستُدعينا، عدنا فقضينا ساعات وساعات نُناقش في الفراغ. وعندما رأينا الأمر هكذا تقدم

شخص آخر قائلاً: «حسناً، سنكتب إلى النائب العام» وكانوا في مفوضية الشرطة قد نصحونا بذلك أيضاً (حديثها يتسارع وتلفظ الكلمات بصعوبة وهي في غاية الانفعال) فكتبنا إلى النائب العام. فقيل لنا بأننا إن لم نكن راضين (..) هكذا (..) وقد عشنا على هذه الحال سنة مع ذلك. وكانت لهذا آثاره على الصحة. أما الأطفال.. بالطبع، إن الطفل يستجيب بصورة أفضل من الكبير لأنه لا يرى التفاصيل ولا ينتبه إليها. لكنهم كانوا يشعرون بحالتي، وقد تأثرت دراسة كارول غير أن جان-باتيست كان وقتها صغيراً فلم يشعر بشيء. ومع ذلك فإنه يتكلم عن ذلك الآن. وعندما يرى برتغاليين فهم «بورتو» بالنسبة إليه. ولم نعد نتحدث الآن عن ذلك، فلقد مضى كل شيء. لقد شَغَلَنا الأمر جميعاً وأربكَنا حقاً، إذ نقص وزني 16 كيلو غراماً، ومرضتْ أمي أيضاً. لكنني كنت مضطرة للذهاب عدة مرات لأنني لم أعد أقوى على البقاء، فقد كان ذلك مستحيلاً. فقال لي الطبيب: «عليك الذهاب، لا تستطيعين البقاء». لم أعد آكل أو أنام، وكان ذلك نفسياً، ولم يكن لدي شيء أعمله سوى هذه الضوضاء في رأسي. وبعد أن هدّدوني، أصبت بالرعب حقاً. وكنت أعيش مع الخوف. لقد كانوا أناساً عنيفين ذوي ماضٍ مشبوه. لم تكن لدي إلا رغبة واحدة، هي قتله.

هذا مجمل ما حصل معنا. ومن المهم أيضاً أننا لم نعد يحتمل بعضنا بعضاً في المنزل، نتيجة عدم قدرتنا على التواصل مع هؤلاء الناس، فصرنا نلقي بالمسؤولية فيما بيننا. لم نكن نستطيع شيئاً ولم نكن مسؤولين، إذ ليس بمقدورنا ضرب الجار. وشيء آخر مهم، هو أنني ما راودتني مثل هذه الأفكار من قَبل قط، وتييري أيضاً، لأن هذه الأفكار مخالفة لطبعه، ومع هذا ففي لحظة ما، لم تكن لدي سوى رغبة واحدة، هي قتله. وأجد أن الوصول لهذا الحد!. هناك أناس مشاكسون أما أنا، فحين كنت أراه، وحتى عندما أسمعه، مجرد سماع صوته. لو كنت أحمل بيدي شيئاً لفعلتها. لقد كنت منهكة لدرجة قتله بسهولة. ومع ذلك كنت أصل إلى التهدئة من روعي قائلة: إن هذا لن يفيد في شيء، وسيجلب لي المتاعب. لكن لنقل إن فكرة

قتله كانت تراودني في كثير من الأحيان، وتراود تييري أيضاً. أعتقد أن هذا مهم في التعبير عن حجم المصيبة. ولهذا فأنا أتفهّم الناس الذين تنهكهم الضوضاء في المساكن الشعبية فيضطرون للقتل. إنني أفهم الآن أما في البداية فلم أكن أفهم، وكنت أقول لنفسي: «إن أفكاراً كهذه غير معقولة». أما وقد عشت المشكلة، فأقول لنفسي: بلى، لأن شدة الإنهاك تؤدي إلى فعل أي شيء. وعلى الرغم من الندم الذي يأتي فيما بعد، إلا أن الإنسان يقدر أن يقتل في لحظتها.

في أحد الأيام، كانت الرغبة لدي بقتله كبيرة لدرجة أن تييري اضطر معها لأخذي إلى الطبيب في سانِ دوني على ما أذكر. كنا قد عدنا من نزهة قمنا بها لزيارة القطار ذي السرعة الكبيرة.. إنها طرفة صغيرة.. لا أهمية لها.. زرنا القطار ذي السرعة الكبيرة لأننا كنا نخرج بالطبع أكثر وقت ممكن لكي لا نسمع الضوضاء. كنا نذهب حتى عند الجيران لكي لا نسمع الضوضاء. في ذلك اليوم إذن قام بتهديدي قائلاً إنه سيسلخ جلدي. واضطر تييري عندئذ لأخذي إلى الطبيب لأنني لم أعد أنا نفسي ولا أدري ما كنت سأفعل.. أي شيء.. أعتقد أنه كان بإمكاني أن أقتل نفسي لأن الكيل فاض بي، مع أنني قضيت بعد الظهر سعيدة ومبتهجة، حتى قال لي ما قال.. والجدير ذكره أيضاً، أننا كثيراً ما بتنا عند الجيران يومي السبت والأحد، إذ كان الناس يدعوننا حتى لا نبقى في البيت. لقد كان هذا لطفاً منهم، فقد ساندونا لحسن الحظ، وينبغي الاعتراف بذلك. لا أدري لو لم يساندونا إذا ما كنا استطعنا البقاء ذلك الوقت الطويل. (..) وما ينبغي ذكره أيضاً أنه كان لنا حديقة صغيرة.. صغيرة جداً حقاً، ولم نكن نجلس فيها أو نذهب إليها، لأنها معرضة للأنظار. تطل هذه الحديقة على داخل المنازل الأخرى. وعندما رفع جارنا منزله، صارت غرفه تطل على حديقتنا. فتعقدت الأمور أكثر، لأن النفايات أخذت تتهاطل على حديقتنا زيادة على التهديدات، وبالتالي لم نعد نستعمل الحديقة بتاتاً. ثم أخذوا يربون الحيوانات على طول جدارنا الذي أخذ يرشح بانتظام مع الروائح!.. لقد

تجمعت كل الظروف حقاً ليكون الأمر رائعاً. وقمنا بنفس المسعى وجاءت الدوائر الصحية في المحافظة فكان جوابه: إنه جداره يفعل به ما يشاء. كان يربي الأرانب والخنازير وأي شيء.

لقد ربوا خنزيراً وقتلوه عندما عمّدوا الصغيرة. خنزير في الضاحية، ليس شيئاً مثالياً!. أما في الريف فلابأس. وما زاد الأمر سوءاً أن حديقتنا كانت محاطة بسياج قليل الارتفاع، وكنا هيّئنا قسماً صغيراً منها نزرع فيه الخضار كالبندورة وغيرها، فيأتي الجار ليسرقها ليلاً، ولم نستفد منها بشيء فيما عدا ذلك، وهكذا، بسبب روائح الأرانب وما شابه ذلك، عرضنا المنزل للبيع في ساعة نزوة، لأننا لم نعد نطيق الاستمرار.

(..)

❖ وسكناكم هنا ماذا تسمى؟

فرانسواز: إنها إقامة لكوادر الشركة الوطنية للسكك الحديدية. إنهم أناس من نفس المهنة (..)

❖ وهل تشعرين بأن الوضع جيد؟

فرانسواز: نعم، لأنني أعتقد، ربما ليس من اللائق قول هذا، لكنني أعتقد أنهم أناس أذكياء، يستطيعون رؤية الأشياء كما هي. يفكرون جيداً ويستطيعون التحدث. وينتهي الأمر. ولا يحدث هذا كثيراً لأننا قليلون لا نتجاوز الست أسر، ولهذا نتوصل للتفاهم على الرغم من كل شيء مع أن هناك دائماً واحد أو اثنان يخرجان على الجماعة، لكن هذا ليس محرجاً. أعتقد أن كل منا يحاول البقاء في بيته، لكننا نتعاون أيضاً؛ فلو حدث شيء، يستطيع الناس الاعتماد بعضهم على بعض، مع محافظة كل واحد على استقلاله مع ذلك. ويستقبل بعضنا بعضاً من وقت لآخر، ونعمل ولائم أيضاً من وقت لآخر. وقد قررنا هذه المرة الذهاب إلى نادي البحر المتوسط، خارج البيت، حتى لا تقوم النساء دائماً بعبء الولائم، على أن تكون الكلفة مشتركة. إذ يضع كل منا مبلغاً من المال كل شهر حتى تشرين الثاني حيث

نذهب إلى النادي للأكل ثم التسلية بعد ذلك. إن في ذلك تغيير، فلن يكون للنساء عمل يقمن به. لقد قمنا في العام الماضي بتنظيم وليمة بمناسبة عيد الميلاد، وهيّأناها مسبقاً قبل وقت طويل، فحددنا قائمة الطعام وكان على كل امرأة شيء تعمله: المقبلات، الطبق الرئيسي، التحلية. لكل امرأة إسهامها واشترينا الحوائج معاً. وضعنا المال مشاركةً منذ البداية ثم اشترينا الحوائج معاً وقدم كل منا شيئاً إضافياً صغيراً. فأنا صنعت كماة مثلاً، وصنعت أخرى فواكه مزينة، وهذا لم يكن جزءاً من الاشتراك. وبما أنه ظلت بقية من الوليمة، فقد استأنفنا الاحتفال في الغد لاستهلاك البقايا. وقد نظمت سهرة تنكرية لم نحضرها لأننا ذهبنا في نزهة. وقد حدث الشيء نفسه للسهرة التنكرية، إذ استمر الاحتفال ثلاثة أيام بسبب وجود الكثير من الطعام. فبما أننا لم نكن في السهرة التنكرية فقد دعينا مع ذلك في الغد، وذلك لأننا إن لم نحضر السهرة فليس لعدم رغبتنا في الحضور، وهكذا دعينا ليومين متتاليين. وقد جاؤوا لاصطحابنا لأننا كنا في البيت.



باتريك شامبانيه

المنظور الإعلامي

لا وجود محسوس للمشقات الاجتماعية إلا عندما تتحدث عنها وسائل الإعلام. أي عندما يعترف بها كمشقات من قبل الصحفيين. غير أن هذه المشقات لا تختزل إلى تلك وحدها التي تبينها وسائل الإعلام، ولا إلى الصورة التي تقدمها على الخصوص حينما تفطن إليها. إن الصحفيين لا يخترعون دون شك المشكلات التي يتحدثون عنها من لا شيء. حتى أنهم يستطيعون الظن، ومعهم بعض الحق، بأنهم يسهمون في التعريف بتلك المشقات ووضعها -كما يقال- على بساط البحث العلني. لكنه من السذاجة التوقف عند هذه الملاحظة، لأن المشقات ليست جميعها «إعلامية» بصورة متساوية. وتلك التي تكون كذلك تخضع حتماً لتحويرات عدة منذ اللحظة التي تبدأ وسائل الإعلام الخوض فيها. فالميدان الصحفي يقوم عوضاً عن الاكتفاء بتسجيلها بإخضاعها إلى عمل إنشائي حقيقي يعتمد بشكل واسع على المصالح الخاصة لهذا القطاع من النشاط.

ونكاد نقول إن إحصاء «المشقات» التي تطفو أسبوعياً في الصحافة يعطي على الخصوص قائمة بما يمكن تسميته «مشقات للصحفيين» أي تلك المشقات التي صُبغت صُورتها العلنية بجلاء لإثارة اهتمام الصحفيين، أو

تلك التي تجذب الصحفيين من حيث كونها «خارجة عن المألوف» أو مأساوية أو مؤثرة وبالتالي مربحة تجارياً، وتتوافق إذن مع التعريف الاجتماعي للحدث الجدير بالظهور «في الصفحة الأولى». إن الطريقة التي تختار بها وسائل الإعلام المشقات وتعالجها بها تعبر عن البيئة الصحفية، بقدر ما تعبر عن الفئات الاجتماعية المعنية[1].

صنع «الحدث»

يجدر بنا أن نحلل تنوع وجهات النظر الصحفية عن الأحداث، والذي يرجع بدوره إلى تنوع أشكال الصحافة. لكن هذا ليس موضوعنا هنا. ولكن يبقى أن الصحفيين مهما كانت وسيلة الإعلام التي يعملون بها، يقرأ بعضهم لبعض، ويستمع بعضهم لبعض أو ينظر بعضهم لبعض كثيراً فيما بينهم. «فاستعراض الصحافة» بالنسبة لهم ضرورة مهنية، لأنها تدلهم على الموضوعات التي ينبغي معالجتها لأن «الآخرين» يتكلمون عنها، ويمكن أن تقدم لهم أفكاراً لتحقيق صحفي، أو تسمح لهم على الأقل بتحديد مواقعهم والنظر من زوايا مبتكرة للتميّز عن المنافسين. ومن جهة أخرى، فليس لكل الرؤى الصحفية الوزن نفسه داخل المهنة وعلى الخصوص خارجها، في عملية صوغ التصورات الاجتماعية. فعندما نعيد ببرود قراءة أو مشاهدة كل ما كتب أو عرض حول أحداث كـ«حرب الخليج» و«حركة طلاب الثانويات» في تشرين الثاني 1990، أو «قلاقل فولكسان فيلان» مثلاً، يمكن بالتأكيد العثور هنا أو هناك على مقال و تحقيق سديدين. لكن هذه القراءة المستوفية

---

[1] إن هذه المشقات من خلال إخراج إعلامي، قد تعطي صورة تخيلية أحياناً للواقع. كما يظهره مثلاً استعراض تاريخي متلفز عرض من مدة قريبة يختزل تاريخ الشباب في العشرين سنة الأخيرة إلى تتابع صور جامدة من نوع جديد، حيث يتعاقب الهيبيون، وحفلات بوب ديلان، والملهاة الموسيقية (هير)، ومتشردون بوب، وموسيقى الروك، وحفلات س و س - عنصرية، وشباب من الضواحي يحرقون السيارات، والرؤوس الحليقة وغيرهم، للانتهاء بالأحداث القريبة، شباب يشعلون قداحاتهم في حفلة المغني باتريك برويل.

واللاحقة في نفس الوقت، تنسى أن هذه المقالات مرت دون أن تثير انتباهاً من الأكثرية الغارقة في جو لهجته مختلفة جداً على وجه العموم[1].

بيد أن وسائل الإعلام تفعل فعلها في اللحظة الراهنة، وتصنع بصورة جماعية تصوراً اجتماعياً يدوم حتى وإن كان بعيداً عن الواقع، على الرغم من التكذيبات أو التصحيحات البعدية، لأنه لا يؤدي في أكثر الأحيان إلا إلى تعزيز التفسيرات العفوية، ويستثير الأحكام المسبقة أولاً جانحاً بهذا إلى مضاعفتها. ويجب، علاوة على هذا، أن نضع في حسابنا الهيمنة التي يمارسها التلفزيون بشكل قوي داخل المجال الصحفي نفسه، لأن انتشاره الواسع -لاسيما فيما يتعلق بالجرائد المصورة-يمنحه وزناً هاماً وخاصة في تكوين التصور المسيطر للأحداث. وتؤدي الأخبار «موضوعة في صور» من جهة أخرى إلى أثر تضخيمي من شأنه أن يثير انفعالات جماعية بصورة مباشرة جداً. كما تمارس الصور أخيراً عملاً إيضاحياً قوياً جداً أكثر من الخطاب بدون شك، إذ أنها تبدو مشيرة إلى واقع لا ريب فيه على الرغم من أنها نتاج عمل اختيار وإنشاء صريحين بقدر يقل أو يكثر. ومع أن التلفزيون يتزود بالكثير من الصحافة المكتوبة أو من نفس مصادرها (برقيات الوكالات أساساً) إلا أن له منطق عمل وقيوداً ترمي بثقل قوي على صنع الأحداث. وهو يؤثر في المُشاهد العادي. لكنه يؤثر أيضاً على وسائل الإعلام الأخرى. وهكذا فلا يمكن لصحفيي الصحافة المكتوبة اليوم تجاهل ما كان (في الصفحة الأولى) لجريدة الثامنة المصورة بالأمس.

عندما قررت الجرائد المصورة مثلاً أن تغطي المظاهرات لطلاب الثانويات في تشرين الثاني 1999. كانت المسألة في الأصل حركة بسيطة محصورة في بعض المدارس الواقعة في ضاحية باريس الشمالية. تجمع

---

[1] لا يمكن رؤية أن هذه المقالات «سديدة» إلا بعدما نعرف المشكلة المطروحة بشكل كاف. أما في اللحظة، وحول موضوعات لا نعرفها جيداً أو لا نعرفها بتاتاً، فلا يمكن إلا الاعتماد على هؤلاء الذين يتحدثون عنها بشيء ما.

بضع مئات من طلاب الثانويات الذين كانوا يحتجون على نقص الأساتذة، وعلى الاعتداءات التي كان التلاميذ ضحايا لها -رأى عدد من المتخصصين التربويين في الصحافة الباريسية المكتوبة مثل هذه المعالجة الإعلامية غير مسؤولة، لتأثير الجذب الذي تجازف بإحداثه («لقد جنوا» «إنهم مجانين بافتتاحهم نشرة الثامنة بلقطات لذلك» «شعرنا بأن كل طلاب الثانويات في الشارع، بينما لم يكونوا يزيدون عن 3000»)[1]. على الرغم من أن صحافيي التلفزيون قرروا -بحسن نية دون شك- عرض بعض المشاهد حول الحركة في «الساعة الثامنة» فقد كان لديهم موضوع جيد وصور تلفزيونية جيدة («إن صحفيي التلفزيون، كما يشرح صحفيون من الصحافة الباريسية المكتوبة، لا يعرفون كيف يوضحون مشكلات التربية أبداً، فهم يطلبون منا أفكاراً للإيضاح غالباً»). وقد كانت في ذاكرتهم من جهة أخرى على الأرجح مظاهرات طلاب الثانويات والجامعات التي جرت في تشرين الثاني 1986 والتي بدأت هي أيضاً، في نفس الوقت من السنة الدراسية، بإضراب محدود في مؤسسة تربوية واحدة. وقد كان منطق السوابق الحاضر دائماً في أذهان أكثر الصحفيين، بالإضافة إلى همّهم بأن لا يتخلفوا عن تغطية ثورة، واعتقادهم المخلص بأنهم يشاهدون من جديد بوادر حركة احتجاج واسعة، كان كل ذلك كافياً على الأرجح لتفسير المعالجة المتميزة التي خصوا بها تلك الاحتجاجات المحدودة فور حدوثها. وفعلاً، فبقدر تزايد إضرابات الثانويات تحت تأثير التغطية الإعلامية ولاسيما التلفزيونية -«لقد شكل التلفزيون نوعاً من المقياس للحركة. فبما أنهم يتحدثون عنها في الجريدة المصورة، فعلى الجميع أن يدلوا بدلوهم» كما يقول صحفي باريسي كان يغطي الحركة- كان ضغط رؤساء التحرير يزداد على (أصحاب الزوايا) المكلفين بالتربية وهم يدفعونهم إلى الكتابة بعمق عن هذا الموضوع. وإذا كان بعض الصحفيين المتخصصين قد أبدوا بعض التردد في الكتابة عن هذه

---

[1] يرجع الفضل في هذه الملاحظات للمقابلات التي أجرتها دومينيك ماريشيتي مع الصحفيين، في إطار التحقيق الذي أشرفت عليه حول حركة الطلاب الثانويين، وسيتم فيما بعد عرض أكثر تفصيلاً لهذا العمل.

الأحداث فإن مرد ذلك لم يكن فقط لمؤهلاتهم التي لم تهيئهم للاندهاش بسهولة[1]، وإنما لأن هذه الحركة التي صنعها التلفزيون عموماً غير قابلة للاستيعاب؛ فلم يستطيعوا فهمها أو تحديد مسؤوليها وأهدافها. ومع ذلك ونتيجة اضطرارهم للتحدث عنها بدورهم، فقد أسهموا دون قصد بإعطاء الأهمية لما أصبح هذه الأثناء من الوجهة الإعلامية مشكلة مجتمع حقيقية هي «شقاء طلاب الثانويات» و«الشباب» بصورة أعم. ولم يستطع المسؤولون الشباب عن التنسيق بين الثانويات الذين برزوا من الحركة في الوقت المناسب، واعتمدوا في استراتيجيتهم الإعلامية على كبار أكثر خبرة منهم (مسؤولين في الحزب الشيوعي وس وس - عنصرية والحزب الاشتراكي. إلخ) إلا أن يأخذوا أنفسهم بجدية وهم يتكلمون في «الجمعية الوطنية للثانويين»، كما يفعل رجال السياسة على منبر الجمعية الوطنية عند النقل المباشر بعد ظهر الأربعاء. ويحكي صحفي في يومية باريسية مشهورة، كان خالطهم أثناء الأحداث قائلاً: «أخذ مسؤولو التنسيق يعتبرون أنفسهم نجوماً، فلقد نُظِر إليهم بجدية أكثر من اللازم. وصاروا لا يتوجهون بكلامهم إلا إلى التلفزيون، وكانت تلك نجومية مفرطة، كما اعتبروا أن كل شيء مسموح به لهم، إذ ذهبوا إلى الإليزيه، وتناولوا الفطور مع جوسبان». وهكذا نفهم أن هذه الحركات باعتبارها نتاجاً لوسائل الإعلام في جزء كبير منها، تختفي سريعاً عندما تتوقف هذه الوسائل عن الحديث عنها. ومن هنا فليس علينا التساؤل -كما يُفعل عموماً- عما يهم الصحافة. بل أيضاً عن العمليات التي تقود الصحفيين شيئاً فشيئاً إلا اللامبالاة إزاء أحداث ساهموا من قبل في إنتاجها.

يحكي صحفي شاب يعرف جيداً مجالس تحرير محطات الإذاعة

---

[1] شرح لي رئيس إحدى اليوميات الباريسية قائلاً بأن المتخصصين باعتبارهم على معرفة جيدة بميدانهم، فإنهم لا يلتفتون عموماً إلى ما هو غير عادي. وبما أنهم يشغلون بتواضع الصفحات الداخلية لصحفهم، فهم يميلون إلى امتهان كل شيء ومن العسير إدهاشهم. ومن هنا فإن رؤساء التحرير وهم أكثر حساسية للوضع الذي أحدثته الجرائد المصورة هم الذين ينبغي عليهم دفع متخصصيهم إلى اتخاذ موقف.

الخاصة متفكهاً «هناك دائماً محرر في اجتماع المحررين لمحطة ما سيقول: «يكفي الآن، لقد أزعجْنا الناس بما فيه الكفاية، والضواحي بدأت في إزعاجنا أيضاً. لقد سئمنا كل هذا، فلننتقل إلى شيء آخر» وهناك دائماً شيء آخر في الأحداث سيأخذ الدور. فصحيفة لوموند ستهدئ، وستبحث ليبراسيون عن التفسيرات. وتحلل وتعمل في الميدان. أما أولئك الذين يعملون على الفتن والإثارة فربما ينطلقون من جديد، لكن لن يتبعهم أحد».

موضوع زائف

إن ما يسمى «حدثاً» ليس في النهاية إلا نتيجة تعبئة -قد تكون عفوية أو بعمل تحريض- تقوم بها وسائل الإعلام حول شيء، تتفق على اعتباره كذلك لوقت ما. أما عندما يكون الناس الهامشيون أو المنكودو الحظ هم الذين يجذبون اهتمام الصحافة، فإن تأثيرات الضجيج الإعلامي ستكون بعيدة عما يمكن أن تنتظره هذه الفئات الاجتماعية، لأن الصحفيين يملكون في هذه الحالة سلطة تأليف جد هامة. وبهذا يكاد الحدث يفلت تماماً من هؤلاء الناس.

إن تطور خطاب جديد في الصحافة عن «ضواحي ذات مشكلات» إنما تم في بداية سنة 1980، نتيجة للحوادث المفاجئة في حي مينجيت -وهو حي في فينيسيو من ضواحي ليون، ذو كثافة سكانية عالية من المهاجرين- وقد غطيت هذه الحوادث المروّعة (سيارات محترقة، متاريس، رمي مقذوفات مختلفة وكوكتيل مولوتوف على قوات الشرطة.. إلخ) تغطية واسعة من قبل مجموع الصحافة، لافتة الأنظار بشكل فجائي إلى فئة جديدة من الناس وهي فئة الشباب المتحدّرين من عائلات مهاجرة («البور») ويعانون من الإخفاق المدرسي وبالتالي فهم بدون تأهيل ولا عمل. وثم الحالة المزرية أيضاً لبعض الضواحي، وتلف البنايات التي أُفسدت عمداً وتُركت وشأنها من قبل مؤسسات السكن الشعبي. وقد اعتُبرت هذه الحوادث التي تفجرت بعد شهرين من وصول الاشتراكيين للحكم، تحدياً سياسياً حقيقياً لحكومة اليسار. مما أدى إلى اتخاذ عدة إجراءات مختلفة تستهدف إعادة الاعتبار

لهذا النمط الجديد من أحياء الصفيح التي أعيد تكوينها شيئاً فشيئاً في بعض أحياء (السكن المعتدل الكراء). وأُنشئت من جهة أخرى هياكل لتأطير الشباب العاطلين نتيجة الإخفاق المدرسي، لتشجيعهم على التكوين المهني والاندماج في سوق العمل. وتمّ تنسيق مجموع هذه الأعمال ضمن ت. أ. أ (التنمية الاجتماعية للأحياء) وشمل هذا النمط من العمل 400 منطقة في عام 1990.

لكن مشكلة الضواحي أُثيرت من جديد من قِبل وسائل الإعلام، بصدد الحوادث التي جرت في تشرين الأول 1990، ضمّن بلدية فولكسان فيلان التي توجد أيضاً في ضواحي ليون والمصنّفة كمنطقة (تنمية اجتماعية للأحياء) منذ عام 1987. أقيم في نهاية أيلول 1990 احتفال في ماس دو تورو وهو حي أُعيد الاعتبار له حديثاً، أمام المركز التجاري الذي شُيد منذ سنة وسط منطقة سكن شعبي. وبحضور شخصيات سياسية من الصف الأول، دُشّن جدار للتسلق واحتُفل بنجاح عمليات إعادة الاعتبار. وبعد أسبوع، وأثناء عملية مراقبة كانت تقوم بها الشرطة، انقلبت دراجة نارية وقُتل راكبها الخلفي، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، إيطالي الأصل ومصاب بشلل الأطفال؛ فتجمع حوالي المائة من شباب الحي وأوسعوا رجال الشرطة شتماً لأنهم اعتبروهم مسؤولين عن المأساة، واشتبهوا في أن رجال الشرطة يحاولون إخفاء ما يظنون أنه «تجاوز» بصورة مجرد حادث. وتوتر الوضع، ففي مساء نفس اليوم قُذفت الحجارة وأُحرقت ثلاث سيارات (وذلك ليس استثنائياً في هذا الحي). وقد بثت الصحافة المحلية، التي تتنصت باستمرار على محادثات الشرطة بوساطة (أجهزة استقبال عالية الذبذبة)، الخبر سريعاً بالصيغة الرسمية للحادث، ونقلته وسائل الإعلام الوطنية المساء نفسه. في صباح الغد، أخذ شبان بين 14 و20 عاماً يقذفون مخفر الشرطة في فولكسان فيلان بالحجارة (لإخراج رجال الشرطة المحتمين في الداخل) ومن ثم أُلقيت حوالي الظهيرة سيارة مسروقة على المركز التجاري في ماس دو تورو فاحترق مع بعض الدكاكين الموجودة في الساحة. وقام الشبان بصدّ رجال الشرطة ورجال المطافىء والصحفيين،

بينما كان العديد من سكان الحي وغيرهم يحاولون، في جو مرح، الاستفادة من الوضع ونهب بضائع مختلفة كان مصيرها التدمير في الحريق على كل حال. وقد روى أحد الصحفيين القلائل الذين كانوا في المكان وهو من الصحافة المحلية، أنه رأى صبياناً يخرجون من الدكاكين وأيديهم ملأى بالحلوى وعلب السجائر أو الأحذية الرياضية بينما كانت سيدة عجوز تمسك بباب المجمع التجاري لتسهيل خروج العربات المحمّلة المتجهة بسرعة إلى صناديق السيارات. وعلى كل، فإن كان هناك نهب لا شك فيه للمجمع التجاري مع سبق الإصرار على الأرجح[1]، إلا أنه من المبالَغ فيه التحدث عن (فتنة) كما فعل صحفيو الصحافة الباريسية وصحفيو التلفزيون خصوصاً.

إن المقهورين هم أقل الناس قدرة على التحكم بتصوراتهم لأنفسهم. ولا يمكن أن يكون مشهد حياتهم اليومية بالنسبة للصحفيين إلا تافهاً وعديم الأهمية. ولأنهم يعانون الفقر الثقافي، تراهم عاجزين أيضاً عن التعبير عن أنفسهم من خلال الصيغ التي تقتضيها وسائل الإعلام الكبرى، كما يصرح مسؤول سياسي يظن نفسه معبراً عن رأي المحترفين في التلفزيون قائلاً: «لا ينبغي لكل من يأتي لبرنامج تلفزيوني أن يروي أحواله النفسية أو يعطي رأيه، بل يجب أن يتعلم التعبير بجلاء».

قبل أيام من الأحداث، اقترحت وكالة صحفية من ليون متخصصة في العمران بمبادرة منها، إجراء تحقيق حول الوضع في الضواحي، دون أن تنجح عندئذ، إذ كانت الإجابة «إن هذا ليس مهماً فلا يجري شيء..». فمنطق التنافس يدفع الصحفيين إلى العمل في «الأوضاع الساخنة» والذهاب إلى «حيث يجري شيء ما». ولذا أدت أحداث فولكسان فيلان المأساوية، في زمن قصير، إلى الكثير من التقارير الصحفية والمتلفَزة، استهدفت التكلم عما ليس على ما يرام في هذه الضاحية وتفسيره. ومع أن الملاحظة المتأنية للحياة العادية في هذه الضواحي هي أبلَغ توضيحاً، إلا أن

---

[1] قال لنا سكان من فولكسان فيلان بأنهم سمعوا قبل المأساة التي استعملت مبرراً أو فتيلاً بوقت طويل، شباناً ينوون عملية كهذه. وقال لنا صحفي في نفس المعنى كان موجوداً قبيل نهب المجمع التجاري، بأن شباناً نصحوه بالبقاء في المكان لأن أشياء ستحدث.

الصحفيين يميلون إلى تركيز اهتمامهم على العنف المروّع وبالتالي الاستثنائي[1]. وهكذا تصطنع وسائل الإعلام، للجمهور العريض غير المعني مباشرة، تقديماً وتصوراً للمشكلات يُبرز ما هو غير عادي. فلا يذكر الجمهور من بعدُ إلا أعمال العنف والمواجهات مع رجال الشرطة وأعمال التخريب؛ كمركز تجاري يحترق أو سيارات تشتعل، ويقدم خليطاً من الأسباب لهذه الفوضى، كالتفسيرات التي استقتها الصحافة وتجاوزات الشرطة والفراغ لدى الشباب والجنوح و«شقاء العيش» في هذه الضواحي، وظروف المسكن بالإضافة إلى إطار الحياة الكئيب وغياب هياكل الرياضة والتسلية والتركيز المفرط للسكان الأجانب.. إلخ.

حلقة مفرغة

إذا كان هذا التصور لا يترك مجالاً كبيراً للمقهورين فذلك لأن من العسير سماعهم. إذ يُتحدَّث عنهم بأكثر مما يتحدثون. وعندما يخاطبون المهيمنين، يميلون إلى خطاب مستعار هو الخطاب الذي يستعمله هؤلاء المهيمنون عندما يتحدثون عنهم. وهذا صحيح بصورة خاصة عندما يتحدث المقهورون للتلفزيون، إذ نسمعهم يرددون الخطابات التي سمعوها بالأمس في الجريدة المصورة أو البرامج الخاصة عن شقاء الضواحي، متكلمين عن أنفسهم أحياناً بصيغة الغائب («الشباب يريدون محلاً يجتمعون فيه» يقول أحدهم مثلاً في تقرير متلفَز). إن الصحفيين، بصورة أدق، يميلون دون وعي منهم إلى التقاط خطاباتهم الخاصة حول الضواحي، ويجدون دائماً أناساً يتسكعون في الأحياء، مترقبين وسائل الإعلام ليقولوا لهم كل ما يرغبون في سماعه «من أجل الظهور في التلفزيون».

---

[1] وهكذا فإن قناة تلفزيونية طلبت مثلاً من وكالة فيديو في ليون اليوم التالي لحريق المركز التجاري، تقريراً متلفزاً، عن «المخربين وتجار المخدرات في فولكسان فيلان حتى ولو كانوا مقتنعين»، لكن المسؤولين الذين أوكل لهم هذا التحقيق وهم أيضاً من أصل جزائري، حولوا الطلب عن هدفه واتجهوا لمحاولة إفهام الناس حياة الشباب في هذه المجمعات الكبيرة، عوضاً عن الإذعان لإثارة مصطنعة قليلاً أو كثيراً، وتقريرهم الذي تناول حالة ثلاثة من شباب (البور) - ليسو مخربين ولا تجار مخدرات، بل مجرد عاطلين ومنشطين - لم يبث حتى هذه الساعة.

إن (التحقيق) ذا النمط الصحفي هو عموماً أقرب إلى التحقيق الذي تقوم به الشرطة منه إلى ما يسمى (تحقيقاً) في العلوم الاجتماعية. يصدُق هذا على الصحفي الكبير الباريسي، كما يصدُق على صاحب الزاوية المتواضع في صحافة الأقاليم. إذ لم يعد عالِم الاجتماع هو النموذج بل صحفي «الاستقصاء» الذي يتوصل أحياناً «إلى تجاوز» الشرطة. ومن جهة أخرى، فإن هاجس وسائل الإعلام الكبرى (كالتلفزيون ووكالات الصحافة أيضاً) (التجاري في الأغلب) بأن لا تنحاز إلى طرف أو ألا تصدم جمهوراً غير متجانس اجتماعياً، يقودها إلى عرض كل وجهات النظر عرضاً مصطنعاً وحيادياً. وبما أن التحقيق الصحفي يشابه التحقيق القضائي، فإن الموضوعية تقتضي إعطاء الكلام لكل الأطراف المعنية، كما في أية دعوى. ولهذا يسعى الصحفيون علانية للحصول على ممثلين للدفاع أو الاتهام في كل حالة أي من «مع» ومن «ضد». والرواية الرسمية للحادث بالإضافة إلى رواية الشهود. أما العمل في الميدان بالمعنى الدقيق فيقتصر، نظراً لطبيعة الأشياء، على بضعة أيام، إن لم تكن بضع ساعات يقضيها الصحفيون في المكان «لإعطاء شيء من الحيوية» للتقارير، مع سيناريو عموماً، يؤلف مسبقاً في اجتماعات هيئة التحرير، عليهم أن يقدموا الإيضاحات اللازمة له[1].

وقد يتمكن الصحفيون أحياناً من التسبب بواقعة على المقاس من أجل وسائل الإعلام. فقد أخبر صحفي من وكالة أنباء فرنسية في ليون مثلاً، بأنه بعد الأيام الساخنة في فولكسان فيلان، تقوم الصحافة جميعها بمراقبة المحلة انتظاراً لحوادث جديدة. وأن وجود الصحفيين بحد ذاته يؤدي إلى إشعال الحوادث المنتظرة[2]. وحتى عندما لا يجري أي شيء،

---

[1] لا حاجة لي للتنبيه إلى أن هذه الملاحظات لا تشكل «نقداً» (بالمعنى الصحافي المألوف للكلمة) لمهنة الصحافي، فمن المعروف أن هذه المهنة ليست دون مخاطر جسدية، وعديدون هم الذين دفعوا حياتهم ثمناً لها. فما نريده هنا هو التذكير بالضغوط المختلفة التي تثقل العمل الصحافي والآثار العقلية التي تؤدي إليها.

[2] من المعروف أن صحافيين من التلفزيون كثيراً ما يدفعون «لإعادة تمثيل» حادثة ما، دون ذكر ذلك مثل (شباب يشعلون النار في سيارة أو يرشقون الجدران بالطلاء أو يقومون باعتداءات.. إلخ) بحجة أن هذه الممارسات تحدث على كل حال وإذن فهم لا يغشون حقاً في الخبر، دون أن يروا أنه ينبغي البحث عن الخبر الحق في جهة أخرى.

فالآلة الصحفية تميل للدوران في الفراغ، وهكذا فعندما أرسل مراسل تلفزيوني إلى إحدى الضواحي لتغطية بعض الحوادث، أنذره رئيس التحرير من باريس بأن عليه التدخل مباشرة أثناء بث الجريدة الليلية المصورة لدقيقتين، حتى ولم يحدث شيء، بحجة استثمار الوسائل التقنية المكلفة التي أُرسلت إلى المكان. ومع أن عدداً من الصحفيين يسعون لفهم ما وراء الحدث، فإن كل شيء يعيدهم إليه. («إن الحوادث المتنوعة تكشف عن المشكلات الحقيقية. إذ ينبغي التعمق، لكن لاوقت لدينا، ثم إن حدثاً يطرد الآخر») يقول مثلاً صحفي في الصحافة الإقليمية بليون. ومن هنا عليهم الذهاب إلى حيث يوجد الزملاء، يحدوهم التنافس.

«إذا ما أحسنت قناة أخرى العمل، يقول لك رئيس التحرير «لكن ماذا تفعلون؟ عليكم الذهاب» كما يحكي صحفي في التلفزيون «لقد ركزنا اهتمامنا على فولكسان فيلان. كما يقول صحفي من وكالة الأنباء الفرنسية بليون، فما أن يحدث شيء هناك حتى نتحدث عنه، ليس لأهميته، بل لأنه حدث في فولكس. لكننا لم نكن نعلم أن أشياء أسوأ تحدث في ضاحية مرسيليا. وباريس (هيئات التحرير الباريسية) تدعم ذلك، وتؤدي المنافسة إلى المزاودة ثم الخطأ. وتصعب علينا المقاومة، لأن لدينا زبائن متلهفين، ويريدون أي شيء من «فولكسان فيلان»، حتى أننا نتساءل أحياناً، فيما إذا كان من الواجب الإبراق عن سيارتين محترقتين (..) لقد كتبت مقالاً معمقاً بعد شهر. إلا أن الحادثة لم تعد تهم أحداً والقراءة أقل عنها، وَوَقْعُ التوضيح الذي يمكن أن يعمل عنها في هذه الآونة أقل أيضاً».

وإذا ما فتحت حوادث فولكسان فيلان المجال لتغطية صحفية مكثفة، فذلك لأنها كانت متناغمة أيضاً مع عدد من المشكلات المنتشرة إعلامياً، كالبطالة والضواحي الكئيبة، والمهاجرين، وانعدام الأمن، والمخدرات، والعصابات، وجان – ماري لوبين، والأصولية.. إلخ. لكن هذه «التغطية الإعلامية» كانت، عوضاً عن الإفهام، فرصة على الخصوص لرؤية انبعاث قوالب الأفكار النمطية المتعلقة بالضواحي والمجمعات الكبيرة، التي تراكمت منذ ثلاثين سنة بصدد حوادث سابقة، وأسقطت على فولكسان فيلان، مع

أن هذه القوالب كانت بوضوح غير مناسبة لعرض ما حدث. فقد استنكر الصحفيون مشكلة «الأحياء - المهاجع» بينما كانت المنشآت التي أحدثت بالمحلة في ازدياد. واستأنف آخرون الخطاب المتعلق بأمراض الضواحي التي تنقصها الروح والتناسق، وبرتابة الحياة اليومية وفقدان الإنسانية في المدن؛ في الوقت الذي قامت المحلة فيه ومنذ ثلاث سنوات بعملية هامة لإعادة الاعتبار للسكنى الشعبية، كما أعادت إقامة مركز تجاري نشيط جداً.

وعوضاً عن أن ترتبك وسائل الإعلام من تناقضاتها تلك، كانت، على العكس، تتحدث عن «غرق الأفكار الجاهزة العظيم». تلك الأفكار التي تقوم على الاعتقاد بأن من الممكن «إعادة الحياة للمجمعات الكبيرة عن طريق الملايين، بإعادة طلاء أقفاص الدرج وغرس الأحواض باليخضور». وجعلت أكثر وسائل الإعلام من نفسها صدى، لأولئك الذين يعيدون طرح السياسة العمرانية على بساط البحث، منددين بالمهندسين المعماريين الذين بنوا هذه المدن؛ مدن الرفض واليأس وانعدام الحوار. والجميع في النهاية، يستذكرون، بما أن عليهم تقديم تقرير عن أصل تلك الأحداث -أي مراقبة الشرطة التي آلت إلى نهاية سيئة- الجفاء المستديم بين الشباب والشرطة. فالعلاج إذن يكمن في استعادة الحوار والثقة. وقد توسعت الصحف المختلفة في هذه الأمور بالطبع، كل على حسب خياراته الإيديولوجية الخاصة. فصحيفة ليبيراسيون مثلاً، ركزت بصورة خاصة على تجاوزات الشرطة، مذكِّرة بالقائمة الطويلة لضحايا المراقبات الشرطية (عشر خلال عشر سنوات) التي غذّت -كما تقول الصحيفة- غضب المشاغبين الشبان ضد الشرطة. وأخذت جانب المتمردين وهي تذكر «بنفاد الصبر في المناطق ذات الأولوية العمرانية» التي بنيت خلال جيل، وتطرح اليوم مشكلة اندماجها. وتمنّت الصحيفة أن «تقدم الدولة شيئاً آخر، غير القنابل المسيلة للدموع لهؤلاء الصبيان الذين يحرقون كل شيء».

وكتب مدير الصحيفة سيرج جولي، بعد أسبوع من «الفتن»، افتتاحية تعج بالمشابهات الوحشية القمينة بإيقاظ الأوهام الجماعية، يعطي فيها

لفولكسان فيلان وصفاً جديداً ضمن التاريخ الصحفي للكوكب الأرضي: «كل شيء في هذه القصة عبرة (..) إنها تعود بنا إلى نقطة الانطلاق: التفرقة العنصرية التي يؤكدها مشهد عمراني مفكك الأوصال، متشح بالسواد (..) عاصمة حقيقية لهامش اجتماعي بدون هوية (..) إن فولكسان فيلان هي التعبير اليائس عن تفكك اجتماعي لا يمكن علاجه. إن ظل العالم الثالث يخيم على هذه الضواحي، إذ أن فتن الأيام الأخيرة بما رافقها من نهب، تستعير من الانتفاضة الفلسطينية بقدر ما تستعير من انتفاضة الغذاء في كاراكاس». أما الفيجارو، فمن خلال نظرة مقابلة، لكنها مكملة للسابقة لا تريد أن ترى -على العكس- شيئاً آخر سوى نشاط حفنة من المشاغبين المحترفين الذين يسعون بالعنف لإقامة الثورة (الإسلامية)، واصفة بإسهاب مشاهد النهب وعدوانية المتظاهرين. ومذكرة بأن ظاهرة الجنوح اليومي هامة في هذه الناحية. وترى أن التمرد زاد عن الحد، منددّة بالفارق الموجود -كما تقول- بين ما تسميه «تشدّق المطلعين» (أي خطاب اليساريين وعدد من العاملين الاجتماعيين، الذين يتكلمون عن صعوبة الحياة في الضواحي) وخطاب سكان الضواحي الذين لم يثيروا مشكلة ظروف الحياة في حيهم. أما الصحف الإقليمية (ليون ماتان، ولوبرجريه دوليون) فتبقى أقرب إلى الوقائع وتستهجن خلال كتابتها بعض تخمينات الصحفيين الباريسيين، لافتة الانتباه إلى أن وراء الكلمات المألوفة مثل «غيتو، المدن المهاجع، المهاجرون البائسون، الشرطة الوحشية، العنف في الضواحي». هناك واقع عادي وبسيط: «حادث وتهيج، واستغلالهما من قبل جانحين صغار ومنظمين، في ناحية تعتبر قدوة في الجهود المبذولة (إعادة اعتبار، رياضة، جمعيات). إن الفارق بين تصور الواقع، والواقع كما تعرضه تحقيقات أكثر تأنياً، هو أكبر في المعالجة التلفزيونية للحوادث[1]. إذ كان اهتمام الصحفيين منصبّاً

[1] وهكذا تلتقط صورة المركز التجاري المحرق من كل الزوايا، فتعطي الانطباع بأنها المنطقة كلها التي تشتعل. وقد خصص برنامج تلفزيوني في FR3 بعنوان «لماذا كل هذه الكراهية» بعد وقت قصير من الأحداث، ضمن البرنامج الاستعراضي («يا للسماء. الثلاثاء»)، ونظمت TF1 بعد يومين من (الفتن) مناظرة دعي إليها مخربون على الخصوص (أو مفترض أن يكونوا كذلك) وجوههم مقنعة حيث تحدثوا بخطاب الإنسان الهامشي النمطي الذي يستثيره في جزء كبير منه التلفزيون. وقد قال لنا بعض سكان فولكسان فيلان أن بعض صور التلفزيون زرعت قلقاً عميقاً بين أفراد من أسرهم يقيمون في أماكن أخرى.

على المصادمات أكثر من انصبابه على الوضع الذي أدى إليها. لأن هذه المصادمات غدت أعراضاً لأزمة مجتمع أكثر شمولاً، ينبغي علاجها بصرف النظر عن الأوضاع المحسوسة[1]. ومن المفارقات، أن الصحفيين في تحقيقاتهم المحلية لا يعيرون إلا القليل من الانتباه للمعطيات المحلية. ولذا يمكن للحدث الإعلامي الذي يصطنعونه القيام بدور نوع من الرائز الإسقاطي حيال مختلف العاملين الاجتماعيين الذين يسألهم الصحفيون، فكل منهم قادر أن يرى فيه تأكيداً لما كان يفكر فيه منذ زمن طويل.

الوصمة

على الرغم من أن أكثرية الصحفيين يرفضون ويدينون الممارسات الأكثر إثارة على الريبة في مهنتهم، ويعترفون طواعية بوجود تحريف لا مناص منه حتى في معالجة تطمح بأن تكون نزيهة للأخبار، فهم يرون مع كل هذه الصعوبات والانحرافات أن لا شيء أسوأ من السكوت. ومع أن وسائل الإعلام لم تقارب مشكلة الضواحي كما كان يجب عليها أن تفعل، ومع أنها اعترفت بأنها فضلت بعض المظاهر الهامشية أو التافهة لأنها مثيرة، على حساب الواقع العادي واليومي، يبقى أنها تعتبر نفسها مجدية لمجرد كونها أسهمت في طرح المشكلة بصورة علنية على الأقل. إن هذا التفاؤل يبدو على الأقل مفرطاً، لأنه لا يضع في حسابه، على الأخص، تأثيرات ذات طبيعة رمزية، تكون شديدة الوطأة عندما تمارَس على أناس يعانون الفقر الثقافي. يسلّم المسؤولون في بلدية فولكسان فيلان بأن الأحداث أوجدت وضعاً ملحّاً سمح بالإفراج سريعاً عن الاعتمادات المخصصة لعمليات إعادة الاعتبار والعمل الاجتماعي. وهذه هي النتيجة الإيجابية الوحيدة دون شك (ومع ذلك، ينبغي معرفة المستفيد الرئيسي من

---

[1] في هذا السياق، يدأب الصحفيون على قراءة كل حادثة، ويكتشفون خيطاً يسحبونه، أو منجماً يستغلونه، انطلاقاً من القوالب النمطية العنصرية وأوجاع الضواحي، حدثني مفوض شرطة في شمال فرنسا بأن حادثة انتقام عادية صارت في صحافة «ترى فولكسان فيلان في كل مكان» «جريمة عنصرية» تعبر عن «وجع الضواحي» وذلك لأن المتورطين في الحادثة كانوا يوغسلافيين. ووقعت في منطقة سكن شعبي.

هذه الإجراءات). لكن في المقابل، دُفِع ثمن هذه الميزة المادية الآنية غالباً على الصعيد الرمزي. وسكان هذه الأحياء لم يخطئوا بشأن هذا الثمن، عندما نرى الاستقبال السلبي أكثر فأكثر، الذي يقابَل به بعض الصحفيين بعد الأحداث، والذي يعبر عن الثورة العاجزة لأناس يشعرون بأنهم قد غُدِر بهم. إن الصحفيين منبوذون بالطبع من قِبل الشبان الجانحين الذين لا يرغبون بأن تتعرف الشرطة عليهم، وتسجلهم في محفوظاتها. لكنهم منبوذون كذلك من قِبل سكان هذه الأحياء الذي يرون التقارير المتلفزَة ومقالات الصحف اصطناعاً لصورة جد سلبية للضاحية. وهكذا، يا للمفارقة، فبدلاً من أن تساعد وسائل الإعلام سكان هذه الضواحي فإنها تسهم في وصمها، إذ تقدم هذه الأحياء وسخة وكئيبة وسكانها جانحون. ولذا لم يعد الشباب الذين يبحثون عن عمل يجرؤون على القول بأنهم يسكنون أحياء مشبوهة بالإجماع، لأنها شغلت الصفحات الأولى من وسائل الإعلام. ينقل صحفي من التلفزيون مثلاً أن فريقاً من المراسلين من شتى أنحاء العالم زار حي شامارد القريب من درو وذلك لأن درو صارت رمزاً لصعود الجبهة الوطنية. إن عملية الوصم اللاإرادية دون شك والناتجة عن طبيعة عمل الميدان الصحفي نفسها، تمتد آثارها إلى أبعد من الأحداث التي سببتها، وتصم هؤلاء الناس حتى وهم خارج حيّهم. وهكذا نشرت برقية في الصحافة كلها لأنها تتحدث عن حادثة في منزل للشباب في جارد تورّط فيها شباب من فولكسان فيلان. كما وقعت على شباب من فال فوريه كانوا بعطلة في الجوار، طوال إقامتهم، اعتداءات متنوعة وإهانات من قِبل السكان المحليين الذين داخلتهم الريبة وسوء الظن، منذ أن غطّت وسائل الإعلام (ولاسيما التلفزيون) باستفاضة، حوادث هذه الأحياء، وهكذا كان من شأن الوضع المتوتر الذي خُلق أن يؤدي في حد ذاته، إلى إشعال حوادث جديدة، أتت بشكل دائري، لتؤكد الآراء النمطية الأولى لوسائل الإعلام.

ترفض فئة قليلة من سكان هذه الأحياء بقوة هذه النظرة الصحفية للضواحي. هذه الفئة هي الأكثر تسيّساً والأكثر نضالاً تستنكر أيضاً تلك النظرة «لو كانت الضاحية التي أسكنها كما تقول الصحف حقاً، فلن أرغب

في سكناها أبداً» «أقاربي لا يريدون المجيء لزيارتي هنا، إنهم يعتقدون أن المكان مَهلكة حقيقية، وأن النساء يُغتصبن على قارعة الطريق»، «إن هؤلاء الناس الذين لا يقولون إلا حماقات وأسميهم صحافيين، ليُتركوا وشأنهم يقولون ما يشاؤون، ولكن لنُوضَع وجهاً لوجه الآن لنرى فيما إذا كنا متفقين أم لا. لن نصل إلى مستوى العنف لأنني لست عنيفاً وأحسن الكلام». حتى أن جمعية من السكان تكوّنت للكفاح ضد الصورة الموصومة التي تعطيها وسائل الإعلام لفولكسان فيلان، وإعلام الناس بأن هذه المحلة ليست أسوأ من مدن أخرى. يبقى أن الأكثرية ولاسيما لأنهم من الفقراء ثقافياً، يقبلون بهذه النظرة لأنفسهم، التي يصنعها متفرجون منحازون يتلذّذون شيئاً ما بالتلصص على الآخرين، هم الصحفيون حتماً («إنه غيتو»، «إننا غير جديرين بالاحترام» إلخ).

كان عدد من سكان فولكسان فيلان من أول المندهشين للأحداث، حتى أن بعضهم كاد يشعر بالخزي لما حدث في محلتهم. وقد تحدث تجار عن علاقات جيدة مع الشباب، ويجد المعلمون وصف ما حدث بأنه «انفجار اجتماعي» مبالغ فيه، على الرغم مما يواجهون من صعوبات كبيرة في المدارس. ويشير بعض السكان بأسلوب أكثر بساطة إلى أن الاضطرابات في الواقع من فعل أقلية –حفنة من الشباب تعرف الشرطة أكثرهم– وأن نهب المركز التجاري ليس إلا استغلالاً لحادث مؤلم (مراقبة الشرطة) من قبل جانحين بالغين، أكثريتهم من خارج فولكس. أما الصحفيون المحليون، فعلى الرغم من الإغراء بإعطاء الأهمية لهذه الأحداث، إلا أنهم لم ينخدعوا، وكانت رؤيتهم أقرب إلى رؤية السكان: «عندما أتجول في فولكس، لا أسمّي هذا الحي غيتو، لأنني رأيت عشرات أسوأ. ينبغي إذن معرفة ما وراء الكلمات. لقد حطّوا من شأن الضواحي» (صحافي من الصحافة الإقليمية بليون) «إن الأسوأ ربما، هم الصحفيون رعاة البقر، الذين يظنون أنفسهم نجوماً، أولئك الذين كانوا في الخليج والآن ينشغلون بالضواحي، ثم بطلاب الثانويات». (صحفي باريسي من الصحافة المكتوبة).

الثابت أن وسائل الإعلام تشكل منذ الآن جزءاً متمماً للواقع، أو أنها، إذا أردنا، تنتج تأثيرات واقعية بخلق رؤية إعلامية للواقع، تسهم في خلق الواقع الذي تدعي وصفه. فالمصائب ولا سيما المطالب عليها تعبر عن نفسها إعلامياً حتى تأمل في وجود علني، وتؤخذ بنظر الاعتبار، إن بصورة أو بأخرى من السلطة العمومية. إن منطق العلاقات التي استتبت بين السياسيين والصحفيين والمتخصصين في (الرأي العام) قد فرض نفسه لدرجة يصعب معها سياسياً الحركة خارج وسائل الإعلام أو بالأحرى ضدها. لذلك كانت السلطة السياسية مهتمة دائماً بالصحافة، عن طريق السعي إلى السيطرة على ما يسمى (الوقائع)، إذا لم تسهم بمساعدة ملحقيها الصحفيين على خلق هذه الوقائع بنفسها. فالمسؤولون السياسيون لا يحبون أن تفاجئهم الأحداث أو تتجاوزهم، ويسهرون على أن لا يفرض الآخرون عليهم في حالة الاستعجال وتحت الضغط تعيين المشكلات الاجتماعية الراهنة ومعالجتها. إنهم يريدون، باختصار، أن يظلوا أسياد جدول أعمالهم، ويتخوفون خصوصاً من هذه الأحداث التي تبرز فجأة (حادثة محلية تتفاقم) لتوضع في صدارة الوقائع السياسية، لأن الصحافة المكتوبة والجرائد المصورة استحوذت عليها[1]. من المعروف مثلاً، أن بعض المنشآت الكبرى تحاول علاج ما قد يطرأ بالقيام بتمثيل بعض المشكلات، حتى تستطيع التصرف كما يجب أمام الصحفيين عند اللزوم (هكذا تحسّبت منشأة كهرباء وغاز فرنسا لحوادث نووية كبرى لتهيئة «الأجوبة المناسبة» لوسائل الإعلام على الخصوص).

إن السلطة تتخوف بصورة خاصة من الإنتاج الفردي أو المشترك من قبل وسائل الإعلام لهذا النوع من الأحداث، التي يغذيها الصحفيون أحياناً، حينما يُتركون للقوانين التي تتحكم في عمل الحقل الصحفي وحدها

[1] لنتأمل مثلاً مسألة «الحجاب الإسلامي» التي تفجرت قبيل أحداث فولكسان فيلان في أيلول 1990.

(تحمس إعلامي، ملاحقة الصحافة، التضخيم.. إلخ). لأن هذه الأحداث قد تأخذ، ولو مؤقتاً، بُعداً سياسياً معتبراً قد يعرّض المسؤولين للحيرة. وتلك كانت حال فولكسان فيلان عند وقوع أحداث تشرين الأول 1990، ومظاهرات طلاب الثانويات أيضاً في الشهر التالي، التي كانت تتفاقم بقدر ما كانت وسائل الإعلام تتكلم عنها، دون أن يدري المسؤولون السياسيون ما كان يريد هؤلاء المتظاهرون الشباب، الذين ما كانوا يدرون هم أنفسهم ما يريدون.

عندما تطرأ مثل هذه الأحداث، فهل يستفيد الأكثر فقراً من ضوء الإعلام الذي سُلط فجأة؟ ألم تضطر السلطة مثلاً إلى معالجة مشكلة الضواحي ومشكلة طلاب الثانويات؟ لا شيء أقل تأكيداً. إذ الصراع الرئيسي يقوم على المعارضة بين الصحافة والسلطة. وتجري الأمور كما لو أن الصحفيين يريدون أن يبرهنوا لأنفسهم على استقلالهم المهني حيال السلطة بالسعي لوضعها في موقع حرج، بينما يجتهد رجال السياسة من جهتهم للسيطرة على وسائل الإعلام بالقدر الذي يستطيعونه (فقط بصورة غير مباشرة، اليوم). وبعبارة أخرى، إن الصراع متوضّع بصورة رئيسية على الأرضية الإعلامية ويميل للبقاء كذلك، بينما تبتدع السلطة، بمساعدة متخصصين في التواصل، استراتيجيات من شأنها وضع حد للشغب الإعلامي، وبالتالي للشغب بحد ذاته.

وهكذا من أجل محاولة إيقاف مظاهرات الثانويين عام 1990 -التي كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى (مأساة) كما حدث عام 1986- ابتدع متخصصو التواصل في وزارة التربية الوطنية (السيدة مخطط الاستعجال)، وهي ذات مظهر مطمئن، فيها أمومة وتفهّم، كان عليها عندئذ أن تجد بسرعة حلولاً لكل مشكلات المدارس الثانوية والمتوسطة. جعلوها تتجول في كل وسائل الإعلام السمعية والبصرية.

وجاء إحداث «وزارة المدينة» بعد بضعة أسابيع من أحداث فولكسان فيلان، استجابة ربما لحاجة بيروقراطية هي التنسيق على الصعيد المحلي بين أعمال مختلف الوزارات التي تُعنى بالناس الذين يعانون من الصعوبات.

لكن كل شيء يبعث على الاعتقاد أنها استُلهمت من هاجس السيطرة على الصحافة المنشغلة بهذه المشكلات، بإعطائها مُحاوراً رسمياً مكلفاً بأعمال من أجل وسائل الإعلام، وإيجاد وجهة نظر علنية للدولة فوق المواقف الفوضوية والخاصة.

من أجل محاولة فهم المشكلة، ينبغي استجواب الناس العاديين عن حياتهم اليومية، وأخذ الوقت الكافي مثلاً لاستعادة ماضي فولكسان فيلان. هذه المحلة التي كانت في أول القرن قرية صغيرة، لا يتجاوز عدد سكانها 1588 في عام 1921، والتي عرفت نمواً هاماً في سكانها عند إنشاء مصنع الألياف الصناعية عام 1925[1]. وينبغي تذكّر أوائل المساكن الشعبية التي بنيت بين عامي 1953 و1959، والتي خُصصت لاستقبال عائلات كثيرة العدد تعاني من صعوبات، والنمو السريع الذي عرفته المدينة في سنوات الستينيات مع إحداث منطقة إعمار ذات أولوية عام 1964. وينبغي، على وجه الخصوص، قياس الآثار المترتبة على بناء أكثر من 9000 مسكن بين عامي 1971 و1983، والازدياد الكبير للسكان، الذين بلغ تعدادهم عام 1984 ما يقرب من 45000 ساكن. وينبغي، أخيراً، تحليل كيفية التدهور المفاجىء للوضع في منطقة الإعمار ذات الأولوية، بعد تضاعف المساكن الخالية عام 1979 لاسيما في قطاع ماس دو تورو الذي وجب إغلاق مجمعه التجاري عام 1985. سنرى أن فولكسان فيلان تشاطر أحياء صعبة أخرى بعض الخصائص البنيوية من مثل: بناء قريب العهد، سكنى جماعية أساساً، حراك سكني قوي، معدل بطالة مرتفع يعرقل الحياة العادية بشكل خطير.. إلخ.

إن مهاجري الجيل الأول الذين قدموا إلى فرنسا قبل الأزمة، يَقبلون غالباً البطالة الواقعة عليهم بشيء من الاستسلام الذي يرجع في جزء كبير منه إلى شعورهم بأنهم أجانب في فرنسا. (لاسيما النساء اللواتي لا يتكلم عدد كبير منهن الفرنسية). لكن الأمر مختلف بالنسبة لأولادهم الذين لم

[1] إن الإيضاحات الموجزة التي نقدمها هنا منقولة عن (فولكسان فيلان: مركز للغد). وهو وثيقة أنجزتها مصالح الجماعة العمرانية في ليون بالتعاون مع المصالح البلدية في (فولكسان فيلان) ومصالح وكالة كوري للإعمار بإدارة بيير سوشيه وجان - بيير شاربونو.

يعرفوا إلا فرنسا، ويطالبون بأن يُعامَلوا معاملة أي فرنسي. ولأنهم يشعرون بأنهم مندمجون فهم يعيشون عدم اندماجهم الموضوعي بصعوبة، وهم يعيشون البطالة، كظلم حاق بهم، بشكل أشد من بقية الفرنسيين. وباعتبارهم ناقصي التأهيل لأسباب ثقافية أدت إلى إخفاق مدرسي، فهم ينقمون على أرباب العمل، الذين أقل ما يقال فيهم أنهم غير مستعدين اليوم لتفضيل شباب من أصول أجنبية في مجال التشغيل. ويسهم هؤلاء الشباب بصورة لاإرادية من خلال ردود أفعالهم في تغذية الحلقة المفرغة التي تهمّشهم. إذ أن شعورهم بالإقصاء يقودهم إلى تبنّي سلوكات تقصيهم أكثر فأكثر، وتثبط في نفس الوقت همم القليلين الذين يحملون نوايا طيبة تجاههم؛ فالمحلات التي توضع تحت تصرفهم تخرب أكثر الأحيان، وعلى أرباب العمل الذين يشغلونهم أن يواجهوا أحياناً مشكلات نوعية (سرقة، عنف، .. إلخ). إن الوضع الذي تعيشه الضواحي هو نتيجة لسلسلة من العمليات التي لا يكمن منطقها في الأحياء نفسها، بل في آليات أكثر شمولاً. كسياسة الإسكان مثلاً أو الأزمة الاقتصادية. ولذا نجد الذين أُوكلت لهم مهمة التصرف على الصعيد المحلي -الأخصائيين الاجتماعيين والمعلمين على وجه الخصوص- مضطرين لبذل الكثير من الطاقة من أجل نتائج تافهة غالباً، لأن الآليات العامة تدك بلا انقطاع ما يحاولون بناءه. ولهذا السبب أيضاً فإن إحداث وزارة للمدينة هو حل إعلامي - سياسي أكثر مما هو واقعي. يبقى أن خصوصية الوضع في هذه الضواحي (كثرة الجنح الصغيرة، أعمال التخريب، المخدرات، السيارات المسروقة، نهب المراكز التجارية) أدت إلى تراكم كل هذه الآليات السلبية في المكان نفسه. إن المظاهر تعطي الحق دائماً للمظاهر؛ فقد رمى محافظ شرطة في شمال فرنسا بمسؤولية الجنوح في الضواحي على السكنى العمودية (الأبراج السكنية)، التي تقابلها المساكن الأفقية (المنازل). بيد أن ما يسبب هذه المشكلات ليس هو «التركز العمودي» للسكان، بل التركز العمودي للمشكلات والصعوبات. ولقد كان لطريقة عمل السوق العقارية، ومنطق إجراءات تخصيص المساكن الشعبية، آثارٌ منها التجمع السكاني لأناس يعانون من

صعوبات، أكثرهم من العائلات المهاجرة، وقد ولد التركز المكاني لهؤلاء الناس ردود أفعال فيها عنصرية ضمنية. يضاف إلى هذا تجميع السلطات الحكومية والمصالح الاجتماعية في هذه الأحياء أسراً يدعونها «ثقيلة» (أي جانحة أو مسجلة لدى الشرطة على الأقل). هذه الأسر ذات العدد المحدود نسبياً، (بضع مئات على الأرجح في الضاحية الشعبية كلها) والتي تعيش دون مورد، على هامش القانون، جعلت مناطق الإعمار ذات الأولوية مرتعاً لنشاطها. إذ تناسب الهندسة المعمارية للمجمعات هذا النشاط، لأنها صُممت عمداً لتكون في منأى عن طريق المرور، وبذلك أصبحت، بشكل لا إرادي، منعزلات حقيقية مقطوعة عن مركز المدينة. ويكسب جزء من شباب هذه العائلات رزقهم من اقتصاد خفي يقوم أساساً على السرقة، وحديثاً على تهريب المخدرات.

أخيراً، وعلاوة على ما سبق، أصبحت البطالة هذه الأيام أصعب احتمالاً من السابق. إذ إن النمو الاقتصادي وتعميم شبكات التوزيع منذ عشرين عاماً، جعلا عدداً كبيراً من البضائع الاستهلاكية في متناول الأيدي. وإذا كان من المعلوم أن السرقة في الأسواق الكبرى ليست فقط من فعل شباب عاطلين دون مورد، فإنه من المفهوم أن تشكل بالأحرى حلاً مألوفاً لهؤلاء العاطلين الذين يعتبرون «خدمة أنفسهم بأنفسهم» من تلك الأسواق شيئاً عادياً. حتى أن السرقة صارت نوعاً من الرياضة، يمضي على إيقاعها وقت هؤلاء المراهقين الفارغ، إذا لم تكن فرصة للقيام بإنجازات حقيقية تشكل مبدأ داخلياً لتسلسل المراتب في هذه المجموعات.

ولم يكن الفارق الذي نشأ بين رغبات الاستهلاك والمداخيل المتاحة لدى الشباب العاطلين أكبر منه في هذه الأيام دون شك. ومن هنا ربما يُفَسَّر كون المراكز التجارية أحد الأهداف المفضلة لأعمال العنف التي يقوم بها شبان الأحياء، على حسب منطق الهدف المزدوج؛ فهم يتلفون هذه الأماكن ويخربونها، باعتبارها رمزاً حقيقياً لمجتمع استهلاكي يقصيهم، ويقومون في نفس الوقت بغزوات كبرى ليست بريئة من الفوائد المادية. ومن هنا تفسر أيضاً سرقة السيارات دائماً، وإتلافها وإحراقها؛ لأن السيارة في

الواقع تمثل بالنسبة لهؤلاء الشباب البضاعة الاستهلاكية المثالية. باعتبارها محلاً لاستثمارات متعدّدة (اقتصادية، ولكن أيضاً عاطفية واجتماعية بالإضافة إلى زمن يخصص لها) وهي آلة لا غنى عنها للانتقال والتسلية. وترمز للنجاح والاندماج في سوق العمل، لأنها من أول مشترياتهم عندما يعثرون على عمل ثابت، ويتوصلون إلى الزواج.

إن أعمال العنف المروّعة التي تتصدر «الصفحات الأولى» في وسائل الإعلام، تخفي ضروباً صغيرة ومعتادة من العنف، تُمارس باستمرار على كل سكان هذه الأحياء، بمن فيهم الشباب الجانحون الذين هم ضحايا أيضاً، فالعنف الذي يمارسونه ليس إلا رداً على العنف غير المرئي الذي يعانونه منذ نعومة أظفارهم؛ في المدرسة وسوق العمل وسوق الجنس، إلخ. ولكن من المفهوم أيضاً أن يكون «البيض المساكين» الذين يفتخرون في هذه الأحياء بأنهم «فرنسيو الأصل» ويعتبرون أنفسهم «في بيتهم» مغتاظين بصورة خاصة من المضايقات المستمرة التي يتسبب بها في الجوار أطفال متحدرون من الهجرة. كيف لا تثير هذه الصراعات الدائمة التي تؤدي أحياناً إلى مآسٍ وتغذّي صفحات الحوادث إلى نقمة يسهل استغلالها؟

بيير بورديو

نظام الأشياء*

إنه حي مثل كثير من الأحياء غيره، يقع في ضاحية مدينة صغيرة في شمال فرنسا. وفي بناء مسبق الصنع مؤقت بشكل دائم، نوافذه مشبكة بالحديد، صدعت أبوابه وأُصلحت كيفما اتفق (كان نُهب وحطمت محتوياته مرات عديدة، ومن مدة قريبة أيضاً) يوجد «نادي الوقاية المختص باللقاءات وأوقات الفراغ» المكون من قاعة رمادية فسيحة وأثاث وطاولات من الفورميكا ومغسلة في إحدى الزوايا وثلاجة قديمة. يشبه مطعماً مدرسياً مهجوراً وفيه «عاملون اجتماعيون» محبطون يتحدثون بشيء من التهكم عن «شيكاغو»، إما لأنهم فزعون أو يريدون إفزاع غيرهم.

شاب من البور قُدّم في الصباح على أنه «حالة مناسبة». هو في الصف الحادي عشر وسيبلغ العشرين قريباً، ينتظر نتيجة «لجنة الاستئناف» التي عليها أن تقرر، بعد أيام، فيما إذا كان سيترفع إلى الصف الأعلى: «إنه مستقبلي الذي سيقرر هنا، لأني، بصراحة، إما أن أنتقل إلى الصف النهائي وإما أطرد نهائياً، وعلي أن أجد ثانوية أخرى. ولا أدري إن كنت سأجد ثانوية حكومية أخرى». (لقد بحث بنفسه عدة مرات عن ثانوية). إن هذا الشاب على توزعه بين الشعور بالأعجوبة (لم يصل إلى السنة النهائية إلا اثنان من كل أصدقائه) والشعور بالإخفاق (يعلم في قرارة

نفسه أن حياته المدرسية انتهت)؛ فإنه يعيش الفارق بين الثانوية و«الحارة» ويعبر عنه بوعي («إن المحادثة مع الرفاق في الحارة تتناول بالأحرى المشكلات التي نعاني منها هناك، بينما ننسى كل ذلك عند الذهاب للثانوية» ولا تعبير أحسن من هذا، عن القطيعة بين الحياة من جهة وعالم المدرسة من جهة أخرى). هو ابن مهاجر متحدر من أسرة فلاحين صغار من نواحي قالما في الجزائر «يكسب رزقه جيداً» من عمله كعامل - محلل في مصنع كيميائي. وقد كان موضع تشجيع دائماً في دراسته، لكنه ترك وشأنه أيضاً. فأبوه الذي «لا يقرأ ولا يكتب إلا قليلاً» وأمه الأمية، يتكلمان بالعربية في البيت، وقد «وضعا كل آمالهما» فيه (فأخوه الأكبر منه بكثير يعمل ميكانيكياً، والأخ الأكبر منه بسنة أخفق في شهادة الكفاءة المهنية). وهما لا يفتآن يشجعانه على المواظبة. لكنه يشعر «بوجود عقبة» دون أن يدري لماذا، وأن اجتهاده غير كاف، لأنه «لا يدرك أن المدرسة شيء مهم» بدون شك. أمه «تتألم لأنها هي أيضاً تتمنى» أن ينجح، ولا تريد «أن تراه يكابد المشاق فيما بعد»: «ومع ذلك فهي توصيني بالاجتهاد، وأن ذلك لمصلحتي، ولكنني لا أدري، ربما لأن هذا الكلام يأتي من قبل أناس لا يفهمون الحياة ولا يعرفونها حقاً، ولهذا ليس بيننا تفاهم ربما. وعلى الرغم من أنهما والداي، مع أنهما والداي، ينبغي علي ربما، لكنني لا أدري. ربما لو قال لي ذلك أناس آخرون بأسلوبهم، بحيث أفهم جيداً، ربما يتغير شيء».

ثم جاء اللقاء المحوط بالأسرار، بعد الظهر («إن ذاك سيكون شيئاً آخر»، «لقد خرج لتوه من السجن» إلخ) مع علي، وهو شاب من البور، جاء برفقة صديقه فرانسوا، الذي يسكن مثله في أكثر البنايات شبهة من حي مشبوه يسمى لاروزريه[1] بالطبع. وأخذا يتكلمان بأسلوب فظ، وهما يتبادلان نظرات تساؤل أو موافقة، بلكنة الشمال التي كانت قوية لدرجة جعلت بعض كلامهما غير مفهوم. وبينما كنت أحاول أن أبين لهما من أنا وماذا أعمل، وأبعد الشكوك أو المخاوف التي قد تراودهما («عملي هو أن أنصت وأحاول

[1] هنا تهكم من الكاتب لأن معنى الكلمة هو (الحوض المزروع بالورود) - المترجم -.

أن أفهم ثم الإخبار بعد ذلك. فأنا لست قاضياً ولا شرطياً» إلخ) كانا ينصتان وهما ينظران إلى جهة أخرى وكأنهما يخفيان بذلك ارتباكهما (لا سيما عندما طلبت منهما استعمال صيغة المخاطب المفرد معهما -إذ لم يكونا معتادين على هذا القدر من الاحترام- بناءً على أن لي أولاداً في مثل سنهما) وخشيتهما أيضاً كما يبدو لي من أن لا يكونا في مستوى المهمة، وأن لا يفهما جيداً. ولم يطرحا أسئلة (سيطرحان سؤالاً أو اثنين في النهاية عندما استتبت الثقة بيننا). وأفهماني أنهما ينتظران أسئلتي.

علي ابن عامل من وجدة وهي مدينة مغربية صغيرة، وصل إلى فرنسا مع أسرته في نهاية السبعينيات، وكان وقتها في الثامنة من عمره. وتلك كانت نقطة الانطلاق للصعوبات المدرسية التي عانى منها، وسلوكات التحدي التي سيتخذها لتجاوز تلك الصعوبات: فبما أنه كان يجهل الفرنسية تماماً عند دخوله المتأخر للمدرسة، ولم يكن يتكلم إلا العربية في أسرته مع أب أمّي وأم لا تعرف إلا القليل من الكتابة، فلقد وجد مشقة كبيرة في تعلم القراءة (يعترف في نهاية الحوار بأنه لا يزال يقرأ «كالرجل الآلي»). إن كل شيء يوحي بأن رفضه للمدرسة، والتصرفات المتمردة التي قادته تدريجياً لاتخاذ دور «الصلب» وحبَسته ضمنه، ترجع منذ البدء إلى رغبته في الإفلات من المحنة المذلة المتمثلة في القراءة الجهرية أمام بقية التلاميذ. وهكذا بابتعاده عن التمرن والتعلم غاص في الإخفاق وفي حلقة الرفض التي ضاعفت هذا الإخفاق. وهي طريقة مليئة بالمفارقة تجعل من الضرورة فضيلة، أي عيباً مدرسياً ثم جنوحاً اجتماعياً في القريب العاجل.

أما فرانسوا فقد بقي في الإعدادية حتى الصف التاسع، وأخفق في الحصول على شهادة الكفاءة المهنية (لأنه لم يكن يتردد على المدرسة إلا لماماً كما يقول (وهي إعدادية على بعد عشرة كيلو مترات، وينبغي الذهاب إليها بالحافلة، «لأن الثانوية القريبة للتلاميذ الجيدين، أي للأفضل»). فرانسوا وعلي لا يفترقان، ويتحدثان بكثير من الشجن عن اليوم الذي عليهما أن يفترقا فيه، لأن ذلك من نظام الأشياء. ويمكن القول بأنهما يعرفان نظام الأشياء.. إذ تكلما عنه طيلة الحديث على أنه البداهة نفسها بصوت كان

يعلو في نهاية الجملة، دون أن يظهرا حقاً ما يشبه السخط أو الثورة. ولإعطاء فكرة عن ذلك، وددنا لو استطعنا إسماع المقطع المسجل الذي يروي علي فيه بكثير من التحفظ والرصانة («مثلي، أنا لنفرض») كيف يمنع في كثير من الأحيان من الدخول إلى الملاهي، («من أجل الخروج إلى الملاهي، حتى هنا، في الجوار، حسناً، مثلي، أنا لنفرض، لا أدخل، إن العرب لا يدخلون») بينما يسمحون لصديقه بالدخول عن طيب خاطر. ثم يختم كلامه ببساطة قائلاً: «إن هذا مثير للأعصاب لقسوته»).

لقد شكرت، على الفور، الصدفة (فهمت فيما بعد أنها ناجمة عن الصداقة) التي جعلتني ألتقي علياً وفرانسوا معاً. فسيرى الذين سيقرؤون أقوالهما أنهما يشتركان في كل شيء إلا الأصل العرقي الذي لا يتعرضان لذكره أبداً، وكم هم حمقى إذن أولئك الذين يحشرون ثنائية المهاجرين / الوطنيين في الخطاب السياسي وفي عقول المواطنين؟ إن علياً ليس إلا نوعاً من الممر إلى حدود فرانسوا: فالوصمة الإثنية المرسومة بشكل لا يمحى من خلال لون وتقاسيم الوجه، وأيضاً من خلال الاسم الشخصي، ضاعفت أو بالأحرى جَذّرت العائق المتصل بانعدام الشهادات والمؤهلات، الذي يرجع لانعدام رأس المال الثقافي واللغوي بصورة خاصة. إن «المهاجر» و«ابن البلد» (في أزمنة أخرى وأمكنة أخرى، «في الجزائر الفرنسية» مثلاً، حيث يمكن استبدال أحد النعتين بالآخر مع النتيجة نفسها) لديهما المشكلات نفسها، والصعوبات نفسها، والرؤية نفسها للعالم التي شكلتها التجارب نفسها في شجارات الطفولة والخذلان والخيبة في المدرسة، في الوصمة المصاحبة للإقامة في حارة «متعفنة» والانتماء إلى أسرة موسومة (لديهما كليهما «كبار» تقع الشبهات والاتهامات عليهم دائماً)، والوضع الذي يجدان نفسيهما فيه إزاء سترة أنيقة يعجبان بها أو سروال جميل. ولا يستطيعان طلب المال من أحد فعليهما تدبير أمرهما بنفسيهما، وفي الساعات الطويلة التي أمضياها معاً «نهباً للسأم» لأنهما دون وسيلة، فلا حافلة ولا دراجة نارية (إلا إذا «اشترياها خارج القانون» أو سرقاها) ولا سيارة (ولا رخصة سياقة على كل حال) للذهاب إلى المدينة، ولا محل للاجتماع، ولا ملعب كرة

يمكن اللعب فيه، وخاصة في تلك المجابهة مع عالم مغلق من كل جهة، دون مستقبل أو إمكان: سواء فيما يتصل بالمدرسة أم بالعمل -هما لا يعرفان إلا أناساً دون عمل، أو يعانون من صعوبات- وعند ذكر الأهل الذين يُنتَظر عون أو نجدة منهم، لا نجد إلا عاطلين عن العمل أو عَجَزة.

يتأكد التضامن بين علي وفرانسوا في كل لحظة باستعمالهما «نحن» التي تشملهما كليهما، مع الفهم التام بأن «ابن البلد»، لديه المشكلات الخاصة بـ «المهاجر». ويؤكد فرانسوا هذا التضامن دون تعبير أو جهر بأي عقيدة مخالفة للعنصرية، عند مدخل الملاهي، حين يذهب مع صديقه في حالة منع هذا الأخير من الدخول، ويتحدث في مكانه -لأن ذلك سيكون مؤلماً دون شك- بأن الشيء ذاته يحدث عندما يكون مع فتيات («عندما نكون مع فتيات -ويمنعون من الدخول- فهن يستطعن الكلام، ويقلن «نعم، إنه صديقي، إنه معي» ولكن الأمور لا تجري على ما يرام مع ذلك). كما يردّ نيابة عنه على بعض الأسئلة، كأنه يريد أن يجنبه الحرج والإرباك، ويشهد أيضاً لمصلحته باعتباره طرفاً محايداً . وهكذا فعندما ذكر علي خلافاته مع الشرطة والعدالة، التي يسميها «حماقات» -بنوع من الكناية التي تهوّن من قيمة الجنحة، وتتبنى في نفس الوقت وجهة النظر الرسمية- فإن فرانسوا هو الذي استحضر الظروف المخففة، متوافقاً مع صديقه: «حسناً، يلزمنا المال مع ذلك. فعندما نحتاج إلى كثير من المال، لنفرض أننا رأينا سترة جميلة أو سروالاً جميلاً، وما أشبه. لكنه يوضح أن هناك فرقاً بينه وبين صديقه («كان ذلك قبلاً.. لا، فكل شيء انتهى بالنسبة لي، وأنا لا أخالطهم كما كنت في الماضي») ودون أن يرجعه إلى عامل بعينه، يستذكر أنه «رتب حياته»، ويردف علي مستخلصاً الدرس من تجربة صديقه النافعة قائلاً: «نحن بحاجة إلى فتاة – لِمَ فتاة؟ حتى لا نعود لارتكاب الحماقات».

إذا كان تضامن فرانسوا مع علي مؤكداً بهذا الجلاء والشمول، فذلك بديهي، وليس نتيجة الصداقة كما تفهم في محيطهما وحسب، بل لأنهما يعانيان من الشقاء ذاته، فكلاهما موصوم و«موسوم» من قبل سكان الحي

الأكثر نفوراً من الشباب، ومن قبل الحراس والشرطة، ولا سيما بفعل الشائعات التي تحملهما بصورة آلية مسؤولية كل المساوئ، وتدفعهما بذلك للتحدي والإمعان في سلوكهما نكاية بالجميع، وأنا لا أريد هنا تقديم أي نوع من التكذيب لتلك الشائعات التي تُسوِّد سمعتيهما، أو إعادة الاعتبار، وهو شيء لا يطلبانه. لكنني أورد فقط تلك الجملة التي تلفظ بها أحد «مرعبي الضواحي» بكل عفوية، عن المخاوف التي يشعر بها والداه حين يخرج متأخراً في المساء؛ بسبب كل ما تقوله الإذاعات ومحطات التلفزيون.. إن الفضل في الصورة التي يقدمانها لنفسيهما في الحوار، دون أن تكون زائفة مع ذلك، يرجع إلى العلاقة الاجتماعية الفريدة والاستثنائية التي تؤدي إليها علاقة التحقيق: فبما أنهما شاعران بأنني أتفهمهما وأقبلهما، فبوسعهما البوح بإحدى حقائقهما الممكنة وهي تلك التي يحسنان إخفائها في العادة دون شك، تحت تأثير رقابة الأقران (مع ما يسمونه بـ«التباهي») وتأثير الضغوط الجماعية الناجمة عن المزاودة بالعنف (علي وفرانسوا يستحضران عمليات تشبه كثيراً تلك التي تلاحظ في الحروب الثورية والتي تتيح لأقلية ناشطة أن تدخل شيئاً فشيئاً فئة كاملة مسلسل العنف، ثم تقبض على زمامها عن طريق الخوف الذي يزيده الانعزال، وهكذا تبقى متماسكة بالتضامن الذي يمليه الاضطهاد). وإذن من السذاجة الاكتفاء بالحقيقة التي يقدمانها هنا بكل إخلاص ودون قصد للخداع (سنُذكِّر بأنهما ليسا «ملاكين صغيرين». لكن مجرد مجيئهما معاً حتى «لا يُخدعا» بدون شك يضمن صحة شهادتيهما). بيد أن سذاجة أكبر أيضاً رفض تلك الحقيقة الممكنة التي تصير مستبعدة دون شك بقدر ما تزداد المواجهات مع أوضاع من شأنها أن تثبطها أو تمنعها، لا سيما مواجهة الأحكام العنصرية المسبقة أو الأحكام التصنيفية الواصمة غالباً، التي تصدر عن العاملين في السلك المدرسي والاجتماعي أو الأمني، والتي من خلال التأثير المصيري الذي تمارسه، تسهم بقوة في تحقيق المصائر المحكوم بها والمعلنة. هل هما طيبان؟ هل هما خبيثان؟ إن السؤال وما يستدعيه من جواب ذي طابع أخلاقي لا معنى لهما. وهل هما فعلاً ما يقولانه عن نفسيهما في الحوار المدون هنا؟ إن هذا

السؤال المشروع في الظاهر، لا يقل وهماً عن السؤال الأول. إذ إن الحوار خلق وضعاً استثنائياً سمح لهما بالكشف عما سيكونان عليه في أكثر الأوقات وبالصورة الأكمل، فيما لو كان العالم معهما على غير ما هو عليه..

بمقدار ما كنت أستمع إلى هذين الشابين وهما يستحضران بكل عفوية، وعلى الرغم من التردد والسكوت الناجم عن خشية قول ما لا يلزم أو خدش أسماعي، ما يدور حول حياتهما وحياة الحي وحتى «حماقاتهما» أو العنف الذي يمارسه البعض أو مارسه واحد (كذلك الذي جعل من «صفير» عبداً له) كان كل ذلك يصير بالنسبة لي طبيعياً، من خلال حضور «العنف السلبي» لنظام الأشياء في كلامهما وسلوكهما برمته. ذلك العنف الملازم لآليات سوق العمل التي لا ترحم. وللسوق المدرسي وللعنصرية (الحاضرة أيضاً في «قوى النظام» المنوط بها مبدئياً أن تقمعها) إلخ. لم يكن علي أن أتكلف مشاطرتهما شعورهما -الذي يبدو في كل كلمة وكل جملة وخاصة في نبرة الصوت وتعبيرات الوجه أو الجسم- بوضوح هذا النوع من النحس الجماعي الواقع كقدر محتوم على كل هؤلاء الذين جُمعوا في أماكن النفي الاجتماعي، حيث يتضاعف بؤس كل منهم بتأثير كل أشكال البؤس التي تتولد من تواجد وتعايش كل البؤساء، وخاصة ربما من تأثير القدر الملازم للانتماء إلى فئة موصومة. إذ لاحظ علي أن مصيره المدرسي آل إلى الفشل عندما وقع في الصف التاسع مع صف لأولاد ينتمون إلى حيه. ويقول إنه لا يهتم بالملاهي التي تفتح على مقربة من الحي، لأنه لا يجد فيها سوى أناس من الحي. وسبب ذلك هو أنه يجد فتيات الحي بلا أهمية ولا قيمة، وحسبهن أنهن يخرجن معه أو مع آخرين من أمثاله. وفي هذا توضيح ممتاز لمزحة غروشو ماركس «ما هو النادي الذي لستُ مستبعداً منه؟» التي إذا ما جردناها من الحياء الذي اقتضته نية الإضحاك، فإنها تعبر تعبيراً جيداً عما لا يجب تسميته بكراهية الإنسان لنفسه، بل يأس الإنسان من نفسه.

مع شابين من شمال فرنسا

لقاء مع بيير بورديو

«إن هذا مثير للأعصاب لقسوته»

❖ كنت تقول إن الوضع هنا ليس بهيجاً، لماذا؟ أهو العمل؟ أهي أوقات الفراغ؟

فرانسوا: نعم، إنه العمل وأوقات الفراغ. إذ ليس لدينا عمل هنا. وليس في حارتنا شيء.

علي: ليس لدينا ما نملأ به أوقات فراغنا.

فرانسوا: لدينا المحل والناس في الجوار يصرخون.

علي: حقاً، إنهم ليسوا لطفاء.

❖ لِمَ يصرخون؟ ألأنهم..

فرانسوا: لأننا في الحديقة، ولا شيء في حيّنا مساءً، فنضطر للذهاب إلى مداخل البنايات عندما يكون البرد. وحينما نُحدث الكثير من الضجيج، يستدعون الشرطة، ثم إن هناك محلات، زيادة على ذلك.

❖ نعم، إنهم لا يسمحون لكم باستعمالها؟

فرانسوا: نعم، لا يعطوننا المفاتيح.

❖ ولِمَ؟ إنها لا تفيد إذن في شيء؟

فرانسوا: لا، إنها لا تفيد في شيء.

❖ إنك تقول «الناس في الجوار يصرخون» من هم؟

فرانسوا: إنهم سكان الشقق، فعندما نتكلم في المداخل بصوت عالٍ، ينزلون ويصرخون.

❖ نعم لأنه ليس لديكم مكان تلتقون فيه..

علي: لا، ولا ندري إلى أين نذهب.

❖ وهذا المحل. ما هو؟ تقول: «هناك محل»..

فرانسوا: إنها قاعة فسيحة. وعندما كانت مفتوحة قبلاً، كان فيها تنس الطاولة وكنا نلعب.

❖ نعم، ولم أغلقت؟ ألأنكم تسببون كثيراً من الفوضى أم لماذا؟

فرانسوا: لا، بل لأنه سُطيَ عليها.

علي: لا، لا، ليس هذا. لقد كان هناك أيضاً شبان الأحياء الأخرى الذين كانوا يثيرون المشكلات ثم (..).

❖ ألا تستطيعون تدبر أمركم للسيطرة، أهذا صعب..

فرانسوا: لقد حدث ذلك الآن. والأمور تسير جيداً، إن التفاهم أفضل بين الأحياء.

❖ أليس من ملعب رياضي؟

فرانسوا: بلى، لدينا ملعب لكرة اليد، لكن ناس الحي المُجاور يذهبون إليه.

❖ نعم، هو ذاك. ليس إلا ملعب واحد للحيّين. نعم، إن هذا مزعج. ثم هناك التنافس قليلاً بين الأحياء؟

فرانسوا: نعم، هناك الكثير من التنافس.

❖ لكن، من هم، أهم عصابات؟

فرانسوا: نعم، إنهم عدة عصابات.

◆ وتلك العصابات، ما الذي يجمعها؟ أهي المدرسة، وما أشبه؟ أهُم ناس يعرف بعضهم بعضاً في الحي، أو..

فرانسوا: أوه، هناك عدة عصابات (..). فهناك الذين يعملون، والناس الذين يمارسون الرياضة، والناس الذين.. الذين يثيرون المشكلات.

◆ وهل أنت من هؤلاء؟

فرانسوا: كلا!

◆ لِمَ تضحك؟

علي: إنه يضحكني.

◆ أنت هنا، لا تقول لي كل شيء..

علي: إنهم يشتموننا في حيّنا دائماً. كما في الأمس حينما رمى علينا رجل من الشقة قنبلة مسيلة للدموع، إنه المنفاخ.

◆ أهو رجل تدعونه هكذا؟ لكن من يكون؟

علي: إنه رجل يرمي بالقنابل المسيلة للدموع، عندما يكون هناك تجمع عند المدخل.

◆ لماذا؟ ماذا كنتم تفعلون، أكنتم تزعجونه؟

فرانسوا: كلا، عندما نكون في المدخل، وهو يسكن الطابق الأول، نتكلم أحياناً بصوتٍ عالٍ، نصرخ.

◆ لكن، أكان ذلك نهاراً أم ليلاً؟

فرانسوا: في المساء فقط.

◆ في ساعة متأخرة.

فرانسوا: نعم، حوالي العاشرة أو الحادية عشرة.

◆ نعم، لديه الحق في التذمر، أليس كذلك؟ ولكنْ كثيرٌ أن يصل به الأمر لرمي القنابل المسيلة للدموع، هذا كثير. لكنكم إن كنتم تضايقونه طوال الليل فهذا مفهوم، أليس كذلك؟

علي: نعم، لكنه يستطيع النزول والكلام..

❖ نعم، بالفعل، يستطيع القول بلطف «اذهبوا بعيداً»..

علي: .. أفضل من القنابل المسيلة للدموع!

❖ هو ذاك، إنه ليس بحاجة لفعل ذلك، ومن أين يأتي بالقنابل المسيلة للدموع، هذا الرجل؟

علي: إنه يلقيها من نافذته، قنابل مسيلة للدموع في البناية، ونحن الذين نتلقاها. إنهم الشباب، إنهم الكبار الذين يتلقون في النهاية.

فرانسوا: نعم، لأنهم يذهبون لرؤية الناس في الأعلى، ورؤية الحارس، ثم يقولون.. لقد حصل، ويقولون «إنهم دائماً الشباب أنفسهم»

❖ ومن هو الحارس؟

فرانسوا: لا أعرفه، إنه ليس هنا أبداً، ولا يسكن هنا. أظن أنه يعمل في عدة أحياء.

❖ وهل هناك الكثير من المشكلات كهذه؟ وهي تقع على الأشخاص من أنفسهم؟

فرانسوا: نعم، على الأكبر سناً. على أخيه الأكبر (لعلي) وكبير آخر.

❖ ولكن لماذا؟ ألأن الناس يظنون بأنهم المسؤولون؟

فرانسوا: نعم، لأنهم يظنون بأنهم هم القادة. لا بد أن يكون الأمر هكذا.

❖ لكن عندما يقع ذلك عليهم، فمن الذي يصرخ، أهُم السكان؟ هل يستدعون الشرطة؟

علي: إما أن يستدعوا الشرطة وإما أن يذهبوا في الغد لرؤية البوابين وإخبارهم.

❖ وهل سيوبّخون؟

فرانسوا: آه، سيوبّخون. باعتبار أن الناس يذهبون لرؤية أهلهم.

❖ وهل يصرخ الأهل عليهم؟

فرانسوا: أفّ، لقد اعتادوا الآن. يصيحون في اليوم الأول، ويأتي الناس، ويأتون من بعد..

❖ وأنت ماذا كانت دراستك؟

فرانسوا: كنت في الإعدادية من السابع إلى التاسع. وهيأت شهادة الكفاءة المهنية، وعملت الامتحان. ثم..

❖ ألم تنجح؟

فرانسوا: كلا، لقد أخفقت. ذلك لأنني لم أكن أذهب إلى المدرسة إلا لماماً.

❖ هو ذاك، لقد كنت تتغيب قليلاً؟

فرانسوا: نعم.

علي: نعم، لأن الإعدادية بعيدة بعض الشيء عن الحي. ولم يكن هذا يناسبنا، لأننا لو كنا في الثانوية القريبة، لكننا كنا على بعد ما لا أدري من الكيلومترات.. الثانوية القريبة، إنها للجيدين.

❖ هكذا، يبعثون بكم بعيداً جداً؟

فرانسوا: إنها على بعد عشرة كيلومترات من بيتي.

❖ وكيف تذهب إلى..؟

فرانسوا: بالحافلة.

❖ بالحافلة.. ولِمَ لا يضعونكم قريباً؟

فرانسوا: إن الثانوية القريبة للجيدين، لأفضل التلاميذ.

علي: لأولئك الذي يثابرون على الاجتهاد.

❖ هل كان والداك يساعدانك في المدرسة، عندما كنت صغيراً؟

علي: آه، كلا، فأبي لا يقرأ ولا يكتب. أما أمي فتكتب بصعوبة، لقد كان إخوتي الكبار..

❖ يساعدونك قليلاً..

علي: هذا إذا كانوا في البيت.

❖ ولم يكن أحد يسألك «ماذا ستفعله للمستقبل»؟

علي: كلا، فقد كنت أذهب لمراجعة دروسي، إذ كانت هناك في الماضي ساعة بعد المدرسة للمراجعة، وكان أبي يصطحبني إليها دائماً.

❖ هذا شيء لا بأس به..

علي: نعم، لقد كان حقاً (..) لكنه لم يكن كل الأيام. وبعد ذلك بدأت..

❖ متى بدأت الأمور تسوء؟

علي: في حوالي الصف السادس، عندما وجدت نفسي مع جميع رفاقي.

❖ هل كان كل أولاد الحي في صفك؟

علي: نعم، نعم.

فرانسوا: نعم، لأن الإعدادية كانت جد قريبة من الحي.

❖ وكان المستوى ضعيفاً في المجموع؟ ومشكلات لكم جميعاً؟

علي: نعم، جميعاً.

❖ (..) لكن الصف السادس صعب، إذ ينبغي البدء فيه بأشياء كثيرة جديدة، إنه صعب.

علي: نعم، لكننا لو تعلمنا، لنجحنا بدون مشكلة. لكننا كنا نفضل التسلية (كان علي آنئذ مصاحباً لرفيق أكبر منه -عمره 19 عاماً- غادر المدرسة، وأدرك أنه كان عليه الاجتهاد بعد فوات الأوان).

❖ (..) ولم يكن الأساتذة يقولون لكم..

علي: الأساتذة، لم يكونوا يعبؤون.

❖ لم يكونوا يعبؤون.

علي: لكن، لا أحد في حينا يذهب إلى المدرسة.

❖ ماذا تريد أن تقول؟

علي: أقصد الكبار.

❖ لا أحد يذهب إلى المدرسة أو إلى الجامعة، لا أحد؟ أو إلى المدارس العليا؟

علي: لا.

❖ لا أحد، لا أحد؟

علي: بلى، هناك اثنان أو ثلاثة، أما الباقون ففي المنزل، ثم.. كنا نرتكب الحماقات.

❖ نعم، في المنزل، في البطالة أو العمل. هيا، كنت تريد قول شيء.. لا؟ أم تفكر بممارسة الرياضة، لأنك متين البنية، لا أدري، إنها وسيلة لـ..

علي: لقد مارسنا شيئاً من الرياضة، إنها لا تستهوينا، ولا نبقى معهم طويلاً.

❖ لماذا؟ أكان لديك الكثير مما تعمله؟

علي: كنا نرتكب الحماقات.

❖ أي شيء مثلاً؟ بوسعك حقاً الكلام، فأنا لست من الشرطة..

علي: كلا، كنا نسرق، وما شابه ذلك.

فرانسوا: لكن ذلك لم يستمر إلا فترة أيضاً.

❖ نعم، قسم منه من أجل اللعب.

علي: كان ذلك لملء أوقات الفراغ. نلجأ إليه عندما يقتلنا السأم.

❖ لكن أي نوع من الحماقات؟ صغيرة أم فظيعة؟

علي: بالنسبة لنا؟ لقد كنا ما نزال صبياناً آنذاك.

❖ كم كان عمركما؟

علي: اثنا عشر عاماً.

❖ نعم، هو ذاك اثنا عشر، ثلاثة عشرة عاماً.

علي: كنا نسرق السكاكر والحلويات وبعض العطور وما شابه ذلك. لكن الكبار كانوا يسرقون من المشروبات الروحية، وهو ما حطم الكثير منهم، الكحول ثم المخدرات.

❖ نعم، خاصة وأنه لا يوجد عمل آخر، نعم، هذا مفهوم.

علي: نعم، وحتى إذا ما أردنا الخروج إلى ملهى، هنا في النواحي، حسناً، واحد مثلي، أنا لنقل، لا ندخل. إن العرب لا يدخلون. فماذا يفعلون إذن عند عودتهم مساءً؟ إنهم يبثّون الفوضى.

❖ (توجهْتُ لفرانسوا) وحتى لو كنت معه؟

علي: إنه لا يدخل، فإن لم أدخل، لا يدخل.

❖ نعم، أتفق معك، لكنهم يتركونه يمر ويوقفونك..

علي: حدث ذلك عدة مرات، وحتى مع فتيات. فقد قيل لي «حاول مع فتاة»، حسناً، قالوا أمام كل الناس «لا، لست زبوناً، لست مألوفاً».

❖ هذا مقزز، فليس لديهم حق.

فرانسوا: نعم، ثم حتى تكون مألوفاً، عليك الذهاب مرة على الأقل في النهاية.

علي: وهم لا يسمحون لك، ولا أدري ما هناك.

❖ إن هذا يثير الغيظ..

علي: نعم، إنه مثير للأعصاب لقسوته.

❖ لقد حصل لك هذا هنا. تذهبان كلاكما، يسمحون لك ويوقفونه؟

فرانسوا: نعم، مرات كثيرة، عملوا ذلك معنا.

❖ وأنت تصيح قائلاً «لماذا». ولا يقولون شيئاً..

علي: حسناً، ماذا بوسعي أن أقول؟

❖ لا، ليس بوسعك فعل شيء.

فرانسوا: بلى، فعندما يتعلق الأمر بالفتيات، هن يستطعن الكلام مع

ذلك والقول «نعم، إنه صديقي، إنه معي» ومع هذا لا تسير الأمور على ما يرام.

❖ وحتى هذا الأسلوب لا ينجح؟

علي: لقد حاولنا مرات كثيرة.

(..)

فرانسوا: نعم، ينبغي أن يكون مألوفاً ولا يستطيع أن يكون كذلك! إن هذا ما يقال لهم تقريباً «دعوه يدخل على الأقل، وبهذا يصير مألوفاً».

عندما لا يكون لديهم مال يشترون به، يكسرون

(..)

علي: وحتى الشرطة جاؤوا عدة مرات إلى الحي، هل تذكر المرة التي رموا فيها القنبلة المسيلة للدموع؟

❖ ولِمَ هذا؟

علي: حسناً، كنا في المدخل، وهناك شخص يريد الانتحار أو ما لا أدري، وجاء رجال الشرطة بعد ذلك. وعند نزولهم صرخ أحدنا «الموت للبقر» فصعدوا باحثين عنا، وبحثوا عنا بينما كنا نلتزم السكوت فصاحوا بنا «عصابة جبناء» وذهبوا، كل الذين دخلوا فروا، فعاد الشرطة ورموا المسيل للدموع ثم ذهبوا، فهربنا.

فرانسوا: نعم، ثم دفعوا أحد الشباب أيضاً.

علي: جان - ماري.

فرانسوا: نعم، جان - ماري. إنهم يعلمون أن ليس بالإمكان ضربهم، فيأتون إذن للبحث عنا.

❖ وحينما تكونون متضامنين هكذا، بوراً وفرنسيين، ألا يزعج هذا التضامن الشرطة؟ أنا لا أدري، فإن كنت أنت الذي يقول «إنه مقرز». لا، إنهم لا يأبهون..

علي: أجل، إنهم لا يأبهون. ففي إحدى المرات، ضربت الشرطة عربياً من الحي، وجاء فرنسي لنجدته قائلاً «نعم، ليس عدلاً ما تفعلون، ليس لكم حق» فأخذوه هو أيضاً إلى مفوضية الشرطة وضربوه ثم أطلقوا سراحه صباح الغد.

❖ ومن كان هذا الشخص؟

علي: إنه رفيق من حيّنا اسمه جيل. وبما أن البلدية ستقوم باحتفال هنا، فستحصل مشاجرات مثل كل عام، وسيقع اللوم علينا أيضاً. ولهذا سنتحرك يوم السبت ولن نبقى هنا.

فرانسوا: أجل، لأن هناك شباباً من أحياء أخرى، ليسوا من حيّنا بل من أحياء أخرى، يأتون ومعهم..

(سكوت)

❖ هيا.. أكمل..

فرانسوا: يأتون هنا ومعهم أشياء.. (سكوت)

علي: هيا، قلها..

فرانسوا: يأتون ومعهم مخدرات، وعندما لا يكون معهم مال ليشتروها، حسناً، إنهم يكسرون. (سكوت) ..

علي: أوه، إننا نتدبر أمرنا، فنحن بالغون نتدبر أمرنا. وقد مثلنا أمام المحكمة منذ مدة قريبة، بسبب مونو.

❖ من يكون مونو؟

علي: إنها مربية.

❖ ولِمَ هذا؟ لماذا؟

علي: إنه نزاع صغير. فلقد حكم القاضي لأنني كنت أضحك أثناء المحاكمة؛ حكم علي بثمانية أيام مع وقف التنفيذ زيادة على 1200 فرنك غرامة، على ما أظن، لأنني ضحكت فقط.

❖ لأنك كنت تضحك حينما كانت تقرأ لك هذا..

علي: أجل، لأن أصدقاء جاؤوا معي، وكنت لا أعلم بأنه ليس لنا الحق باصطحاب أصدقائنا، فجاؤوا وأضحكوني.

❖ أليس هناك من عمل في الناحية لشباب في مثل سنكما؟

علي: كلا، أو أنهم يتابعون بعض الدورات التدريبية.

❖ نعم، دورات زائفة..

علي: نعم، إنها ليست مرغوبة، لأن ربح 1200 فرنك لا قيمة له، فالبعض يربح هذا المبلغ في ساعة واحدة (..).

❖ ومع ذلك فهو ليس حلاً، أليس هناك.. لا أدري.. إذا ما وجد شخص عملاً وتدبر أمره يأتي بالآخرين..

علي: بلى، إن الكبار يفعلون هذا.

فرانسوا: لكنهم يذهبون إلى باريس، مثل كل الكبار في حيّنا الذين يذهبون إلى روان، حيث مصنع بيجو، وهم يعملون فيه جميعاً.

❖ لكن، كيف عثروا على العمل؟ هل عثر عليه أحدهم ثم استقدم الآخرين؟ أليس كذلك.

علي: لولا الخدمة العسكرية لكنت فيه أنا أيضاً.

❖ نعم، فطالما أنت لا تعمل، ليس لديك مال.. ما هي مواردك الآن، هل هما والداك اللذان يعطيانك بعض المال؟

علي: نعم، من وقت لآخر.

(..)

❖ وما هي الرياضة القتالية التي تمارسها أنت؟ أهي الكاراتيه أو..؟

فرانسوا: من كل شيء، من شجار الشوارع، هنا، إنها فارغة أيضاً.

❖ أهي فارغة؟ أين كنت تمارسها؟

فرانسوا: في شارع مفوضية الشرطة، هنا.

❖ آه، نعم، قريباً من البناية؟

فرانسوا: كانت فارغة.

❖ ألم تكن جدية؟

فرانسوا: كل ما كانوا يعملوه لنا، كنا نعرفه من قبل، ولم تكن لدي وسيلة للانتقال.

❖ أليس لديك دراجة نارية أو ما شابه.

فرانسوا: لا شيء لدي.

❖ كم تكلف اليوم دراجة نارية صغيرة؟

فرانسوا: 2000 فرنك.

علي: في المتجر؟ 3000 فرنك.

فرانسوا: هل أنت مجنون! إنها في المتجر بـ 4000 أو 5000 فرنك. ولذا ينبغي شراؤها خارج القانون، أي شراؤها من الشبان، فلا بد من ذلك.

❖ ما معنى «شراؤها خارج القانون» بالضبط؟

علي: شراؤها خارج القانون، يعني تدبيرة.

(..)

علي: حصلت لنا مشكلات مع مفتشين من الشرطة في حيّنا. وقد ضُرِب أحد المفتشين في الحي.

❖ حقاً، ولماذا؟

علي: لأنه لم يبرز بطاقته. إذ كان يضرب شباباً من حي آخر، وجاء صديق لنا للدفاع عن أحدهم، وكان من المفروض على الشرطي أن يظهر بطاقته، لكنه لم يفعل.

❖ وإذن فقد أعطب؟

علي: لقد أخرج مسدسه بعد ذلك، فهرب صديقي، لكن قبض عليه فيما بعد.

❖ لكن كان في..

فرانسوا: أسبوعاً، وهو الآن في خروج مؤقت فيما أظن، إفراج مؤقت.

❖ وأنت مع القاضية التي.. ألم تُحبس؟

علي: إنها مشكلتي الأولى بعد سن الرشد، فلست راشداً من مدة طويلة.. منذ سبعة أشهر فيما أعتقد.

❖ وهل حكم عليك من قبل؟

علي: باعتباري قاصراً (..)

❖ هل هي مشكلات سرقة وما شابه ذلك؟

علي: أجل، في بلجيكا. إنها مشكلات صغيرة، حماقات تافهة.

❖ لكنها تلحق بك فيما بعد، فما أن تتحرك حتى يكشف أمرك.

علي: إنها حماقات ما كان ينبغي فعلها.

❖ نعم، لكنك تفعلها طالما تشعر بالسأم..

فرانسوا: حسناً، عندما نحتاج إلى المال، إلى الكثير من المال، لنفرض حينما نشاهد سترات جميلة أو سراويل أنيقة، وغير ذلك. حسناً، علينا الحصول على تلك الأموال. لكن ذلك كان في الماضي.

❖ لم تضحك؟

فرانسوا: إنه يضحك.

❖ إنك لا تقول كل شيء؟

فرانسوا: لا، لقد انتهى الأمر بالنسبة لي، ولم أعد أتسكع معهم كما في السابق.

علي: لقد رتب حياته (لديه صديقة).

❖ الآن وقد رتبت حياتك، ما رأيك بكل ذلك؟

فرانسوا: لا، لقد رأيت كل ما يصفونه من أفاعيل فتركتهم (..)

علي: إننا بحاجة إلى فتاة.

فرانسوا: ولماذا الفتاة؟

علي: حتى لا نعود لارتكاب الحماقات.

«كان جهاز الإسقاط موجوداً، لكن دون شرائح»

علي: نعم، فكيف يمكن لنا التنقل دون وسيلة نقل ولا أموال؟

❖ أليست هناك حافلات أو وسيلة نقل باتجاه (د)؟

علي: بلى، هناك حافلات.

❖ لكنها ليست كثيرة..

علي: باتجاه (د) فقط، لكن العمل بالوكالة يحتاج إلى الذهاب إلى كل مكان. يتعين علينا الذهاب إلى لينس وليل، نحتاج إلى سيارة، لكن..

❖ أليست لديكم سيارة؟ ولا لأحد من أصدقائكم؟

علي: كلا، لدي أختي لكنها بدون عمل ولا شيء. لكنهم يتقدمون هنا جميعاً لفحص إجازة السياقة، وربما تتحرك الأمور فيما بعد.

❖ نعم هو ذاك، نعم أنتم منزوون هنا السبت وغيره..

فرانسوا: أوه، سنتحرك. فنحن ننتظر الشخص الذي ذهب إلى جزيرة لاريبونيون، ثم إنه يحمل إجازة سياقة على الأقل فيما أعتقد.

❖ آه، لأنه ليست لديكم إجازة سياقة بالنسبة لأكثركم فضلاً عن ذلك.. كيف ستتمكنون من التعلم، فليس هناك مدرسة لتعليم السياقة أو ماشابه ذلك.

علي: لقد أرادوا أن يعملوها مرة في النادي؛ أراد المشرف التربوي فعل هذا..

❖ أهي فكرة جيدة؟

علي: نعم، ولكننا بحاجة إلى الشرائح أيضاً.

❖ نعم، إنه ذاك.

علي: كان ينبغي طلبها من مدرسة السياقة. لقد كان جهاز الإسقاط

موجوداً. لكننا بحاجة إلى شرائح قانون المرور لنتعلم. فيوجد الكثير ممن يستطيعون قيادة السيارة، لكن قانون المرور هو الذي.. ولقد تقدم صديقان للامتحان مرتين، وأخفقا في المرتين.

❖ بسبب قانون المرور دائماً؟

فرانسوا: أجل، بسببه. ثم هناك شخص آخر، هنا، يقود دون رخصة، ويذهب إلى باريس للعمل، وقد تدبر أمره جيداً.

❖ ماذا يعمل؟

فرانسوا: يعمل.. لا أدري ما يعمل.

علي: قال لي أنه يعمل في باريس ويربح أكثر من عشرة آلاف فرنك.

(..)

❖ نعم، أنت الذي قال لي بأن الكثيرين يفرون من الخدمة العسكرية لأن الأمور ليست على ما يرام.

علي: نعم، لأنها كانت مقرفة.

❖ عندما تقول إنهم كثيرون، فهذا لا يعني أنهم 36..

علي: كلا، إنهم خمسة أو ستة.

❖ إلى هذا الحد مع ذلك؟ كانوا من..

فرانسوا: من حيّنا ومن الحي القريب.

❖ من سنكم تقريباً؟

علي: هناك واحد لم يذهب إلى الخدمة حتى، ومع ذلك فقد ضاق ذرعاً بها، فأخذ حبوباً قبل الذهاب.

❖ ماذا تقصد بالحبوب؟

علي: إنها.. ما اسمها؟

فرانسوا: إنها حبوب منومة.

❖ لكي ينتحر؟ أم ماذا؟

علي: أجل، محاولة انتحار، لكنها زائفة.

❖ نعم، هو ذاك لكي يحاول الحصول على الإعفاء.

علي: نعم.

❖ وهل تنجح هذه الوسيلة؟

علي: نعم، لقد نجحت، وأعفي من الخدمة.

فرانسوا: أجل، لقد أعفي من الخدمة مثله مثل المجانين.

علي: نعم، لكن P4 لا تستحق العناء، إنها لا تستحق العناء...

❖ ماذا تعني صيغة P4؟ هل يرسلونك..

فرانسوا: P4 تعني أن الشخص غير سوي، وتؤثر فيما بعد في الحصول على عمل. فالأفضل الخدمة العسكرية.

❖ تقول إذن إن هناك من فرز إلى المظلات ثم فر بعد ذلك؟

علي: لأنهم حبسوه في.. .. ..

❖ ماذا فعل؟

علي: إنه العراك، كان يتعارك غالباً؛ فوضعوه في ثكنة تأديب فيما أظن، ولما ضاقت به الأرض، سرح نفسه وهرب.

❖ وهل هناك الكثيرون مثله، لم أسمع أبداً عن هذا. ألا يحتملون الانضباط؟ هل يملّون؟

علي: إنهم ليسوا متعودين على تلقي الأوامر.

❖ نعم، هو ذاك، وفي العمل أليست المشكلة ذاتها تقريباً؟ أليست هناك وظائف وقتية أو بالوكالة، وما شابه ذلك؟ ألا توجد أعمال صغيرة هنا؟

فرانسوا: بعض الأشخاص يعملون -انظر لجان لوك- إنه لم يقبض راتباً منذ ستة أشهر.

❖ هل دفعوا له في نهاية الستة أشهر؟

فرانسوا: أجل، لكنه لا يعمل بعقد حتى الآن.

❖ وهل هو مستمر؟

فرانسوا: نعم، يتابع عمله من وقت لآخر، لكنه لا يقبض إلا 2030 فرنكاً عوضاً عن 2300 فرنك.

❖ وهل يعمل ساعات طويلة؟

فرانسوا: قال لي بأنه عمل 260 ساعة زيادة عن نصابه. إنه يعمل الآن دورة تدريبية.

❖ نعم، إن هذا لا يشجع الكثيرين للبحث عن عمل.

فرانسوا: لا، إن ذلك مقرف.

«ثم إننا نحب كثيراً أن نكون.. المخربين».

❖ قلت منذ قليل إنك لم تتعلم شيئاً من رياضة القتال، فكيف تعلمت؟ هل هناك الكثير من الشجار؟

علي: أوه، عندما كنا صغاراً، كنا نتعارك غالباً بين..

❖ نعم، في المدرسة هكذا، ثم ضد أولاد الأحياء المجاورة.

علي: وأحياناً، فيما بيننا. إذ كل واحد يريد أن يكون هو الزعيم.

فرانسوا: ولكننا كنا نستعيد وعينا بعد خمس دقائق، فقد كانت معارك فارغة.

❖ وهكذا فأنتم تحبون كثيراً أن تكونوا..

علي: .. المخربين.

❖ هذا هو، لكن لا يبدو عليكما أنكما شريران، لا أنت ولا هو؛ إن هذا أمر عجيب.

علي: لا، فنحن.. (..)

❖ وهل تتحدثان بالسياسة فيما بينكما؟ أم ليس كثيراً؟

علي: كلا.

❖ إنكما لا تعبآن نوعاً ما، ولكن هذا لا يعني أنكما لا مباليين، بل أنكما لا تدريان ما رأيكما فيها؟

علي: ليس كثيراً، فيما يتصل بالسياسة (صور - انقطاع).

(يخرج لهنيهة بعد أن اقترح على فرانسوا وعليّ الاستمرار في غيابه باستجواب أحدهما الآخر، كلاً بدوره، أمام آلة التسجيل) هل تستمر إذن في استجوابه؟

علي: كلا، إنه يستجوبني كما يقول.

❖ آه هو؟ هيا، ابدأ وسنرى إن كنت تحسن العمل.

فرانسوا: هل أطرح أنا أيضاً الأسئلة ذاتها التي طرحها علي؟

❖ لا، لا، بل تجعله يقول ما لم يرد قوله (..) بِم حكم عليك القاضي كعقوبة؟ 1200 فرنك؟

علي: وثمانية أيام مع وقف التنفيذ.

❖ وهل عليك أحكام في الماضي؟

علي: كلا، فلقد كنت قاصراً.

❖ أجل، فيما لو عدت وارتكبت حماقة، وقبضوا علي، حسناً، الأيام التي.. ينبغي علي تنفيذها. (..)

❖ لقد سبب لك هذا المتاعب، ماذا فعلت؟

علي: كان ذلك بسبب سرقة دراجة نارية صغيرة. على ما أظن. فالتقطوا صوراً وأخذوا البصمات، من أجل شيء تافه.

❖ كم كان عمرك آنئذ؟

علي: كنت وقتها في الصف الثامن، وعمري 16 سنة، على ما أظن، أو 15 سنة.

❖ هل قبضوا عليك؟

علي: كلا، لقد اكتشفوا أمري. ولم أتمكن من الهرب.

❖ بالجرم المشهود؟ أوقفوك.. واقتادوك، وبعد ذلك..

علي: أخذوا الصور، وما أشبه ذلك.

❖ لكنهم لم يحبسوك عندئذ؟

علي: لقد استدعوا والدي، إذ كنت قاصراً. لقد انهرت لأنهم أرادوا حبسي، لكن أبي جاء واصطحبني.

❖ ماذا قالوا لأبيك؟

علي: لقد رووا له القصة.

❖ وهل أنّبك أبوك؟

علي: نعم، لقد أراد أن يكسر عظامي. وهذا طبيعي وأنا أفهمه.

❖ نعم، لا بد أنه كان منزعجاً. إنهم الناس أنفسهم الذين يتلقون دائماً.

علي: نعم، ثم إن هذا أفضل، إذ لم أعد أرتكب الحماقات. سأطرح عليه سؤالاً (على فرانسوا) هيه.

❖ هيا اسأله. ألم يجب بعد؟

علي: كلا، كنت أود سؤاله عما إذا أراد الرحيل، وعما إذا كان الرحيل يروقه أم لا؟

فرانسوا: الرحيل؟ إذا ما أردت الرحيل؟ ربما فيما بعد.

علي: ولكن الآن؟

فرانسوا: الآن..

علي: هل ستتأسف على الحي، هنا؟

فرانسوا: كلا، لأنني أقيم فيه منذ 19 عاماً.

❖ إذن، فأنت تعرف كل الناس.

فرانسوا: أجل، أعرف كل الناس، وأصدقائي كلهم هنا (..) لكنني ربما أرحل، وسيكون ذلك للذهاب مع..

❖ حتى تتزوج؟

فرانسوا: أجل، حتى أتزوج وأبني مستقبلي.

❖ وأنت، هل تحب الرحيل فيما لو استطعت؟

علي: الرحيل، أجل، إنه يروق لي، لكنني سأسف مع ذلك. لأن الرحيل مؤلم بسبب عدم التعود على الناس الجدد. وهذا يعتمد على المكان الذي سنحط رحالنا فيه.

❖ نعم، لكن كل متاعبكم ناجمة عن وجودكم في هذا الحي. وتلك هي المشكلة.

علي: نعم، هذا صحيح، فمن الأفضل الانتقال من (..)

❖ (..) إن ما يلزم ربما هي عناية أفضل بالبنايات، فإنها قبيحة جداً، أليس كذلك؟

فرانسوا: البنايات، هنا، إذا ما أردت التحدث عن التردي وما شابه.. كلما كسر شيء، فإن الشباب هم الذين يتلقون اللوم.

❖ لكن، أهي الكرات التي تحطم زجاج النوافذ، أم ماذا؟

علي: كلا، إنها أبواب المداخل، والزجاج وعلب البريد، أبواب المداخل.

❖ لكن، من الذي يفعل كل هذا، أهُم بعض الشباب؟

علي: أجل، بعض الشباب.

فرانسوا: نعم، ولكن ليس دائماً، ومع ذلك فالناس أنفسهم هم الذين يتلقون اللوم، وهم الذين لم يفعلوا شيئاً.

❖ أهذا ما أردت قوله قبل قليل، من أن الاتهام يقع على من تم وَسْمَه نوعاً ما، أهذا ما عنيته؟ وأنت موسوم هكذا، منذ كنت صغيراً. أليس كذلك؟

علي: أجل، لكنني لم أعد الآن. فأنا مع من هم أكبر مني سناً؛ مع اخيه الأكبر وشخص كبير أيضاً، لكنهم هم الذين يتلقون.. مع أنهم هم الذين يوصوننا بألا نفعله..

فرانسوا: إن ذلك مؤسف بالنسبة لهم.

❖ لماذا؟ أيقال أنهم زعماء عصابات أو شيء من هذا..

علي: نعم، يقال بأنهم هم الذين يدربون الأشرار، ويضعون هذا في عقولهم.

❖ نعم، لكنك قلت آنفاً إن هناك مشاجرات تحصل بين الأحياء، فإذن توجد عصابات.

علي: آه أجل، توجد عدة عصابات، هم الآخرون يأتون ويحطمون ونتحمل نحن اللوم.

❖ لكن لِمَ؟ الأن هناك مشاجرات..

علي: لأن في الأحياء من يريدون الظهور بمظهر القوة والزعامة، ولولاهم لكان التفاهم بيننا أفضل. افتتح هنا ملهى، يكثر العرب فيه لأنه الوحيد الذي بوسعهم الدخول إليه.

❖ وإذن فالأمور على ما يرام..

علي: لكن ذلك مقرف في النهاية، إذ إننا نعرف الجميع، والذهاب للملهى لا يستحق العناء (..)

❖ يتعين عليك الذهاب إلى أماكن بعيدة لا تكون معروفاً فيها، وترى أناساً مختلفين.

علي: بالطبع، ولقد كنا نفعل هذا في السابق، ونعاني الأمرين للذهاب بعيداً. أما الآن فقد انتهى ذلك، إذ لم يعد أحد يعطي درّاجات للشبان.

❖ ولماذا؟ أذلك منهك جداً؟

فرانسوا: لقد كانت المدرسة، فكنا نركب القطار. وقد ارتحل الكثيرون من..

❖ من شلّتكم هنا، من أصدقائكم (..)

«إنهم يصدقون كل ما يقال في التلفزيون»

❖ نعم، إنه ذاك. وأنت لا تفكر في.. إلا بعد الخدمة العسكرية، كما قلت؟

علي: أجل، أنا متأكد من أنني سأذهب إلى باريس أو إلى الجنوب. كنت أنوي عمل ذلك مع فرانسوا، ولكن بما أنه رتب أموره، فمن الأفضل له البقاء. ولولا ذلك لقمنا بالرحيل منذ زمن طويل، أعني التحرك نحو الجنوب.

❖ وما الذي ستحصل عليه أنت، إذن؟

فرانسوا: حسناً، شهاداتي.. شهادة الكفاءة المهنية.

❖ وربما ستتمكن من العثور على عمل في نفس المكان مع..

فرانسوا: أجل، لكننا لن نبقى معاً طوال الحياة، فلا بد من الانفصال يوماً ما.

❖ نعم، ولكن بما أنكما صديقان، لِمَ لا تحاولان..

فرانسوا: نعم: فيما لو عثرنا للجميع. فإذا اشتغل أحدنا، يستعلم بالنسبة للآخرين. وهكذا (..) يكون الأمر أفضل.

❖ ولهذا سألتك فيما إذا كان لك أبناء عم.. وهكذا يمكن..

علي: إنهم الأهل أحياناً، فإنهم لا يثقون بنا ويعتقدون بأننا سنضيع أو.. كما حصل لي؛ فقد كان من المفروض أن أذهب إلى المغرب هذه السنة وحيداً. لكن أمي قالت: لا. لقد رأت فِيّ طفلاً. وهكذا كان بالنسبة للمغرب.

❖ نعم، ولا سيما أن لك هناك، إنه ليس..

علي: كما أننا لم نعد نخرج في المساء. وقد كنا في السابق نخرج في ساعة متأخرة. لكنهما (الوالدين) يخافان علينا، لأنهما يصدقان كل ما يقال في التلفزيون.

❖ نعم، هذا هو، إنهما يعتقدان أن الحي خطر، أليس كذلك؟ نعم لقد قال لي شاب بأن أباه خائف دائماً، فعندما تصله ورقة، وهو لا يعرف القراءة، يخاف من استلام الورقة أو ما شابه ذلك. وهذا مفهوم أيضاً، لأن الأمر معهم لا يحتمل المزاح. إذ من الصعوبة أن يكون الإنسان أميّاً، لا يعرف القراءة والكتابة.

فرانسوا: يوجد في حيّنا أناس يجدون صعوبة في القراءة والكتابة.

◆ أحقاً؟ أناس في مثل سنك..

فرانسوا: نعم، وأكبر من سني أيضاً.

علي: نعم، هناك من الكبار من يقرأ بصعوبة وبصورة آلية.. أو أنهم يقرؤون..

◆ أحقاً؟ وهل هم كثيرون؟

علي: إنهم كثيرون، إذ يشكلون 80٪ على الأقل.

◆ تقول 80٪، هذا غير ممكن، أتدرك معنى هذا؟ ثمانية من كل عشرة!

علي: أجل، لكنني أقصد منا، من شلتنا، هيه.

◆ من شلتك..

علي: نحن، نعد 20، 30 على الأقل، فكم منا يعرف القراءة؟ إنني أتكلم عن القراءة الجيدة، هناك عشرة يقرؤون جيداً، أما الآخرون فيقرؤون دائماً..

◆ عندما تقول شلة، تقصد، أنتم الذين تلتقون دائماً..

علي: عندما نلعب مباراة كرة قدم، ونكون كثيرين. إن الكل يعرف القراءة، لكنهم يقرؤون بصعوبة.

◆ تقصد بمشقة، أي يتعثرون بالكلمات ولا يفهمون ما يقرؤون، أليس كذلك؟

علي: ثم إنهم يقرؤون بشكل آلي، كلمة فكلمة. ويتوقفون عند بعض الكلمات، هناك أناس.

«حتى أنا، أقرأ بشكل آلي، إنني أتمكن من القراءة. لكن بشكل آلي».

◆ إنني ما كنت لأصدق هذا، لو تعلم.

علي: حتى أنا، أقرأ آلياً، إنني أتمكن من القراءة، لكن بشكل آلي.

❖ لِمَ تقرأ بصورة آلية؟

علي: لأنني في الصفوف الأولى، لم أكن أقرأ في البيت أبداً، ولا في المدرسة.

❖ ألم يكن يطلب منك القراءة الجهرية؟

علي: بلى، لكنني كنت أرفض.

فرانسوا: كنا نحب اللعب وما شابه ذلك.

❖ لماذا؟ أمن أجل لفت الأنظار، والظهور بمظهر القوي..

علي: كلا، إذ كنا لا نحب القراءة. صحيح أن القراءة سهلة، لكننا نقرأ بشيء من الصعوبة.

❖ لقد وصلت إلى الصف التاسع، وإذن كان عليك معرفة القراءة..

علي: نعم، أعرف القراءة، أعرف القراءة..

❖ لكن ليس بسهولة حقاً.

علي: نعم، بمشقة.

❖ وهل تقرأ الجريدة أو أشياء كهذه؟ أبداً؟ يتعين عليك ذلك، هيه.

علي: أجل، من الأفضل ذلك. أما فيما يتعلق بالقراءة والحساب وما شابه، فكلنا يعرفه.

(شبه استراحة، يستجوب فرانسوا أثناءها علياً، في غياب بيير بورديو، عن حي لاروزريه - «إنه قذر» - عن النادي «مغلق دائماً»).

علي: نعم، فما إن أدخل بنايتنا حتى تبدأ المرأة التي تسكن الطابق الثاني وأختها في الصياح علينا وتأنيبنا.

❖ وهل تسكن الأخت هنا؟

علي: كلا، إنها لا تسكن هنا بل في المنزل.

❖ ومن هما هاتان المرأتان اللطيفتان؟ هل هما فرنسيتان من الناحية؟

علي: إنهما فرنسيتان لا تحبان المغاربيين..

فرانسوا: هاتان الأختان هما عنصريتا الحي. (..)

❖ لكن، هل هناك آخرون مثلهما؟

علي: إنهما الاثنتان، ثم..

فرانسوا: (..) لا يوجد إلا واحدة.

❖ والحراس؟ أهم على ما يرام؟

علي: يكونون هنا بعد الظهر، من الواحدة حتى الواحدة والنصف.

فرانسوا: وفي الصباح أيضاً، لكنهم لا يقيمون هنا. إذ على الحراس في الحالة العادية أن يقيموا في الحارة.

علي: نعم، لكن رجلاً في الثامنة والعشرين من عمره سكن هنا. وهو لطيف جداً. إذ بفضله قمنا بنزهات وغير ذلك وقد ساعدنا كثيراً.

❖ من هو هذا الرجل؟

علي: كريم.. إنه رجل طيب، وهو يعمل الآن في باريس. ولم نعد نراه. كان يتحدث معنا في المساء ويزودنا بنصائحه.

❖ وماذا يعمل؟

علي: يعمل جوكر، يقود السيارات.

❖ وهل هو متعلم؟

علي: كان يقيم في الجزائر، وقد خدم في الجيش متطوعاً خمس سنوات ثم توقف. جاء إلى هنا وحصل هنا على شهاداته ثم غادر. إنه يعمل أشغالاً بالوكالة، وما شابه.

فرانسوا: ويؤدي لنا بعض الخدمات أيضاً (..)

❖ وهكذا كان كريم هذا، لطيفاً معكم؟

علي: كان يعمل كل شيء معنا مثل كرة القدم.. ويؤدي خدمات لنا. كان يأخذنا حيثما نشاء؛ نطلب منه فيأخذنا (..)

❖ لو كان هناك بعض الأشخاص اللطفاء فالأمور ستسير بشكل أفضل، في الحقيقة..

علي: لم يكن يفهم الشباب سواه.

❖ لكن، كم كان عمره؟ 28 سنة؟

علي: 28 أو 29 سنة.

❖ وهل غادر الآن؟

فرانسوا: كلا، كلا، إذ ما زال يسكن في X، ولأنه يعمل متنقلاً فلا يوجد إلا أيام السبت والأحد.

❖ ألا يستطيع هو أن يبين لهاتين المرأتين..

فرانسوا: إنهما لا تستمعان إلى شيء. والأمور الآن أفضل، فقد هدأتا. لكنهما أحياناً لا تفهمان شيئاً. هناك كثيرون، ليسوا من شلتنا بل من شلة الكبار، إنهم خمسة وهم الآن في السجن. وعندما يخرجون.. اثنان منهم خرجا، ولا يزال ثلاثة أو أربعة في السجن.

❖ ولِمَ أُوقفوا؟ أبسبب المخدرات؟

فرانسوا: أجل، وسرقة السيارات، والسطو المسلح. وعندما يجتمعون، يشربون ويدخنون، ثم.. يبثون الفوضى..

علي: آه، الشغب تقصد.

❖ وهل يقيمون في الحي؟

علي: كلا، فليس إلا اثنان منهما يقيمان في الحي.

❖ إنهم يأتون من الخارج إذن؟

علي: أجل، حتى لا ينتبه إليهم أحد. وأحدهم هو زعيمهم.

فرانسوا: نعم، لقد خرج ثلاثة منهم.

علي: نعم، هناك آخر، خرج أيضاً.

فرانسوا: لكنهم لا يدركون شيئاً، ولا يعملون سوى الذهاب والإياب (بين السجن والمنزل).

❖ أجل، ثم إن لديهم أسلحة، أليس كذلك؟

فرانسوا: نعم، لديهم أسلحة ومخدرات، كل شيء.

❖ إنهم يثيرون الرعب نوعاً ما.

فرانسوا: فيما يتعلق بالرعب، إنه واحد منهم فقط، فهو الأكثر (..) أما الآخرون فلا.. إن الأمر خطير.

❖ نعم، وعندما يخرجون. يدخل الرعب قليلاً قلوب الجميع.

فرانسوا: أجل، إننا نرتعب. ثم هناك الكثير من الشجار بين العائلات. وحتى في حيّنا، ألا تصدق؟ شجار بين العائلات، إن ذلك خطير.

❖ ما هو شجار العائلات هذا؟

علي: إنهما عائلتان تتعاركان فيما بينهما، الجميع حقاً.

❖ ولِمَ كل هذا؟

علي: لِلا شيء، من أجل قصص.. حماقات.

❖ أليست قصص زواج أو ما يشبه ذلك؟

علي: كلا، إنها حماقات بسبب مذياع.

❖ مذياع؟

علي: هناك شاب اسمه إيريك معه مذياع، وأراد آخر أن يأخذه منه، فجاء صديقه للدفاع عنه. وتعاركوا، ونزل أخوه لأنه نادى أخاه.

❖ ثم جاءت كل العائلة، أليس كذلك، وهل هي عائلات كبيرة؟

علي: أجل، إنها عائلات كبيرة.

❖ هل عددهم كبير؟ من أين هم؟ أمِن الجزائر؟

علي: نعم، من الجزائر.

(..)

عندما تتحدث مع الفتيات، وتقول لهن «أسكن في لاروزريه».

علي: نعم، لكن الأمور هدأت، ولم يعد شيء في لاروزريه. إنها مجرد

سمعة تافهة انتشرت؛ سمعة قذرة. إن الطريف هو عندما نتكلم مع فتيات يسكنّ في حي أنظف وأكثر.. ونقول «أسكن في لاروزريه».

❖ إنهن يأخذن حذرهن فوراً.

علي: كلا، بل يتركننا. فمن أجل هذا، الحي سيء ونضطر لخداعهن بالحديث المنمق.

❖ نعم، وهل الشيء نفسه معك؟

علي: عندما تتحدث مع الفتيات، وتقول «أسكن في لاروزريه»..

فرانسوا: إنهن يحسبننا من الجانحين(..)

❖ وصديقتك، هل هي من الحي؟

فرانسوا: أجل، إنها من الحي.

❖ هل تسكن معها؟

فرانسوا: كيف أسكن؟

❖ أعني هل تعيشان معاً؟ ألم تتزوج بعد.

فرانسوا: كلا، كلا، لست متزوجاً. كلا لا أعيش معها.

❖ ستتزوج بعد الخدمة العسكرية؟

فرانسوا: كلا، إذ ينبغي أن تعمل، وأنا أيضاً بالطبع.

❖ وأنت، هل لديك صديقة؟

علي: بالنسبة لي. كلما كان الأمر أسرع، كان أفضل. كلا (يضحك) أنا لا أحب أن تكون.. ينبغي أن تكون جيدة حقاً. لأن الفتيات اللواتي نعرفهن لسن جادات. والأفضل التعرف إلى فتيات جيدات وجادات. لكن ذلك من الصعب العثور عليه.

❖ نعم، واللائي يخرجن معكم، ألسن..

علي: كلا، هن غير جادات، فما أن تدير ظهرك حتى تختفي، لأنها مع واحد آخر.

❖ كنت تقول بأنه ليست إلا فتاة واحدة تخرج معك، من الحي..

علي: نعم، لكنها شقيقة أحد الأصدقاء. ونعتبرها صديقة كأي شاب صديق، وهي لطيفة.

❖ والأخريات، كيف تتعرف عليهن، أفي الملاهي وما شابه ذلك؟

علي: أجل، عندما أخرج، أو في المدرسة، أو الشقيقات الكبيرات للأصدقاء.

(يستذكران امرأة فرنسية من الحي «تتكلم معنا بلطف تام» «عندما يتكلم عنا أناس، تأتي وتحذرنا» ثم يعود إلى مشكلة العنف).

فرانسوا: وحتى الصغار في حيّنا، يبدؤون بارتكاب الحماقات..

❖ من؟

فرانسوا: صغار، هنا في حيّنا، أعمارهم بين 9 و10 سنوات..

علي: يرتكبون الحماقات، فيذهبون إلى حدائق الآخرين، ويسرقون الكرز..

❖ لكنك كنت تفعل الشيء ذاته أيضاً..

علي: أوه، لقد مررنا جميعاً به، ولكن..

فرانسوا: إنهم يفعلون كل شيء أيضاً، كالدراجات.

❖ وهكذا إذن، لكن هل تظن أن الأمور تسوء وتتفاقم؟

علي: أجل، فنحن لم نبدأ هكذا. لم نبدأ بالدراجات. والآن كل صغار حيّنا يدخنون؛ الصغار ما بين 13 و14 سنة.

❖ ماذا؟ الحشيش أو..

علي: كلا، السجائر.

❖ السجائر، نعم.

علي: الصغار يبدؤون السيجارة في الرابعة عشرة، وفي الخامسة عشرة إنه..

◆ ولكن هل لديهم المال؟.

علي: إنهم يرتزقون أو يجدون المال.

◆ لكن، هل تظن أن الأمور تتفاقم والوضع يتدنى..

علي: أجل، أجل، فبعد الاعتياد على السيجارة، يريدون التسلية، فيبدؤون في التعاطي. هناك شاب في حيّنا عمره 15 سنة يتعاطى كل شيء؛ يتناول الحبوب والحشيش والكحول، إنه ليس في حيّنا بل (..) في حي آخر. وقد توقف عن الدراسة لأنه فاشل. ومع أنني لست حسوداً، فقد كان بإمكانه أن يكون أفضل، إذ أنه متين البنية وأطول قامة منا مع أنه في الخامسة عشرة من عمره. لكن للأسف، تنكب طريق الصواب.

◆ يا للخسارة.

علي: وهو لا يدرك أنه يسرق من أجل الآخرين.

◆ لِمَ يسرق؟ وماذا يسرق..

علي: من أجل معلمه.

◆ يسرق من أجل عصابته.

فرانسوا: لو لم يكن مدمناً على المخدرات، لربما..

علي: نعم، سيفهم فيما بعد لأنه لا يربح شيئاً، إذ يسرق وليس له شيء، بل للآخرين.

◆ نعم، زعيم العصابة يستولي على كل شيء؟

علي: إنه ليس حتى زعيم. بل شخص يتسكع معه دائماً. ويستولي منه على كل شيء. إنه يأمره قائلاً «اذهب واسرق لي هذا» فيذهب ويسرقه ويأتي له به.

◆ إنه عبد إذن؟

علي: إنه مغفل ساذج، يا للأسف.

◆ ولكن هل يحصل هذا كثيراً؟ أي وجود أشخاص مثله؟

علي: ليس إلا هذان الاثنان يفعلان هذا.

فرانسوا: نعم، في النهاية..

علي: لا، فليس إلا هذان الاثنان، لأنه يهيمن عليه جيداً.

فرانسوا: إنه خائف، ذلك الشاب ذو الخمسة عشر عاماً.

❖ هكذا إذن..

فرانسوا: «إذا لم تفعل هذا.. فسأرمي بكل شيء على وجهك».

❖ وكيف استطاع فرض سلطته، ألا يستطيع الصغير أن يحمي نفسه..

علي: إنه صغير، لا يستطيع شيئاً.

❖ إنه خائف، أليس لديه إخوة، أي أحد؟ هل هو وحيد؟

علي: إن له أختاً صغيرة، على ما أظن، مع أمه. أما أبوه فلم يعد موجوداً.

❖ يا للحسرة، ولد مسكين. هل تعرفه أنت؟

علي: أوه، نعرفه، أجل، إنه يتسكع معنا.

❖ وماذا يقول لك؟

علي: ماذا بوسعه أن يقول؟ لا يقول شيئاً. يشعر أحياناً بالارتباك والخجل. لكنه لا يستطيع قول شيء، يقول إنه ليس بوسعه الكلام، إلخ.

❖ إنه خائف، ولا تستطيعون مساعدته؟ إن التطفل مزعج أيضاً.

علي: أوه، نعم، إنها قصتهما، إنها مشكلتهما.

أيار 1991

باتريك شامبانيه

أسرة مندمجة

تسكن ماريا د. فيلنوف. وهو حي بني منذ عشرين عاماً في أطراف مركز عمراني كبير. فبعدما طردتْ من مركز المدينة التي تسكن فيها منذ عشر سنين، بذريعة التجديد. أعيد إسكانها في هذه المنطقة العمرانية ذات الأولوية (ZUP) في بداية السبعينيات، في الوقت الذي بدئ فيه بناء البنايات الأولى. قدمها لي رئيس مشروع المنطقة، التي صنفت في إطار برنامج التنمية الاجتماعية للأحياء (DSQ) منذ 1987، لأن هذه المرأة الإسبانية الأصل هي من دون شك «رمز محلي» تعرف التحدث وبوسعها إذن أن تعتبر متحدثة رسمية فاعلة باسم الناس «الأفاضل» في الحي. إذ علاوة على كونها مناضلة شيوعية، هي أيضاً شخصية نشيطة جداً في جمعية السكان التي أسست منذ وقت قريب في إطار إجراءات إعادة الاعتبار. قصيرة القامة، عصبية المزاج، طلقة اللسان، فليس «لسانها في جيبها» كما يقال: تتكلم غالباً بشيء من الدعابة، بسرعة تصل إلى حدود يصعب فيها الفهم أحياناً. تعبر بقوة وبصوت عال وطلاقة مع لكنة ظاهرة وتحكم تقريبي -لكن دون عقدة نقص- باللغة التي يتكلمها الإسبان غالباً حينما يعبّرون بالفرنسية.

استقبلتني في بيتها، مرتدية برصانة قميصاً مزهراً وصدرية وتنورة

بلون داكن. والشقة الواقعة في الجزء الذي جدد من الحي، كانت غاية في الترتيب والإتقان: فكل شيء في مكانه، ولا أثر لأي غبار. وكانت طوال الحديث الذي جرى حول طاولة في حجرة الطعام، تطرد بيدها، بصورة آلية، وهي تتكلم، فتات خبز غير مرئية. كل شيء لدى هذه المرأة ذات الخمسين عاماً، المتأنقة دون إفراط، يوحي بالإرادة القوية والانتظام والنفور من التفاهات «لا، أنا لست شخصاً يضيع الوقت بقضاء فترات بعد الظهر مع النساء حول الأظافر وتصفيف الشعر، إنني أفضل حضور اجتماعات وما شابه ذلك. أما الحكايات السخيفة التي يرويها النساء، فلا».

هي متحدرة من أسرة ريفية مؤلفة من عشرة أبناء. وقد قدمت إلى فرنسا في بداية الستينيات ولم تكن آنئذ تتجاوز 18 سنة، لأنها لم تجد عملاً لها في قريتها بينما «كان هناك الكثير من العمل في فرنسا سنوات 59-60». وكان أرباب العمل الفرنسيون ينتقون هذه اليد العاملة المطواعة والرخيصة، بوساطة بعثة كاثوليكية: «لقد كنا في الريف، كنا في سن الشباب أيضاً، ولم يكن لدينا الكثير من (الحاجات والطموحات) ولم تكن لدينا الكثير من الإمكانات للذهاب إلى مكان آخر. (..) كانوا يرسلون إلينا عقداً، وكانوا يدفعوننا قليلاً إذا شئت. ويعرضون دفع أجرة السفر، ويعطوننا قليلاً من المال». وقد عينت في مصنع لإعادة تصنيع الخرق والاستفادة منها من جديد. وانضم إليها العديد من إخوتها وأخواتها فيما بعد، وأقاموا في المنطقة. (وهم يواصلون الآن رؤية بعضهم بعضاً كثيراً). وتعرفت في فرنسا بزوجها ذي الأصل الإسباني أيضاً، والذي غادر بلاده في نفس ظروفها تقريباً؛ فبعد متابعته دورة تدريبية للحدادة واللحام في مدرسة عسكرية، عين وهو في الثالثة والعشرين من عمره في مصنع فرنسي يعمل في قطاع السيارات. وقد استقر، منذ عدة أعوام، لحسابه كحداد سيارات، بينما استأنفت زوجته عملاً بنصف الوقت كخادمة في بيوت أغنياء، بعدما توقفت عن العمل بعض الوقت لتربية ولديهما (وهما شابان كانا في سن 24 و16 عاماً وقت إجراء الحديث).

إنها تستذكر بحنين السنوات الأولى التي قضتها في فيلنوف؛ إذ كان السكن أفضل منه في مركز المدينة، وكانت البنايات المحاطة بالمساحات الخضراء، أنيقة ولطيفة. وتحكي كيف تزايدت البنايات وتغير السكان شيئاً فشيئاً، وبدأت «المشكلات» بالظهور، وخاصة تفاقم البطالة لدى الشباب. في البداية -كما تذكر- كان بوسع بائع الحليب ترك زجاجات الحليب على عتبة الشقة، بينما يترك السكان الثمن تحت الممسحة. ثم بدأت السرقات تتزايد بسرعة (الدراجات ثم السيارات). وأضيف إلى الجنح اليومية التي ترسخت شيئاً فشيئاً، تدهور وضع البنايات وهو ما تسبب في مغادرة الأسر التي بإمكانها ذلك. ثم تذكر مشكلات التعايش التي كثرت بين السكان ذوي الأصول الأوروبية، والسكان ذوي الأصول العربية الذين أخذوا بالتزايد أكثر فأكثر: «بدأ بعض الناس بالشكوى.. فلقد أسكن الكثير من العرب، وكثير من الناس اشتكوا من بعض العرب فيما يتصل بالصوم، أما اليوم فأعتقد أن الأمور أفضل بسبب الأشخاص الكثيرين الذين اشتكوا (..) إذ مرت علينا بعض السنوات كان فيها وقت الصوم احتفالاً حقيقياً في الخارج.. وكأننا نحن في الجزائر». لكن الحياة العادية للحي أضحت بالنسبة لها «جحيماً» عندما قدمت في بداية الثمانينيات «عائلات ذات مشكلات» لها «سمعة سيئة جداً»، أعيد إسكانها في المساكن التي أخذت تشغر أكثر فأكثر في المنطقة: «كان الكل يسطون على البيوت. ولا أدري إن كانوا يسرقون في جهة أخرى، لكن الأمر شمل الجميع حقاً. إما أثناء العطلات أو في الليل أو وقت الأعياد. إن الأمر شمل الجميع».

كان من شأن تلك الظروف جميعاً أن تدفع بهذه الأسرة المهاجرة التي نجحت في الاندماج اندماجاً عفوياً ودون وعي منها، والتي كانت بمنأى عن خطر البطالة، إلى مغادرة الحي، كما فعلت أسر أخرى كثيرة. لكن بقاء ماريا د. في الحي على الرغم من الصعوبات التي واجهتها هي وأسرتها (سيارة سرقت، سطو على القبو، سطو على الشقة، إلخ) ليس مردّه فقط إلى أنها لم ترد ترك هذا الحي الذي تعلقت به واستحوذت عليه نوعاً ما، بل أيضاً

لأنها عاشت مثل كثير من الأسر المهاجرة مع وهْم «العودة للوطن» (فقد احتفظت ماريا وزوجها بالجنسية الإسبانية مثلاً) وما بقاؤها في فرنسا إلا إجراء مؤقت، أخذ يطول ويمنعها من تحقيق مشروعات تكتسي شيئاً من الأهمية: «لم نكن نعلم في البداية إذا ما كنا سنبقى هنا أو نرحل إلى إسبانيا، ولذا لم نقرر شراء منزل. وأخذ الزمان يمضي ويمضي حتى كبر الأولاد وحصلنا على الورشة. وقلنا بعد ذلك: ما أن نجمع بعض المال حتى نرحل (من الحي)». لكن ماريا ببقائها في الحي كانت تعرف أنها تعرض ولديها لتلك الدوّامة التي تجذب الشباب إلى الجنوح أو التهميش، وبالتالي فإن عليها مضاعفة الانتباه والجهود حتى يفلتا -بصعوبة في هذه الحالة- من «المخالطات السيئة»، والشارع وما فيه من تسهيلات وإغراءات زائفة: «إذا كان لديك أطفال هنا، فيتعين عليك الكثير من التيقظ، وينبغي انتزاعهم أيضاً من المدرسة (هنا) إذا أردت أن ينجحوا. ولذا ترحل الأسر الشابة عندما ترى هذه المشكلات».

لكن ماريا إذا نجحت في الاستمرار وفي الحفاظ على ولديها خصوصاً -وعلى عكس العديد من الأسر الجزائرية في الحي- فذلك لأنها تتمتع بخصائص موضوعية تميزها بانتظام عن أكثر المهاجرين المغاربيين. فهي على خلاف النساء اللواتي ولدن في شمال إفريقيا وغادرن قراهن للالتحاق بأزواجهن، قررت الهجرة ولما تزل عزباء للعثور على عمل. وفيما تبقى هجرة النساء المغاربيات خاضعة تماماً للمنطق العائلي والهيمنة الذكرية، تخضع الهجرة ذات الأصل الأوربي بشكل أكثر مباشرة لمنطق سوق العمل والارتقاء الاجتماعي.

(عندما هاجرت ماريا د. لم تجد شبكة أسرية لتتكفل بها، بل بعثة كاثوليكية وجدت لها عملاً وسكناً). «لست فرنسية، لكنني أوربية. وهو الشيء ذاته بالضبط» كما تقول. وبالفعل فإن الفجوة الثقافية والاجتماعية التي تفصلها عن بلد الاستقبال، أقل بكثير من تلك التي تلاحظ عند أكثر النساء الجزائريات اللواتي ما زلن مندمجات في مجتمعهن الأصلي. إذ

القليل منهن مثلاً يتعلمن التحدث بالفرنسية باعتبارهن لا يخرجن من بيوتهن إلا قليلاً. وتستذكر ماريا كيف يأتي الرجال من الجزائريين فقط إلى الاجتماعات: «لقد جاء الرجال هكذا بصراحة وحدهم، بينما بقيت النساء في البيت!».

ومن جهة أخرى فإن الهجرة الأوروبية أكثر انتقائية من الوجهة الاجتماعية بالمقارنة مع الهجرة المغاربية، على اعتبار أن المهاجرين الأوروبيين يتمتعون غالباً بخصائص (لاسيما في المؤهلات) تسهل عليهم الارتقاء الاجتماعي في بلد الاستقبال. فبوسع ماريا د. وزوجها أن يشعرا بأنهما نجحا في الحياة -وتلك ليست حالة أغلب العائلات المغاربية التي يبقى رجالها عمالاً غير مؤهلين في المصنع، هذا إذا لم يكونوا عاطلين عن العمل. ولهذا الوضع تأثيره على التطلعات المهنية التي قد تكون لدى أولادهم. وهكذا فإن ابن ماريا الأكبر الذي يعمل في ورشة أبيه، يستطيع التطلع إلى اتباع أبيه في مهنته، وتهيئة نفسه لأخذ مكانه في المنشأة العائلية الصغيرة، بينما ترفض أكثرية أبناء المهاجرين المغاربيين ظروف العمل القاسية، ويحتقرون آباءهم غالباً لقبولهم ما يرى الأبناء أنه «استغلال» دون كلمة احتجاج. اندمجت ماريا د. إلى الحد الذي أخذت تتكلم فيه عن بلادها الأصلية كما يمكن أن يتكلم عنها أجنبي: «دفعت هذه السنة 11000 فرنك من أجل منزل في إسبانيا (لاستئجار منزل في العطلة) فهم لا يقدمون الهدايا! وعندما قيل لي عن الثمن قلت: إن هذا غير معقول! إن الإسبان لصوص».

كما أن عدد الأطفال يشكل اختلافاً هاماً؛ فمع أن ماريا متحدرة من أسرة كثيرة العدد، إلا أنها حدّت من إنجابها، فلم تلد سوى اثنين تابعت مسيرتهما المدرسية، وأدركت الثاني ولما تكد بعدما انجرّ إلى شلة أصدقاء فساءت دراسته في إعدادية فيلنوف، حيث تركته عمداً، بناءً على معتقدها السياسي (للبرهنة على أن النجاح ممكن في الحي). وكانت تلح على الأكبر الذي كان دون عمل، لكي يذهب للبحث عن عمل، قبل أن تقترح عليه كحل

بديل، أن يعمل في ورشة أبيه. وليس من قبيل الصدفة أن تكون الأسر الكثيرة العدد في هذه الأحياء -المنتشرة في الوسط المغاربي- هي التي تسبب المشكلات الكبرى. وبالفعل، فإن حجم هذه العائلات يجعل من المستحيل تقريباً، في هذه المناطق العمرانية، على الأهل رقابة أطفالهم رقابة دقيقة وفاعلة. كما تستحيل تلك الرقابة على مجتمع المحلة كما كانت الحال في القرى الريفية. وهكذا تترك العائلات التي أسكنت من قبل المصالح الاجتماعية على حسب شغور المساكن والموارد، وليس تبعاً للعلاقات العائلية أو الأصل الوطني، تترك وشأنها معزولة، لا تستطيع الاعتماد إلا على إمكاناتها الخاصة. فالأب يضطر للعقاب الشديد -دون نتيجة تذكر- للأولاد الذين ينحرفون، قبل أن يتركوا البيت ويقتدوا بـ «المثل السيء للأخ الأكبر». وعلاوة على ذلك فإن استراتيجيات التكاثر تلك، لا تتناسب مع مطالب إعادة الإنتاج أو الارتقاء الاجتماعي في المجتمعات المتطورة. إذ إن تكوين الشباب يقتضي استثماراً (مدرسياً ومادياً وعاطفياً) هاماً وطويل الأمد، يستحيل توفيره عملياً في الأسر العمالية ذات العدد الكبير من الأطفال. «أنا لست عنصرية، ولكن..» يجب أخذ النفي بجدية، ونحن نسمعه عشرات المرات من خلال اللقاءات، والذي يدفع به سكان هذه الأحياء التهمة التي يحاول البعض إلصاقها بهم ولا سيما في وسائل الإعلام، حين حصول حادث مأساوي، والتي تميل إلى التثبت من خلال صعود الجبهة الوطنية الانتخابي في هذه المناطق.

إن ماريا د. على غرار كثير من السكان غير المغاربيين لهذه الأحياء، تنظر إلى هؤلاء الناس الذين يتخبطون في الصعوبات نظرة تفهم وحنق في آن معاً. فهي قريبة منهم إلى الحد الذي تعلم فيه ما يجري ضمن العائلات، وتفهم الصعوبات التي يواجهونها. كما تفهم جيداً عجز الأهل («إن الأب يكاد يقتلهم وهو يطرحهم أرضاً، ولكن بإمكانها قول ما قاله -في حديث آخر- حارس للمساكن المعتدلة للكراء في فيلنوف، على الرغم من أنه لا ينتخب من تنتخبه ماريا د. إذ قال «نحن لدينا المشكلات نفسها مع أطفالنا

ما إن يبلغوا 13-14 سنة. إذ تجري الأمور على ما يرام طالما كانوا صغاراً، وتصنع منهم ما تريد، وفجأة يصيرون أكثر عدوانية بتأثير المخالطة في المدرسة والإعدادية، وبعد 15-16 سنة، لن تستطيع معهم شيئاً. لقد تغيروا، إنهم يكلمونك لكنك تشعر بأنهم لم يعودوا.. إنهم يبتعدون عنك، ظانين أنفسهم.. رجالاً! إن الأهل يقولون «كل شيء انتهى، عمره 14-15 سنة. لم نعد نستطيع معه شيئاً». وبوسع ماريا مع نفس التعاطف الذي لا يمليه وضع الحديث تماماً، استحضار حالة هؤلاء الشبان الذين يترددون على السجن بانتظام، واليأس الذي يسبّبونه لأهلهم: «إنني أعرف بعضهم، هم صبيان لكنهم يسجنون للمرة الثالثة أو الرابعة لأنهم يسرقون السيارات. وعند خروجهم يكاد الأب يقتلهم، لكن هذا لا يمنعهم من إعادة الكرّة. إن المشكلة هي هنا (وتشير إلى رأسها بإصبعها) فلا يمكن عمل شيء فيه. ومع ذلك فإن الأهل -المساكين المنكودين- يحزنونني! على الرغم من أنهم جزائريون. يا للعجوز المسكين عندما أراه، محزن حقاً. هذا ما أشعر به عندما أراه، إذ لم يدُر بخلده ولا بخلد الأم كل هذا، وهم لا يستحقون أن يكون أولادهم على هذه الشاكلة، وهذا كل شيء».

لكن ماريا د. ليس بوسعها ألا تكون خائفة في نفس الوقت على هذه العائلات. لأنها تتحمل الاعتداءات اليومية المختلفة التي يرتكبها بعض الشبان، وتجعل الحياة عسيرة من جهة، ومن جهة أخرى، وعلى الأخص، لأنها وصلت إلى ما وصلت إليه من نجاح نتيجة للكد والحرمان، بينما لا يبدو على هؤلاء الشبان أنهم يريدون دفع مثل هذا الثمن بدورهم. ومع أنها تسلّم بأن ظروف الحياة لم تعد كما كانت («كيف تريد حرمانهم في الزمن الذي نحن فيه») إلا أنها لا تقبل بألاّ يمر الشباب بالتجارب التي مرت بها: «لقد حصلوا على كل شيء، ولا مشكلات لديهم..» والواقع إن النضال السياسي والجماعي لدى ماريا د. يقترن مع النجاح النسبي لمشروعها في الرقي الاجتماعي، باعتبار أن النشاط السياسي هنا ليس إلا أحد مكونات نشاط اجتماعي أكثر شمولاً، يسهم النشاط السياسي في تدعيم العلاقات

والمعلومات التي يأتي بها. كما أن هذا النشاط السياسي طريقة لتوكيد مبادئ أخلاقية؛ تلك المبادئ التي تجعل الرقي الاجتماعي مؤكداً على الرغم من بطئه. «أنا أرى أننا حين نعمل ولو بأجر قليل، العمل هو كل شيء يا سيدي، العمل هو كل شيء، هو الحرية». وعوضاً عن الاستسلام والإيمان بجبرية لا مرد لها، أو التطلع، على العكس، إلى مشروعات بعيدة عن الواقع، تميز غالباً الشرائح الدنيا من الطبقة العمالية، فإن ماريا د. تجهر بموقف مطلبي معقول يقوم على السعي إلى الأفضل عن طريق الكفاح، دون طلب المستحيل. إذ يجب الإنفاق بقدر ما نملك، لا أكثر. كما لا يجب أن نريد إلا ما نستطيع الحصول عليه. وباختصار، يتعين على الإنسان أن يضع لنفسه حدوداً: «لقد عقدنا اجتماعات لنعرف ما يريد الشباب؛ وإذا بهم يطلبون من كل شيء. وهذا ما أثار أعصابي، لأنني في شبابي لم يكن لدي أي شيء، وكنت سعيدة وراضية، وأما هم فليسو كذلك.. فلا ينبغي طلب كل هذا». بعد إجراء اللقاء، وقبل أن أغادرها روَت لي -دون ميكروفون- أنها تسمع باستمرار في الشقة الرائعة التي تعمل فيها مدبرة، تردد صوت كعبي الجارة التي تسكن فوق الشقة: («كانا يصدران كلاك، كلاك، كلاك») فقالت لمخدومتها عندئذ: «ربما لديك شقة كبيرة وجميلة وسط المدينة، لكنها كثيرة الضجيج. فأنا أفضل حالاً وأكثر هدوءاً في شقتي الصغيرة في فيلنوف!».

مع ساكنة في حيّ شعبي (HLM)

حديث مع باتريك شامبانيه

«لا ينبغي القول بأننا عنصريون»

❖ لك ولدان، هل تمكّنا من متابعة دراستهما بشكل عادي في فيلنوف؟

ماريا: لقد انتزعتهما كليهما من فيلنوف. الأول في الصف السادس والثاني منذ السابع (..) أنهى الكبير (الذي يبلغ 24 سنة) الصف التاسع، وحصل على شهادة الكفاءة المهنية في الإلكترونيات، وكنا نريد أن يكمل دراسته لكن السيد لم يرِد. أما الثاني فقد كان في الصف السادس، غير بعيد عن مكان عملي، وهو الآن في الصف العاشر. وبما أنني مناضلة في الحزب (الشيوعي) فقد قلت: «أترك ابني في فيلنوف بما أنه مجتهد، لأظهر للآخرين أن بإمكانه النجاح أيضاً في فيلنوف». فوضعته في الصف السادس (بإعدادية) لويس أراغون، لقد كان الصبي مجتهداً (في المدرسة الابتدائية) حتى أنه حصل على تهنئة على اجتهاده.

سأقطع راسك يا فريدريك إن طردوك من المدرسة!

ماريا: وتغير الولد في الإعدادية، فلم يكد ينجح في السنة الأولى. تعلم أنهم يتغيرون عندما يذهبون إليها، نجح بصعوبة، وأخبروني مرتين،

ثلاث مرات أنه بدأ في عصيان الأساتذة. فقلت: «هكذا إذن؟» وأنّبته، معتقدة أن الأمور ستتحسن. وانتقل من السادس إلى السابع، ثم رسب في السابع. فذهبتُ إلى المديرة والمعلمين، واكتشفت أنه تغيب 17 يوماً خلال العام كله دون أن أعرف شيئاً. هل تعلم كيف عرفت بغيابه كل هذه الأيام؟ لأنني عملت بعض المساعي لإرساله إلى إنجلترا (..) فذهبت لرؤية المختصة الاجتماعية في المدرسة وشرحت لها المسعى، وسألتها عَرَضاً، إن كانت توجد مشكلات مخدرات أو قصص من هذا القبيل، لمجرد العلم. فأجابتني: «لا، لا، لماذا؟ الأن لك مشكلات مع ابنك؟» فقلت: «لا، لا،!» ثم سألتني: «ما اسم ابنك؟» فأخبرتها باسمه، وإذا بها تقول: «لكنني أعتقد أن فريدريك د. هو الذي تغيب 17 يوماً(..) وقد اضطررنا لإبلاغ مديرية التربية» فقلت: «لا، ليس هو، إنك مخطئة».

(..)

لقد كان هو بالفعل، فقلت إن هذا غير ممكن. وذهبت لرؤية المدير ثم المكلفة بالدخول، وقلت: «كيف يتغيب ابني عن المدرسة دون أن أعلم؟» وكانوا هاتفوني مرة لأمر لا أذكره. فقيل لي «اسمعي يا سيدة، من المؤكد أنه قد أرسلت لك رسالة» فقلت: «لا، أنا آسفة» وقلت للمكلفة بالدخول: «اسمعي يا سيدة، إذا كنتم أرسلتم رسالة، ولم أرد عليكم، فلِمَ لم تهاتفوني؟ إن 17 يوماً شيء كثير» فأجابتني: «أوه! اسمعي يا سيدة، لدينا 500 تلميذ، وإن هاتفنا كل واحد فلن ننتهي» قلت عندئذ: «إنها النهاية». وعندما علمت أنه يعصي الأساتذة قلت: «لا يمكن إبقاؤه، لأنني لو أبقيته، سيكون مع أولاد بدؤوا بالانحراف، ولم يعودوا يطيعون الأساتذة. وطلبت الملف مع أنني كنت قررت أن أبقيه في إعدادية لويس أراغون. وقلت: «اسمعوا، سأستمر في النضال من أجل المدرسة، أما إذا تركت ابني فستكون النهاية، ولا يعيش الإنسان إلا حياة واحدة».

◆ وهل تحدثت مع ابنك فيما بعد؟

ماريا: نعم، نعم، وبما أننا متفاهمان جيداً فقد حكى لي كل شيء.

فعندما سألته: «ماذا كنت تفعل في الخارج؟» أجابني: «كنا نتجول» وأحياناً كان يجد عند وصوله لباب المدرسة بعض الزملاء فيقولون: «أنذهب إلى المجمع التجاري لشراء شيء ما؟» وهكذا يضيع وقته، يضيع الصباح، فلا يذهب إلى المدرسة. وأحياناً كان يحدث هذا بعد الظهر. فسألته: «كيف تفعل ذلك؟ ألم يكن هناك أشخاص يرونك أحياناً؟» وأجابني: «نعم، نعم، لقد اضطررت للاختباء مرتين أو ثلاث تحت مرائب السيارات» فقلت: «هذا غير معقول» وحتى هو رأى بأن عليه مغادرة الإعدادية لأنه لا يستطيع قول لا لأصدقائه الذين بدؤوا بارتكاب الحماقات أحياناً في قاعة الدرس وكان يتبعهم. لقد كان مذنباً مثل غيره.. لكنه عندما دخل إلى هناك (في إعدادية أخرى وسط المدينة) وجد الانضباط. وحينما استلمت في السنة الأولى رسالتين أو ثلاثاً لأنه كان وقتها معتاداً على فيلنوف، قلت له: «سأقطع رأسك يا فريدريك إن طردوك من المدرسة» وكانت تلك البداية، ثم تحسنت الأمور فيما بعد، ولم أستلم شيئاً في السنة الماضية» وقلت: «لم أستلم شيئاً يا فريدريك، لا شيء البتة طوال السنة» وأجابني: «آه، نعم، نعم، لقد تغيرت كما ترين».

لقد كان الحي ميتاً، ولا أحد يريد سكناه

❖ ترجع عملية إعادة الاعتبار إلى سنتين، ثلاث سنوات؟

ماريا: نعم، لأن الحي كان ميتاً حقاً! ولا أحد يريد سكناه. وعند إعادة الاعتبار، كانت هناك العديد من الشقق الشاغرة، ولا أحد يريد المجيء.كان التدهور في كل شيء وفي كل مكان، كل شيء في الخارج كان متدهوراً. إن المشكلة كما تعلم هي أنهم أسكنوا الكثير من الأجانب، الكثير من المغاربيين. وأنا أحزن عليهم أحياناً لأن فيهم أناساً طيبين. سكنت الحي وفيه أناس أحبهم جداً. هناك أناس يودون العمل، وهذا صحيح، إلا أنهم يتركون جانباً بسبب التمييز، فيجب على الإنسان أن يكون منصفاً على الرغم من أن الناس يقولون إنهم أشرار ولصوص. والواقع أنهم هم الذين صنعوا هذه السمعة. لكن لا أحد يتسامح معهم من جهة أخرى (..) وإذا ما

طلبوا العمل، فلا أحد يعطيهم. ولذا تراهم يسرقون ويعودون للسرقة من جديد.. لكن منهم شباباً كانوا يسرقون، صلحوا بعدما أوجد لهم العمل، وبدؤوا في بناء مستقبلهم إذ ملؤوا وقتهم.

إنهم لا يتسكعون حتى سن 18-20 أو 24 سنة إلا لأنهم لم يجدوا عملاً، وتعودوا على البطالة، ولم يعودوا يشغلون بالهم بهذا. وإذا ما عرض عليهم عمل أحياناً تجدهم ينتقون على الرغم من أنه ليس لديهم شيء. في زماننا، لم يكن الأمر كذلك، وهذا ما قلته لابني. نحن كنا عاملين وأكثر نزاهة من هذا الجيل الجديد. أما هم فكسالى ومتعبون دائماً، لقد حصلوا على كل شيء ولا مشكلة لديهم. ثم..

◆ ألا توجد بالإضافة إلى ذلك، مشكلة مخدرات هنا؟

ماريا: أوه، كلا، كلا، إن الأوضاع هادئة هذه السنة. وكان هناك الكثير والكثير. فلو أنك أتيت العام الماضي في أية لحظة، لوجدت سبعة، ثمانية شبان جالسين على الدرج، فذلك كان الملتقى. كنا نرى الغُدُو والرواح والمواعيد، وكل شيء، وتهريب المخدرات يجري أمام أعيننا. وكنا نحن المستأجرين نقول لهم أثناء نزولنا: «دعونا نمر على الأقل» وما كان لنا أن نكلمهم هكذا. كما كانوا يشعلون الأضواء (أضواء الدرج) دائماً. وكنت أطردهم أحياناً قائلة: «أنا آسفة، لكنني أنا التي تدفع ثمن الكهرباء، وأنا لا أريد». لقد كانوا من الكبار، فأصرخ فيهم أحياناً: «لقد سئمت من رؤيتكم هنا» ويجيبونني: «اسكتي، فنحن لطفاء معك» -«لكنني لا أريد رؤيتكم هنا». وحدث مرة أو اثنتين أن كان معهم شاب طويل القامة، أجعد الشعر، وقد أخافني حقاً عندما قال لي: «اسمعي يا سيدة، إذا صرخت سأقتلك» فشكوتهم عندئذ وناقشنا الأمر في الاجتماعات مع رئيس البلدية. ولا أعرف إلى أين ذهبوا، لكن الأوضاع هدأت على كل حال. المخدرات، آه، لا، يا إلهي!

أرى أن وضعنا ليس سيئاً مع ذلك

◆ عندما جددوا المباني، وضعوا أبواباً مصفحة؟

ماريا: أجل، في ذلك الوقت.

❖ وهل خُلع بابكم من قبل؟

ماريا: نعم، نعم، عندما سطوا على الشقة. إذ عملوا ثقباً في الباب، لأنها كانت أبواب.. (قليلة المقاومة) عملوا ثقباً في الباب ودخلوا. كان الوقت عطلة يومها ولم نكن في البيت فكان لديهم الوقت واستولوا على جهاز التلفزيون وجهاز الفيديو، ومجموعة صوتية مع أشرطة، وقناني وقطع عملة نادرة كان يقوم زوجي بجمعها ولديه الكثير منها، كل ذلك ذَهَبَ.

❖ كانت مجموعة ماذا؟

ماريا: مجموعة عملات فرنسية. لكن المنطقة صارت أفضل منذ أربعة أعوام. فالمساحات الخارجية أكثر نظافة وجددوا كل شيء(..) وأنا أرى أنه على الرغم من أن حينا ليس في عداد الأحياء الفخمة، فإن السكان يبدون اهتماماً أكبر، وأرى أن وضعنا ليس سيئاً مع ذلك، وأن الحياة في الحي تماثل مركز المدينة في الجودة. كما أننا ننعم بالدفء والماء الساخن والمصاعد ولدينا مكبات للنفايات في المطابخ، والإدارة الجيدة، على الرغم من أننا نعيش في مساكن شعبية. إن الشقق لا بأس بها. والمشكلة في الناس.. الذين ينبغي أن يعيروا شيئاً من الانتباه لأنفسهم.

❖ أنتم تسعون لشراء منزل، هل لمجرد الشراء أم لمغادرة فيلنوف؟

ماريا: أه، كلا، كلا، أنا لا أريد الرحيل عن فيلنوف كما تعلم. من الممكن أن نشتري منزلاً (..) لكنني لا أريد الرحيل عن فيلنوف فأنا أعرف كثيراً من الناس فيها، أناس طيبون جداً، ولا أريد الرحيل عنها. وإذا ما كان يوجد أشرار في فيلنوف فهناك أشرار في كل مكان. واللصوص -كما تعلم- ليسو في فيلنوف فقط. فأختي التي تقيم في ت(محلة قريبة) سرقت سيارتها منذ أيام، وإذن.. إنها تقول إنهم أناس ربما من فيلنوف، ولا أحد يعلم إن كانوا كذلك. لأن المشكلات نفسها في الجهات الأخرى.

(أوضحت بأن أجرة المساكن تضاعفت منذ عملية إعادة الاعتبار: فهي تدفع الآن 2410 فرنكات شهرياً، أجرة لشقتها المكونة من أربع غرف مع مرآب بما فيها الأعباء. وتقول بأنه ما أن يتجاوز دخل المستأجر عتبة معينة

حتى يتضاعف الأجر، وهذا يسهم في جعل العائلات الميسورة تغادر فيلنوف، مفضلة الشراء في جهة أخرى).

في شبابي، لم يكن لدي شيء وكنت سعيدة.

❖ إنك تشتركين في الجمعيات وفي لجان الأحياء..

ماريا: نعم، لكنني تركت ذلك جانباً نوعاً ما هذه السنة، لأنني كنت أضيع الكثير من أوقات بعد الظهر، وتثور أعصابي أحياناً حينما أرى كيف يتصرف الناس.(..) لقد تصايحت مع بعض العرب مرتين أو ثلاث، لم نتصايح بل.. كانوا يطلبون هذا، ويطلبون ذاك. لقد عملنا اجتماعات لنعرف ما يطلب الشباب، فإذا بهم يطلبون كل شيء. وهذا ما كان يثير أعصابي، ففي شبابي، لم يكن لدي شيء وكنت سعيدة وراضية، وهم ليسو كذلك.. وإذن، فلا ينبغي طلب كل هذا. يطلبون قاعة، ويطلبون هذا ويطلبون ذاك. فقلت للسيد س «الأفضل أن أبقى في البيت لأنني أشعر بأنني سأختصم مع العرب ثم..» لقد عملنا مع المركز الاجتماعي وأقمنا مأدبة ذات موضوع ثقافي، وعملنا أشياء عديدة. لست فرنسية لكنني أوروبية وهو بالضبط الشيء نفسه، ولا أدري فالناس يختلفون. إنه الدين، إذ كانوا يسألون إذا كان في الطعام لحم خنزير، أو فيما إذا لم نضع لحم الخنزير عمداً لأننا نعرف بمجيئهم! جلبنا خموراً، فلم يشربوا منها، آه، كلا، كلا، كلا، إنه محرّم! السيد أحمد قال: «آه، كلا، كلا، فالله لا يريده» فأجبته: «اسمع، الله نائم» وكان الوقت ليلاً«الله نائم، اترك الله وشأنه».(..) وبالإضافة للجزائريين، كانت هناك جمعية من السود وهم مسلمون أيضاً، جاؤوا مع نسائهم. أما جمعية الجزائريين فأتى منها الرجال وحدهم هكذا صراحة، بينما بقيت النساء في بيوتهن. فقلت بعد ذلك: «لن أقوم باحتفال معهم، بعد اليوم» ولم نقم بذلك منذئذ. إنهم ليسوا مثلنا كما تعلم، وهذا أيضاً ينبغي.. لسنا عنصريين، لكننا عندما نرى أشياء كهذه أحياناً مرة، مرتين، ثلاث مرات، نضطر إلى القول.. حسناً (..) أنا أحب جميع الناس حقاً، لكنني أقول: إذا فعلته من جانبي، فلِمَ لا تفعله أنت؟ حاول على الأقل! لنترك الدين، فلقد كنت كاثوليكية في إسبانيا، وكنا مضطرين للذهاب

للقداس، وما أن أتيت إلى هنا حتى انتهى كل ذلك، ولم أعد أحضر القداس. وحتى لو كنت أحضر القداس فما كنت لأمتنع عن الاحتفال مع عرب أو صينيين، أو آخرين، وأنا أفهم هذا. أما هم فينظرون من الباب، وإذا رأوا كثيراً من الأوروبيين، لا يدخلون لأنهم يودون أن يكونوا الأغلبية، وهذا منهم، فلا ينبغي أن يقال عنا عنصريين. إنهم الأكثر عنصرية. ويميل الحزب الشيوعي.. عندما تحدث اضطرابات وما شابه ذلك إلى إعطائهم الحق، ويرى إنه إذا لم يكن لهم عمل أو لا يربحون كفايتهم فذلك ناجم عن العنصرية معهم، وكذا وكذا. وكنا نقول للحزب أحياناً، اسمعوا، هم أيضاً عنصريون ولا ينبغي ذلك.. ولهذا تركت الجمعيات قليلاً كما قلت لك.

(تذكر السكان الذي يسببّون قذارة الممرات، ويرمون القمامة من النوافذ كقشور الموز وأوعية اللبن أو الحليب، وحفاضات الأطفال، لمجرد رغبتهم بذلك. ثم تتعرض للصعوبات التي يواجهها «الناس الذين يودون العمل ولا يجدونه»).

❖ هناك مشكلة البطالة لدى الشباب؟

ماريا: هو ذاك، كثيراً.

❖ وبالنسبة لولديك؟

ماريا: آه، كلا، كلا، ليست لدي مشكلة. هناك الكثير من المشكلات في فيلنوف ليست لدي (..) فليست هي المشكلات نفسها لدى الجميع كما ترى. إذ هناك عائلات تعيش جيداً في المنطقة. ولا ينبغي تصديق ما يقال عن أن الجميع يعانون من السكن فيها. كلا، هذا غير صحيح. فهناك عائلات تعمل، وهم اثنان أو ثلاثة في البيت ولديهم سيارتان أو ثلاث (..) حدثت كثير من التحسينات في الخارج، لكن المشكلات في الداخل مستمرة عند من لديهم هذه المشكلات. إنها المشكلات نفسها، البطالة.

❖ من هي هذه العائلات التي لديها مشكلات؟

ماريا د.: إنها العائلات الكبيرة على الخصوص، مهما كانت جنسياتها. العائلات الكبيرة دائماً. إذ من النادر أن تجد عائلة أكبر من

خمسة أو ستة أطفال دون مشكلات، مهما كانت جنسيتها. ولا أقصد الجميع.. فربما توجد عائلات.. هناك عائلة إسبانية، الوالدان فيها مطلقان، والأب ثمِل دائماً، أما الأم فليس لديها سوى العراك مع كل الناس بسبب أطفالها. وهنا، عائلة إيطالية لديها مشكلات أيضاً. أقول هذا للدلالة على أن العائلة الكبيرة تعاني من مشكلات، مهما كانت جنسيتها، إلا في حالة كون الأبوين حازمين ومستقيمين.. لكن الأكثرية هي من العرب، لأن عائلاتهم هي الأكبر. ومن النادر ألا تجد فيها واحداً أو اثنين أو ثلاثة من أفرادها - هذا يعتمد على عدد الأولاد- يتسكعون دون عمل أو دخلوا السجن، ولا أعرف عائلة مستثناة في فيلنوف، إذ كل العائلات التي أعرفها لديها فرد أو اثنان دخلا السجن. إنهم يغوصون في البطالة سنوات وسنوات، يُعطَون عملاً لثلاثة أشهر وأحياناً ستة ثم يعودون للبطالة من جديد. وتتواصل الأمور هكذا. وهناك شباب في الثلاثين أحياناً ولا يمكن القول بأنهم بدأوا العمل. إن هذا لو كان عندي.. أوه لا، لا، شاب كهذا عندي؟ فإن لم يكن قادراً على البحث عن عمل، قمت أنا بذلك. وإذا لم يكن العمل جيداً، فليس له إلا أن يجتهد أكثر في المدرسة. وهذا ما أقوله للعرب.

❖ وبماذا يجيبونك؟

ماريا: إنني أتكلم معهم كثيراً، فيقولون أحياناً «أوه، نعم، نعم» وأقول: «لكن، لِمَ لا تجتهدون أكثر في المدرسة؟ ثم تقولون بعد ذلك أنكم لا تعثرون على عمل، أو أن العمل ليس جيداً. عليكم بالكفاح، عليكم بالكفاح منذ المدرسة». «نعم، نعم، لكن الأمر صعب» -«والعمل، أليس صعباً»- «بلى، بلى، معك حق يا سيدة د. أوه، إنها لطيفة، السيدة د. وهي تسدي نصائح جيدة» لكنني أسدي لهم آلاف النصائح أحياناً. لقد قلت لهم «ألم تروا التلفزيون؟ إن فيه صحفيين عرب، فلا تمييز ضدكم إذا ما اجتهدتم في المدرسة، لكن عليكم الاجتهاد» فضحكوا، لأنهم يعرفونني وأعرفهم جيداً. وقد رأيت كل الشباب الموجودين هنا عند ولادتهم أو صغاراً جداً. قلت لك إنني هنا منذ 20 سنة (..) إنني أتذكر أننا كنا عشرة، وكان الأمر مختلفاً في

الماضي، فأبي يعمل فقط وينقصنا كل شيء، لكننا مع حاجتنا كنا سعداء. لكنهم الآن ليسو كذلك. إنهم ستة أطفال أو سبعة، وهناك الكثير من البيوت التي لا يعمل فيها الأب أو أنه الوحيد الذي يعمل وبأجر زهيد.

طالما كانت أمك هنا، فلن تعاني من البطالة.

❖ هل من مشكلات هنا في العثور على عمل؟

ماريا: إن مشكلة العمل هي المشكلة الرئيسية، لأنني أرى بأن العمل كل شيء حتى لو كانت الأجرة قليلة. يا سيدي، إن العمل كل شيء، العمل هو الحرية. لكن عندما لا يكون عمل هنا، يبدؤون في تدبر أمرهم بكل وسيلة. آه، العمل، بلى، بلى، لأن الشباب عندما يعملون يصيرون جادين إلا إذا كانوا من المتسكعين كما قلت آنفاً، إذ هناك شباب يتسكعون، لكنهم أقلية مع ذلك (..) لا يمكن أن نحل جميع المسائل 100%، فهناك استغلال لبعض الناس واستغلال لبعض الأوضاع ولذا نجد رجالاً يستغلون وضع البطالة. قبل أن يعمل ابني مع أبيه ويذهب إلى الجيش اشتغل بعقد في الالكترونيات لمدة عام؛ حيث كان يركب صفارات إنذار وهواتف في السيارات وما إلى ذلك. وكان العقد لستة أشهر، ويعلم ابني أن لديه الحق في تعويض البطالة بعد ستة أشهر من العمل، ولذا أراد أن يتوقف. لكنني قلت له: «اسمع أيها المسكين، إنني ما زلت هنا» فأجابني بأنه سيأخذ عطلة، وأخذنا عطلتنا في شهر آب، لكنني في أيلول قلت له: «ستذهب للبحث عن عمل» ولم يكن يريد ذلك، ليس تماماً، بل كان يماطل. يا إلهي! يذهب زوجي إلى عمله، وأنهض أنا تاركة ابني حتى التاسعة، وفي التاسعة أفتح النافذة وأسحب الأغطية، كان وقتها في الثامنة عشرة وقد أتم المدرسة. فقلت: «ستذهب إلى الوكالة الوطنية للتشغيل وتبحث عن عمل» -«حسناً، لقد كنت البارحة هناك»- «لكنك ستذهب اليوم أيضاً». وأستمر هكذا حتى أثير أعصابه فيرتدي ثيابه ويذهب. كنت أقول: «هيا اذهب، فلن تبقى في السرير على الأقل» وظللنا على هذه الحال طوال شهر أيلول، قضيناه نحن الاثنين؛ لقد كنا نتشاجر كل يوم. قلت له: إذا لم تُرِد متابعة الدراسة فهي مشكلتك، إذ كنا ندفع له تكلفة

المدرسة الخاصة وكل ما يتعلق بذلك. فقال: لا. فقلت: «ما دامت أمك هنا، فلن تعاني من البطالة». أقسم لك بأننا ما دمنا بصحة جيدة فلا بطالة، وأمضينا شهراً نتشاجر، قائلة له كل يوم نفس الكلام، حتى ذهب إلى وكالة العمل بالوكالة وعمل بضعة أشهر. وما أن استلم زوجي الورشة حتى حُلّت المشكلة. لكنه بقي شهراً، نتشاجر فيه كل يوم.

لقد قلت عندئذ: «أنا آسفة، لا، لا، لا». أنا أعلم أن لا عمل لكل هؤلاء الشباب، لكنهم لو كانوا معي لعملوا، أقول هذا لأبين لك عقلية ابني آنذاك. وهذا ما أردت تبيانه في البداية؛ إذ يوجد شباب لديهم الحق في تعويض البطالة، وطالما يدفع لهم هذا التعويض، لا يشغلون بالهم، فإذا توقف الدفع يعملون ثلاثة أشهر أو ستة، وهكذا دواليك،أتفهم؟ إنهم أقلية، لكنهم موجودون. وهناك آخرون يشتغلون عندما تُعطى لهم وظيفة، حسناً، وما أن يبدؤوا العمل حتى يتابعوا. (..) أقسم لك بأنه فيما يتعلق بي، الاثنان يعملان كلاهما؛ الصغير يعمل في المدرسة هذه الآونة. أستيقظ الأولى، الساعة السابعة أو السادسة والنصف من أجل عملي. فهل أترك الشاب نائماً أو متكاسلاً؟ بينما أعمل أنا وزوجي كالكلاب! آه، لا! لكنني أعرف أيضاً أن كل الناس ليسوا مثلي.

لقد عملنا جميعاً، جميعاً كما ترى. وندفع أبناء هذا الجيل أيضاً للعمل. لأخي ولد متزوج يعمل هو وزوجته، ولديه بنتان تدرسان كلتاهما، وولد رابع يعمل. الكل بالنسبة لنا وللإسبان، يعملون في وظائف متواضعة نوعاً ما، ولكنهم مع ذلك يكسبون عيشهم، والأمور تسير. وهم ليسوا من العائلات التي تتسكع وتضايق الآخرين، وإذا كسب أحدهم 5000 فرنك، فليكن. إنني أعرف كل الناس في مركز المدينة، وهم يتدبرون أمورهم بما لديهم سواء أكانوا متقاعدين أم عاطلين عن العمل أحياناً. فالعائلة التي تكسب 5000 فرنك، تعيش بمستوى هذا المبلغ، وتلك التي تكسب 10000 فرنك كذلك.. نعم. أقول للولدين دائماً أن عليهما الاحتفاظ بروح المنتصر في عقليهما وأن يعملا ويتجنبا الإهمال والتسكع؛ فبالعمل نبلغ كل شيء، ولا

ينبغي أيضاً أن تثبط عزيمتنا ونستسلم. إذ هناك أوقات نحس فيها بالإحباط، وأقول لهما أيضاً: إذا ما كسبنا كذا وليس بمقدورنا كذا، فأنا ما فعلت في حياتي عملاً مشبوهاً قط. ولم أذهب قط إلى مكان مشبوه، ولم ألبس قط لباساً مشبوهاً. أعيش بقدر إمكانياتي. نعم، لقد أوصيت ولديَّ بأن لا تكون لديهما أوهام أكبر من إمكاناتهما في السكن أو.. لقد سكنت هنا 20 عاماً، وكانت الأمور جيدة، وما كان ضرورياً أن نسكن في حيٍّ راقٍ وندفع 4000 فرنك للكراء.. أنا باقية هنا. أنا شريفة وسأبقى هنا، وليكن ما يكون. هنا، أستطيع الدفع، أما هناك فهل أستطيعه؟ لا أدري.

آذار 1991

غابرييل بالاز

استثمار خاسر

السيدة تيلليبه هي رئيسة لجنة الدفاع عن التجار في مدينتها. وحانوت الأدوات الرياضية الذي افتتحته منذ سنة، نُهب ثم أُحرق ولم يبقَ منه إلا هيكل متفحم.

لم يكن في هذا الحي المكون من أبراج ومجمعات كبيرة سوى عشرين من صغار التجار، يبيعون المواد الضرورية. لأن إقامة المحلات التجارية في منطقة السكن العمالي هذه تمثل مخاطرة واضحة أهمها السرقة. وإذا كانت المساحات التجارية الكبرى مضطرة من خلال الأنظمة إلى مواجهة هذه المخاطر على الرغم من ترددها القوي، فإن التجار الصغار الذين لا تتوافر لديهم إمكانات المراقبة والتأمين نفسها، يفضلون تجنب هذه الأحياء. فحينما اندلعت الحوادث التي أدت إلى نهب المركز التجاري الصغير، جذبت الأدوات الرياضية الناهبين في المقام الأول، لأنها مرغوبة وعسيرة المنال نسبياً على الأطفال والمراهقين، قبل محلات بيع المشروبات والنظارات والأحذية. وهكذا تبدو تجارة السيدة تيلليبه «في غير محلها» لا سيما في هذا الحيّ. وعلى العكس من عدد التجار الصغار، فإنها لم ترِث حانوتها، بل أصبحت تاجرة في وقت متأخر وهي في الخمسين، بعد أن مارست مهنتين اخريين، لا علاقة لهما بالتجارة (وظيفة مكتبية). والإخفاق المتمثل في

تقويض حانوتها الذي يرجع في جزء منه إلى عدم خبرتها، مؤلم. لا سيما أن هذا الإفلاس هو أيضاً إفلاس المشروع الذي بنته بطول أناة بغية الارتقاء.

غير أن إقامة هذا الحانوت لم تكن وليدة الصدفة مع ذلك، على الرغم من أن السيدة تيلليه لم تكن محاطة بكل الضمانات التي يؤمّنها عموماً أولئك الذين يملكون الخبرة في هذا المجال (دراسة الجدوى الاقتصادية خصوصاً). إذ كان لها ميل قوي للرياضة: لأنها تربت كما تقول «في الميدان» فأبوها كان مدرّباً، أما أمها فلاعبة كرة سلة، وأخوها أستاذ للتربية الرياضية. إلا أنها لم تستطع اتخاذ الرياضة مهنة، لأن الفتيات والأولاد في زمانها لم يكونوا يتلقون التشجيعات نفسها لمتابعة الدراسة («كانت أمي تقول لي: اسمعي، ستتزوجين، وزوجك هو الذي سينفق عليك»). وبعدما تابعت تكويناً مهنياً في الكتابة الآلية والمحاسبة «وهي مهنة لم تعد موجودة، باعتبار أن كل شيء مُحوْسب الآن» شجعتْ ابنتها كما شجعت ابنها على احتراف الرياضة (ابنها أستاذ في الجمباز، ويشترك في المباريات ويتجه إلى «التخصص في التدريب»، أما ابنتها التي تدرس من أجل تعليم التربية الرياضية، فهي حائزة على بطولة فرنسا في تخصصها). فهي عندما غيرت مهنتها إذن، كانت تفكر بإمكان استعمال معرفتها للوسط الرياضي، وتذوقها للرياضة في هذا المَنشط التجاري.

عملتْ في البداية مستخدَمة في منشأة صغيرة للألبسة النسائية الداخلية، قبل أن تسرَّح نتيجة لإفلاس تلك المنشأة، ووجدت نفسها آنئذ مضطرة لتغيير مهنتها من جديد. لكن قبل إغلاق المنشأة نهائياً، تم احتلالها من قبل العمال طوال سنتين. وبما أن السيدة تيلليه قامت بدور هام في الحركة، فقد كانت على علاقة وثيقة بالبلديات التي كانت تساند مستخدَمي المنشأة. وقادتها روحها النضالية إلى ترشيح نفسها للانتخابات البلدية. وهي تقول عن تلك الفترة «إنها لم تكن تحسن الموازنة بين الحياة المهنية والحياة الأسرية» وكانت تخصص القليل من الوقت لولديها «اللذين كانا

يعملان واجباتهما المدرسية في المصنع» ولزوجها المعلم خصوصاً، والذي انفصلت عنه بعد قليل. لكنها انتُخبت في المجلس البلدي، وكُلفت بالنشاط الرياضي. وهكذا اعتقدت عند إقامتها لحانوت الرياضة أن بإمكانها أخيراً وضع خبرتها وإمكاناتها موضع الفائدة و«تثمير» كل تلك السنين من «الكفاح».

إنها تعاني شعوراً قوياً بالظلم الذي وقع عليها، إزاء الدمار الذي لحق بحانوتها، لا سيما وأنها خصصت كل طاقتها عندما كانت في المجلس البلدي ليس فقط للمناشط الرياضية بل أيضاً للدفاع عن سكان الحيّ الذين تعرف ما يعانونه من «بؤس خفي»، وذلك بمعارضتها لبعض إجراءات المصادرة، وإخطار السلطات العمومية. وعلى الرغم من الوضع المؤلم الذي يتعين عليها مواجهته، فإنها لم تنسَ التذكير، خلال الحديث، بأن سكان الحي «فقراء جداً» و«ما دام الشباب دون أمل في المستقبل (..) فلن يكون بوسعهم الالتزام ولا الزواج والحصول على مهنة..» وأن تعويض البطالة أو تعويض الاندماج «لا يكفي أي منهما حتى لدفع الكراء» لكنها تعترف في المقابل بأنها «لم تعد تنام» فقد ذهبت كل جهودها أدراج الرياح على الرغم من «التضحيات المضاعفة» التي كان عليها القيام بها. كما أن التناقض بين ما حصل لها وبين معتقداتها السياسية، يجعل من الصعب عليها احتمال «السرقة أمام عينيها(..) والشتائم» واحتمال رؤية الذين نهبوا وأحرقوا الحانوت وقد أُطلق سراحهم سريعاً: «نرى الشاب ثانية في الغد.. فقد أُطلق سراحه. إن هذا مثير للأعصاب حقاً ومنهِك (..) بل خطير. لأنهم جاؤوا ليستهزئوا مني حتى من خلال الواجهة الزجاجية، وقد كان بإمكانهم إذا شاؤوا (تردد) لنقل، أن ينتقموا، لأنهم أُوقفوا بسببي.(..) إنني أشعر بالعجز». غير أنها وعلى الرغم من كل شيء، لا تترك الكراهية والحقد يستوليان عليها، وتستمر في التصرف وفقاً لمعتقداتها. فبما أنها لم تكن تستطيع مثلاً دفع مرتب لموظف في حانوتها السنة الأولى، اضطرت إلى استخدام عاملة قيد التدريب «لأنها جاءت تستعطفها حقاً» لكنها «ضد هذه

الأساليب التي تتمثل في استخدام اليد العاملة الرخيصة». أما الدورات التدريبية، على اختلاف أسمائها، فتبعث الابتسام إلى شفتيها لأن «ما يسمى بالخطة الجديدة.. لا تؤدي عند الخروج إلا إلى وظائف زائفة» وقد كان شعورها هذا على أشده في علاقاتها مع المتدربة التي قبلتها «لم أكن أجرؤ حتى طلب أي شيء منها.. بما أنني ضد هذا، نظراً إلى أصولي.. إن هذا يؤلمني».

وهي ثابتة في اعتقادها بأن مرد العنف أسباب اجتماعية أو حتى سياسية، وليس مردّه أشخاصاً أو طبيعة هؤلاء الأشخاص. («عندما نحشر كل الحالات الاجتماعية في نفس المحلة، كل مشكلة أزمة السكن، زيادة على ذلك») وهي برفضها اعتبار الناس مسؤولين، تسعى من خلال تحليل نضالي للمدرسة وسوق العمل إلى زيادة وسائل تتيح لها فهم ما حصل لها أو تحمّله على الأقل.

مع صاحبة متجر

حديث مع غابرييل بالاز

«الحانوت.. لم يعد فيه شيء»

❖ ألم تمارسي التجارة من قبل؟

تيلليبه: آه كلا، لم أمارسها قط. وفوق ذلك، أنشأت تجارتي لوحدي، وفي حي ساخن جداً، ولا تسألي عن الصعوبات التي واجهتها، فهناك الكثير عما يمكن قوله. ومع ذلك فقد عملت عاماً ونصف، لأنني فتحت الحانوت في أيار 1989، وفي تشرين الأول 1990، لم يبقَ فيه شيء. لقد نهبوا كل شيء.. فكان حانوتي واحداً من المحلات التي نُهبت وأُحرقت. وقد بدؤوا به.

❖ .. هل كان رمزاً للرياضة، أم ماذا؟ هل كان رمزاً للأشياء المرغوبة؟

تيلليبه: .. أجل، إنها بضائع يتمنى الشبان الحصول عليها كثيراً.. وباستمرار، كان شباب يودون الحصول على هذه الأدوات دون أن يدفعوا. حقاً إن هذه الأدوات مرغوبة جداً. إذ يشاهد الكثير من الشباب بالألبسة الرياضية، ولم تعد هناك ألبسة مدنية تقريباً -إذا صح القول- إنه الجينز الآن أو البيجاما الرياضية وحذاء التنس. وهو الزي الذي يسعون إليه.. ثم إن تلك الأدوات تكلف غالياً حقاً، وليست في متناول إمكاناتهم المادية، وإذن..

◆ هناك فارق بين ما هو معروض هنا.. وبين إمكاناتهم. وإذن ظهر حانوتك كـ..

تيلليه: نعم، لقد نُظر إليه على أنه استفزاز، وحقاً لقد سطي على الحانوت ثلاث مرات: اثنتان مع الكسر، إذ دخلوا من السطح مرة ومن الحائط أخرى، لكنهم توقفوا في المرة الثالثة، وكان ذلك قبل.. لكنهم ألقوا على الحانوت كوكتيل مولوتوف.. وهذا شيء لم نره قط..

◆ وكل ذلك خلال سنة؟

تيلليه: أجل، خلال سنة، سنة ونصف. كوكتيل مولوتوف، لم نر شيئاً كهذا هنا. وكل ذلك بسبب بطاقة ائتمان سرقت وأوقفت وصودرت فحدث الانتقام من بعد. لقد كانت سنة قاسية جداً. وبما أنه ليس من طبعي السكوت على حقي أو الاستسلام فقد قاومت. وينبغي أن أقول بأنني لم أكن وحدي على الرغم من كل شيء، فقد تعاطف الزبائن معي، ولي معارف كثيرون منذ أن سكنت هذه المدينة. وإذن فلم يكن هناك سوى صغار الأوغاد لحسن الحظ. إلا أن ما حصل أدى ربما إلى توفز أعصابي، على الرغم من كل شيء، فلقد عانيت من كل هذا بما فيه الكفاية.

«كان المفروض التصرف من قبل»

◆ نعم، أعني أن ظروف العمل كانت صعبة بصورة خاصة. لكنك عندما قررت، كنت تعلمين.. فأنت تعرفين الناحية جيداً..

تيلليه: نعم، كنت أعلم. لكنني ما كنت أظن أنها على هذا القدر. ولم أظن أن الأمور ستكون بهذه القسوة، ثم إنه قبل هذه الفتن، حدث جديد هو أن الكثيرين من متعاطي المخدرات أخذوا يأتون، فأخطرت مفوضية الشرطة، وأخطرت المُنتخَبين أيضاً، فالجميع كانوا على علم، ولكنهم لم يعملوا شيئاً. وقد أخبرتهم أيضاً بأن أشياء ستحدث لأن المتاجر كصندوق الصدى، نعلم فيها كل شيء، كما كان يأتيني شباب لرؤيتي والحديث معي أكثر الأحيان، ونشأت بيننا علاقات لأنني أول ما عرفتهم في الملاعب الرياضية، وهو ما سهّل الحوار بيننا. وقد علمت أنهم ينقلون الحجارة إلى

البنايات، ويهيئون.. متاريس (..) والحق أنه كان من المفروض التصرف من قبل على كل حال، لأن ذلك كان متوقعاً. وتحدثت مع المحافظ بهذا الشأن، وقلت: إذا لم نفعل شيئاً حيال هؤلاء الشباب، فستكون العاقبة وخيمة. أنا مع تجديد الحي بالطبع، إلا أنه لا تكفي بضع ضربات بالفرشاة على البنايات لحل المشكلة. فما كنت أظن أن الدمار سيكون بهذه الضخامة.

❖ لقد مسّ الدمار كل المحلات التجارية هنا، حيث..

تيلليبيه: آه نعم،.. لكنها مسّت جميعاً بسبب الحريق.. أما المتاجر التي استُهدفت على وجه الخصوص فهي دكان المشروبات -فلقد استعملوا الزجاجات لكوكتيل مولوتوف، زجاجات الكحول- وحانوتي بالطبع، ثم محل النظارات الذي سرق منه الكثير، ثم دكان التبغ، والأحذية أيضاً، والمجمع التجاري الذي نهب.. إنها المتاجر جميعها، نُهبت ثم أُحرقت. ومن هنا أستطيع القول بأنني قدمت لهم معونة اجتماعية إذ ألبستهم مجاناً من رؤوسهم إلى أقدامهم، وكان عليك أن ترى بضائع الحانوت تباع بعد الحوادث جهاراً. وكانوا يعرفون.. إنه الجنون، أما عن الاستفزاز فطالما سمعته في الحي، لأنني أقوم بالمناوبات في المحل الذي وضع تحت تصرف التجار، كما أتجول في الحي كثيراً.

❖ وإذن فقد استطعتم الحصول على محل ثانية؟

تيلليبيه: محل مؤقت. لكنني لم أستطع استئناف عملي لأن تجارتي موسمية نوعاً ما، أي أنّ عليّ أن أطلب الأدوات الرياضية مقدماً، قبل ستة أشهر. أما الطلب الخفيف فيتم الآن. وإذن فقد استحال علي أن أنطلق هكذا بين عشيّة وضحاها.

(..)

(أخذت تعدد المساعي التي كان عليها القيام بها مع شركات التأمين للحصول على التعويض، وسلسلة المعاينات التي قام بها الخبراء، والمعاينات المضادة الضرورية من أجل تحديد المسؤوليات. وشرط الحصول على التعويض هو إعادة افتتاح المتجر في الحي نفسه)

«نداءات هاتفية من مجهول»

(رن جرس الهاتف، فبينت السيدة تيلليبه أنها ركبت جهاز إجابة آلي، لتحمي نفسها من النداءات الهاتفية المجهولة).

❖ إن هذا ينعكس في النهاية حتى على الحياة الخاصة.

تيلليبه: نعم، لقد حصل هذا في أعقاب الحوادث، لأنني تحدثت في التلفزيون باعتباري رئيسة لجنة الدفاع عن التجار، إلخ.. ولمّحت على الخصوص إلى أنه يجب فعل شيء مع هؤلاء الشبان. وقد فعلت هذا عمداً، لأن الحزم ضروري أحياناً، فقد كان هناك الكثير من التساهل.. والحوادث لم تنته واستمرت: سيارات محروقة، استفزازات في الحي، وقد تسلّح الناس -وما زالت المشكلات مستمرة (..) فمن النادر إذا ما تحدثت في الحي ألا أسمع كلاماً عن بندقية.. نعم، إنه التوتر.

❖ ومن هم؟ أهُم شباب، أهُم من السكان؟

تيلليبه: إنهم من كل الفئات.

❖ هل هم تجار؟

تيلليبه: من كل الشرائح: نعم، هناك تجار، ومن سكان الحي. وقد سمعت من مدة قريبة طلقات نارية لأن سيارة أحد السكان كانت تسرق. إن العاقبة وخيمة.. لأن المرض مزمن. وهناك منشآت بلدية سُطِي عليها. لقد تحدثت مع حراس للبنايات أمسوا مسنين الآن، ولا يعرفون القيام بعملهم. إذ يشاهدون أناساً يُشتمون، ولديهم أوامر بألا يتدخلوا.. فباسم عدم الاستفزاز، يُترك المسيئون يفعلون ما يشاؤون! تُرى إلى أي حد سيُتركون؟ هنا المشكلة. وهم الآن يشتمون الشرطة بسهولة، دون أي ردّ فعل.

«إنهم لا يستطيعون امتلاك كل الأشياء
الجميلة المعروضة أمامهم»

تيلليبه: لهذا قلت لك أنني كنت وحيدة مع الحانوت في هذا الحي الصعب. كان علي مواجهتهم ومراقبتهم، فهم زبائن، وهؤلاء الشباب الذين كانوا

يـأتون للسـرقة.. فزيادة عـن الكـلام والشـتائم، كـانوا عدوانيـين عدوانيـين جـداً. وحتى عندما لا تكون الشتائم فهو أسلوبهم الفظ.. وكل شيء من حقهم. إنهم لا يستطيعون امتـلاك كـل الأشـياء الجميلـة المعروضـة أمامـهم، إنـه مجتمـع الاستهلاك. حتى أنهم جاؤوا قبل اندلاع الحوادث ليسرقوني أمام عيني، وكانوا يفعلون ذلك خفية فأوقفتهم. لقد سرقت فردة حذاء كانت معروضة، فلم أنتبه إذ كيف يسرقون فردة واحدة! وعاد السارق من جديد يبحث في العلب عن الفردة الثانية. وهنا حدثت ملاسنة بيننا «ليس لديكِ الحق في النظر» وخرج ومعه الفردة الثانية، وكنت أمام الباب فدفعني. نظرت إلى طاولة العرض وفهمت كل شيء.. لهذا كنت متحفزة دائماً، ودائماً.. كنا نتساءل..

❖ لم يكن الوضع مريحاً؟

تيللييه: كلا، كلا، كلا، ودون الكلام عن الليالي التي لم أكن أنام فيها. فعندما دخلوا الحانوت مرتين في الثانية صباحاً، كانت توقظني الشركة المكلفة بالمراقبة «اذهبي إلى حانوتك بسرعة، إنهم يحطمون كل شيء» وكان ذلك يترك في نفسي أثراً غريباً.

❖ هل هناك شركة مراقبة مشتركة في..

تيللييه: نعم، لقد كان لدي اتصال فرعي مباشر مع مفوضية الشرطة. وعندما كنت أصل إلى الحانوت أجد الشرطة، والصبيان..

❖ إن هذا مثير للقلق نوعاً ما؟

تيللييه: أجل، فلم أعد أذوق طعماً للراحة وأنا أفكر دون انقطاع في الحانوت. وهذه لم تكن المشكلة الوحيدة لأن رقم المبيعات كان منخفضاً.. ولهذا فقد أمضيت تلك السنة..

❖ لقد كان الأمر أشد قسوة مما لو افتتحت حانوتك في جهة أخرى؟

تيللييه: نعم، نعم، بالتأكيد.

«إنه بؤس حقيقي»

تيللييه: عندما قدمنا عام 1967، لم تكن المنطقة قد بنيت بل كانت

أرضاً فضاءً بعيدة عن المدينة الكبيرة.. لقد كانت أشبه بالمستنقع. وأذكر أنني كنت أسمع الضفادع عند عودتي من التدريب. لقد كانت ريفية حقاً. وهي حتى الآن زراعية، إذ لا زال هناك مزارعون، و150 هكتاراً لزراعة الخضار(..) ثم بدأت المشكلات، كل المشكلات التي تولدها منطقة الإعمار ذات الأولوية (ZUP) مثل القدرة الشرائية والبطالة..إلخ وجاءت الأزمة الاقتصادية فعقّدت تلك المشكلات. وأنت لا ترين البؤس، لأن عليك الدخول إلى المساكن الشعبية، إلى الشقق، لترى كيف يعيش الناس. وباعتباري منتخَبة، كانت لي الفرصة..

◆ للذهاب إلى بيوت الناس، بيوت الآخرين؟

تيللييه: أجل، وقد اعترضت على بعض المصادرات..إلخ ينبغي أن ترَي ما في الداخل؛ لا شيء سوى طاولة ومَرتبة على الأرض. لم يعد الوضع الذي كان في مدن الصفيح التي عرفناها في الماضي، لكنه بؤس حقيقي، والموقد المسطح، وبعض علب الأطعمة المحفوظة على الطاولة.. إن البؤس لا يُرى حقاً، على عكس مدن الصفيح التي كنا نعرف ما فيها. لكن هنا بنايات..

◆ ثم إن الكثير من الناس يعيشون بالتأكيد على رواتب زهيدة، وهم الأغلبية. إلا أن هناك من يعيش على تعويض الاندماج[1]، وما يشبه ذلك.

تيللييه: هل تدركين المشكلة؟ إن قدموا للشباب العمل ذو النفع العام (TUC) بأجر 1900 فرنك شهرياً، وتعويض اندماج (RMI) ويقدر بـ 2000 فرنك شهرياً، فماذا يمكن أن تعملي بهذا؟ إنها لا تكفي حتى لدفع الكراء. لا، ولهذا السبب لابد من القيام بدراسات، وتجديد البنايات.. لكننا إذا لم نستأصل الداء من جذوره، فإننا نكتفي بذر الرماد في العيون، ولا نسوي أية مشكلة أبداً، طالما بقيت قدرة الناس الشرائية ضئيلة، وطالما فقد الشباب الأمل في المستقبل، وهذا مأساوي للشباب، أتدركين ذلك؟ إذ أنهم لا

---

[1] هو تعويض يعطى في فرنسا لمن دخل سوق العمل ولم يعمل بعد. بخلاف تعويض البطالة الذي يعطى لمن كان يعمل لستة أشهر على الأقل ثم سرح من عمله. – المترجم –.

يستطيعون الالتزام أو الزواج، ولا يدرون إذا ما كانوا سيحصلون على مهنة. لقد أفهموني عندما كنت أطالب بأن يكون للناس حق العمل وحق السكن بأنها طوباوية..إلخ حسناً، لم يكونوا يريدون الإنصات، وهم مستمرون في إغلاق المصانع. لقد رأيت بنفسك. استمعي إلى المذياع، كم من العمال سُرِّحوا في أيرفرانس وفي أمكنة أخرى! إنهم يستمرون في إغلاق المصانع؛ فكيف يمكن للعائلات أن تعيش حياة لائقة. إذ طالما استمرت المشكلات المالية، فكل شيء يفسد ويتدهور. وهناك المدرسة أيضاً؛ فهل المحتوى والبرامج المدرسية متلائمة مع ما ينتظره الشباب منها الآن.. إن ابنتي تقول لي: «أنت تدفعين بي للدراسة يا أمي، غير أنني سأذهب في النهاية لتسجيل اسمي في الوكالة الوطنية للتشغيل (ANEP)» وتتابع قائلة: «سأحاول الحصول على شهادتي ومن ثم أرى ما سيكون» إذ هي لا تريد قضاء أربعة أعوام في الدراسة وهي تعرف بأن لا وظيفة لها.. أذكر أنني حينما انتُخبت شعرت بالإحباط.. فكم استقبلت من شبان، في كل وقت، مستعدين للعمل بأي أجر حتى في كنس الملاعب. كانوا يطلبون مني وظيفة في البلدية، حتى لو اضطروا لحراسة الملاعب أو كنس قاعة الجمباز، مع أنهم من حملة الشهادات، إن هذا جنون. وذلك كل ما كنا نقترحه على هؤلاء الشبان فليس بوسعي حتى تعيينهم، لكثرة طلبات العمل..

(..)

(تستذكر السيدة تيلليه تجربتها في المجلس البلدي التي مثلت تدريباً ميدانياً -«ليست هناك مدرسة للمُنتَخَبين»- وماذا عن المتاعب التي سببتها لها «حياتها السياسية»: -«من الصعب علي أن أجد وظيفة، لأن اسمي مؤشر عليه باللون الأحمر»)

«إنني في الضباب حقاً»

❖ هل لديك النية بعد أن تسوى الأمور، أن تقيمي الحانوت في جهة أخرى؟

تيلليه: كلا، سأترك التجارة.

(..)

❖ إنك ترين مستقبلك في الواقع.. ضبابياً؟

تيلليه: إنني أراه أكثر من ضبابي، إنني حقاً في الضباب.

❖ بما أنك قررت عدم استئناف التجارة، مع اضطرارك لاستئنافها من أجل التعويضات، فهل ترين أن التجارة ليست هي الحل بالنسبة إليك؟ وهل هي تجربة أقل خصوبة من تجربة المنتَخَب مثلاً..

تيلليه: آه نعم، إنه الشيء نفسه دائماً. ومن يقول لي بأنني أتجه هذه الآونة للتجارة، فأنا لن أعود إليها، لكنني لا أجد خياراً آخر. وهنا سأكون بصورة آلية مضطرة، لأنني أجد نفسي في وضع لم أعد أستطيع معه الاختيار.(..) فعندما لا يكون لدى الإنسان شهادة جامعية، عليه أن يعمل الضعف.. وليست لي شهادة جامعية ولا ثقافة..

❖ نعم، فقد وجب عليكِ بالفعل، إذا فهمتُ قصدك جيداً، أن تكافحي على جميع الصُعُد؟

تيلليه: هو ما تقولين، بصورة كلية.

آذار 1991

غابرييل بالاز

إعادة الاعتبار

السيد حسين واحد من أقدم المستأجرين في الحي. وقد توجب إخلاء البناية التي يسكن فيها، والواقعة قرب المتاجر التي أحرقت، ليعاد طلاؤها بعد ذلك. قدِم السيد حسين إلى الناحية في السبعينيات. وهو عامل مؤهل في السكك الحديدية التونسية، وابن عامل في السكك الحديدية أيضاً. وقد عمل سائقاً عشر سنين قبل أن يهاجر إلى فرنسا، ويقبل وظيفة عامل مختص على سلسلة التركيب في منشأة لإنتاج الشاحنات. ونظراً لأنه لم يحصل على الوظيفة التي تؤهله لها شهادة الكفاءة المهنية في التسوية والتركيب بالإضافة إلى سنة دراسية في الرسم الصناعي، فقد ترك المنشأة، وعثر بوساطة صديق تونسي، على وظيفة مراقب آلات في منشأة للصناعات الكيميائية. وعندئذ غادر البيت الذي كان يقيم فيه والمخصص للمهاجرين، وجاء للاستقرار في الحي.

وقد بدا له الحصول على مسكن في هذا الحي أعجوبة في ذلك الوقت. إذ يدين بالفضل في الحصول على الشقة التي غيرت مجرى حياته إلى الرئيس الفخري لنادي كرة القدم الذي كان يتدرب فيه؛ فسيكون بإمكانه الزواج واستقدام زوجته.. وهي معلمة تونسية (بعد إنجاب ثلاثة أولاد، سيحصل على مسكن أكبر قليلاً). أخذ الحي في التدهور خلال الثمانينيات،

إذ كان وضع المستأجرين الجدد حرجاً، نظراً لأن أكثرهم عاطلون عن العمل. ولم يكن أمام السيدة حسين إلا إبقاء أولادها في البيت للحفاظ عليهم من العنف السائد في الحي، وهي تتمنى الرحيل إلى مكان «أكثر هدوءاً». لكن زوجها اعترض على الرحيل، معتبراً أن التنكر للتضامن هو التنكر لنفسه، ولهذا انهمك في تغيير المكان، بادئاً بالدفاع المتأني عن المستأجرين، ثم مراقبة الصيانة والأعباء التي تقوم بها شركة السكن المعتدل الكراء (HLM) (وقد عرض أثناء اللقاء ملفات مفصلة عن الفواتير المفرطة للمصابيح والماء..)، وأخذ في مدّ يد المساعدة للمستأجرين في كل مساعيهم (شرح أثناء اللقاء لجارة مسنة حائرة جاءت تستشيره، كيف تسوّي مشكلتها مع الشركة). وكان يحاول الدفاع خصوصاً عن الصورة الحسنة للحي في مواجهة صورة الغيتو التي تميل إلى فرض نفسها. وقد عرض لنا أثناء اللقاء الملف الصحافي الذي كوّنه منذ الأحداث، محللاً هذا الملف تحليلاً متأنياً، وحافظاً فيه الرسائل التي بعث بها إلى إحدى القنوات التلفزيونية، ويحتج فيها على الطريقة التي تكلمتْ بها عن سكان الحي. وجَعلَنا نقرأ الرسالة التي كتبها للصحفي المسؤول عن برنامج تلفزيوني، وجواب هذا الصحفي. وسواء تعلق الأمر بمجرد فاتورة أم بإعادة الاعتبار في الحي أم بمصير كل واحد من المستأجرين أم بالعلاقات مع البلدية الشيوعية -التي يساندها- أم العلاقات مع وسائل الإعلام، فإن حسيناً يعتبر نفسه الناطق باسم هوية عمالية مهددة. ومن الواضح أنه يرمي من وراء صيانة الحي وحسن مظهره، إلى النضال في سبيل وعي مدني ضائع. فأقدميّته في الحي، ومؤهلاته كعامل، وموقفه المنزّه عن الغرض (حاولت شركة السكن «شراءه» إذ اقترحت عليه إعادة إسكانه بشكل أفضل في جهة أخرى). كل ذلك يجعل منه مناضلاً لا غبار عليه.

وهو يناضل على كل الجبهات: يناضل لإعادة الاعتبار إلى صورة الحي، ويناضل في عمله للدفاع عن كرامته (ترك عمله فجأة على إثر مشاجرة مع زميل عاملَه بعنصرية) ويناضل في حياته الخاصة بالتضحية

من أجل أسرته التي يسودها التفاهم والتربية الحازمة (حضرت زوجته جانباً من اللقاء، أما أولاده فجاؤوا هنيهة إلى الصالون، وقد بدا عليهم احترام صامت وانتباه لكلام والدهم). وهو في نضاله ذاك يستهدف الحفاظ على صورة له أو استعادة تلك الصورة.

إن الغاية من هذا المسعى المقصود لإعادة تربية سكان الحي، هو العودة إلى صورة طبقة عمالية أكثر تضامناً، كتلك التي عايشها في نهاية الستينيات ضمن أحد المراكز الصناعية الكبرى، وبالتالي إعادة الاعتبار لصورة المهاجرين في فرنسا الذين لا يتعين عليهم أن يكونوا بمنأى عن كل مؤاخذة وحسب، بل مثاليين.

مع مستأجر في المساكن الشعبية (HLM)

حديث مع غابرييل بالاز

❖ لقد كنتم من الأوائل هنا، ولذا تعرفون بعضكم بعضاً بشكل أفضل..

حسين: نعم، الأوائل. وقد كان المحيط جيداً، (..) «فإن كانت لديك مشكلة، أنا هنا» أترين؟

❖ هل كان يقدم الجميع خدمات لبعضهم البعض أيضاً؟

حسين: هو ذاك، الجميع يقدمون خدمات، ولا أدري ما حدث من بعد؛ فلقد بدأ الفرنسيون بالرحيل، وجاء العرب، أي أبناء جِلدتي. انتظري، سنعود إلى الغيتو، لأننا لسنا الذين خلقنا الغيتو، إنها الحكومة في المقام الأول ثم المحافظة فالشركة التي تُسكننا ثم البلدية. لقد تحدثت مع رئيس البلدية (الشيوعي) ولم يأت ذلك منه بل من الشركة.

❖ لقد بدأ الفرنسيون بالرحيل بعد ذلك؟

حسين: نعم، منذ أن... هناك مهاجرون من العرب فضلوا الشراء، ولو عرفتُ ما سيحدث لفعلتُ مثلهم، ولكنني قلت: «سأبقى هنا خمس سنوات أخرى ثم أعود إلى وطني» ولكن الإنسان لا يستطيع التنبّؤ بالمستقبل.

❖ هل اشتروا؟ أولئك الذي رحلوا، من أجل شراء منازل أو شقق..

حسين: اشتروا فيلات، وبدأ الناس بالرحيل، ويحل محلهم إخواننا ثم آسيويون وفيتناميون، وأخذ الوضع يتعفن، إذ لم يعد كالسابق..

❖ ألم تكن بينكم نفس الروح، والتضامن؟

حسين: الروح نفسها بيننا، وكل منا منزوٍ في بيته. أعني أنه حتى عندما يسمع شيئاً. إنني أفضل عدم التدخل في شؤونهم.

(قدمت جارة عجوز لاستشارة ممثل المستأجرين)

لقد رحل المستأجرون القدامى

❖ قلتَ إن الناس تغيروا..

حسين: لقد تغيروا تماماً، فقد ذهب القدامى، وهناك جدد. ولا يمكن عقد صداقة معهم بسرعة إذ يجب التعرف عليهم (..) لقد حاولنا عند قدومهم، لكن هناك أناس لم يكونوا يريدون التحدث مع أحد. وقبل أشغال إعادة الاعتبار، لاحظنا الكثير من القذارة، فهم يرمون بأكياس القمامة من الطابق الثامن والسابع والسادس، فتدخلت ولكن برفق «اسمعوا من فضلكم، نحن نعيش في حي سكني ونظيف، وتحت تصرفكم شاحنة، وآلة على عتبة بابكم ترمون فيها قذارتكم» لكن لا حياة لمن تنادي. وجاءت أشغال إعادة الاعتبار في هذا الوقت؛ فقال لي الجار: «سنعمل لجنة» قلت: «نعم».

❖ من هنا انطلقت لجنة المستأجرين..

حسين: أجل، لأن الشركة تلاعبت بنا حقاً. فالعائلات الكبيرة تدفع ثمن كميات الماء الساخن والماء البارد الإضافية من 4000 إلى 5000 فرنك.

❖ وهل كانت الكراءات معقولة حينئذ؟

حسين: لقد كانت معقولة لاسيما مع التعويضات، إذ كنا ندفع قبل أشغال إعادة الاعتبار 570 فرنكاً للكراء وأكثر منها بقليل للأعباء. أما الآن فندفع أكثر من 4000 فرنك. لقد نهبونا تماماً. تصوري أنهم وضعوا في حساب الأعباء استهلاك 500 مصباح كهربائي في السنة لثلاثة ممرات و94

مستأجراً (..) فقلت عندئذ: «الوسيلة الوحيدة هي تأسيس لجنة للمستأجرين». أؤكد لك أنني ما وددت أن أتحمل كل تلك المشكلات، وقلت: «اعملوا اللجنة وأنا معكم وسأساعدكم». ودعونا المستأجرين كما دعونا: «الاتحاد الوطني للمستأجرين» وجاء منهم عدد كبير وعيّنوني رئيساً للّجنة. فاعترضت قائلاً: «اسمعوا، فأنا لست في هذا الميدان أولاً، وثانياً ليس لدي وقت لمثل هذه المهمة؛ فإذا أردتم مساعدة مني فأنا هنا، لكنني لا أريد هذا المنصب ولا أستطيع البقاء» لكنهم ألحّوا وألح الاتحاد الوطني للمستأجرين قائلين: «أنت الوحيد القادر على القيام بهذه المهمة»

السيدة حسين: لكن مصروفات الشركة طبيعية، بسبب التلف والأشياء التي يحرقها الأطفال الذين يعبثون ويكسرون المصابيح، وهناك مصاريف أخرى، فلا ينبغي القول، مع ذلك.

حسين: أجل، هناك مصاريف، لكنهم رابحون دائماً.

❖ وهل ارتفعت الكراءات منذ تلك الفترة؟

حسين: لقد رفعوها قبل دخول التعويضات حيز التنفيذ، وقبل الانتهاء من الأشغال (..) فقدمنا عريضة بيّنا فيها اللجنة، كما شرحت لك، بما فيها الرئيس والأمين ومعاون الأمين، وأمين الصندوق. وهكذا كنا ثمانية أشخاص، أما الآن فنحن اثنان. وعلى الرغم من هذا نقوم بعملنا.

❖ وهل وَهَن عزم من كانوا معكم..

حسين: أجل، فهناك الكثير من العمل بالإضافة إلى سوء التفاهم بين المستأجرين، فقلت على الفور: من يريد العمل فليعمل، وإذا لم يُرِد، فأنا لا أستطيع.

❖ ومتى حصل سوء التفاهم بين المستأجرين؟

حسين: عندما قدِم مستأجرون جدد، وحصلت تلك الزيادة في الكراء؛ كانت تجري في تلك الآونة أشغال إعادة الاعتبار، فتدخلتُ من أجل تجديد شقق بعض المستأجرين التي تستحق ذلك وجدّدوها. بعدها جاؤوا إلي قائلين: «سنعمل من أجلك شيئاً، سنعمل العتبة وكل شيء» فأجبتهم:

«لا، فأنا لا أستحق، اعملوه لمن هم في حاجة إليه، أما أنا فلا بأس بي في بيتي» لأنني عندما دخلته، كان مقززاً، فأصلحت كل شيء. وقلت: «لا تعملوه لي، اعملوا ما هو ضروري كما فعلتم مع الآخرين.. مثل كل الناس. وجدّدوا الشقق التي تحتاج ذلك، فبعض الشقق متعفنة فعلاً.. وعليكم فعل ذلك، ليس لي، فأنا على ما يرام هنا» وكنت أراقبهم. صنعوا الأبواب بناءً على اتفاق بين الحكومة والشركة، وحمّلونا 4000 فرنك، عوضاً عن 2375 فرنكاً ككلفة للأبواب «صان سوسي» ومعناه (دون همّ).

❖ وما تكون تلك الأبواب؟

حسين: إنها أبواب مصفّحة (..) لقد تدخلتُ وصحتُ متجاوزاً الحدود. وفي النهاية عادوا (..) ثم عرفتُ أن هناك اتفاقاً بين الشركة والمديرية الجهوية للتجهيز. فتحدثتُ إلى رئيس البلدية قائلاً: «لست بحاجة إلى وجع الرأس، لقد سئمت» فرد رئيس البلدية (الشيوعي) قائلاً: «لا، يا حسين، أقدِم وإن واجهتك مشكلة فأنا من ورائك» وبهذا فقد شجّعني. وعندما جاء الآخرون، بدأ الفرنسيون بالرحيل، انظري إلى السيدة (التي مرّت) فهي سترحل عن قريب!

❖ نعم، إنها نموذج، مع أنها تقيم هنا من مدة طويلة، منذ 1982..

حسين: إنها هنا منذ بناء الحي. وإن دعوتها وهي ذات الـ 87 عاماً على ما أظن فإنها ستخبرك. أنا حساس، ولأن الإنسان لا يعيش إلا مرة واحدة على هذه الأرض، ينبغي عليه دائماً فعل (..) ليس لأنها فرنسية، بل حتى لو كانت غريبة أو يهودية فسأعمل الشيء نفسه. لقد مرضتْ ومع أن لها بنات وأبناء، إلا أن أحداً لم يأتِ لرؤيتها، وأنا الذي كنت أصعد إليها قبل ذهابي للعمل وأحضر لها الفطور في سريرها وأعطيها الدواء ثم أغلق وأعطي المفاتيح لزوجتي لتصعد الثامنة صباحاً للاطمئنان. وهي هنا وبوسعها أن تقول لك..

❖ هل تعيش لوحدها منذ بناء الحي؟

حسين: أجل، كانت تعيش المسكينة من قبل.. لكنها فقدت زوجها،

وهي الآن وحيدة تماماً. ولهذا أود أن أقول.. إننا هنا الآن، أما في الغد فيمكن.. ألا نكون. يمكن لها أن تخبرك، لقد كان التفاهم تاماً بين القدماء، أما بين الجدد، فلا.

«لم يعد الوضع كالسابق»

❖ من بين الذين يرحلون، كما تقول، الفرنسيون كالسيدة التي جاءت قبل قليل، فهل وجدت سكناً في جهة أخرى، وهل الناس يسعون للرحيل؟

حسين: أجل، إن الناس يسعون للرحيل، لأن الوضع لم يعد كالسابق. أقول لك، إن كل إنسان منطوٍ على نفسه، لأننا نشاهد كثيراً من الشرور. إنك تشاهدين شخصاً يكسر أو يوسخ ولا تجرئين على التدخل (..) فمنذ وجود إحدى العائلات هنا، لم تعد عائلة واحدة بل اثنتان، ثلاث عائلات لطّخت سمعة 94 مستأجراً. لقد تدخلتُ وذهبتُ لرؤيتهم، وأعطيتهم درساً في الأخلاق «لقد رأيناكم وأنتم تولدون، فلماذا تفعلون هذه الأشياء؟ إذا ما أردتم فعلها، فأنا لا أمنعكم من ذلك، لكن افعلوها بعيداً عن هنا» ونسمع منبهات السيارات في الواحدة أو الثانية صباحاً. إنه ملتقى للمخدرات هنا.

❖ وهل هذا يزعج الجميع؟

حسين: بالطبع، إنه يزعج الجميع، اسمعي، أنت في بيتك وقد يأتي صديق لزيارتك وعندما يذهب، ماذا سيقول؟ سيقول إنه ليس هنا إلا العرب، ويجد القذارة والفوضى فيقول: «انظر إلى العرب كيف يعيشون».

❖ إنه يُدين الجميع هكذا؟

حسين: أجل، لأنه يرى (..) إنه سيشمل الجميع قائلاً: «إنهم متماثلون جميعاً» أترين؟ لقد حاولت بكل وسيلة وقلت إن علي أن أصيح قليلاً. وذهبت لرؤية الأهل لأقول لهم إنهم معنيون بالأمر «اسمعوا، افعلوا شيئاً، فإذا لم تتحركوا، أنتم الآباء، فمن سيتحرك!» إنه وضع غير عادي. إن لدي ثلاثة أولاد، وإن أتى واحد منهم بشيء ثمين أقول: «من أين لك هذا؟» وأقول للآباء الذين يصمتون ولا يحركون ساكناً «حسناً، افعلوا شيئاً، إن لديكم أولاداً يتعين

عليكم تربيتهم، فلا يجب تركهم هكذا بل مراقبتهم وإعطاؤهم تربية حسنة» أجابني أحد الآباء: «اسمع، أنت تعلم، الجيل الجديد..» فقلت: «لا، إنه ليس الجيل الجديد، وأنا لا أدين الأولاد، ولا أُدين الأطفال أبداً، بل أُدينكم أنتم، فأنتم المسؤولون الوحيدون، لأنكم لو تشدّدتم مع أولادكم منذ البداية، لاستطعتم التساهل معهم في كبرهم، وبهذا سيعرفون كيف يتصرفون في حياتهم». فتفهّم بعض الآباء، وقال لي آخرون: «اسمع، إن هذا لا يعنيك، إنه..» تلك هي المشكلة.. إن ما أريد قوله هو أننا لسنا نحن العرب الذين خلقنا الغيتو بل الشركة، ولا أريد اتهام المحافظة ولا البلدية لأن لكل منهما نسبة من الشقق هنا. لأن كل ما أرادته الشركة هو جلب الأموال. عندما كنت في تونس، لم يكن يكرى للناس هكذا، إذ لا بد من الاستعلام عن الشخص قبل إسكانه كما بينت عدة مرات في الاجتماعات: «اسمعوا، عندما تريدون إسكان أحد ما، فلست ضد هذا، بل على العكس لأنني في الوضع نفسه. فأنا من الطبقة العاملة. لكن عليكم التحري عنه على الأقل، فلدينا ما يكفي من المشكلات..». (..) إن أغلبية الفرنسيين يرحلون، وماذا تضعون مكانهم؟ تضعون عرَباً. وإذن فأنتم الذين خلقتم الغيتو، وبعد ذلك تقولون: «إن الحي غيتو». إنه ليس غيتو، بل أنتم خلقتموه بأيديكم. لا ينبغي اتهام العرب، فالعيش ممكن مع العرب، لكنكم أنتم الذين خلقتموه، وكلما حدث شيء «إنهم العرب» «وحتى حادث تافه سيذكر في الجريدة «مغاربي، مغاربي!» لكن عندما يرتكبه فرنسي أو أوروبي، لا يذكره أحد» ومع أن فرنسا بلد ديمقراطي يمكن التحدث فيه بصراحة، فقد كادت أن تحصل لي مشكلات حتى مع الصحافة؛ لأنهم لم يقبلوا صراحتي، لم يقبلوا، أعني..

❖ لم يقبلوا الاستماع؟

حسين: أجل، لم يقبلوا الاستماع. ومع هذا فلا زلنا هنا، ندافع عن المستأجرين، ونمنع الذين يتقولون على المهاجرين الأقاويل. لأن المقصود بالمهاجرين، ليس الإسبان ولا البرتغاليين ولا الأتراك.. بل المغاربيين. إنهم التونسيون والجزائريون والمغاربيون! وقد حدث مؤخراً أن شخصاً من الاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية (UDF) قال: «نعم، المهاجرون..»

فقلت له: «أيها السيد، المهاجرون، لكن قبل التلفظ بهذه الكلمة «المهاجرون» قل لي من تقصد؟» (..) وكدنا نشتبك أمام رئيس البلدية، وفي النهاية قلت: «اسمع ما أقوله لك، عندما نكون في اجتماع المرة القادمة، فزِن كلماتك، ولا ينبغي استعمال اسم «المهاجرين» بعد الآن». جاءني بعد نهاية الاجتماع قائلاً: «سيد حسين، اسمح لي» فأجبته: «لا سماح بما لا يمكن السماح به. لقد تناقشنا حول المائدة المستديرة، أما الآن، فلم أركَ ولا عرفتك، وأنت لا تعرفني حتى». مرات كثيرة، اشتبكت معهم.

❖ نعم، اشتبكت في كثير من الأحيان مع..

حسين: نعم، إنها القصة نفسها. أؤكد لك أن المسألة تعنيني! فما الجزائري أو التونسي أو المغربي إلا عربي، ومهاجر مثلي. لماذا كنتم بحاجة إليهم في الماضي وجلبتوهم من أوطانهم، والآن بعدما بنوا لكم فرنسا، وجدّدوها، لم تعودوا بحاجة إليهم؟ إن على الإنسان أن يكون منطقياً. إنني أعتذر يا سيدتي، فلا أريد أن أكون فظّاً، لكنها صراحتي. وأنا هكذا، أنا هكذا. إنني لا أجرؤ أحياناً عندما أكون في اجتماع، لكنني ما إن أسمع «مهاجرين» حتى يفلت مني الزمام. فماذا لديك أكثر مني أو لدي أكثر منك؟ سيدتي، إننا جميعاً من بني الإنسان، ويجب علينا التعاون في الحياة التي نعيشها الآن، كما نتعاون في الأزمة القاسية الراهنة، حيث يستطيع الغني أن يساعد الفقير، ويستطيع رقيق الحال مساعدة الفقير، وهكذا.

(يذكر بعض التعليقات عن الوضع في العالم الثالث وحرب الخليج)

❖ عندما قدمت السيدة من أجل مسكنها، كنت تقول إن شركة المساكن هنا، عرضت عليك الرحيل إلى مسكن آخر، وأنك لم ترِد الرحيل؟

حسين: لم أرِد الرحيل، لم أرِد الرحيل، لأنني هنا منذ 1972، ووُلد أولادي هنا. وسأبدأ هناك من جديد وكأنني غريب.

❖ نعم، هو ذاك، إذ سيكون عليك البداية من الصفر في جهة أخرى.

السيدة حسين: أنا شخصياً، أود الرحيل.

حسين: هي، كانت تريد الرحيل.

❖ إلى أين كنت تريدين الرحيل؟

السيدة حسين: إلى مكان هادئ، هذا ما كنت أبحث عنه. إنني أبحث عن مكان هادئ حقاً..

❖ هل أنت متضايقة هنا؟

السيدة حسين: لا أعني بأنني متضايقة، بل الوضع خليط الآن. لست عنصرية، لكن الأمر زاد عن الحد.. ليس كالسابق. فكل جيراننا السابقين رحلوا، ولم نعد مطمئنين بالتالي، كهذه السنة التي ذهبنا فيها إلى تونس، فحاولوا تسلق الجدران (..)

❖ ألستم مطمئنين؟

السيدة حسين: كلا، وأولادي لا يخرجون أبداً؛ فهم دائماً في البيت، مطلقاً لا يخرجون..

حسين: هذا صحيح لأنني لا أود لهم أن يخالطوا.

❖ لكن، ألا يقومون بمناشط في الخارج؟

حسين: بلى، هناك مناشط.. لا أدري.. يستطيعون الذهاب، حسناً، لقد ذهبوا أحد أيام الأربعاء[1] في عطلة ثلجية، لكننا إن تركناهم يذهبون فسيضطرون إلى مخالطة أقرانهم بالطبع.

❖ نعم، وأنتم لا تريدون هذا؟

حسين: إنني أحاول، وليس هذا ما لا أريده، إنني أحاول لأن التربية ضرورية، فأول المهمات التربية. ينبغي أن نقول للأولاد: «هذا وذاك؛ لا ينبغي فعل هذا حتى لو فعله أحد معكم، ولا ينبغي الرد عليه، يجب فعل..» وإذن فنحن نُفهِم الأولاد، لكننا إذا ما تركناهم يخرجون كل يوم أثناء هذه العطلة ومخالطة الآخرين، فما الذي سيحصل؟ إنهم سيتأثرون. إنني أقول لهم أحياناً أن ينزلوا قليلاً، لكنهم يقولون لا. هم الذين يقولون لا، لأن لا شيء ينقصهم، فلديهم كل شيء.

---

[1] يوم الأربعاء. عطلة لدى تلاميذ المدارس في فرنسا. - المترجم -.

السيدة حسين: أراد مؤخراً (مشيرة إلى أحد أبنائها) حاسوباً فاشتريناه له.

حسين: نعم، لديه كل شيء.

السيدة حسين: (ابتسامة) الصغار، لديهم لعبهم.

«إن نجاحي الوحيد هو في دراسة أبنائنا»

◆ في أية مدرسة هم؟

السيدة حسين: اثنان في الإعدادية: الأصغر في الصف السادس والكبير في التاسع. أما الصغير فهو مقابلنا، فعند خروجه أراقبه من الشرفة حتى يدخل المدرسة، أراقبه عندما يدخل (..)

◆ وهل تعرفون ما سيفعلون بعد الإعدادية، بعد الصف التاسع؟

السيدة حسين: حسناً، سيتابع الكبير دروسه، إنه يريد أن يصير قائد طائرة، ولا أدري إن كان سيبقى على عزمه. أما الثاني فيواصل دراسته وليست لديه فكرة بعد.

◆ هل يريد الذهاب إلى الثانوية، بعد الإعدادية؟

السيدة حسين: نعم، إلى الثانوية بالطبع.

حسين: إلى الثانوية، فلدينا تونسيون مجتهدون مع ذلك. هناك عائلة يسكنون قبالتنا تماماً، ابنتهم في العاشر..

السيدة حسين: في الجامعة، وهي في السنة الثانية، فوق ذلك.

حسين: في السنة الثانية. أعرف تونسياً أيضاً (..) وهو في السنة الثالثة من الكلية.

◆ نعم، إنهم يدرسون جيداً.

السيدة حسين: أجل، وهم أناس طيبون.. هادئون.. هناك ست أسر أو سبع من التونسيين.

حسين: لسنا كثيرين هنا، نحن ست عائلات تونسية ونتفاهم جيداً

فيما بيننا. وهناك جزائريون، حسناً، نتفاهم جيداً، لكن يوجد شيء من الحذر دائماً!

السيدة حسين: ليست طباعنا واحدة، وهذا ليس من العنصرية.. ليس من العنصرية، لكن ليس لدينا نفس.. لا أدري (سكوت)

حسين: إذا رأيت ابني يفعل شيئاً، فأنا أود أن تخبرني، ولكنني حينما أرى شخصاً يرتكب ابنه حماقة وأخبره بذلك يقول: «إن ابني قديس!» ولهذا لا أريد الدخول في مشكلات. وأريد أن يكون أبنائي معي، وأعرف مع من يلعبون، أقول: «اسمع، لا أعبأ بمخالطتك خارج البيت، لكن انتبه واحذر من الأصدقاء والصديقات. وعندما تتجاوز عتبة البيت فلا أصدقاء ولا صديقات، وأنا لا أعرف أحداً. اختر أصدقاءك في الخارج فأنت كبير بما فيه الكفاية وليس لديك الكثير من الاختيارات. فاختر أصدقاءك وبوسعك الانتقاء بعد ذلك».

(..)

إنني أعمل وأحرم نفسي، وهي أيضاً تحرم نفسها، أما الأولاد فليسوا محرومين من شيء. إنني أقول: «خذ وهات، فإن نجاحي الوحيد هو أن تنجحوا في دراستكم وحسب، وأنا لا أريد منكم شيئاً، لا أريد منكم شيئاً، لأنكم عندما تكبرون.. كلا، كلا، لا أريد منكم شيئاً البتة. كلا، تدبّروا أمر أنفسكم عندما تكبرون ويكون لكم مستقبلكم؛ ستقيمون أسرة مثلي، وهكذا دواليك، والشيء الوحيد الذي أريده هو أن تنجحوا في دراستكم» وأقول: «إنني الآن لا أهتم، إذ أستطيع العيش براتبي التقاعدي الصغير، لكنه مستقبلكم، وما زلتم فتياناً والحياة أمامكم، ينبغي السعي إلى.. فليست هذه سنوات الأربعينيات والخمسينيات، ولم يعد الوضع نفسه».

(..)

إن المشكلة بالنسبة للأحداث التي وقعت هنا، أنها لم تكن من فعل شباب الحي. إنهم شباب كانوا يريدون التشويش على رئيس البلدية (..) وقد عرفنا فيما بعد أنها الجبهة الوطنية، أترين، إنه اليمين المتطرف الذي

كان يريد التشويش على المسكين. وقد فاجأت ثلاثة أوروبيين مع آلة للتصوير، هنا في الزاوية بالضبط. على بعد ثلاثة أمتار..

السيدة حسين: إنهم صحافيون، فماذا يريدون؟ إنهم يريدون فضائح وما أشبه ذلك، فهو جزء من عملهم.

حسين: إذن، هي مؤامرة، مؤامرة.

(انقطاع ناجم عن زيارة إحدى الجارات، ومناقشة وجيزة حول عطلة الأطفال، والتربية)

❖ ألم تعودوا تفكرون، بعد دخول الأولاد للمدرسة، بالذهاب إلى تونس والعمل هناك؟

حسين: كلا.

❖ تفكرون الآن بأنكم هنا.

حسين: نحن هنا، وأنا الآن في الخمسين، والبدء من جديد هناك، إنه.. ولديّ أولاد، كنت في السابق أعزب ولا أعبأ بشيء، لكن لدي الآن مسؤوليات وواجبي القيام بها إلى النهاية، أي القيام بالتضحيات، في سبيل من؟ ليس من أجلي، بل من أجلهم، لأنني المسؤول الوحيد. فليست الحكومة هي المسؤولة عنهم بل أنا المسؤول الأول. وإذن فأنا أضحي بكل شيء من أجلهم، وعندما يبلغون رشدهم سيفعلون مثلي. وعندما نتحدث أحياناً على المائدة، أقول: «اسمعوا، أنتم لا تفعلون ما أفعله الآن، لأنني مأمور كما ترون. وترون عندما أستيقظ صباحاً وأعود مساءً، فلا أريد أن تكونوا مأمورين مثلي، عليكم بلوغ الغاية. واعملوا كل ما بوسعكم ولديكم الوقت» إنهم يعلمون على الأقل بأن «لا شيء ينقصكم لأنه من الممكن أن ينقصني نوعاً ما، لكنكم لا ينقصكم شيء الآن، وكل شيء في متناولكم، فاسعوا ألا تكونوا مأمورين من الآخرين».

❖ أليست لديك رغبة في أن يكون لهم نفس العمل الذي تعمله وتتلقى فيه..

حسين: هي ذي، الأوامر.

(يروي السيد حسين الحادثة العنصرية التي قادته إلى ترك عمله في المصنع والذي شغله منذ عشر سنين لكي يعمل بالوكالة. وهو ما يتيح له تجنب المواجهة المستمرة مع زملائه؛ نظراً لأن شركة الأعمال بالوكالة عرضت على السيد حسين وظيفة في مدينة أخرى)

❖ هل كنتم تفضلون البقاء؟

حسين: البقاء هنا، لقد اعتدت على البقاء هنا. لكن العنصريين، يا سيدتي، يقولون إن فرنسا للفرنسيين، ونحن، من نحن؟ وماذا كنا من قبل؟ لقد كنا نعيش مع الفرنسيين ونسكن معهم، ونذهب إلى المدرسة معهم، وكنا جيراناً. وأنا شخصياً لم أترك فرنسا ولم أتنكر لها قط. إن فرنسا وطني الثاني. وأنا معترف بجميلها كما ترين. أتمنى يوماً من كل قلبي أن نجلس هكذا ونتناقش. ومع أن مستوى ثقافتهم أعلى من مستواي إلا أنني أستطيع أن أواجههم وأقول لهم رأيي. لكن من الصعب الوصول إلى ذلك.

(يستذكر السيد حسين عدم وفاء الصحفيين بالتزاماتهم تجاه سكان الحي، إذ لم يكفهم أنهم أنجزوا تقريرهم مع إقصاء سكان الحي الذين كانوا مستعدين مع ذلك للمشاركة فيه، بل زادوا على ذلك أنهم اختصروا مدته إلى سبع دقائق عوضاً عن ساعة، وعرضوه في وقت أكثر من متواضع، ملحقاً بحصة أخرى خصصت لطلاب الثانويات)

«كل ما يقولونه عن الضواحي»

حسين: نحن نفكر بالشباب عادة، وهذا طبيعي. لكن ينبغي أيضاً التفكير بالمدينة كلها، في ضاحية بأجمعها.. أما الشباب فلديهم الوقت. لكن، نظراً لأن الصحفي كلف نفسه عناء المجيء وهو الذي اقترح علينا.. هناك أشخاص تركوا مشاغلهم وجاؤوا لرؤيته.. وفي النهاية، انظروا ما فعل.. لقد أمسكت به وقلت: «أنت، أنت تُعلّم الناس، وفرنسا كلها والعالم بأجمعه تقريباً. وتجرؤ على القول إن الحي هو حي – مهجع؟ ماذا يعني حي – مهجع؟ غيتو حي – مهجع..»

❖ ما هذا؟

حسين: بالضبط، ما هذا؟ قلت له: «ما هذا؟» فأجابني: «لقد سمعت من زملاء آخرين» فقلت: «لا، اسمع، لقد رأيتك وسمعتك، وأنت أول من يقوله» وتابعت: «إذ في وقت الأحداث، لم يكن أحد قاله بعد، فأنت أول من تلفظ بهذه الكلمة، غيتو حي – مهجع».

❖ وهل هذا يقدم صورة سيئة للمدينة..

حسين: أجل، صورة سيئة. وقلت له مع ذلك: «لقد عشت (..) هنا، ولا ينبغي أن تكون لك عن الحي صورة سيئة» وأجابني: «لا يا سيد حسين، أؤكد لك أنني استمعت..» قلت له: «اسمع يا سيدي مع احترامي، إن ما تقولونه أنت وزملاؤك خبر كاذب، أما الحقيقة فتخفونها. وأعلم أنكم من أجل ملء ورقة، ينبغي عليكم أن تزيدوا قليلا وتعقدوا الصورة لتعقيد القضية. وأنا لا ألومكم، بل ألوم من يشرفون عليكم. ومنذ ذلك اليوم» ومع ذلك فأنا متعاطف معه، أؤكد لك، لكن منذ اليوم الذي قال ذلك فيه..

❖ ولكن هل ترى بأن برامج التلفزيون لعبت دورا سيئا؟

حسين: أجل، أجل، لقد قدمت أخبارا كاذبة.

❖ ألم ير السكان في هذه البرامج مصداقا لأوضاعهم؟

حسين: إنهم لم يروا أوضاعهم في هذه البرامج. لا، لأن كل ما قيل عن الضواحي وما جرى فيها باطل. (..) كان هناك شباب من حينا أثناء الأحداث، لكن الأكثرية جاءت من الخارج لرؤية ما يجري. وعندما رأوا الحوانيت، دخلوا وفعلوا ما فعلوا.. لكن لو رأيت ذلك اليوم -لقد كنت هنا- شيء لا يمكنك تخيله.. وكأنها المجاعة، إذ كانوا يهجمون على كل شيء مثل..

❖ كأنهم كانوا محرومين من كل شيء و..

حسين: بالضبط، لقد كان المجمع التجاري يحترق، ومع أنه كان مشتعلا؛ دخلوا وخرجوا بعربات مملوءة.. بأدوات التدخين والمشروبات والسجائر. لكنك لا تستطيعين تخيل ذلك بل لا بد من رؤيته. وبعد ذلك انتشرت النيران فاضطررت لإخراج كل الأطفال من (..) ومن البنايات كلها و..

❖ ألم يكن يشعر الأطفال بالخطر عندئذ؟

حسين: لكن هناك حتى من الكبار والعائلات، جاؤوا جميعاً بسياراتهم وأخذوا يضعون فيها. ولما أخذت النيران بالانتشار، اضطررت لإخلاء الممر 7 والممر 8 لأن الرياح أخذت تدفع بالنيران إلى ذلك الاتجاه.. لقد أخليت الجميع، ولم يبق أحد. وصعدت لأتأكد بنفسي، وكان المصعد معطلاً وكل شيء معطلاً. وزيادة على هذا كان رجال الأمن يلقون بالقنابل المسيلة للدموع من الجهة المقابلة. لقد عشنا بعد ظهر جهنمياً، وبقينا نسمع صوت الانفجارات حتى المساء.. وأنا لم أكن أخاف من تلك الأشياء فاندفعت.. ولم يكن طبيب أو ما شابه. لقد كان بوسعهم فعل الكثير، فعل الكثير (..)

❖ وهل استفادت الجبهة الوطنية من الأحداث بعد ذلك؟

حسين: كلا، بل على العكس.. لأنني رأيت عندما حرقوا حانوت السجائر في اليوم التالي، شبابنا يحفظون النظام هنا. رأيتهم جميعاً وهم يقيمون الحواجز لمنع السيارات من الدخول، وتسهيل مهمة رجال الإطفاء وحتى الشرطة. إنهم هم الذين حافظوا على النظام وليسو من أحرق. لكن انظري إلى الصحافة، لِمَ لم تكتب؟ لأن لدي كل شيء (يُخرج أوراقاً) لدي كل شيء هنا..

❖ هل جمعت ملفاً للصحافة؟

حسين: أجل، أجل، لأنهم لا ينشرون الحقيقة، خذي، فالحقيقة لا ينشرونها. إنها موجودة. انظري.

«رسالة مفتوحة من سكان الحي
إلى صحفي في التلفزيون»

بغية التحضير للبرنامج المخصص للحي يوم 6 تشرين الثاني، وعند لقائنا معكم، قدمتم لنا هدف برنامجكم وقواعده، وذكرتم بأنه لن ينجز إذا لم تتوافر كل الشروط. وضمن هذا الإطار، كنا مستعدين للمشاركة فيه لأنه يتيح التعبير لسكان الحيّ، وبمقدوره الإسهام في تحسين صورة الحي،

وقدمنا إليكم آراءنا وملاحظاتنا فأخذتم علماً بها. وبعد أسبوع تم الاتصال ببعض السكان ثانية خارج القواعد المذكورة. ونظمت مأدبة عند إحدى العائلات وجرت مناقشة بحضوركم. إن هذا الموقف والاقتراح الذي تقدمتم به غير مقبولَين. ثم تم إعلامنا بأن البرنامج ألغي. ونحن نتفهّم وجود ظروف قد أملت الإلغاء ولا نلومكم عليه. ولكن كم كانت دهشتنا عندما علمنا بأن برنامجاً مخصصاً لحركات طلاب الثانويات سيترك حيزاً صغيراً لحينا. إن في هذا قلة نزاهة بعد مناقشتنا الثرية؛ إذ كيف تعتقدون بأن سبع دقائق، في غياب سكان المدينة وممثليها تكفي للحديث بجدية عن حينا؟ وعلاوة على ذلك، فما من ساكن منا أو حتى من الشباب، الذين اجتهدوا للقائكم مساء سبت للتعبير عن أنفسهم، قد اتُّصل به ثانية من أجل هذا البرنامج، كما أنكم لم تنقلوا أية كلمة مما قلناه. وفي هذا انعدام تام للاحترام، إننا نحتفظ من هذه التجربة بشعور بالخديعة، ولذا نسحب منكم كل ثقة. ويبقى لنا أمل في أن ينجز برنامج نزيه عن حينا في المستقبل، نتمناه من كل قلوبنا، لكننا سنعمله بدونكم.

ممثلو مجلس الحي ولجنة المستأجرين

رد الصحفي

باعتباري صحفياً مكلفاً بالمجلات، فلقد تأثرت للرسالة التي بعثتم بها إلي. وأحرص هنا على شكركم لاهتمامكم الخاص الذي أوليتموه للتحضير لبرنامجنا. لكن المناقشة لم تعرض لأسباب خارجة عن إرادتنا للأسف. وبالفعل، فكما علمتم ولا شك من الصحافة المكتوبة، فإن السيد جاك لانج، وزير الثقافة والاتصال، الذي كان من المفروض أن يلتقي سكان حيّكم، اعتذر في اليوم نفسه الذي قمنا فيه بمعاينتنا الثانية. وقد اقتضت الأحداث أن نوجه موضوع برنامجنا إلى مشكلة طلاب الثانويات مع إعطاء الأحداث التي جرت في حيكم مكاناً. وأود أن أبين أيضاً أن ثلاثة ممثلين عن حيّكم كانوا حاضرين في الاستوديو، وأن تقريراً تم إنجازه عن مدينتكم وسكانها. مع كل أسفي (..).

باتريك شامبانيه

الاختلاف الأخير

يتيح موقع حراس البنايات الخاص لهم نقل تجربة أغلبية مستأجري المساكن الشعبية (HLM) في الأحياء «ذات المشكلات» في صورتها الأكثر حدة. إذ أنهم أول من يعاني في الواقع من الحوادث أو المآسي التي تميز حياة هذه الأحياء (مستأجرون وتجار يغتاظون من حوادث السطو المتكررة، فيطلقون النار على الشباب. «تجاوزات» الشرطة عند المراقبة، نهب الحوانيت.. إلخ). ونظراً لأنهم مكلفون بصيانة البنايات، فإنهم لا ينقطعون عن التنظيف وعن إصلاح التلف الواقع عليها، هذا إذا لم تقع عليهم بعض الحالات اعتداءات جسمية، وأعمال انتقامية توجه للسيارات أو الشقق. وهم بخلاف الأعوان الاجتماعيين الآخرين العاملين في هذه الأحياء (كالمربين والمعلمين ورجال الشرطة والمساعدات الاجتماعيات، إلخ) ليس بوسعهم أن ينقطعوا ولو مؤقتاً عن هذا الوضع المنهك غالباً -يتكلم أحد الحراس الذين استجوبناهم عن «التوتّر النفسي»- لأنهم يعيشون في موقع عملهم، وقد يستدعيهم السكان في أية ساعة من الليل والنهار. ولذا فهم لصيقون بهذه المناطق أكثر من سكانها، وأملهم الوحيد الذي ما فتئ يخيب هو أن يستجاب طلبهم للانتقال إلى حي أكثر هدوءاً.

ريموند ت. حارس أنهكه العمل في حي للمساكن المعتدلة الكراء (HLM). استقبلني دون تكلف وهو بملابس العمل الزرقاء الذي يرتديها عادة أثناء عمله مع زوجته بإزارها الرمادي التي ترتديه في العادة أيضاً (إنها تعمل أيضاً لدى مكتب السكن المعتدل الكراء) والتي كانت تتدخل في الحوار من وقت لآخر للموافقة على كلام زوجها أو لتقديم المزيد من الإيضاح. يسكنان شقة فسيحة لكنها معتمة شيئاً ما، تقع في الطابق الأول من بناية تابعة لمجمع ضخم في ضاحية سنسميها فيلنوف، بُني على طراز المجمعات التي كانت تُبنى في السبعينيات؛ الصالون مزدحم بأثاث بسيط مؤلف من طاولة وكراسٍ وخزانة بواجهة زجاجية تظهر من خلالها رفوف مثقلة بتحف وعرائس، عُرض أكثرها بالتغليف الأصلي، بينما عُلق على الحائط رأس وعل من البلاستيك. وكنا نسمع زقزقات العصافير الكثيرة الموجودة في قفص كبير موضوعٍ في زاوية من المطبخ بالقرب من الشرفة الصغيرة المملوءة بالنباتات والزهر.

وإذا كان ريموند ت. قد استطاع أن يحدثني دون انفعال، وببرود يشبه البرود الموضوعي لأي مُخبِر، بما يحدث يومياً في هذا الحي، فذلك لأنه غريب عنه شيئاً ما. إذ جاء إلى هنا، تقوده المصادفة في الواقع؛ باعتبار أن هذا المجمع الضخم ليس إلا مكان عمل وحسب بالنسبة له. فما أن تحل نهاية الأسبوع أو العطلة السنوية حتى تجده في الطريق والمقطورة مربوطة إلى سيارته، للقاء «الطبيعة» كما يقول و«غناء الطيور». أي لقاء ما يذكّره بجذوره الريفية. فهو متحدّر فعلاً من مدينة صغيرة تقع بالقرب من ديجون. كانت أمه مريضة، أما أبوه فعلى الرغم من انه «لم يكن في المدرسة، كما هي الحال هذه الأيام» إلا أنه اكتسب لوحده «ثقافة ضخمة»، وكان يعمل رئيس عمال في منشرة للأخشاب. توقف ريموند عن الدراسة في الثالثة عشرة من عمره «دون أية ثقافة» لأنه لم يكن «يميل إلى المدرسة» كما يقول هو نفسه، وبدأ العمل مبكراً كحمال. (له أخت بقيت في الناحية، متزوجة من نجار بناء، توقفت عن العمل بعدما عملت لبعض الوقت رئيسة عمال في منشأة للتنظيف) وزوجة ريموند من منطقة زوجها نفسها، تركت المدرسة في سن

مبكرة أيضاً. متحدّرة من بيئة شديدة التواضع: إذ كان والداها حطابَين. ولها أخَوان؛ أحدهما جصّاص - دهان والآخر عامل صيانة في أحد القصور. كان عمر ريموند 25 عاماً عندما وجد أن عمله كحمال متعب جداً وقليل الأجر؛ فقرر مغادرة منطقته الأصلية قاصداً مدينة إقليمية كبيرة، حيث عمل نجار بناء طوال تسع سنين، لكنه اضطر لتغيير مهنته بعد حادث خطير (سقط من علو عدة أمتار، نتيجة لانهيار صقالة) أدى إلى إعاقته بنسبة 50٪، فبحث عندئذ عن عمل «أقل تعباً». وقد وجد له بائع منتجات مزارع -«يعرف الجميع» في الحي- وظيفة الحارس التي يشغلها الآن. وهو مكلف بصيانة البنايات (إصلاح المرائب، وعمل بعض اللحام وبعض الطلاء..إلخ) أما زوجته التي لم تكن بحاجة إلى العمل في الماضي، فتقوم بتنظيف المرافق الداخلية (الأدراج والعتبات) ويقدم مكتب (HLM) لهما السكن مجاناً بالإضافة إلى 10000 فرنك راتباً شهرياً.

إن ريموند الذي أمضى حياة شاقة، ويعتبر نفسه محظوظاً لحصوله على هذه الوظيفة، ينظر بشيء من التسامح والتفهم لهؤلاء الشباب الذين يشاطرهم شيئاً من سوء الحظ. أما موقف الحارسين الآخرين في فيلنوف فهو أقل «تفهّماً» لأسباب أهمها أنهما يعملان في الحي الذي ولدا فيه. ويبدو ذلك في الطريقة التي يعبران بها؛ فهي أقل موضوعية ويظهر من خلالها سخط شديد: إذ هما يشعران أنهما في بيتهما، ويدافعان عن «حيّهما» ضد «الأجانب» الذين جاؤوا لغزوهم.

جرى اللقاء في بيت تييري س الذي لم يصبح حارساً في هذا الجزء المتدهور من منطقة الإعمار ذات الأولوية (ZUP)، إلا منذ أشهر. وعلى كل، فقد كان يسكن دائماً في مجمع كبير من نفس الطراز يقع على مقربة، ويعرف بالتالي معرفة جيدة حياة هذا الحي الذي يعتبره حيّه نوعاً ما. اتصل به رئيس مشروع في هذا القطاع للإجابة على أسئلتنا، فطلب من كريستيان ت. وهو حارس آخر في الحي،أقدم منه بقليل، الاشتراك في المناقشة. أما سيلفي، زوجة تييري التي تستخدمها (HLM) مؤقتاً لمساعدة

المستأجرين، وجلّهم من المهاجرين المتحدّرين من أصل مغاربي أو إفريقي، في ملء الملفات الخاصة بعملية إعادة الاعتبار الجارية، فقد انضمت من تلقاء نفسها إلى المناقشة. وقد أدى الوضع الجماعي الذي خُلق هكذا إلى تحويل الحوار تدريجياً إلى محادثة صريحة غلب عليها الحماس، رأينا فيها وجهة نظر سيلفي تختلف بصورة ملحوظة عن وجهة نظر زوجها.

يتقاسم كريستيان وتييري النظرة نفسها للأمور، كما أن ردود الأفعال لديهما متقاربة؛ فكلاهما شعبي الأصل وينتميان إلى عائلات عانت من المصائب والمحن (وفاة والدة أحدهما المبكرة، وحادث عمل خطير لوالد الثاني). وقد صار كل منهما بطريقته الخاصة حارساً بدافع من الحاجة. غير أنهما يحبان حيّهما، ويحبان هذه الضاحية التي كبرا فيها ولم يغادراها قط. ويعتبران عملهما محبّباً؛ الأول يحب عمله لأنه ليس مجهداً كثيراً، والثاني يحبه لأنه يتيح رؤية الناس: «يعجبني هذا العمل، لأننا نتحدث مع الناس وأنا في الخارج دائماً (..) ويتصادف أن نعقد علاقات جيدة». والشقتان الوظيفيتان اللتان يسكنانهما تشكلان ميزة أساسية نظراً لمواردهما. وكان من الممكن أن يعيشا في «هناء» لو لم تصبح الحياة في هذه الأحياء لا تطاق. وباختصار فإنهما يحتملان بصعوبة التدهور المستمر لهذه المناطق التي يتعلقان بها ماضياً وحاضراً. إلا أن اختلافات ضئيلة في الأقوال تفرق بينهما، ومبدأ هذه الاختلافات يكمن في أنهما لا يتحدران من الشرائح الشعبية نفسها، كما أن مساريهما خلال المجتمع ليسا متماثلين. فكريستيان قصير القامة، مستدير الوجه، ذو شعر طويل مشعث، يميل للسمنة. كان يبلغ الخامسة والثلاثين حين لقائنا به، وقد عرف البؤس في حياته. وهو يدين الشباب لكن يتفهّمهم، إذ أنهم يماثلونه في فقره وضياعه عندما كان في مثل سنّهم. ومن هنا فثيابه كثياب وغد سابق، مؤلفة من سترة جلدية سوداء وسروال بيجاما رياضية أسود أيضاً، مهترئ وتنقصه النظافة قليلاً. ينتمي لعائلة من خمسة أبناء، لم تكن حياتهم سهلة إلا نادراً. كانت أمه «عاملة خدمة» في مدرسة للأطفال المعاقين. أما أبوه البالغ من العمر 70 عاماً الآن، فكان عاملاً في ترميم الطرق، إلا أنه توقف عن العمل منذ 20 عاماً بسبب

حادث نجم عن سيارة مسروقة، فاضطربت الحياة العائلية أيما اضطراب بسبب هذه المأساة: فقد وضع كريستيان مع إخوته وأخواته بوساطة المعونة العمومية، لبعض الوقت، في عائلة لتؤويهم (مزارعون من المنطقة) لأن والدتهم لم تكن تستطيع التكفل بهم، وصادر المحضرون الجزء الأكبر من الأثاث. غادر كريستيان المدرسة من دون شهادة في السادسة عشرة من عمره، ليعمل حمّالاً في البداية لمدة عامين ثم قام بأعمال متنوعة في البناء لعشر سنوات قبل متابعة دورة حصل منها على شهادة سائق آلية. وعثر على وظيفة، لكنه سُرّح منها بعد سنة لأن المنشأة أُغلقت لأسباب اقتصادية. وبما أنه لم يعد قادراً على دفع الكراء، فقد عرض عليه مكتب (HLM) وظيفة حارس. ومع أنه ما يزال أعزب، إلا أن علاقاته مع أفراد أسرته سيئة جداً، باعتبار أنهم مصدر للمشكلات أكثر منهم مصدر نفع للآخرين. وهو متكفل بوالديه العاجزين، بينما علاقاته معكّرة مع اثنين من إخوته، ويحتفظ بعلاقات متقطّعة مع أخ دهان عاطل عن العمل، وأخت تدير «نزلاً – مطعماً» في محافظة الأرديش («وضعها جيد» كما يقول). أما تييري وعمره 38 عاماً، فيبدو ميالاً أكثر للقمع الفوري تقريباً، ولا يظهر استعداداً للشفقة على هؤلاء الشباب الذين يعتبرهم المسؤولين بصورة رئيسية عن المشكلات التي يعانون منها. إنه أكبر إخوته الثمانية، متحدر من بيئة شعبية. وقد فُجعت أسرته بقسوة من وفاة الوالدة مبكراً. ولم يستطع الإفلات من التدني الاجتماعي إلا بوساطة صرامة أخلاقية يدين بها للتربية الأبوية وتظهر في هيئته التي يبدو عليها. هو نحيل ذو شعر قصير مصفف بعناية، وشارب صغير مقصوص باهتمام، يرتدي ملابس تنمّ عن ذوق رياضي، مؤلفة من سروال جينز وقميص لا غبار عليهما. ويروي كيف أن أباه، وهو سائق سيارة شاحنة، سعى عند ترمّله بكل وسيلة إلى «ترتيب حياة القبيلة على أحسن ما يكون»؛ فالبنات حصلن على شهادة الكفاءة المهنية في الخياطة ونجحن في الخلاص تقريباً بزواجهن على الأغلب: فواحدة تدير مطعماً في بيزييه، والأخرى تشرف على محل للملابس في غاليري لافاييت، والثالثة عاملة في مخبر صيدلاني. أما مسار الأولاد فكان أكثر وعورة. إذ بعدما وضعوا صغاراً كمتدربين لدى تجار على مقربة (خبّاز،

جزار) فإن إخوته الأربعة تركوا تلك المهن بعد خدمتهم العسكرية لأنها لم ترقْ لهم، وأصبحوا سائقين لسيارات الوزن الثقيل مثل أبيهم أو أمناء مخزن. وترك تييري المدرسة مبكراً في الخامسة عشرة من عمره، ليشتغل أعمالاً صغيرة قبل أن يصبح بدوره سائق شاحنة مدة عشر سنوات. وترك العمل أيضاً في الخامسة والثلاثين من عمره لأنه: «سئم من توقيت العمل» ليعثر على وظيفة حارس ملعب. وبما أنه كان يبحث عن مسكن أوسع، عرض مكتب (HLM) عليه، وظيفة حارس في هذا القطاع الصعب بالإضافة إلى الشقة التي يشغلها الآن. أما زوجته سيلفي التي تعرّف عليها في حفلة راقصة فتنتمي إلى بيئة أرقى قليلاً من بيئته؛ فلها أخ معلم وآخر مدرب رجبي كأبيه، وهي تحمل شهادة الكفاءة المهنية في المحاسبة، وحصلت من خلال برنامج التكوين المتواصل على شهادة في الإعلام الآلي، لكنها لم تعثر على عمل في هذا الميدان؛ ولذا تقوم الآن ببعض الأعمال الصغيرة «وتأخذ الموجود» أي ساعات للتنظيف في إحدى الثانويات.

ولأن تييري يدين بنجاحه في الخلاص دون شك إلى سلوك أخلاقي حازم، شكل حاجزاً دون سقوطه اجتماعياً، فإنه يميل إلى الرد بشدة على سلوك شبان الحي، ويتبنى حلولاً قمعية نتيجة الغيظ الذي يشعر به ويمكن تفهّمه، إذ كيف يمكن له أن يتساهل مع هذه العصابات من الصبيان، وجلهم مغاربيون، وهم يفرضون عليه قانونهم في «حيه»؟ ولِمَ لا يستعمل طريقة حاسمة (التطويق من قبل رجال الأمن) أثبتت جدارتها، وعانى منها عندما كان طفلاً، في اضطرابات مماثلة؟

إلا أن سيلفي نظراً لكونها أماً، تجنح إلى تسامح أكثر حيال الصبيان، باعتبارها تلقت تربية أقل حزماً من زوجها. ومع أنها تعترف عن طيبة خاطر بأن الأمر ليس سهلاً، إلا أنها تميل إلى الحوار مع الشبان والتحدث إليهم. وترى بأن الإقناع أجدى من القمع بشرط أن يجتهد الإنسان في وضع نفسه مكانهم «ضع نفسك مع ذلك مكان هؤلاء الشبان -تقول لزوجها- فهم يعرفون على كل حال بأنه لن يكون أمامهم شيء.. وملجؤهم الوحيد هو

العنف، ليس العنف لفعل الشر، بل إنه بالأحرى صرخة استغاثة معناها «احذروا، نحن هنا، نحن موجودون». ويرجع هذا الموقف إلى ما تتصف به سيلفي من مميزات اجتماعية (لاسيما أهمية محصولها الثقافي النسبية) تشبه مميزات العاملين في الحقل الاجتماعي، وأيضاً إلى ماضيها النضالي «في اليسار» (فقد انتسبت في الماضي إلى «الشباب العمالي المسيحي» ثم لـ «الشبيبة الشيوعية» لبعض الوقت) ومع ذلك تُشتَّتُ لديها بعض الحيرة، إذ أضحت روحها النضالية بدون مذهب ولا يقين. ثم إن الأزمة الاقتصادية التي تمنعها من الوصول إلى مركز مهني يتناسب مع تكوينها وطموحاتها، تدفعها، لا سيما بعد انهيار الشيوعية كواقع وأمل، إلى رفض السياسة برمتها. وبدافع من حيرتها تلك، تتمترس هي أيضاً خلف الأخلاق، فالأحزاب السياسية كلها تثير فيها الاشمئزاز، لأن هذه الأحزاب تريد «تلقين الأخلاق للآخرين» بينما «تعج بالمخالفات القانونية».

إن هؤلاء الحراس نموذجيون، حتى في تناقضاتهم، فما كان وجودهم في الحي عن اختيار، بل لضرورة اقتصادية أو إدارية، على غرار أكثر السكان: إنهم لا يستطيعون أو لا يريدون الذهاب إلى جهة أخرى، وينبغي عليهم البقاء في هذه المناطق التي يدفع كل شيء فيها إلى المجابهة والسقوط الجماعي والإعانة الاجتماعية. ومسيرتهم الاجتماعية لا تؤهلهم إلا قليلاً إلى فهم الشكل العنيف والمدمر أحياناً الذي قد تتخذه ثورة هؤلاء الشباب أو قبول هذا الشكل على الأقل. وباعتبارهم من أصل شعبي فلا ينبغي عليهم النزول أكثر عن تربية قاسية بل جلفة ولا عن الاختزال الشديد لآمالهم واحتياجاتهم، أي باختصار عن الجهود التي كان عليهم بذلها للحفاظ على أنفسهم أو الخلاص. وإذن فليس بوسعهم الحكم على هؤلاء الشباب إلا من وجهة نظر أخلاقية في الأساس «يوجد الكثير من التساهل»، «ينبغي وضع من لا يريدون السير باستقامة في السجن، وهذا كل شيء»، إلخ.. وهم يعتقدون أن البطالة ليست إلا ذريعة سيئة للتبطل. «كل الأعمال تتعبهم، لكنهم (لا يتعبون) من الذهاب للسرقة»، «ينبغي القول

إن من يريد العمل يستطيع العثور عليه» إلخ والسرقات ما هي إلا فدية للحياة الطفيلية: «إنهم لا يعملون، بل لا يعيشون إلا من.. السطو». وتبدو لهم تطلعات الشباب للاستهلاك مبالَغاً فيها، بالمقارنة مع التطلعات التي كانت لهم، والتطلعات التي يجب على الشباب أن يفرضوها على أنفسهم اليوم: «إنهم لا يعرفون القناعة»، «يجب إعطاؤهم كل شيء، ولا يرضون مع ذلك»، «ليس لديهم إلا -نريد هذا، نريد هذا، نريد هذا-». أما عن «التخريب» والمخدرات فهما نتيجة مباشرة لتخلي الآباء: «إن الصبيان هنا، يفعلون ما يشاؤون، والآباء يتركونهم يفعلون». ومع ذلك فإنهم لا يجهلون الأسباب الحقيقية لهذا الوضع لأنهم عانوا منها أيضاً: إذ يعلمون أن البطالة ترمي بثقلها على هؤلاء الشباب بطريقة من المرجح أنها أكثر حدة مما كان يحدث لهم. ويعترفون عن طيب خاطر بأن هذه السلوكات المنحرفة ترجع في الكثير منها إلى الوضع المختل الذي خلقته الهجرة -لاسيما التجميع في الأحياء- وقاد إلى انهيار السلطة الأبوية. ويعلمون أيضاً أن الدعاية في التلفزيون وفي كل مكان، بالإضافة إلى تعميم افتتاح الأسواق الكبرى (بالتزام قانوني) حتى في قلب الأحياء الفقيرة، قد عَدَّلَ من تطلعات هؤلاء الشباب. إنهم يعرفون كل ذلك ولكن كلامهم يوحي بأنهم لا يودون معرفته حقاً لأنهم يخشون ربما أن يؤدي الكثير من الفهم إلى التماس العذر لسلوكات يحكمون بأنها مرفوضة أخلاقياً. وهكذا عندما استحضر أحد الحراس زيارة رياضيين من إحدى الدول الشرقية إلى المنطقة، تأسف لأنه تم اصطحابهم إلى إحدى الأسواق الكبرى، بسبب ما قد يؤدي إليه ذلك من رغبات غير مشبعة؛ ناسياً أن السرقات أو حتى نهب الأسواق الكبرى الموجودة، في حيهم نفسه، تخضع في جزء كبير منها إلى منطق مشابه.

إن رفض (البيض المساكين) لهؤلاء الشباب -من التبسيط اعتبار هذا الرفض من «العنصرية»- رفض قوي بصورة خاصة، يمكن التثبت منه خلال الحوار، على الرغم من التحفظ الذي أظهره من شملهم التحقيق. إذ كان الحراس كثيراً ما يتركون بعض الجمل معلّقة حتى لا يجازفوا بقول بعض

الكلمات الموسومة التي تصدم من يحاورهم: «لا يمكنهم الاندماج هنا، أليس كذلك؟ لأنهم..»، «هناك الكثير منهم.. يعيشون في..»، «إن الدولة ليست.. كفاية» إلخ، وبخلاف الطبقات الاجتماعية الأكثر يسراً، الذين يستطيعون الرحيل حينما يصبح الوضع غير محتمل لهم، فإن رد فعل هؤلاء «البيض الصغار» يزداد عنفاً لكونهم حكم عليهم بالبقاء. إنهم يشعرون بأن هؤلاء الناس الذين جاؤوا من بعدهم يتحدّونهم، ويقبلون بصعوبة تحمل موقفهم العدائي ومخالفاتهم المتنوعة دون احتجاج. ويشهدون بغضب مكتوم رحيل «الأفضل» من المستأجرين («إن الفرنسيين الحقيقيين، حسناً، قد رحلوا»). وعلى الرغم من الجهود المخلصة التي بذلوها جميعاً لمساعدة هؤلاء الشباب، إلا أنهم لا يستطيعون حقاً فهم الشعور بالظلم الذي هو في مبدأ سلوكاتهم المنحرفة. إذ كيف لهم أن يتخيلوا مفارقة شعور هؤلاء الشباب بأنهم فرنسيون أكثر من فرنسيي الأصل؟ وعلى خلاف المهاجرين الذين قدموا إلى فرنسا منذ ثلاثين عاماً والذين بقوا في موضعهم على الرغم من بؤسهم، دون مطالبة بأي شيء، حاملين للبلد الذي استقبلهم كل عرفان وامتنان، فإن أولادهم الذين عاشوا في فرنسا دائماً، يودون أن يُعتبروا كالفرنسيين («عندما يُعطَون شيئاً، فليس لديهم عرفان بالجميل» يقول أحد الحراس مندهشاً) ويقبلون بصعوبة متزايدة التهميش الذي يخضعون له.

هنا يكمن ولا شك أحد أسس الجاذبية القوية - المحسوسة حتى درجة إنكار الحقوق («لست مع الديكتاتورية، إلا أنه ينبغي تقديم مثال جيد») لتلك الأفكار السياسية التي تشيد بأسلوب القوة، وطرد هؤلاء «الأجانب» الذين لا يحسنون البقاء في موضعهم، أو الأسوأ من ذلك، يظنون بأنهم في وطنهم حيثما حلّوا. تلك الجاذبية التي يقع العمال والتجار الصغار تحت تأثيرها.

مع حراس سكن شعبي (HLM)

حديث مع باتريك شامبانيه

«سأنتخب لوبان، فذلك سيدخل الرعب في قلوبهم»

❖ أنتم تسكنون هنا منذ..

كريستيان: لقد ولدت هنا، في فيلنوف عام 1956 وعشت هنا دائماً، ولا أعني أنني لم أخرج قط..

❖ ومتى بُني الحي؟

كريستيان: حسناً، هناك بنايات أُنشئت منذ أكثر من 20 عاماً. وأعتقد أنهم بدؤوا عام 1964، عندما بدأ المعمرون يصلون من الجزائر. وكان لهم، لأنهم كانوا تحت الخيام عند وصولهم إلى المنطقة، ولم تكن هناك شقق فبدأ مكتب (HLM) ببناء الشقق هنا. وأذكر أنني كنت طفلاً عندما بدؤوا يركّبون تلك البنايات. كانوا يركّبونها بوساطة سكك حديد. كانت عبارة عن بلاطات، وكلما بنوا طابقاً يضعون سككاً ويزلقون البلاطات، والعمل يجري سريعاً. لم يكن في ذلك الزمان سوى المعمرين، وكان التفاهم بينهم سائداً هنا. وبعد ذلك أخذ الأمر..(..) لأن أفاضل الناس سئموا ورحلوا. فكيف يمكن أن تعيش هنا؟ إن الناس مكدسون في الشقق هنا؛ الشقة التي فوق شقتي وهي مثلها، ثلاث غرف وفيها 9 أطفال وهم 11 شخصاً، وفوقهم 12

شخصاً. والأولاد يفعلون ما يشاؤون هنا، ويتركهم الآباء يفعلون. أما في القبو، تحت، فهم لا يتوقفون مع الدراجات النارية، يصلحونها حتى الثانية صباحاً، يعملون في الممرات ويفرغون الزيت فيها ثم يتركونه هناك.. إنه الغائط حقاً. ويبقون أحياناً حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً في الخارج. كان الوضع في الماضي جيداً هنا، إذ كان الأطفال أقل.. والفوضى أقل.. لا بد أن نقول إن الحياة تتطور، أليس كذلك؟ قيل في وقت ما إنه ينبغي إعادة إيجار الشقق هنا، فوضعوا من أرادوا.(..) جاءت عائلات جزائرية في نفس الوقت الذي جاء فيه المعمرون، أترى؟ لكنهم لم يغادروا مساكنهم، وبقوا هنا دائماً. فهي ليست عائلات تضايق الآخرين. وتوجد مساكن تابعة للمحافظة وأخرى للبلدية، لكن المحافظة وضعت في المساكن التي تملكها من تريد، أي عائلات غير مرغوب بها، أخرجت من حيث تسكن ووضعت هنا.

تييري: من تحمل حقاً هذه العائلات غير المرغوب بها؟ إنها فيلنوف. فقد لاحظوا في إدارة المساكن أن الوضع يتدهور وأن المساكن شاغرة، وفكروا في جلب الأموال عن طريق استقدام الناس إلى فيلنوف، واستقدموا الناس، وكبر الأطفال الآن وغدوا مزعجين.

❖ من أية بيئة هؤلاء الناس؟ وهل يعملون؟

تييري: نعم، أكثريتهم، الآباء يعملون. لأن أكثرية الآباء جاؤوا في 1953-1954 وكانوا يعملون دائماً، أما الآن فهم متقاعدون، والأم لم تعمل قط. أما الأبناء الكبار فعاطلون عن العمل ولا يعثرون على عمل. فماذا يعملون إذن؟ يسرقون السيارات أو يسطون، ويتعاطون المخدرات. والشباب يعرف بعضهم بعضاً في جميع الأحياء، وإذا أرادوا الاجتماع في مكان ما، فلا وسيلة لمنعهم.

❖ في أي وقت بدأ التدهور؟

كريستيان: حسناً، لقد بدأ هنا في 1981. كان الوضع جحيماً ولا نستطيع النوم، إذ كانت تُسرق سيارة كل خمس دقائق.. بالإضافة إلى طلقات البنادق. وكانوا يخلعون أبواب المرائب بوساطة السيارات المسروقة، ويقومون

بسباق السيارات في الشوارع، فكنت ترى صبياناً في الثالثة عشرة يقودون BMW، بل كنت لا ترى إلا جزة شعر، وجرَوا على فعل السخافات، فسئم الشرطة من كل هذا ولم يعودوا يأتون، وأخذ كل واحد يفعل ما يريد، وكان التدهور التام.

«كل الناس الطيبين نوعاً ما، يغادرون»

تييري: هناك الكثير من التساهل في فيلنوف، لأنني عندما كنت أسكن لثلاث سنوات في م (محلة مجاورة) وحدثت القصة نفسها هناك، استقدموا رجال الأمن الجمهوري الذين بقوا ستة أشهر برشاشاتهم ولباسهم الميداني وأجهزة الاتصال اللاسلكي على ظهورهم، ليلاً نهاراً باستمرار حتى هدأت الأوضاع.. أما في فيلنوف، فهم يفعلون ما يشاؤون، لا سيما في هذه الآونة التي يسود فيها التوتر (حرب الخليج)، إنهم يتحدثون عن إعادة الكرة، وسيكون الأمر أسوأ.

كريستيان: لا أحد يفعل هذا! غيرهم، لا أريد أن أكون عنصرياً معهم، لكنني أقول..

تييري: (بلهجة تهكّم) إنه «جيل البور!»

كريستيان: هو ذا، ليسوا وحدهم، فهناك فرنسيون حتى، شباب فرنسيون وهم راضون حقاً عن.. عندما تُستدعى الساعة الثانية صباحاً للذهاب إلى أحد الممرات، وتجد نفسك مع 40 شاباً، جميعهم سكارى وتُشتَم، لقد حدث ذلك لي مرتين، أما الآن فأقول: انتهى!

❖ ما هي أعمارهم؟

تييري: ما بين 18 و20 سنة..

كريستيان: وهناك فيهم من هو أصغر.. إن رأيي هو أنهم الآباء؛ فلِمَ يترك الصبيان في عمر 14 و15 سنة طوال الليل؟ تراهم يخرجون مساءً على دراجة نارية، وينزلون إلى المدينة جماعة ثم يعودون على دراجات نارية مسروقة دون أي إزعاج. وإذا استدعيت الشرطة إلى فيلنوف -إنه مؤسف

لكنه هكذا- يقولون: «حسناً، لا نريد المجيء الآن» إنهم لا يريدون المجيء لأنهم خائفون، وهذا كل شيء (..)

تييري: حسناً، شيء عادي، لقد تدهور الوضع..

كريستيان: لدينا دهانين، أرسلنا شاباً منهم أعاد طلاء جميع أبهاء المداخل. فأصبح كل شيء جميلاً ونظيفاً، وعلب البريد جديدة وجميلة. فأفسدوا كل شيء وأتلفوه. إنهم يحبون الأشياء محطمة وتالفة. نعمل ونغير كل شيء وتعمل منشآت الصيانة، ثم تجد كل شيء في الغد محطماً. نركّب مزالج كهربائية ومغالق كهربائية للأبواب يوم الإثنين صباحاً، فإذا أتى الثلاثاء مساءً فلن يبقَ شيء. والكل محطم.

تييري: أنا أقول إنه ينبغي إيجاد حل لمثل هؤلاء الأشخاص. شيء جميل أن نسمع السيد س (رئيس بلدية فيلنوف) يقول: «سنبني مساكن شعبية للعائلات الثقيلة». فأين سيبني هذه المساكن الشعبية. هل سيبني أبراجاً وسط الحقول ثم يضعهم هناك؟ أقول: إن هذا لا يستحق العناء. إذ يجب العثور على أرض بعيدة عن فيلنوف وإسكان الأسر غير المرغوب فيها هناك ثم تركهم فيما بينهم. من المؤسف التكلم هكذا، لكنني أعتقد أنه الحل الأمثل. لأن هناك أسر تسكن هنا منذ 18-20 سنة وهم زبائن لمكتب (HLM) يقولون: «لقد سئمنا، فكل شيء متدهور، يضعون لنا علب بريد وتحطَّم كلها».. حتى أن اللصوص يتوصلون الآن إلى فتح الأبواب المصفّحة ويسرقون كل شيء عندك. وإذا كانت لديك شرفة يدخلون منها لسرقة التلفزيون أثناء نوم المستأجر. وهم الأشخاص أنفسهم دائماً، فكيف يمكن تحمل أناس كهؤلاء! ثم هناك قصة السيارات.. إذ يلزم لسكان فيلنوف أبواب مصفّحة.. وقضبان على النوافذ.. وسيارة قديمة.. لا إن الأمر غير معقول.

كريستيان: تأتي بسيارتك؛ وتصعد لبيتك دقيقتين، وعند نزولك تجد زجاج السيارة محطّماً وسرقوا جهاز الراديو. إنها حياة لا تطاق، إن هذا ما لا أفهمه (مقلّداً بصوت رقيق مضحك وأنثوي) «يجب تركهم وشأنهم، يجب تركهم يعيشون، هؤلاء الصغار» لِمَ لا يبقى المستأجرون غير المغاربيين في

المنطقة، لماذا؟ لأن الشباب في الممر يتحدثون حتى الثالثة صباحاً، يشربون ويدخنون ويحششون حتى يصبحوا في غاية الثمالة من التحشيش والشرب في نفس الوقت، فإذا خرجنا وقلنا لهم شيئاً، يغرقوننا بسيل من الشتائم. فلا ينبغي قول أي شيء لهم بل تركهم وشأنهم. وهكذا تحدثنا -نحن الحراس- مع بعضنا وقلنا: «بوسعهم أن يكسروا كل شيء، ولن نصلح أي شيء، لأن لا فائدة من ذلك.»

«هناك الكثير من التساهل»

❖ ما هي صلاتكم مع الشباب، وكيف تجري؟

كريستيان: مع الشباب، لا شيء، لا شيء، لأن ذلك لا يستحق العناء، فنحن بالنسبة لهم وُشاة ومتعفنون، وكذا وكذا فلا فائدة من التحدث معهم. لقد تناقشت معهم جيداً، لكن كل ما يقولونه: «أنا أريد قاعة، ولن يكون تدهور من بعد، ولن يكون كذا» (..) عندما تبدأ عملية إعادة الاعتبار، ينبغي ضم بعض الشباب من الأحياء إلى المنشآت فهناك كثير من الشباب يقولون: «إذا ما عملنا مع منشآت الطلاء أو الكهرباء، فسنمنع الآخرين من العودة إلى الحي» ويقولون لي دائماً: «نحن الذين كان علينا إعادة طلاء جدران الدرج وإصلاح بعض الأشياء، حتى تشاهدوا أنه لم يعد هناك تدهور ما».

تييري: لا، لست موافقاً.

كريستيان: لكن هذا ما يقولونه.

تييري: لأنك قلت قبل قليل: «أما نحن فلا أحد يفعل شيئاً من أجلنا» لأن مكتب (HLM) يود فعلاً عمل شيء، لكن الآخرين لا يفعلون شيئاً. على الجميع أن يفعلوا شيئاً، الجميع. وهناك من يوافق وآخر يعارض (يروي حينئذ كيف أن محلاً أعطي للشباب قد أُتلف وأُغلق). عندما يقولون: «نعم، إننا لا نجد عملاً، لا أحد يعطينا عملاً» ماذا تريد أن يُعطَوْا إن كانوا لا يستطيعون الحفاظ على محل كهذا. لقد سرقوا كل شيء ولم يستطيعوا المحافظة على القاعة لأسبوع. لقد حطموا كل شيء. وأخذوا يلوثون الزجاج بالطلاء في الوقت الذي أنهى الدهان إعادة الطلاء. لقد حزنت وأنا أراه

هناك يكابد البرد مع فراشيه. وبعد أسبوع أُتلف كل شيء! وإذن فلن نعمل لهم قصر مؤتمرات خلف كل بناية!.. لا تتبغي المبالغة. أنا أيضاً سكنت 25 سنة في سكن شعبي بجانب الطريق السريع هناك. كنت في السادسة من عمري عند قدومي، وبقيت 16 عاماً. وكان أسوأ ما نرتكب من حماقات هو كسر لوح زجاجي -إذ كانت توجد واجهات زجاجية كبيرة في البنايات- فعندما كنا نلعب الكرة على العشب وتنحرف إحدى الضربات عن هدفها، كنا ندفع ثمن اللوح كما أذكر. كنا ندفع ثمن لوح كبير 50 فرنكاً. لكننا لم نكن ننهب كل البناية لأننا نرغب في هذا الشيء أو ذاك، فما كان ينبغي هذا.. يوجد الكثير من التهاون في فيلنوف والكثير من التساهل. وهذا كل شيء. لديك شبان لن يعملوا طوال حياتهم، لماذا؟ لأنهم لا يحبون إلا ما يخالف القانون، وإذن يسرقون السيارات ويفككونها، لأن السرقة أسهل من العمل، أو يقومون بسلب مسلّح، ويُسجنون شهرين أو عاماً ثم يخرجون ليبقوا 15 يوماً هادئين، ويبدؤون من جديد مع بعض الأصدقاء ويحطمون كل شيء.

كريستيان: وفوق ذلك فهم يفتخرون بذهابهم للسجن (..) ويدفع الكبار الصغار، وعندما أرى الصغار يشتركون معهم، أقول إن هذا مخجل.

تييري: إذا بقيت الأمور هكذا، فلن تتغير، وستصبح الفوضى مؤبدة. هناك حماقات تقع ولا تُنشر حتى في الصحف. فعندما أثاروا الاضطرابات في م. قال الناس: «كأننا في حرب» وهذا صحيح. وعندما أوقفني رجال الأمن الجمهوري وكان شعري وقتها أجعد خاطبوني بـ «شمامة قذرة» وفتشوني بينما يداي على السيارة. لكن ذلك أدى إلى نتيجة.

«ما أن نقول لهم شيئاً حتى نصبح عنصريين!»

كريستيان: (..) أنا لا أدري فربما كان هناك خلل في مكتب (HLM) إذ عليهم أن يجدوا حلاً. وكذلك الأمر في البلدية لأن على رئيس البلدية أن يفكر بعمل شيء، لأنها بلدية. (..) وما أن تقول لهم شيئاً (للشباب) حتى نصبح عنصريين. وأنا لست كذلك، إذ لدي رفاق منهم؛ جزائريون وتونسيون.

تييري: وأنا أيضاً.

كريستيان: .. إنهم رفاق طيبون، لكنني كما قلت مرة للشباب: «أنا عنصري مع الأوغاد، وهذا كل شيء، فليس لهم إلا أن يعملوا. إنهم يدّعون بأن لا أحد يعطيهم عملاً، لكنهم ما أن يصلوا إلى عمل حتى يسرقوا. ولن يحتفظ رب عمل بلصوص، أليس كذلك؟ اسمع هذه القصة التي حدثت في المنطقة الصناعية، استخدم (رب عمل) شاباً ومنَحه الثقة، ولم يمضِ أسبوع حتى ضرب الشاب السكرتيرة وسرق منها أموال الصندوق. ولما لحق به رجال الشرطة للقبض عليه، أطلق النار عليهم من مسدس خردق كان معه، لكنهم قبضوا عليه ولقّنوه درساً. فخرج الآخرون (الشباب) جميعاً يهتفون: «الموت لكم، شرطة قذرة، عنصريون قذرون».

(..)

كريستيان: أعرف حراساً يعملون لحساب الإدارة، هُدّدوا.

تييري: وأنا أيضاً، هُدّدت.

كريستيان: لي صديقان من الحراس، حرقوا لهما شقتيهما بكل وقاحة..

تييري: لقد هدّدوني انا أيضاً، فقد جاءني اثنان قائلين: «عليك التوقف عن دسّ أنفك في المرآب» فقلت: «إنني أقوم بعملي، وليس لديكم ما تفعلونه في المرائب، إنني أقوم بواجبي، ولا أفعل إلا ما أُؤمر به» وجاءا ثانية وقالا: «توقف عن دسّ أنفك وإلا ستتلقى طلقة من بندقية في المرائب يوماً» هذا ما قالاه لي! ثم هناك الآخر الذي تحرّش بابني منذ عامين، عمره 20 سنة وعمر ابني 9 سنوات، أمسكت به وقلت: «إنها المرة الأولى والأخيرة التي تلمس فيها شعره، لأنك لن تكون مع رفاقك دائماً، وسأمسك بك عندما تكون لوحدك».. ولم يكن يستطيع حتى الكلام بل يفأفىء وينظر إلى حذائه.

كريستيان: يكونون الأكثر عدداً في المساء، فهم خمسون على الأقل.. يبقون هناك طوال الليل، وعندما يكون الجو جميلاً كما كان في الأسبوع الماضي؛ كانوا يذهبون للنوم بينما نخرج نحن من العمل. طوال الليل ونحن

نسمع «يعيش صدّام حسين ويعيش فلان» بالإضافة إلى الدراجات النارية.. هل ترى إلى كل هذه الفوضى كل الليل؟ فقال الناس: «سئمنا من كل هذا، لندع الشرطة» وهاتفت مفوضية الشرطة الساعة الثانية صباحاً قائلاً: «ينبغي إيقافهم عند حدّهم، لقد أمسوا مجانين». وفوق هذا أُعطوا قاعة. وهم يخرجون ويأخذون بالصياح حتى الصباح، وليس لنا أن ننام لننهض للذهاب إلى العمل. هل تدرك المشكلة؟ فهذه ليست حياة،ولذا أقول أن..

«اقول للمستأجرين لا ينبغي أن ترحلوا».

تييري: وإذا قلنا لهم أي شيء، ينتقمون من السيارات.

كريستيان: أو يثقبون العجلات.

تييري: إنهم لا ينفكون ينتقمون من السيارات. ويأتي الوقت الذي يسأم الناس من كل هذا، فإذا وجدوا شيئاً فإنهم يرحلون قائلين: «حسناً، يا سيدي الحارس، لقد بحثنا عن مسكن آخر، وهانحن راحلون».

كريستيان: ولذا أقول للمستأجرين: «لا يجب أن ترحلوا» و«ينبغي أن تبقوا في مساكنكم، لأنكم إذا ذهبتم فيكونون مسرورين جداً»، وستبقى المساكن شاغرة. فماذا سيفعلون؟ سيستقدمون أيضاً عائلات كهذه! الجميع يسارعون بالرحيل، ولن تبقى إلا هذه العائلات». هناك أوقات لا ينهكنا فيها العمل بل الشدة النفسية.

تييري: أوه، يا لله، فنحن متوترون، لقد عملت سائق شاحنة بين 13 و14 ساعة في اليوم، وكنت أقل تعباً من بعض الأيام هنا..

كريستيان: ثم، نحن على أعصابنا دائماً.

تييري: ونُهدَّد، فما أن تقوم بواجبك حتى تتلقى التهديدات.

«إنه «جيل البور»»

تييري: أنا لا أستطيع أن أفهم، إذ ليس عليهم إلا إرسال رجال الأمن الجمهوري، لكنهم لا يريدون ذلك، لأنهم عندما يكونون هنا ببنادقهم الحربية المحشوّة؛ يوقفون أياً كان ولا يعبؤون بشيء ولا يخافون. وإذا شعروا بمشكلة،

يخرجون العصي ويأخذون بالضرب. وهذا ما ينبغي لهؤلاء الصبيان وليس السجن، فهو تأديب مناسب من وقت لآخر، إذ يهدّئهم أكثر بكثير من وضعهم في السجن. لأنهم بعد سجنهم شهراً أو اثنين يعودون.. وكل منهم يظن نفسه عرّاباً هنا.. إنه جيل البور! وأنا لا أدري ما يريد هؤلاء الشبان. أتحدث معهم بصراحة: «لم لا تذهبون لقطاف العنب، فالأجر جيد والعمل ممتع» (بصوت مضحك) «أوه، كلا، لقد جربنا يومين، إنه يسبب ألماً في الظهر» ماذا تريد أن يعملوا؟ يذهبون يومين لقطاف العنب ويُتعبهم ذلك، أولئك المساكين الصغار!

كريستيان: (ساخراً بدَوره) أجل، فكل الأعمال تتعبهم. لكن السرقة..

تييري: ثم إن هناك الكثير من.. تحدثت مع صديق لحماتي، لديه كرم عنب في بوجوليه، فقال لي: «لم أعد أطيقهم، انتهى، لم أعد أريدهم، فهناك الكثير من السرقات، كثير من السرقات». إنهم يفضلون الآن استخدام أجانب (غير مغاربيين) أو فرنسيين. لأن هناك الكثير من الأجانب يقطفون العنب في بوجوليه، إنني أعرف حقاً ما يريدون، ربما يوجد منهم من له مشكلات في العمل، هذا مؤكد، ثم يوضع الجميع في الخانة نفسها.

❖ ما الذي يجب عمله، ألديكما فكرة؟

تييري: فكرة لدي: لا أدري، فحتى الشرطة أعيتها الحيلة.

كريستيان: أنا لا أدري ما يجب عمله.

تييري: نحن نقوم بعملنا، وعلى كل واحد أن يقوم بعمله، وهذا كل شيء.

❖ لو لم تكن هذه المشكلات مع الشباب، فإن العمل يروقكم؟

تييري: أجل.

كريستيان: بلى، إنه عمل ممتع حقاً.

تييري: نعم، إنني أجد هذا العمل ممتعاً لأنني تعودت على العمل في الخارج، أو لوحدي حينما كنت سائقاً. حسناً، إننا هنا نتحدث مع الناس، وفي الخارج دائماً.

كريستيان: نعم، إن هذا هو الممتع، وقد تحصل أشياء تؤدي إلى علاقات جيدة، ولكن ليس مع مثل هذه العائلات.

تييري: إذا لم يُفعل شيء، فالوضع سيبقى كما هو، وفيلنوف ستبقى هكذا، بل ستصبح غيتو.

❖ هل فكرتما بطلب الانتقال إلى جهة أخرى أم أنكما ترغبان في البقاء؟

تييري: أقول لك بصدق إنني لا أطلب الانتقال لأنني عشت هنا دائماً، وأعرف الكثير من الناس..

كريستيان: ليس عليك أن ترحل أنت أيضاً. نلاحظ أن تلك العائلات ليس بوسعها دفع الكراء من التعويضات العائلية التي تقبضها أو غيرها، فرأيي إذن هو وجوب طردها منذ زمن طويل. لأنهم بالإضافة إلى ذلك يضايقون الآخرين.

تييري: نعم، طردهم، لكن لا أحد يريدهم! وليست إلا فيلنوف التي تستبقيهم. إن هناك مشكلة حقاً؛ فلماذا فيلنوف دائماً؟ إذ ليس على المسؤولين إلا تفريقهم في الجهة عوضاً عن تجميعهم هنا. أو يجب أن تُبنى لهم بنايات (HLM) لكن خارج الحي. ينبغي إيواؤهم خارجاً، لأنها مصيبة أن يوضعوا جميعاً هنا. وليست إلا هذه الطريقة للتوصل إلى حل ما.

❖ ما هو لون البلدية السياسي؟

كريستيان: إن البلدية شيوعية منذ زمن طويل، وأنا شخصياً، لا أود أن أكون عنصرياً معهم، ولكن من تجد إذا ذهبت إلى البلدية؟ كلهم مغاربيون الذين يشتغلون هناك. وإذا ما طلبت وظيفة لك أو أي شيء، فلا شيء لك.

تييري: نعم، لكنهم هم الذين ينتخبون رئيس البلدية..

كريستيان: كل شيء لهم، وإن كنت مريضاً أو طلبت شيئاً أو عملاً، أو تريد تكفلاً للذهاب إلى طبيب الأسنان، يُقال لك: «لا» فتُجرجر نفسك وفي خدّك ورَم هكذا. أما هم فإذا كان لدى أحدهم شيءٌ مهما كان صغيراً،

يرسلونه إلى المستشفى. وإذا أرادوا تكفلاً بهم من المصالح الاجتماعية، يتوقفون عن العمل ويصيرون لصوصاً، ولديهم جميع الحقوق.

تييري: إن ما يقال هو أن على الواحد منا أن يكون أسمر أو يضع شيئاً من طلاء الأحذية حتى يصير مثلهم، فيحصل على كل شيء. وهذا صحيح!

«إنه رجل متشدّد وليس عنصرياً»

❖ **هل تستطيع السياسة تغيير أي شيء في رأيكما؟**

تييري: رأيي هو أن الوضع قد يتغيّر إذا ذهب الشيوعيون. لكن الطبيب لم يستطع الفوز للأسف، إنه من التجمع من أجل الجمهورية (RPR). وهو رجل متشدّد وليس عنصرياً. يقول إن كل شيء لهم، ويجب أن يكون لغيرهم ما لهم. وقال عن المركز الاجتماعي الموجود في فيلنوف: «إذا أصبحت رئيس بلدية فيلنوف فسأغلق المركز الاجتماعي» فلم يُغلَق. وقال: «إنه سيكون للمسنين والمعسرين». لم يقل بأنه لن يكون لهم شيء بل قال أنه لا شيء إلا لهم في هذه الأيام؛ فهم يرسلون للمستشفى لشيء تافه ولا يدفعون شيئاً، وهكذا كثير (..) إن السياسة في فيلنوف سيئة. وإذا استمرت على هذا المنوال فلن يبقى سوى المهاجرين في فيلنوف، ولا موجب للدهشة عندئذ، لأن من الصعب إرجاع الناس فيما بعد.

(..)

❖ **ألستم معرضين للخطر أكثر قليلاً من المستأجرين؟**

تييري: أوه، نحن معرضون للخطر، هذا أكيد.

❖ **وهل يعقد المكتب اجتماعات للحراس؟**

تييري: لدينا اجتماع مع مسؤولي الإدارة مبدئياً، نتكلم فيه عن كل المشكلات.

❖ **وما هي المشكلات التي تتطرقون إليها أكثر الأحيان؟**

تييري: إنه التدهور والتحطيم، وكل هذا دون حل. إنها المشكلة ذاتها

دائماً، تصرف ميزانية بعد ميزانية للإصلاح، نقول لأنفسنا أحياناً إن الأمر لم يعد يستحق العناء. فإذا أصلحنا، يتلفون من خلفنا، ونعود للإصلاح ثانية فيكسرون.. وهكذا الأمر منذ سنة.

كريستيان: لا شيء يثبت أمامهم، مهما ركّبنا من أشياء في منتهى العصرية.

تييري: لا شيء يؤثر.

(..)

❖ لا بد أن الحلول التي يقترحها لوبان، تغري بعض الناس، أليس كذلك؟

تييري: حسناً، لا أدري. أنا لا أنتظر إلا ذلك، وأود أن أرى ما سيحدث. لأنهم يقولون إننا عنصريون، وأن الفرنسيين عنصريون..

كريستيان: كلا، إنها سخافات، إن هذا من السخافة.

تييري: ثم إن رأيي هو أن الفرنسي إذا كان عنصرياً فلا يأتي للسكن في فيلنوف: وعندما يقولون أنت عنصري أجيب: «هذا هراء، فلو كنت عنصرياً لما عملت حارساً في المنطقة، ولذهبت لعمل شيء آخر في جهة أخرى، كأن أستأنف عملي سائقاً لشاحنة، أليس كذلك». فهم يدفعون بالعنصرية إلى التفاقم. ولهذا أنا أنتظر ما سيحدث في الانتخابات القادمة. نعم، أريد أن أرى. وهناك الكثيرون ينتظرون، فقد سمعت كثيراً من الناس يقولون: «نحن، أنا، أنا لا يهمني شيء، فمهما كان لوبان فسأنتخبه» والكل يسمع هذا. ثم يقولون: «لا أحد يفعل شيئاً، لا البلدية ولا الشرطة! وإذن سننتخب لوبان لأنه سيفعل شيئاً».

كريستيان: ليُترك سنة في السلطة، سنة فقط.. (يذكر الجنح المتصلة بالمخدرات)

تييري: إن رأيي هو أنه طالما وجدت المخدرات فستحل الفوضى، آه، إن المخدرات وباء وخيم، إنه وباء..

كريستيان: ثم إن المخدرات تجلب بعد ذلك لهم المال، تجلب لهم المال دون أن يفعلوا شيئاً.

(يروي الحارسان بعد ذلك كيف اكتشفا المخابىء المختلفة التي يستعملها المهربون -مثل جدران المصاعد، وأغطية المصابيح الكهربائية، إلخ..- والتهديدات التي وجّهها هؤلاء لهما إذا ما لمساها أو أخبرا الشرطة). لقد فاض بهم الكيل، إذ ليس لديهم مستقبل.

(دخلت سيلفي، زوجة تييري، مع ابنتها. فشرحتُ لها بسرعة موضوع الحوار)

سيلفي: لقد تحدثتُ لأكثر من ساعة، في الأسفل، مع شباب. فلقد فاض بهم الكيل إذ ليس لهم أي مستقبل، ولا يعرض عليهم أي شيء.. ولا أمل لهم، فهناك عنصرية أرباب العمل. إلا أنه ينبغي القول إن أرباب العمل.

تييري: هناك الكثير مما ينبغي قوله أيضاً..

سيلفي: نعم، أنا معك لكن الأمر في النهاية سلسة متشابكة، إن شئت.

كريستيان: هذا ما كنا نقوله قبل قليل، فالطيبون يدفعون الثمن عوضاً عن الخبيثين..

سيلفي: يوجد طيبون، وطيبون جداً.

تييري: أجل، لكن هناك الكثير من الخبيثين.

سيلفي: عندما نرى الصبيان يسرقون تحت أنظار آبائهم، ولا يقول هؤلاء شيئاً، إنهم يتعودون منذ الصغر، أعني أن الصبيان ذوي الأربع أو الخمس سنوات لا يفكرون في شراء شيء أبداً. وإذن هي.. العقلية. إنهم لا يرون أنفسهم في أي شيء. تعرض عليهم قاعات وأدوات فيحطمون كل شيء، إن هناك وجع، وجع العيش. وهو ليس في هذه المنطقة فقط؛ فقد عملت في ثانوية جان زاي وهي ثاني ثانوية في المنطقة، وكل تلاميذها من النخبة حقاً، الزبدة، ومع هذا فهناك الشيء نفسه، ألفاظ فيلنوف نفسها،

والتعابير نفسها، وأسلوب معاملة الأساتذة نفسه. فاندهشت. عدم احترام الأساتذة.. إنه ليس..

تييري: لأنهم، في نهاية الأمر، لا يحترمون أحداً. لا أساتذتهم ولا أحد.

سيلفي: لا أدري كيف النجاح في.. إنه كالسرطان. لا أدري كيف النجاح في استئصاله.. ولا يمكن التحدث معهم لأنهم حذرون، فقد قالوا لي مؤخراً: «نعم، لكن لك غرضاً من وراء هذا» فأجبت: «أنا أتحدث لأنني أرغب في التحدث» و«ليس لي غرض من هذا»؛ وأنا أشعر بالرضا الشخصي إذا ما رأيت شيئاً إيجابياً.

كريستيان: (بشك) ما الذي يمكن الوصول إليه؟

سيلفي: يظنون دوماً بأنه يُراد خداعهم، أو سرقتهم، هنا..

تييري: إنهم هم الذين يخدعوننا! فليتوقفوا عن السرقة، ولتبق البناية نظيفة..

سيلفي: إنني لا أنفك أقول لهم، زيادة على ذلك، أنتم فرنسا، فهم في الواقع شباب الغد، وهم الذين سيعملون.. إن هذا يثير الخوف.. لقد قال المسؤولون بأنهم وضعوا في فيلنوف قاعات وأدوات تحت تصرف الشباب، لكن كل هذا واجهة، وزائف؛ لأن الشباب لا يدخلون هذه القاعات أبداً.

تييري: إنهم يقولون دائماً: «نريد هذا وهذا وهذا» وعندما يُعطونه في النهاية فذلك لا يمنعهم من السرقة.

سيلفي: شيء جيد أن نتحدث إليهم، مع البعض.. حتى لو كان لديك انطباع بأنك تتحدث في الفراغ، حتى لو وجدت جملة صغيرة أو كلمة صغيرة، لدي الانطباع بأن..

تييري: (بشك قوي) نعم، لديك الانطباع، لأنني أرى جيداً حينما أُعطَوا القاعة وأثثت بالكراسي والطاولات وأُعطَوا الدهان، كيف حطموا كل شيء بعد ثمانية أيام ثم أغلقت القاعة.

❖ هل تجاوزت الأحداث الآباء، في العائلات؟

سيلفي: هذا ما قالوه لي. كان لشاب مشكلة -لا أدري ما هي- مع زوجة أبيه، فقلت: «يجب مناقشة الأمر، فهناك طريقة دائماً لإصلاح الأمر» «أوه، أنت لا تعتقدين هذا، فأنا لا أتحدث مع أبي، ولا يكلمني إلا حين يضربني».

كريستيان: أنا أعرف واحداً يضرب أباه لأنه لا يسلمه السيارة.

سيلفي: قال لي: «ألا ترين الفوضى التي نعاني منها، وفي أي جحر نعيش، ماذا تريدين أن يكون لدينا..»، ثم «هناك صراصير في كل مكان. إنها القذارة داخلاً وخارجاً. ونحن نشعر بالقذارة فينا» إن ما أريد قوله هو أنك عند العودة إلى بيتك، تنظر حيث توجد الممرات، أما أنا فتستقبلني الصراصير عند وصولي إنها قذارة.. وهو شيء لا يبعث على الاحترام.. لكنني أحترمهم لأنني هكذا، غير أن هذا لن يدفع الشاب الذي يجد نفسه في الشارع نوعاً ما إلى التماس حياة مستقرة. فهم يعيشون 10، 12، 15، في غرفة، ولا حميمية لهم ولا زاوية، منذ صغرهم، ليس لهم..

تييري: أوه!.. كفي عن المبالغة..

سيلفي: لكن من المهم أن يكون للطفل الصغير ركن له.

تييري: (بغضب) كلا، انظري بيتنا، لقد كنا عشرة في شقة من أربع غرف، ولم نصَب بصدمة نفسية ولم نحطم الحي.

سيلفي: كانت لديك الفرصة لتعيش باستقامة وتجد طريقك، ولم تكن الأمور على ما هي عليه الآن. إذ كنت تستطيع تغيير عملك بين عشية وضحاها إذا لم يعجبْك. أما الآن فلم يعد يوجد عمل، ولا شيء، ولا عمل لك إن كنت عربياً.

تييري: بلى، لكن لماذا؟

سيلفي: لا أدري.

تييري: لو توقفوا عن تعاطي المخدرات.. (مشيراً إلى ما قيل آنفاً) وقطاف العنب؟

سيلفي: إن أصحاب الكروم لا يريدونهم!

تييري: لا يريدونهم، أجل، لقد تحدثت في هذا الأمر مع.. لِمَ لا يريدونهم؟

سيلفي: لا أدري!

تييري: لو توقفوا عن سرقة أرباب العمل..

سيلفي: لكن، ضع نفسك مع هذا مكان هؤلاء الشباب. إنهم يعلمون بأنه لن يحدث شيء على كل حال.. وملجؤهم الوحيد هو العنف، لكن ليس بقصد الشر، إنه بالأحرى صرخة استغاثة معناها، حذارِ فنحن هنا، نحن موجودون، وانظروا ما يمكننا فعله ونحن مجتمعون (..) رأيي هو إنهم الآباء، مع ذلك.. لقد عقد اجتماع في المدرسة لأن مغاربياً اعتدى على معلم لأنه تسلط على أخيه الصغير. ضرب المعلم الطفل فجاءت الأم وكسرت للمعلم ضلعين من أضلاعه بعصاً كانت معها، وشاركت العائلة كلها، فعقد الاجتماع إذن، ترى من جاء إلى الاجتماع؟ إنهم الأشخاص أنفسهم الذين يأتون منذ بداية السنة، كنا 20 ولي أمر من 300 تلميذ، وللتلاميذ الذين ليست لهم عموماً أية مشكلة! إن المهمة صعبة للمعلمين، ولكنهم يحبون مهنتهم وأنا معجبة بهم. وهم لا يقبلون عن الحي بديلاً ولو كان كل ذهَب العالم (..) وقد توصلوا إلى نتائج رائعة: هل رأيت ما صنعوه؟

(..)

❖ ما هو الحل بالنسبة لك؟ هل يجب مساندة رئيس البلدية الحالي، أو القيام بصدمة مثلاً بمساندة الجبهة الوطنية؟

سيلفي: أسمع الناس يتكلمون، لأنني أحب التحدث كثيراً، أسمع الناس يتكلمون كثيراً عن مجموعة من الناس ستنتقل إلى الجبهة الوطنية. وسيحدث ارتفاع كبير في مناصريها. أما رأيي فهو وجوب مساندة رئيس البلدية. فكل ما عمله ويعمله.. رائع.

كريستيان: (بشك) بالطبع إنه رائع.. لكنني لا أدري ما يريدون عمله بالضبط، ولا إلى أين هم ذاهبون.

سيلفي: أقول للشباب: إنكم لا تفكرون إلا بالهدم والتحطيم، وليس في البناء (..) لكن تجمعوا كلكم واعملوا ملفاً بمطالبكم واجعلوا مسؤولاً منكم. إنهم لا يريدون أن يكونوا مسؤولين، إذ لا ثقة لهم في قيمهم الخاصة.

كريستيان: منذ مدة قريبة، عندما عملنا الاجتماع، ذهبوا لرؤية رئيس البلدية وطالبوا بملعب للجمباز. وكان رئيس البلدية لطيفاً فأعطاهم المفتاح. واستمرت الأحوال هادئة 15 يوماً، وجاء مساء أحد الأيام لرؤيتهم؛ وإذا بهم مسطولون جميعاً وزجاجات الكحول في كل مكان، وقد أشعلوا ناراً وسط الملعب، فقال: «سأستعيد المفتاح الآن، وانتهى».

(..)

تييري: قال لي رئيس البلدية بأنه أعطاهم المفتاح لمدة معينة، ولا أحدثك عن الحالة التي وجدنا عليها القاعة؛ لقد كانت مكبّاً حقيقياً للنفايات. وبعد ذلك يقولون: «نعم، أنتم عنصريون؛ فنحن نريد القاعة ولا تودون إعطاءها لنا!» إنها القصة نفسها دائماً. أنت عاطل عن العمل، عاطل عن العمل، وماذا بعد؟

سيلفي: أنا أيضاً كنت عاطلة عن العمل.

كريستيان: لكن ينبغي القول بأن الشاب إذا أراد العمل فهو يستطيع العثور عليه.

سيلفي: لا، ليس هذا مؤكداً، فهم شباب دون أية مؤهلات.

تييري: انظري، ما اسمه؟ إنه عبدل، لقد عثر على عمل ويسعى للجنسية الفرنسية، وهو يكدح، هل تعتقدين أنه لا يشعر بالإحباط؟ لقد أعاد طلاء جميع ممرات الحي بكل جد، وبعد ثمانية أيام أتلفوا كل شيء. وسيعود إذن إلى هناك مع دلائه. هذا واحد منهم حقاً، فلا تبالغي..

سيلفي: أجل، لابد من شيء من الردع مع ذلك.. نحن مضطرون لاستخدام الردع.

تييري: كثيراً ما قيل لي، هناك الكثير من التساهل.

«مهما تم التستر على الفقر»

تييري: (..) على الحكومة..

سيلفي: لكن، لِمَ الحكومة دائماً؟ ليس هذا محتماً.

تييري: إنها هي التي تخصص الميزانية لأجل..

سيلفي: نعم، لكن المسألة ليست مسألة مال بل مسألة عقلية: إذ يجب تغيير عقلية الناس.

كريستيان: «عقلية الناس».. عندما يرتكبون الحماقات في البداية..

سيلفي: لأننا مهما أصلحنا، وجعلنا كل شيء جميلاً وتسترنا على الفقر، تبقى المشكلات حتى وراء الواجهة التي تم إصلاحها. إن هذا لن يغير المشكلات.

تييري: (فاقداً صبره) ليس أمامنا سوى طردهم إلى بلادهم!.. إن هذا جنون لكن..

سيلفي: (بلهجة هادئة دائماً) لا، ينبغي التحدث، ويجب الإنصات للناس دائماً، لا يجب تركهم. إن هذا كحشو الدماغ، لكن هكذا، ينبغي التكلم، التكلم، التكلم.

تييري: أتدرين، حين تتكلمين معهم كلاماً طيباً، هذا إذا أرادوا الاستماع. يسخرون منك وراء ظهرك بعد ذلك.

سيلفي: نعم، إن هذا لا أهمية له!. لأن الكلام سيتسرب إلى رؤوسهم بعد ذلك. أنا أرى أنه لا حل بوساطة المال، فذلك لن يحل شيئاً.

تييري: نعم، ولكن لِمَ يُطلَب منا نحن الحراس. وحتى رجال الشرطة يقولون: «تحدثوا معهم، تحدثوا معهم» فما نحن إلا حراس للبنايات..

سيلفي: نعم، لكنك أب ورب عائلة..

تييري: ماذا تريديننا أن نفعل، أترين ما يقولونه فينا؟

سيلفي: لكن ما يقولونه فيك ليس له أية أهمية.

تييري: إنهم لا يجيبون حتى عندما أقول لهم: «صباح الخير».

سيلفي: أجل، أجل، إنهم ليسوا مهذبين.. وأنت لست هنا للقيام بالردع، ومع ذلك..

تييري: لا، فلا دخل لي في المخالفات للقانون أيضاً. عندما يعالجون دراجة نارية في ممر حتى الثانية صباحاً وتذهبين قائلة: «لا ينبغي فعل هذا» يرون هذا قمعاً!. فأنت عنصري ووغد، اغرب من هنا إلى بيتك. هكذا. ماذا إذن يمكن فعله هنا؟ ومن سيجد الحل؟

❖ إن الأمر ليس سهلاً، ويجب التحلي بصبر جميل.

سيلفي: كالتحليل النفسي، فهناك تحليلات نفسية تدوم سنين لدى بعض الناس. وفجأة تحل العقدة ويخرج كل شيء.

تييري: ولا يمكن التحدث أيضاً مع جميع الناس لسنوات.

سيلفي: لا، أعني أنني أنتهز الفرصة دائماً للتحدث حتى يستتبّ الحوار. لقد بدؤوا بالسخرية مني، لكنني بقيت أتحدث أكثر من ساعة. فإذا ببعضهم تثور أعصابه من وقت لآخر قائلاً: «لكن، عمّ نتحدث هنا، عمّ نتحدث» فجاء آخر وأمسك به. وهذا يدل على أن لديهم الرغبة حقاً في التحدث، وهم يحبون المناقشة، وحتى لو لم يؤدِّ هذا إلى شيء، إن هناك أناساً ينصتون حقاً.

تييري: إن هذا شاق مع ذلك.

سيلفي: سيوجد أوغاد دائماً على كل حال.

تييري: لكنهم كثيرون في فيلتوف.

سيلفي: لأنهم محتشدون هنا، وإذن فهناك الكثير (ضحك) وهذا يعني الكثير من..

كريستيان: من الأوغاد..

سيلفي: علينا الاهتمام بالصغار على الأقل، والاهتمام بالقابلين للإصلاح والناس الطيبين. أما الأوغاد فينبغي تركهم وشأنهم، ستقبض الشرطة عليهم، ونعرف ما يؤدي إليه ذلك..

(..)

تييري: لي شقيق عنصري، لم يأتِ قط للسكن في فيلنوف.

سيلفي: إنه عنصري بالطبيعة، هكذا، دون أن يجد سبباً لذلك..

تييري: ثم إنه عنصري مع الجميع، مع الإنكليز والألمان أثناء التخييم في الصيف، أما العرب فهم في القمة، ولذا فهو لم يأتِ قط للسكن في فيلنوف.

سيلفي: لا، أنا مسرورة نوعاً ما، لأن أولادي يخالطون كل الأجناس.. كل الـ.. أعني، ليس هناك.. إن الأمر بسيط.

تييري: أي أننا لا نربيهم على العنصرية كما يربي أخي أطفاله، فهو لا يتوانى في أن يقول لابنته ذات الخمسة أعوام أو الأربعة وهي في الحضانة: «إن العرب كعكع».

سيلفي: ستحصل لها مشكلات مع ذلك، فهي الآن في الحضانة، لكن عندما تكون في المدرسة!

«لم أعد أجد نفسي في أي شيء.. أي شيء، أي شيء.»

❖ هل تشاركين في جمعيات؟

سيلفي: أوه، ناضلت منذ زمن طويل مع الشبيبة العمالية المسيحية. حتى أنه كان لدي خلية صغيرة. وبعد هذا لم.. لقد تدخل في.. لا، لم أعد أجد نفسي في أي شيء. وحتى من الوجهة السياسية.. إنني..

❖ حائرة؟

سيلفي: إنني حائرة. وقد ناضلت بعد ذلك مع الشبيبة الشيوعية. وكان الشيء نفسه!. لقد تابعت مدرسة الحزب الشيوعي. ولم أعد أجد نفسي في أي شيء.. أي شيء، أي شيء. ولا أجد حزباً يناسبني. لا شيء، لم أعد أدري. أفاجيء حتى نفسي بالقول بأنني سأنتخب لوبان حتى يدخل الرعب في قلوبهم.. أعني أنني لم أعد أعرف طريقي، لم أعد أعرف. إنهم

يثيرون في نفسي الاشمئزاز، كلهم، إنني أرى أن هذا السلوك لم يعد يستجيب مطلقاً لما يُنتظَر من حزب سياسي، فلديهم الدسائس بالجملة ويريدون إعطاء الآخرين دروساً في الأخلاق. (إن رجال السياسة لا ينفكون) يرتكبون المخالفات للقانون وما شابه ذلك، وهم يتصرفون بالملايير، ولا يعبؤون بالمناضل البسيط. ثم إنني لم أرَ حزباً في مثل انغلاق الحزب الشيوعي، وربما مع الجدد (المجددين)، لكنهم لا يسمحون لأحد أن يقول كلمة واحدة، بل «قال الحزب» هكذا، وهذا كل شيء، كان الأمر يجري هكذا في الاجتماعات فكنت أقول: «هذا غير معقول، يمكننا أن نتناقش، ما الفائدة إذن؟ ندفع اشتراكاتنا وهذا! كل ما تبغونه» انظر إلى البناية التي يملكها الحزب في باريس.. هذا غير معقول..

آذار 1991

غابرييل بالاز

سكين المقصلة

موريس د. وكيل تأمين، لكنه يعمل مثل أي حرفي 60 ساعة في الأسبوع، بما فيها يوم السبت مع زوجته، بدون سكرتيرة. ولديه شعور بأن مكانة الوجيه بدأت تفلت منه. فهو يرى مؤشرات غروب شمسه في كل مكان. إذ منذ بدأ ممارسة مهنته قبل 25 سنة، وهو يشتغل أكثر ويرتاح أقل، هو ابن مزارع «هاجر» من مايانس في اللواريه، وترتيبه الثامن بين 16 ولداً. وقد اعتقد أنه بالإمكان تغيير الطبقة الاجتماعية حقاً، عن طريق المقدرة دون أية شهادة إلا الشهادة الابتدائية. وكان يظن أن الإدارة القوية والعمل هما الضامنان المطلقان للنجاح، على غرار العديدين من مديري المنشآت «دون شهادة متوسطة أو ثانوية، ودون شيء» أو الوزير الأول[1] الذي «يعجَب به» أو بكل بساطة، على غرار زميل له بدأ في نفس الوقت الذي بدأ هو فيه والآن «يقود طائرته الخاصة». وهو فخور من جهة أخرى بتاريخ أسرته، إذ «ليس فيها عاطل عن العمل، وليس فيها من يعمل بالأجر الأدنى المضمون، ولا تعرف ما هو». لكن يبدو أن هذا المشوار قد انقطع، من خلال عدد من العلامات:

---

[1] هو (بيير بورغوفوا) وصل إلى متصب وزير المالية في عهد الرئيس ميتران ثم اصبح وزيراً أولاً، ولم تكن لديه سوى شهادة مهنية بسيطة. – المترجم –.

فموريس د. انتبه مؤخراً إلى أن «من هم دون شهادة» مثله «ليس لهم مكان على الأرض». وهو لم يعد يأخذ عطلة تقريباً. لكن فوق ذلك، العدد الكبير للعاطلين من الشباب في مدينته الصغيرة ذات الـ 7000 ساكن والذي يسبب له القلق على مستقبل أولاده الثلاثة. فنتيجة لصعوباتهم المدرسية، وَضَعهم في التعليم الخاص. لكن الابن الأكبر أخفق في الشهادة الثانوية، ويحضر الآن شهادة مهنية. وهكذا يخشى موريس د. أن لا يتمكن أولاده حتى من بلوغ وضع يعادل وضعه.

ونظراً لأنه لم يحصل على الشرعية المدرسية التي تسمح له ببلوغ شرعية اجتماعية، فقد استخدم كل طاقاته في نشاط على صعيد المجلس البلدي، والصعيد السياسي والجماعي، حيث يحاول قلب قواعد اللعبة الاجتماعية (المدرسية). إنه يتوجه إلينا، نحن الذين يرى فينا ممثلين عن التربية الوطنية، بمرافعة يدافع فيها عن المتعلمين ذاتياً، وعن الرجال الذين كوّنوا أنفسهم بأنفسهم. أما تذمره فكان خليطاً دون رابط، من الدولة والعمال المهاجرين. وقبل كل شيء، لا تحظى أية فئة اجتماعية برضاه: فالكوادر «يحسبون أنفسهم آلهة على الأرض» وأصحاب المهن الحرة «يتصرفون كموظفين حقيقيين» والموظفون «لا يفارقون مكاتبهم» والعمال المهاجرون الذين لا يقبلهم زبائن له، أما رجال السياسة فهم «كراكوزات مساكين» والنقابات «تجمد كل شيء» وما الضمان الاجتماعي والتربية الوطنية إلا عبء. وقد وُضعت القوانين «للإلتفاف عليها».

وباعتباره عضواً في التجمع من أجل الجمهورية (RPR)، فقد شغل موريس د. مناصب سياسية في البلدية؛ إذ كان معاوناً لرئيسَي بلدية متواليين لكنه يحلم بـ«1789 أخرى». وهو شَعبوي ومن أنصار العدالة الفورية «فأخذ الأمور على عاتقه» متصرفاً بملفات المعونة الاجتماعية في البلدية، وملغياً الحقوق الاجتماعية للسكان المغاربة. لأنه يعتقد بأن «المعونة الاجتماعية» ليست إلا تبذيراً واختلاساً للأموال وإضاعتها في دوائر معقدة وتعسفية. ولذا فهو يرفض البقاء «مكتوف الأيدي» ويظن أنه سيحل المشكلة

بتأسيس جمعية لجعل العاطلين يعملون وذلك بإعطاء الشباب «الكسول» «ركلات على مؤخراتهم». ويكافح ضد كل القوى المحلية التي تبدو له غائصة في الثرثرة حول الإنسانية والنفاق، وضد القوانين التي تقف حائلاً بينه وبين إثبات جدارته ومزاياه بصفة خاصة. إن كل شيء يجعله يعتقد بأن الإدارة البلدية لمدينة صغيرة تسمح برقابة سياسية، على العكس من الضواحي، وأن هذه الرقابة ضرورية وإيجابية، وينبغي تعميمها. ومثاله المفضل شاب يعيش على تعويض الاندماج البالغ «2000 فرنك كمصروف جيب» والذي وظفه في ورشة صغيرة بعدما سجله في جمعية التكوين المهني للبالغين (AFPA) وضمنه لدى رب العمل قائلاً: «إذا ما تأخر، فنادوني، وسأذهب لإخراجه من سريره بنفسي في الصباح».

جرى اللقاء صباح يوم أحد، في أحد المطاعم لأن موريس د. دؤوب على العمل دائماً، هو طويل القامة، عريض المنكبين، يتكلم وكأنه أمام جمع غفير بصوت جهوري، مقرناً كلامه بحركات حازمة تذكّر بأنه مكافح وأنه لا يتردد في قطع الصلة مع الجُبن السائد. كان يرتدي بذلة داكنة رصينة مع ربطة عنق، وجلس متصلباً بعض الشيء، وكأنه يستعد للإدلاء بتصريح سياسي. ولم يكن ينتظر عملياً سوى الأسئلة لأنه كان فكر من قبل فيما يريد قوله مشدّداً في خطابه على «أنا، أستطيع القول»، «أنا لا أخشى أن أقول»، «اسمعوا، سأقول لكم». وكان يفضل طوال الحديث التوجه إلى مُحاوره المذكر فيما هو «جدي» من كلامه، معتقداً أنه يتوجه من خلاله إلى «السلطات العليا» للسياسة.

مع مستشار بلدي (عضو في المجلس البلدي)

حديث مع غابرييل بالاز وجان باران

(..)

موريس د.: في ذلك الوقت إذن، كنت معاوناً لرئيس البلدية فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية، لنقل إنني سميت نفسي معاوناً للشؤون الاجتماعية. لقد كان هناك معاون للشؤون الاجتماعية يقبض تعويضاً فقط، والأمر يتوقف هنا. وبما أنني كنت نائباً لرئيس مكتب المعونة الاجتماعية فقد قمت بالمبادرات الكبرى قائلاً: «هيا بنا، سأهتم بمجمل المعونة الاجتماعية، لأنه لا أحد يهتم بها. الجميع يتكلمون عنها، لكن الجميع يرتعدون منها».

لم يكن الأمر سهلاً، لأن سياسيي اليمين يطبقون سياسات اليسار، وكلها سياسات خرقاء، اسمحوا لي، لكنه الواقع. قلت: علي القيام بالمهمة لكن بشرط معرفة الملفات جيداً. إذ لا يجب الانطلاق في المعونة الاجتماعية هكذا، هل تريد؟ إذن خذْ، وتعقد اجتماعات وتلقى خطب جميلة ثم يبدأ البذر. كلا، فأنا لا أبذُر إلا إذا تأكدت من الحصاد. ولا نحصد في المعونة الاجتماعية منافع بل على العكس، لأن المعونة الاجتماعية بدون مردود، كما هو معروف جيداً، لكنها لابد أن توجد.

طلبت من رئيس البلدية إذن رؤية كل الملفات، حالة فحالة، أي استدعاء

كل الأفراد الذين تشملهم المعونة الاجتماعية، وهم يمثلون 490 ملفاً في هذه المدينة. وأمضيت أيام أربعاء كاملة وصباح آحاد عديدة، لكنني قلت: «سآتي على آخر ملف». وقد منعني رئيس البلدية قائلاً بأنه هو المعلم. ومنعني رئيس البلدية الثاني حتى اليوم الذي قلت فيه: «أود أن ألتقي فلاناً وفلاناً، فهل تصرح لي باستقبالهم؟ إنني لا أريد الذهاب إلى بيوتهم لأنني لا أدري كيف سيستقبلونني». وقد هيأت رسالة لطيفة صادَق لي عليها. فما عدت أهتم وقلت: «الآن، وقد قبلت بي، ستتحمل المسؤولية وسأفعل ما أشاء. ولديّ أولاً مفتاح في جيبي» وبدأت باستدعاء تلك العائلات في مكتب الشرطة هناك في السكن المعتدل الكراء (HLM). وكان الأمر واضحاً لدرجة أن هنري قال لي: «لقد خدعتني!». وقد فحصت الملفات كلها واحداً واحداً، ووضعت ملفات الذين لم يأتوا جانباً واستدعيتهم ثانية. وبقي جزء لم يأتِ فأعدت استدعاءهم للمرة الثالثة. نصفهم لم يأتِ، صدقوني. والمسألة هنا واضحة، إنها سكين المقصلة في المرة الثالثة، وكانت سكين المقصلة فعلاً! فعندما جاؤوا إلى دار البلدية، كنت وراء الكوة مع السكرتير. وكنا اتفقنا من قبل أن لا يوزع الأوراق الصفراء إلا في يوم معين وساعة معينة. ويعلم الله كم جعلت رئيس البلدية يصر على أسنانه. وعملنا ما اتفقنا عليه وكنت خلف الكوة عوضاً عن نساء يُشتَمن، ويُسخر منهن. إذ لم يعد الأمر هكذا! وعندما كان يراني الرجال كانت تنتابهم الحيرة ولا يدرون هل يتقدمون أو يتراجعون. وكنت أعرفهم: «هاأنت يا بلقاسم، تعال هنا، ماذا تريد؟ لِمَ لم تأت إلى الاجتماع ذلك اليوم؟ لِمَ لم تأتِ إلى لقائي، لِمَ لم تأتِ لمناقشة ملفك؟ ادخل الآن إلى المكتب المجاور، هيا، مكتب المعاونين، وقدم اسمك واسم عائلتك وعنوانك..إلخ» لقد أنهكتُهم، وألغينا 92 ملفاً.

❖ وهل استبعدتم الآخرين؟

موريس د.: استبعدناهم، إذ ليس لديهم ما يفعلونه في مكتب المعونة الاجتماعية، فهل تجد الأمر طبيعياً أن يذهب رجل للتسوق يومياً ثم يسمح لنفسه أن يكون في مكتب المعونة الاجتماعية، ويحصل على الطبابة المجانية ويأتي للحصول على البيض والحليب وكل ما يتبع ذلك. إنه ليس طبيعياً! ليس لأنه أجنبي ويشعر بالضيق في بلادنا، فهناك بواخر تعود كل يوم إلى

هناك، ولا أفعل مع أجنبي أسوأ مما أفعل مع فرنسي. ولو كنت في بلادهم لصنعوا الأسوأ للفرنسي.

(..)

❖ هل أسست جمعية؟

موريس د.: أجل لقد أسست جمعية لمساعدة العاطلين عن طريق العمل والتضامن. فعلى الجميع اليوم أن يشعروا بالخطر وليس محصولي الثقافي هو الذي أخرج كل هذا، بل انتخابي معاوناً لرئيس البلدية واهتمامي بالشؤون الاجتماعية، لأن لدي مرضاً خبيثاً: فعندما أنشغل بشيء أغوص فيه إلى أعماقه أو لا أفعل شيئاً البتة، ولا أعرف التوسط بين الأمرين. وتلك هي مشكلة رئيس البلدية الحالي، فلو كنت معاوناً له لاشتبكت معه إلى النهاية ولما كان بيننا أي اتفاق، لأنني لا أحتمل البقاء معاوناً دون أن أفعل شيئاً. إنني لا أستطيع قبول معاونين يكتفون بقبض التعويض والجلوس في مقاعدهم واضعين ساقاً على ساق، إنني لا أحب هذا (..). أما عن نموذج الجمعية التي أسسناها، فقد فكرت فيه عندما كنت في مكتب المعونة الاجتماعية. لقد أدركت ذلك عندما كنت أستقبل أناساً يقولون: «إنني أبحث عن عمل ولا أجده، فأشعر بالقرف». إن الناس يشعرون بالقرف من الذهاب للبحث عن عمل لأنهم رُفِضوا من المصنع نفسه، خمس، ست، عشر مرات وعشرين مرة، وقيل لهم بأنه لا يوجد عمل. وأدركوا أنهم رُفِضوا اليوم، وسيُرفضون غداً بينما يمر آخر فَيُعين فوراً. فهذا من التمييز إذن! لأنني عربي والآخر فرنسي، أو لأن أسناني ليست ذهبية أو لأن شعري قصير، إنهم يقولون أي شيء! عندئذ اهتديت إلى الحل فقد كان رب العمل بحاجة إلى عامل فوراً، ولم يرُقْ له الشخص الذي جاءه بالأمس، فقلت: هناك مع ذلك حاجة للاهتمام بوقت عمل هؤلاء الناس. وسعيت إلى وضع ذلك موضع التنفيذ لمدة سنتين، لأنه لم يكن لدي شيء. وليس لدي قانون لمصلحة تأسيس نموذج جمعية تُعنى بإدارة الأعمال الصغيرة.

(..)

كانون الأول 1990

بيير بورديو

تأثيرات المكان

عندما يجري الحديث هذه الأيام عن (ضاحية ذات مشكلات) أو (غيتو)؛ لا يتبادر إلى الذهن لأول وهلة (وقائع) يجهلها الذين يفضلون الحديث عنها أكثر من غيرهم أشد الجهل، بل تخيلات حفّزتها كلمات أو صور تندّ عن الضبط كثيراً أو قليلاً، كتلك التي تعج بها صحافة الإثارة والدعاية أو الإشاعات السياسية. إلا أنه لا يكفي لقطع الصلة بالأفكار المسبقة والخطاب المعتاد، أن (نذهب لنعاين) الوضع كما هو، كما يحلو للبعض أن يعتقد. وحقاً، فإن الوهم التجريبي لا يفرض نفسه دون ريب في حالة أكثر من هذه الحالة؛ حيث لا تمر المواجهة المباشرة مع الواقع دون بعض الصعوبات، إن لم نقل بعض المخاطر، وبالتالي بعض الفضل. ومع ذلك فكل شيء يدعو للاعتقاد، بأن جوهر ما يعاش وما يرى على أرض الواقع من أدلة مذهلة وتجارب مأساوية، يجد مبدأه في جهة أخرى. وليس أدل على ما نقول من أحياء (الغيتو) الأمريكية؛ تلك الأماكن المهملة التي تتميز أساساً بغياب الدولة، وما يتبع ذلك من غياب للشرطة والمدرسة والمؤسسات الصحية والجمعيات، إلخ.

ولذا ينبغي علينا أكثر من أي وقت مضى، أن نعتمد منطقاً يبدو متناقضاً في ظاهره، وهو يتصدى في آن للحس السليم والعواطف النبيلة. وبهذا يبدو لأصحاب الفكر التقليدي من الجانبين، إما متحيّزاً يستهدف

(إدهاش البورجوازيين)، وإما شكلاً من اللامبالاة القاسية إزاء بؤس المعدَمين. وهكذا لا يمكن قطع الصلة بالأدلة المغلوطة، وبأخطاء الفكر الذي يبحث في ماهية المكان، إلا بشرط القيام بتحليل صارم للعلاقات القائمة بين بنى المجال الاجتماعي وبنى المجال الفيزيائي.

المجال الفيزيائي والمجال الاجتماعي :

إن بني الإنسان من حيث كونهم أجساماً (وأفراداً بيولوجيين) يماثلون الأشياء؛ إذ يتوضعون في مكان ويشغلون حيزاً (فهم لا يتمتعون بالصفة التي تسمح لهم بالوجود في عدة أماكن في وقت واحد). ويمكن تعريف المكان بصورة مطلقة، بأنه النقطة من المجال الفيزيائي التي يتوضع فيها إنسان أو شيء ويوجد. وهذا يعني إما تموضعاً، وإما مكانة بالنسبة لغيره، ورتبة في نظام معين. أما الحيز المشغول، فيمكن تعريفه بأنه الامتداد والسطح والحجم الذي يشغله فرد أو شيء في المجال الفيزيائي بأبعاده وجرمه في الأصح (كما يقال أحياناً عن سيارة أو قطعة أثاث).

إن أفراد المجتمع من حيث كونهم كذلك، بالعلاقة مع مجال اجتماعي ومن خلالها (أو مع ميادين اجتماعية على الأصح)، بالإضافة إلى الأشياء باعتبارها مملوكة لأفراد، متوضعون في مكان من المجال الاجتماعي، يمكن تمييزه بالمكانة التي يحتلها بالنسبة لغيره من الأماكن (فوق، تحت، بين، إلخ) والمسافة التي تفصله عنها. وبما أن المجال الفيزيائي محدد بأطرافه الخارجية، فكذا المجال الاجتماعي محدد بالإقصاء المتبادل (أو التمايز) للمكانات التي يتكون منها؛ أي باعتباره بنية تَجاوُر لمكانات اجتماعية.

وهكذا تتبدى بنية المجال الاجتماعي، في أشد الظروف تبايناً، على شكل تعارض مكاني؛ حيث يقوم المجال المأهول (أو المملوك) بنوع من الترميز العفوي للمجال الاجتماعي. إذ ما من مكان في مجتمع تراتبي، إلا ويكون تراتبياً يعبر عن المراتب والفوارق الاجتماعية -بشكل مُحوَّر نوعاً ما- المحجوبة على الخصوص بـ(تأثير التطبيع) الناتج عن الوجود المستمر للوقائع الاجتماعية في العالم الطبيعي: فخلافات نجمت من السياق

التاريخي، قد تبدو ناتجة من طبيعة الأشياء (ويكفي أن نستحضر إلى أذهاننا فكرة (الحدود الطبيعية)).

ونجد هذه الحالة على سبيل المثال، في كل الانعكاسات المكانية للفوارق الاجتماعية بين الجنسين (في الكنيسة والمدرسة والأماكن العمومية، وحتى المنزل).

إن المجال الاجتماعي في الواقع يُترجَم في المجال الفيزيائي دائماً، بصورة مضطربة نوعاً ما؛ فالسلطة التي تعطيها ملكية رأس المال في مختلف أنواعه على المكان، تظهر في المجال الفيزيائي المُمتلَك، على شكل علاقة بين البنية المجالية لتوزيع أفراد مجتمع ما، والبنية المجالية لتوزيع السلع أو الخدمات الخاصة أو العامة. ومكانة فرد في المجال الاجتماعي تتبدى في المكان الذي يتوضع فيه في المجال الفيزيائي (فمن يقال عنه «دون نار أو مكان» أو «دون مكان إقامة ثابت» غير موجود اجتماعياً تقريباً)، والمكانة التي يشغلها مؤقتاً (مواضع الشرف التي تنظمها قواعد البروتوكول)، والمكان الذي يشغله بشكل دائم خاصة (العنوان الخاص والعنوان المهني)، بالنسبة لتموضع الآخرين. وتتبدى هذه المكانة أيضاً في الحيّز الذي يشغله (من الوجهة القانونية) عبر ممتلكاته (منازل وشقق أو مكاتب، أرض زراعية، أرض للاستغلال أو البناء.. إلخ). وكل ذلك يشغل حيّزاً، أو كما يقال أحياناً (استهلاك المكان) (باعتبار أن استهلاك المكان للتباهي، هو الشكل المفضل للتباهي بالسلطة). إن جزءاً من جمود بنى المجال الاجتماعي ينتج من كونها لصيقة بالمجال الفيزيائي، ولا يمكن تعديلها إلا بعملية ترحيل للأشياء، واقتلاع أو نفي للأشخاص؛ وهذا يقتضي تحولات اجتماعية مكلفة وشديدة الصعوبة.

إن المجال الاجتماعي وقد تحدد مادياً وموضوعياً، يتجلى في أنه توزِّع لشتى أنواع السلع والخدمات في المجال الفيزيائي، وتوزُّع لأفراد ومجموعات متموضعة فيزيائياً (باعتبارها أجساماً مرتبطة بمكان دائم) تتمتع بحظوظ للحصول على هذه السلع والخدمات التي تتفاوت في الأهمية (بحسب ما تملكه من رأسمال، والمسافة الفيزيائية بينها وبين تلك السلع،

والتي تعتمد هي أيضاً على هذا الرأسمال). ولذا فمن خلال العلاقة بين توزع الأفراد وتوزع السلع في المكان، تتحدد قيمة المناطق المختلفة للمجال الاجتماعي المتحقق موضوعياً.

تميل مختلف الميادين -أو إذا فضلنا- مختلف المجالات الاجتماعية الموضوعية فيزيائياً، إلى التراكب بشكل عام على الأقل. وهو ما يؤدي إلى احتشاد السلع الأكثر ندرة ومالكيها، في بعض الأماكن من المجال الفيزيائي (الشارع الخامس، فوبور سانت – هونوريه) وبهذا تتعارض في كل شيء مع الأماكن التي يتجمع فيها المُعدمون أساساً أو حصراً في بعض الأحيان (كالضواحي الفقيرة والغيتو). إن تلك الأماكن بكثافتها العالية في الملكية الإيجابية أو السلبية، تشكل مآزق للمحلل الذي بقبوله لها كما هي، يدَع ما هو جوهري يفلت منه؛ فشارع فوبور سانت – هونوريه يضم، مثل ماديسون أفنيو، بائعي لوحات، وتجار عاديات، وبيوتات الخياطة الراقية، وصانعي أحذية، ورسامين، وصانعي أثاث.. إلخ أي تشكيلة من المتاجر التي تشترك جميعها في أنها تشغل مواقع مرموقة (وإذن هي متجانسة فيما بينها) كل في ميدانه الخاص به، والتي لا يمكن فهم ما تتميز به، إلا إذا قارنّاها مع متاجر في نفس الميدان، في مواقع دونها قيمة، لكنها في مناطق أخرى من المجال الفيزيائي. فصانعو الأثاث في شارع فوبور سانت – هونوريه يتعارضون (من خلال اسمهم النبيل أولاً، ثم في جميع ممتلكاتهم، وطبيعة وجودة وسعر المنتجات المعروضة، والمنزلة الاجتماعية للزبائن) مع من يسمون بنجّاري الأثاث في فوبور سانت – أنطوان، كما يتعارض مصففو الشعر مع مجرد الحلاقين، وصانعو الأحذية مع الحذّائين.. إلخ. ويتأكد هذا التعارض من خلال تميز رمزي حقيقي يتمثل في وحدانية (الإبداع) و(المبدِع). واستلهام الأقدمية والتقاليد، ونبل المؤسس وأعماله، والدلالة عليها بأسماء مزدوجة نبيلة مستعارة من الإنكليزية غالباً. والأمر ذاته بالنسبة للعاصمة التي تشكل في فرنسا على الأقل مكان رأس المال؛ أي مكان المجال الفيزيائي الذي تتركز فيه الأقطاب الموجبة لكل الحقول، وأغلب الأفراد الذين يشغلون هذه المواقع المهيمنة. فلا يمكن إذن إعمال الفكر فيها بصفة واقعية إلا بمقارنتها بالمحافظات (وسكان

المحافظات) التي لا تعني سوى الحرمان (نسبياً) من العاصمة ومن رأس المال. فالتعارضات الاجتماعية المتجسّدة في المجال الفيزيائي (العاصمة / المحافظة مثلاً) تميل إلى التوالد في الأذهان واللغة، على شكل تعارضات تُكوّن مبدأ للرؤية والتقسيم؛ أي باعتبارها مقولات للإدراك والتقدير، أو بنيات عقلية (باريسي / ساكن المحافظة، أنيق / غير أنيق إلخ). وهكذا فإن التعارض بين (الضفة اليسرى) والضفة اليمنى الذي توضحه الخرائط والتحليلات الإحصائية للجمهور (فيما يتعلق بالمسارح)، أو مميزات الفنانين (فيما يتصل بالأروقة). يكون حاضراً في أذهان المتفرجين المحتملين، ومؤلفي المسرحيات أو الرسامين أو النقاد، على شكل تعارض يعمل كمقولة للإدراك والتقدير، بين الفن الذي يتسم بالبحث والفن البورجوازي (مسرح البولفار).

وبصورة أعم، نجد أن الإيعازات المكتومة والتنبيهات الصامتة لبنى المجال الفيزيائي المُمتَلَك، هي وسيلة تتحول البنيات الاجتماعية عبرها تدريجياً إلى بنيات ذهنية ومنظومات تفضيل. وبوضوح أكثر، فإن التمثل اللاشعوري لبنى النظام الاجتماعي يتم، دون شك، في جانب هام منه، عبر الممارسة المستديمة، التي تتكرر دون نهاية، للمسافات المكانية التي تتأكد فيها المسافات الاجتماعية، وأيضاً عبر انتقال وحركات الأجسام التي تنظمها هذه البنى الاجتماعية التي تحولت إلى بنىً مكانية؛ وبهذا تطبّعت، واصفة إياها بأنها صعود أو أفُول (كالصعود إلى باريس)، دخول (انضمام، اختيار، تبني) أو خروج (إقصاء، طرد، حرمان)، اقتراب أو ابتعاد عن مكان مركزي ذي قيمة: أنوه مثلاً بوقفة الاحترام التي تقتضيها الضخامة والعلو (علو نصب أو منصة أو منبر)، أو أيضاً جبهية الأعمال النحتية أو التصويرية، أو كل سلوكيات التقديس والاحترام التي يفرضها ضمنياً، مجرد الوصف الاجتماعي للمكان (موضع الشرف، مركز الصدارة.. إلخ). وكل المراتب العملية لمناطق المكان (جزء أعلى / جزء أسفل، جزء نبيل / جزء مخجل، مقدمة المسرح / الكواليس، الواجهة / خلفية الدكان، جانب أيمن / جانب أيسر، إلخ).

ونتيجة لكون المجال الاجتماعي في الوقت نفسه لصيقاً بالبنى المكانية والبنى الذهنية التي تنتج في جزء منها عن تمثّل هذه البنى، فالمجال

أحد الأماكن التي تتأكد فيه السلطة وتمارَس، تحت أكثر أشكال الحذق دون شك، على صورة عنف رمزي باعتباره عنفاً خفياً؛ إذ إن المجالات المعمارية بتنبيهاتها الصامتة التي تتوجه مباشرة إلى الجسم لتنال منه التقديس والاحترام، الذي يتولد من الابتعاد أو -على الأصح- من الكائن البعيد بُعد الاحترام؛ هذه المجالات هي، دون شك، المكونات الأكثر أهمية -لأنها غير مرئية- لرمزية السلطة، وللآثار الواقعية للسلطة الرمزية، (حتى بالنسبة للمحللين الذين يتعلقون غالباً بالإشارات الأكثر ظهوراً للسلطة الرمزية من تاج وصولجان).

الصراعات من أجل الاستحواذ على المجال

إن المجال أو، بشكل أدق، أماكن ومواضع المجال الاجتماعي المشيّأ، والمنافع التي تقدمها، تشكل رهانات صراع (ضمن شتى الميادين). فمنافع المجال قد تتخذ شكل منافع تموضع، ويمكن تحليلها إلى قسمين: ريوع الموقع، وسميت كذلك لأنها تقع قريبة من الأفراد والسلع النادرة المرغوبة (مثل التجهيزات التربوية والثقافية والصحية). ومنافع المكانة أو المرتبة (كتلك التي يقدمها عنوان ذو هيبة)، وهي حالة خاصة لمنافع التميز الرمزية المرتبطة بحيازة احتكارية لملكية متميزة. (يمكن قياس المسافات الفيزيائية، تقييساً مكانياً أو تقييساً زمانياً -وهو الأفضل- باعتبار أن التنقلات تأخذ وقتاً يطول أو يقصر بحسب إمكانية الوصول إلى وسائل النقل العمومية أو الخاصة؛ حيث إن السلطة التي يمنحها رأس المال تحت مختلف أشكاله، تعطي سلطة على الزمان في الوقت ذاته).

وهناك أيضاً منافع الاحتلال أو (الإشغال). إذ إن امتلاك مجال فيزيائي (باحة واسعة لوقوف السيارات أو شقة فسيحة) يمكن أن يكون أسلوباً لإبعاد وإقصاء كل تطفل غير مرغوب فيه (إنها «المناظر الضاحكة» للبيت الريفي الإنكليزي، التي تحوِّل الريف وفلاّحيه إلى مشهد من أجل متعة المالك، أو (منظر أخّاذ) للدعاية العقارية، كما يلاحظ ريمون ويليامز، في كتابه (بلدة وريف).

إن قدرة السيطرة على المجال بالاستحواذ (مادياً أو رمزياً) على السلع النادرة (العمومية أو الخاصة) التي توزع فيه، يعتمد على الرأسمال المُمتَلَك. فرأس المال يسمح بإبعاد الأشخاص والأشياء غير المرغوب فيهم وبالتقرب في الوقت ذاته من الأشخاص والأشياء المرغوبة (بفعل امتلاكهم لرأسمال هام، من بين أشياء أخرى) مقتصداً (الوقت خاصة) في المصاريف الضرورية للحصول عليها؛ إذ إن القرب في المجال الفيزيائي يسمح للقرب في المجال الاجتماعي بأن ينتج كل تأثيراته، وذلك بتسهيل تراكم رأس المال الاجتماعي أو التشجيع على هذا التراكم، والسماح -بشكل أوضح- بالاستفادة بصفة دائمة من اللقاءات العرضية أو المقصودة التي يتيحها التردد على الأماكن الفخمة. (إن امتلاك رأس المال يتيح أيضاً، التمتع بصفة الوجود في أكثر من مكان في وقت واحد تقريباً، من خلال السيطرة الاقتصادية والرمزية على وسائل النقل والاتصال، التي تتضاعف غالباً بفعل الإنابة التي تعني القدرة على الوجود والتصرف عن بعد بوساطة أشخاص آخرين).

وعلى العكس من ذلك، فإن من يعوزهم رأس المال يبقون بعيدين سواء فيزيائياً أم رمزياً عن السلع الاجتماعية الأكثر ندرة، ومجبرين على مخالطة الأشخاص والسلع الأكثر تنفيراً والأقل ندرة. وبهذا يؤدي انعدام رأس المال إلى جعل تجربة الغائية أكثر شدة، لأنه يقيد الفرد إلى مكان ما[1].

---

[1] عندما نستعرض على مستوى كل محافظة فرنسية، مجموع المعطيات الإحصائية المتاحة حول مؤشرات رأس المال الاقتصادي والثقافي، أو حتى الاجتماعي، وحول السلع والخدمات المقدمة على صعيد هذه الوحدة الادارية، يتضح أن أكثرية الفوارق الجهوية التي يُزعم غالباً أنها ترجع إلى حتمية جغرافية، يمكن إرجاعها إلى فوارق في رأس المال، استمرت تاريخياً نتيجة التمزيز الداثري الذي مورس باستمرار عبر التاريخ (بفعل ارتباط التطلعات، وخاصة في ميدان السكن والثقافة، في جزء كبير منها، بالإمكانية الموضوعية المتاحة لإشباعها). فبعد تحديد وقياس الجزء المرتبط ظاهرياً بالمجال الفيزيائي من الظاهرة الملاحظة – وهو يعكس في الواقع اختلافات اقتصادية واجتماعية – يمكن التطلع إلى عزل الباقي الذي يمكن إرجاعه إلى تأثير القرب والمسافة في المجال الفيزيائي بحد ذاته. وتلك هي مثلاً حالة تأثير الستار الحاجب الذي ينتج عن الامتياز الأنتربولوجي، الذي يُمنح للحاضر المدرك مباشرة والآني للمجال المرئي والمحسوس للأشياء والأفراد الحاضرين (الجيران المباشرين). وهو ما يؤدي إلى أن عدوانية تنجم عن القرب في المجال الفيزيائي (نزاعات بين الجيران على سبيل المثال) قد تخفي تضامناً مرتبطاً بالموقع المشغول في المجال الاجتماعي أو الوطني أو الدولي. ومَثَلُ ذلك، إن التصورات التي تفرضها وجهة نظر مرتبطة بالموقع المشغول في المجال الاجتماعي المحلي (القرية مثلاً) يمكن لها أن تمنع النظر إلى الموقع المشغول في المجال الاجتماعي الوطني.

يمكن أن يتخذ الصراع من أجل حيازة المجال، شكلاً فردياً، مثل الحراك المكاني ضمن جيل واحد. أو على مدى أجيال. فالتنقل بين العاصمة والمحافظات جيئة وذهاباً مثلاً، أو العناوين المتتالية داخل المجال المتراتب للعاصمة، مؤشر جيد للنجاح (مثل أفراد مختلفين بالعمر والمسار الاجتماعي، فإن كوادر عليا شابة، أو كوادر متوسطة مسنة مثلاً قد يتواجدون معاً بصفة مؤقتة في المناصب نفسها، وقد يتواجدون أيضاً في الأماكن المتجاورة ذاتها).

إن النجاح في هذه الصراعات يعتمد على رأس المال المُمتَلَك (بشتى أنواعه). وفعلاً، فإن الخطوط المتوسطة لحيازة السلع والخدمات المادية أو الثقافية المتعلقة بمسكن معين، تتحدد بالنسبة لمختلف الشاغلين لهذا المسكن بحسب قدرة الحيازة (مادية كانت -أموال، وسائل خاصة- أم ثقافية) التي يتمتع بها الساكن شخصياً. إذ يمكن إشغال مسكن فيزيائياً دون سكناه بمعنى الكلمة، إذا لم تتوافر الوسائل المطلوبة ضمنياً، وأوّلها مظهر ما.

وإذا كان المسكن يشارك في صنع المظهر، فإن المظهر يشارك أيضاً في صنع المسكن عبر وظائف المسكن الاجتماعية المناسبة كثيراً أو قليلاً، والتي تميل إلى ممارستها. وهكذا فالرأي القائل بأن التقريب المكاني لأفراد متباعدين جداً في المجال الاجتماعي، قد يؤدي في حد ذاته إلى التقارب الاجتماعي، مشكوك فيه. والواقع أنه لا شيء أبعد عن التحمل من المقربة الفيزيائية (تُعاش اختلاطاً) لأناس متباعدين اجتماعياً.

ومن الميزات الأكثر أهمية التي يفرضها الإشغال الشرعي لمكان ما، تلك التي لا تكتسب إلا بالإشغال المستديم لهذا المكان، والمخالطة المستمرة لشاغليه الشرعيين: وهذه بوضوح حالة الرأسمال الاجتماعي للعلاقات والصلات (ولاسيما الصلات المفضلة لصداقات الطفولة والمراهقة)، والمظاهر الأكثر جلاءً للرأسمال الثقافي واللغوي، مثل نمط الحركات والنطق (اللكنات) إلخ. فمجموعة السمات هذه هي التي تعطي مكان الميلاد كل ثقله (وبدرجة أقل لمكان الإقامة).

وعلى الذين يلجون مجالاً، التحلي بالشروط التي يتطلبها من شاغليه، وإلا اعتُبروا دخلاء. من مثل امتلاك رأسمال ثقافي ما، يمنع انعدامه الاستحواذ الفعلي على السلع المسماة عمومية، أو حتى نية الاستحواذ عليها. والمقصود هنا المتاحف بالطبع، لكن ذلك يصدق أيضاً على خدمات تعتبر ضرورية بالإجماع؛ كخدمات المؤسسات الصحية والقضائية.

لكل امرىء باريس التي تتناسب مع رأسماله الاقتصادي، وأيضاً رأسماله الثقافي والاجتماعي (فلا يكفي الدخول إلى مركز بوبورغ للاستحواذ على متحف الفن الحديث). وفعلاً، فإن بعض المجالات، ولاسيما الأكثر انغلاقاً ورقياً، لا تتطلب راسمالاً اقتصادياً وحسب، بل رأسمال ثقافي ورأسمال اجتماعي أيضاً. وهي تقدم بدورها رأسمالاً اجتماعياً ورأسمالاً رمزياً، بفضل ظاهرة النادي التي تنتج من تجمع مستديم (في أحياء فخمة أو منازل أنيقة) لأشخاص وأشياء. باعتبارهم مختلفين عن الأغلبية؛ فهم يشتركون عامة في كونهم ليسوا من العامة. أي بمقدار ما يمارسون الإقصاء قانوناً (بشكل من الحصر العددي) أو في الواقع (باعتبار أن الدخيل سيشعر في النهاية بإقصاء ينزع منه المنافع المقترنة بالانتماء) لكل أولئك الذين لا يستوفون الخصال المرغوبة، أو يتصفون بصفة واحدة (على الأقل) من الصفات غير المرغوبة.

وهكذا فالحي الفخم، مثله مثل نادٍ، مؤسَّس على الإقصاء النشط للأشخاص غير المرغوب فيهم، ويكرِّس كل ساكن فيه بصفة رمزية، إذ يسمح له بالإسهام في رأس المال المتراكم من قِبل مجموع المقيمين فيه. وعلى العكس من ذلك، تحط الأحياء الموصومة رمزياً، من قيمة من يسكنونها. فبما أن الحظوظ الضرورية للإسهام في مختلف المناشط الاجتماعية تعوزهم، فليس لديهم سوى تقاسم حرمانهم. ولذا فإن تجمع سكان يتجانسون في الفقر بالمكان ذاته، يؤدي إلى مضاعفة الفقر؛ وخاصة في ميدان الثقافة والممارسة الثقافية. إذ إن الضغوط التي تمارس في مستوى الصف أو المدرسة، أو في مستوى الحي من قِبل الأكثر فقراً، والأكثر بعداً

عن المتطلبات الضرورية لحياة (عادية)، تؤدي إلى انجذاب إلى الأسفل، ومن ثم إلى تسوية الأقل سوءاً بالأسوأ، ولا تترك مخرجاً إلى الهرب (وهو ممتنع في الأغلب لنقص المورد) إلى أماكن أخرى.

وقد تأخذ الصراعات من أجل المجال أشكالاً جماعية، كتلك التي تجري على الصعيد الوطني حول سياسات الإسكان، أو تلك التي توجد على الصعيد المحلي، بشأن تشييد وتوزيع المساكن الشعبية، أو الاختيارات المتصلة بالتجهيزات العمومية.

أما الصراعات الأكثر حسماً فهي تلك التي تستهدف في النهاية سياسة الدول. التي تتمتع بسلطة واسعة على المجال، عبر قدرتها على تشكيل سوق الأراضي والمساكن بالإضافة إلى جزء كبير من سوق العمل والمدرسة. وهكذا ومن خلال المواجهات والمشاورات بين كبار موظفي الدولة -على انقسامهم هم على أنفسهم- وأعضاء المجموعات المالية من أصحاب المصلحة المباشرة في تسويق القرض العقاري، وممثلي الجماعات المحلية، والدواوين العمومية، تمّت تهيئة سياسة الإسكان التي قامت بعملية حقيقية لبناء سياسي للفضاء الاجتماعي. وبقدر ميلها إلى بناء مجموعات متجانسة ذات قاعدة مكانية؛ كانت هذه السياسات مسؤولة عن جزء كبير مما يمكن ملاحظته مباشرة، في المجمعات السكنية الكبيرة المتداعية، أو الأحياء التي هجرتها الدولة.

لوبيك ج. د. فاكانت

أمريكا من حيث هي مدينة فاضلة (طوبائية) مقلوبة

لم يتميّز عقد الثمانينيات بتزايد الفوارق بين سكان المدن، وكراهية الأجانب، وحركات احتجاج شباب «الضواحي» الشعبية[1] وحسب. بل تميزت أيضاً بشيوع خطاب من نموذج جديد، حول موضوع «الغيتو»، يوحي بتقارب مفاجئ بين الأحياء الفقيرة في المدن الفرنسية وبين المدن الأمريكية. وهكذا فالحديث عن الغيتو الذي غذته أفكار جاهزة مستوردة من وراء الأطلنطي (شيكاغو، برونكس، هارلم..) فرض نفسه كواحد من الأفكار المتداولة في النقاش العام الجاري حول المدينة.

ما كان لهذا الخطاب الوهمي[2] أن نتوقف عنده، لو لم تكن له نتائج سيئة. إذ أن الأصوات الناعقة بالمصائب، بتلاعبها في ميدان الإثارة عن طريق صور غريبة صُنعت في الولايات المتحدة، مذهلة بقدر ما هي مبهمة، واستحضارها بمناسبة وبدون مناسبة شبح «المتلازمة الأمريكية». هذه الأصوات وقفت حائلاً دون تحليل دقيق للأسباب الحقيقية لتحلل الطبقة العمالية الفرنسية، وللارتباك العميق للناس، الذين وجدوا وسائلهم التقليدية في إعادة الإنتاج والتمثيل الجماعي وقد أضحت عديمة القيمة، بفعل

---

[1] عادل جزولي، «سنوات الضاحية» باريس، سوي 1992.

[2] يمكن تطبيق هذا المفهوم بعد شيوعه على كل جماعة مبهمة التعريف، بغية التضخيم، مثل: «الغيتو الطلابي»، «غيتو المسنين»، «غيتو الشواذ جنسياً». إلخ.

التحول القريب العهد لسوق العمل وللميدان السياسي. ثم غذّت هذه الأصوات -على كره منها مع ذلك- دوامة الوصم، التي جعلت من المجمعات السكنية الشعبية أماكن لَعينة بقدر ما هي مرادفة لعدم الجدارة الاجتماعية والنفي المدني. وبهذا فاقمت ثقل الهيمنة الرمزية التي يتعين على سكان هذه الأحياء تحملها، علاوة على إقصائهم الاجتماعي الاقتصادي.

وأخيراً، فإن هناك مفارقة تتمثل في أن موضوع «الغيتو» قد حجب الدروس التي يمكن استخلاصها من استعمال معقول للمقارنة عبر الأطلنطي، والتي لا تقوم على البحث عن وجوه تشابه أو تقارب بين الضاحية الفرنسية وبين الغيتو الأمريكي، باعتبارهما مجموعتين اجتماعيتين -مكانيتين متباينتين بعمق سواء في البنية أم المسار والحركية. إذ تبين المقارنة التاريخية والاجتماعية أنه إذا كان الغيتو و«الضاحية» يشتركان في كونهما - كلاً منهما في النظام الوطني الخاص به- مناطق نفي اجتماعي تقع في أدنى المراتب العمرانية، فإنهما يختلفان في تركيبهما الاجتماعي، ونسيجهما المؤسساتي، ووظيفتهما ضمن الحاضرة، وخصوصاً في آليات ومبادىء التمييز والتكتل اللذان هما نتاج لها. وللتبسيط باختصار، فإن الإقصاء في الجانب الأمريكي يجري أولاً على قاعدة عرقية، ترجع لقرون خَلَت، تغاضت الدولة عنها أو دعمتها، ثم إلى الإيديولوجية الوطنية. أما في الجانب الفرنسي فالإقصاء يقوم على معايير طبقية، خففت السياسة العامة من وطأتها إلى حد ما. حيث إن «الضواحي» المتدهورة في فرنسا، على عكس هذه (البانتوستانات) الحضرية المتمثلة في أحياء الغيتو الأمريكية الكبرى؛ ليست مجمعات اجتماعية متجانسة، تستند إلى تقسيم عرقي ثنائي للمجتمع، تقبله الدولة وتتمتع باستقلال مؤسساتي ذاتي، وتقسيم متقدم للعمل، يدعم هوية ثقافية واحدة.

إلا أنه من المفيد، في المقابل، استعمال الغيتو الأمريكي المظلم كنوع من المجسم في علم الاجتماع، يسمح بتكوين فكرة واقعية عن التأثيرات التي قد يؤدي إليها مع الوقت تجذير عمليات التثنية (من ثنائي) التي توجد

بذورها اليوم ضمن الأحياء الفقيرة في فرنسا. إذ إن الغيتو الأمريكي يرينا، على غرار المرآة المشوهة والمضخمة في آن، مشهداً لنموذج العلاقات الاجتماعية القابلة للنمو، ما أن تتخلى الدولة عن مهمتها الأولى، وهي مساندة البنية الأساسية التنظيمية الضرورية لكي يؤدي مجتمع مدني معقد بمجموعه وظيفته. فالدولة بالتزامها سياسة التآكل المنظم للمؤسسات العامة؛ تترك فئات كاملة من المجتمع لقوى السوق، ومنطق كل امرىء ملزم بنفسه[1]، ولاسيما تلك الفئات التي تفتقد كل الموارد الاقتصادية والثقافية أو السياسية، وتعتمد اعتماداً كلياً على الدولة لبلوغ الممارسة الفعلية للمواطنة.

بعد الذروة التي بلغها الغيتو الأمريكي الأسود في سنوات الخمسينيات، عرف تردياً مفاجئاً وعاماً. ويظهر هذا التطور من خلال هجرة سكانه المتواصلة، والتلف المتسارع للمباني وإطار الحياة. كما يُترجَم أيضاً بالارتفاع الحاد للبطالة والإجرام وكل الأعراض المرضية والسلوكيات المرضة (الإدمان على الكحول، الإدمان على المخدرات، الانتحار، أمراض القلب والأوعية الدموية، الأمراض العقلية، إلخ) التي تصاحب البؤس العظيم عموماً، ووهن العزيمة الجمعي والفردي. وعلاوة على ذلك، فإن تسيير شؤون هؤلاء السكان المحكوم عليهم بنوع من النفي الداخلي يستتبع تكاليف متزايدة لحواضر تتناقص مواردها الجبائية، بقدر ما تعمد العائلات من البيض والميسورين لمغادرتها إلى الأحياء السكنية الخارجة عن المركز.

إن المناقشات القريبة العهد حول حل المسألة، سواء أكانت علمية أم سياسية، رجحت بالتناوب كأسباب كبرى للتدني المستمر لمنعزلات التمييز العرقي داخل المدن؛ العنصرية و«ثقافة الفقر» أو ما يزعم أنه الانحطاط الأخلاقي للبروليتاريا السوداء الدنيا، والتأثيرات المفسدة المفترضة لبرامج المعونة الاجتماعية، وأخيراً، هروب الطبقة المتوسطة السوداء وهجر

---

[1] أي لعلاقات القوة الغاشمة التي تكون في مصلحة الأقوى. لأنه إذا كان السوق وهماً اجتماعياً، كما تبينه الأعمال الأكثر تقدماً في علم الاجتماع الاقتصادي، فهو أيضاً وهم مُغرض، ليس للجميع فيه مصلحة متساوية، بينما نتائجه الاقتصادية والاجتماعية واقعية، من جهتها.

التصنيع. وعلى كلٍ فسياسة الدولة الأمريكية المعتَمَدة في التخلي عن المدن هي أفضل من يقدم الحساب عن الطابع التراكمي وذاتيّ الصيانة لعمليات التفكك الاجتماعي التي هي موضع الاتهام. لأن سياسة التخلي المدني والاجتماعي للحكومة الأمريكية، في تقويض البرامج العمومية الضرورية لسير مؤسسات الغيتو، وتخفيض الموارد المخصصة لدعم المقيمين فيه تخفيضاً حاداً، أدت إلى تهديم منظم لبنية الغيتو وصنعت منه مدينة عذاب حقيقية. ولا ينبغي للاهتمام الذي أولته وسائل الإعلام لتفجر الغضب الذي أشعل لوس أنجلس عام 1992، نتيجة الحكم ببراءة رجال شرطة بيض اتهموا في قضية رودني كينغ، أن يحجب الفتن الصامتة للحياة اليومية التي تجعل الغيتو ساحة حرب دائمة في سبيل الأمن والبقاء. فعلى الرغم من أن هذه الفتن أقل ترويعاً من الهياجات الكبرى، إلا أنها ليست أقل تدميراً. وإذ يجد الشعور بانعدام الأمن في أحياء (HLM)(*) بالضواحي الفرنسية مصدره الرئيسي في جنح الشباب الصغيرة، فإن جو التوتر الذي يرمي بثقله على الغيتو الأمريكي يضرب بجذوره في وقائع القتل والاغتصاب والاعتداءات الحاضرة دوماً بأخطارها.

وهكذا في عام 1988، بحث الاثنان وثلاثون قاضياً في محكمة الجزاء التابعة لمنطقة كوك الإدارية التي تشمل محلة شيكاغو بملايينها الثلاثة 56204 تهمة، منها 3647 حالة ضرب وجروح بليغة و8419 اغتصاباً و1584 سطواً مسلحاً و2569 حادثة «عنف موصوف باستعمال السلاح» و2009 حوادث قتل واغتيال متعمد. وقد ارتكبت غالبية هذه الجرائم في أحياء السود بالغيتو - من قبل سكانها، لكن ضدهم أيضاً على وجه الخصوص. عندما سألت زعيم عصابة سابق (لمريدي رجال العصابات السود) لِمَ يتفحص جوار بنايته دائماً، قبل الدخول إليها أو الخروج منها؛ أجابني: عليك بالحذر دائماً، أتعرف لماذا؟ إنه قانون الغاب، فإما أن تَعُض أو تُعَض. وقد اخترت منذ زمن طويل، أن لا أُعَض من أحد، وأنت ماذا تختار؟

(*)السكن المعتدل الكراء.

وبالفعل، فإن الاعتداءات وإطلاق النار أمور شائعة في المجمعات السكنية بالجهة الجنوبية (ساوث سايد) التي تعج بالعصابات لدرجة أن الأمهات يعلِّمن معها أطفالهن منذ نعومة أظفارهم كيف ينبطحون على الأرض، لاتقاء الرصاص الطائش. ويقتصدن من دخولهنَّ الضئيلة ما يدفعن لهم شهرياً به تأميناً على الحياة. وليس من النادر في أشهر الصيف تسجيل ما بين خمس أو ست حوادث قتل كل نهاية أسبوع بمناسبة Drive – by shooting (إطلاق النار من سيارة سائرة).

والحق أنه ليس من الصعب الحصول على مسدس يباع بحرية في الشارع بـ 300 دولار، وهي التعرفة «الرسمية» لمسدس نظيف، وبنصف هذا المبلغ لسلاح استعمل سابقاً.

«إن الوضع هنا كأرض منسية» يعلق شرطي من كتيبة التدخل في وينتوورث، التي تقع في قلب الغيتو الجنوبي للمدينة. فالمقاطعة ليس فيها في الواقع وسطياً إلا شرطي واحد لكل 277 جريمة خطيرة مرتكبة، أي أقل بست مرات من المقاطعة البيضاء البورجوازية لـ نيرنورث سايد، التي يوجد فيها حي جولد كوست الذي يتمتع علاوة على ذلك بحماية أعداد كبيرة من الشرطة الخاصة.

ومع أن شرطة وينتوورث لا تنقطع عن الاستجابة لنداءات مستعجَلة من بداية الدوام حتى نهايته، إلا أن هذا لا يمنع بقاء عدد من طلبات التدخل دون رد، لأن كل أفراد الشرطة المتوافرين خرجوا للطراد[1].

اضطر هذا العنف المستديم سكان الغيتو إلى الحد بشدة من خروجهم، والتخطيط لتحركاتهم بغية قضاء الحد الأدنى من الوقت في الشارع. متجنّبين النقل العام والأماكن العامة قدر استطاعتهم. غير أن هذا لا يعني أن المرء في أمان وهو في بيته؛ إذ يشير الشرطي نفسه: «إذا ما نشب حريق، فإنهم لا يستطيعون حتى الخروج من بيوتهم، لكثرة ما

---

[1] «وضعت 849 حادثة قتل عام 1990 في الكتاب الحزين للأرقام القياسية» شيكاغو تريميون، 2 كانون الثاني 1991.

يعتصمون به فيها من قضبان حديدية وشبابيك. ويكون خوفهم من الشدة بحيث يمنعهم من الخروج إلى الشارع». وحتى المؤسسات المدرسية ليس بوسعها ضمان السلامة الجسدية لتلاميذها ومعلّميهم، على الرغم من استعمال كاشفات المعادن، وممارسة التفتيش الشخصي بين البنايات. ويتصدر موت طلاب ثانويين بطلقة نارية أو طعنة سكين من أحد زملائهم في محيط مؤسستهم بشكل دوري الصفحات الأولى للجرائد المحلية، دون أن يثير ردود فعل سياسية إلا فيما هو تعبير رمزي تماماً عن الأسف والشفقة. ولهذا يرسل العديد من الأسر أولادها للإقامة مع أقارب لهم في الولايات الجنوبية أو المدن المجاورة للاطمئنان على أنهم سينهون دراستهم وهم أحياء.

وإذن فعلى كل امرىء أن يكون مستعداً دائماً، للدفاع عن نفسه وعياله بوسائله الخاصة؛ لأن الشرطة زيادة على كونها مصدر خوف بسبب طرقها العنيفة، معروفة بأنها عاجزة عن حماية المشتكين من الأعمال الانتقامية التي قد تقوم بها العصابات ضدهم أو ضد القريبين منهم؛ وهو احتمال يزيد من ترجيحه كون السجون مملوءة لآخرها، ولا يتم حبس المجرمين والجانحين فور القبض عليهم، بل يطلق سراحهم لنقص الأماكن. وهكذا فسجن مقاطعة كوك المكون من بناية قديمة أُنشئت في 1929 لاستيعاب 1200 سجين، يحتوي الآن حوالي 8000 سجين، يضطر ألف منهم تقريباً للنوم على فرش تلقى على الأرض مباشرة. وقد تعين على مصلحة السجون سنة 1988 وحدها إطلاق سراح 25000 مذنب نتيجة اكتظاظ السجن بالنزلاء. في هذه الظروف، نفهم بسهولة أن سكان الغيتو يترددون في طلب ممثلي القانون، كما تقول أغنية لمجموعة بوبليك أنمي: «911 نكتة» (أي «شرطة النجدة شيء زائف»).

إن الإجرام المستديم باعتباره المسؤول عن شبه اختفاء المجال العمومي داخل الغيتو، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتفكك الاقتصاد المحلي. فمنذ عام 1968، أكد تقرير لجنة كيرنر، التي كلفها الرئيس جونسون بتحديد أسباب موجة الفتن العرقية التي هزت مائة من الحواضر الأمريكية، بقلق

«أن حركة سحب رؤوس الأموال الخاصة متقدمة جداً، داخل مناطق التمييز العنصري في مدننا الكبرى». ويبدو أن هذه العملية اكتملت، بعد عشرين سنة؛ إذ أدى جفاف الاستثمارات والحوافز التي تقدمها الدولة، وفقدان آلاف الأعمال اليدوية الناتج عن إعادة الهيكلية الصناعية، إلى إفراغ الغيتو عملياً من كل نشاط تجاري. ويشهد على ذلك الشارع الثالث والستون في حي وودلاون، الذي كان من الشرايين التجارية الأكثر حيوية في شيكاغو بعد الحرب. أما الآن فلم يعد إلا صفوفاً كئيبة من البنايات المتداعية، وأراضي فضاء تعج بالقاذورات والمخازن المحروقة التي تتعفن هياكلها المنتصبة في ظل سكة القطار التي تعلوها. كان وودلاون عام 1955 يحتوي على 700 مؤسسة صناعية وتجارية، ولم يكن فيه مسكن واحد ولا مقسم عقاري شاغراً، والأعمال مزدهرة فيه، حتى أنه نال لقباً يبعث على الفخر هو «الكيلومتر العجيب». أما اليوم فالأعجوبة بالنسبة للمائة من التجار الصغار الباقين تتمثل في تجنب الإفلاس إلى حد ما.

وعلى عكس الحاضرة التي أخذ تركيبها الاجتماعي المهني بالتعقّد، مع الانتقال إلى اقتصاد الخدمات، فإن البنية الاجتماعية للغيتو في شيكاغو تحولت نحو تجانس أكبر بسبب تفاقم البطالة المستمر، والبطالة الجزئية. إذ كان معدل النشاط الاقتصادي في الغيتو لا يقل إلا قليلاً عن مثيله في باقي المدينة. بينما نجد في 1980 ثلاثة بالغين من كل أربعة تقريباً دون عمل. وهكذا انخفض عدد العمال خلال ثلاثة عقود من 35800 إلى أقل من 5000، وعدد الياقات البيضاء (مستخدمي التجارة والمكاتب، والإطارات والمهن الوسيطة والحرة) انخفض إلى النصف: من 15300 إلى أقل من 7400، في الوقت الذي كانت تتضاعف فيه أعداد الطبقة الوسطى السوداء خمسة أضعاف في شيكاغو الكبرى. وبالتالي فأكثر من ستة مقيمين من كل عشرة في قلب «الحزام الأسود» يعتمدون في بقائهم اليوم على المعونة الاجتماعية. وأربعة من كل عشرة كبروا في كنف عائلة تعتمد على المعونة.

ولم يجد سكان الغيتو في مواجهة انهيار سوق العمل المأجور، وعدم

كفاية المعونة الاجتماعية الصارخ أمامهم خياراً، في سبيل البقاء، إلا الاتجاه إلى الاقتصاد غير الرسمي للشارع، ولاسيما في قطاعه الأكثر نشاطاً، أي تجارة المخدرات.

فما أن شرعت العصابات الثلاث الرئيسية التي تهيمن على شبكات التوزيع داخل المدينة وهي فيس لوردز، ديسيبيل، الركن، في إعادة بيع الكراك ومشتقاته، حتى سقطت أسعار الكوكائين في شيكاغو من 55000 إلى 17000 دولار للكيلو غرام؛ حتى أن المرء يستطيع الحصول على مقدار من المسحوق بمبلغ ضئيل هو عشرة دولارات. وأصبح ترويج المخدرات بين جمهور عريض من الزبائن صناعة حقيقية، أرقام مبيعاتها تعد بمئات الملايين سنوياً. مجهّزة بتقسيم منظم للعمل. وهي تشكل إلى الآن مورد التوظيف الرئيسي المتاح لشباب الغيتو الذين لفظتهم المدرسة، ورفضهم الاقتصاد المشروع. صحيح أنهم يتعرضون لمخاطر جمة، غير أنهم بالإضافة إلى قدرتهم على العمل في سن مبكرة (حتى قبل سن العاشرة) فإن المؤهلات المطلوبة ضئيلة، وأوقات العمل مرنة، والأرباح عالية جداً بالقياس إلى قطاع الاستخدام الهزيل.

إن نمو هذا الشكل القوي لـ«رأسمالية النهب» (ويبر) الذي يمثل ترويج المخدرات رأس الحربة فيه هو أحد الأسباب الرئيسية لوباء العنف الجارف الذي يضرب الغيتو. فمن جانب الاستهلاك، تشكل السرقة وجرائم الشارع فعلاً الوسيلة الأكثر يسراً التي يستعملها متعاطو المخدرات للحصول على جرعتهم اليومية. أما في جانب التوزيع، فيشكل اللجوء إلى القوة العضلية وسيلة لابد منها لهذا الضرب من النشاط، وأداة تسيير وضبط لعمليات التبادل؛ لا يستطيع أي تاجر الاستغناء عنها تحت طائلة التصفية من قبل منافسيه. ومهما يكن من أمر، فما التوسع المدهش لتجارة المخدرات إلا العَرَض الأكثر وضوحاً لنوع من تحويل اقتصاد الغيتو إلى اقتصاد عالم ثالث. وعلامات ذلك الأكثر جلاءً هي تعميم الحرف غير المشروعة، والعمل باليومية، وتزايد «المهن الصغيرة» وعودة أعمال الجهد العضلي وأعمال

الخدمة في البيوت أو بالقطعة، وازدهار مجموعة من المناشط التي تقل شرعيتها أو تكثر -بيع الدم، البغاء، الربا الفاحش، التعامل غير المشروع بالبطاقات التموينية أو بطاقات المعونة الطبية، إلخ-.

إن تراجع اقتصاد التجارة وتدهور ظروف الحياة في الغيتو بلغا حداً، لم يعد معه القطاع العام قادراً على تأدية وظيفته الدنيا في تقديم الممتلكات الجماعية والأمن والسكن والصحة والتربية والعدالة. والأسوأ من ذلك، هو أن المصالح العمومية، باعتبار اقتصار زبائنها على الشرائح المهمّشة للبروليتاريا السوداء، قد تنقلب إلى أدوات للمراقبة والشرطة، مهمتها منذئذ احتواء السكان في المنعزلات المتدنية التي خُصّصت لهم. جانحة بذلك إلى زيادة عزلتهم ووصمهم، عوضاً عن الإسهام في تخفيف المظالم التي يرزحون تحتها، إلى درجة جعلت تلك المصالح تجري عملية فصل واقعي للغيتو عن باقي المجتمع. وبهذا تتحول السلطة العمومية من أداة كفاح ضد الفقر إلى آلة حرب ضد الفقراء.

وبما أن الدولة فقدت الرقابة على هذا الجزء من أرضها، فهي تجد من الصعوبة بمكان تسيير المؤسسات التي عليها التكفل بها. وتلك حال السكن الشعبي، فسلطة الإسكان في شيكاغو التي تدير القطاع العام للمساكن في المدينة (وأغلبيتها ضمن الغيتو) عاجزة عن تقديم قائمة بالشقق الصالحة للسكن والموجودة تحت تصرفها. فهي تعترف بأنها تؤوي بالإضافة إلى مستأجريها الرسميين وعددهم 200.000، رغماً عنها، من 60.000 إلى 100.000 محتل غير شرعي -على الرغم من قوائم الانتظار لـ 60.000 عائلة. كما يوجد في بعض الأحياء سكان غير رسميين أكثر من السكان المسجلين في السجلات. ولهذا وضع المدير الجديد لسلطة الإسكان في شيكاغو عام 1989 برنامجاً طموحاً يهدف إلى «تنظيف» المجمعات الكبرى في ساوث سايد وإخراج المحتلين غير الشرعيين والعصابات منها. لكن «حملات المداهمة» التي خُطّط لها بكل سرية أُفشي سرها- وبعدما تلقى عدة تهديدات بالموت، تخلى عن المشروع.

واضطرت المصالح الاجتماعية للمدينة إلى الانسحاب من قلب الغيتو بسبب خطورته. فالمساعدون الاجتماعيون المعينون لمنطقة وينتوورث يرفضون زيارة «زبائنهم» في البيوت، ويكتفون باستدعائهم إلى مكاتبهم في مركز المدينة، مرة كل ستة أشهر. ولم تعد شيكات المعونة الاجتماعية توزع عن طريق البريد، بل تسلم لأصحابها مباشرة بوساطة مكاتب «تحويل الأموال» (وهي مكاتب خاصة تقوم بدور وكالة مالية وإدارية ضمن الغيتو) بغية تجنب السرقات بكسر علب البريد، وتهريب بطاقات المعونة الاجتماعية. ومهما يكن من أمر، فإن تنظيم المصالح الاجتماعية يهدف إلى تقليل عدد أصحاب الحق في المعونة الاجتماعية، أكثر مما يهدف إلى مساعدة العائلات المحتاجة؛ بغية خفض المصروفات الاجتماعية التي يراها الناخبون البيض من الأكثرية، لا تطاق. والدليل على ذلك هو مضاعفة مكتب المعونة الاجتماعية في شيكاغو للرقابة الحازمة والإجراءات البيروقراطية؛ إذ يخصص جزءاً من ميزانيته للتجسس على المستفيدين من المعونة بهدف «التقاط» المزورين المحتملين. ويستعمل شتى الوسائل لتخفيض عدد الذين يتلقون المعونة في الغيتو؛ مثل وضع رقم هاتف مجاني تحت تصرف الواشين المغفَلي الهوية، وإصدار نداءات في الصحف تحض على الوشاية، ومكافأة المخبرين المكلفين بالمراقبة، والزيارات المفاجئة للمشتبه بهم في بيوتهم، إلى درجة لا يتردد سكان الغيتو معها في مقارنة المصالح الاجتماعية بالـ KGB.

ومع ذلك فالمدرسة هي التي ترمز أكثر ما يكون إلى الإفقار الشديد الذي يعاني منه القطاع العام في داخل المدينة؛ إذ أضحت المنظومة التربوية، بعد أن هجرها البيض والطبقات المتوسطة والعليا كما تُهجر سفينة غارقة، ضرباً من «الحظيرة المدرسية» يُزَرَّب فيها أطفال الغيتو لانعدام شيء آخر. يأتي تلاميذها أساساً من عائلات السود أو اللاتينيين (بمعدل 85٪) التي تعيش دون خط الفقر الرسمي (بمعدل 70٪). ولا يكاد يصل إلى نهاية الدراسة الثانوية في وقتها الطبيعي إلا ربع التلاميذ (على الرغم من عدم وجود أي فحص انتقالي بين الصفوف) حيث توجه الأغلبية الساحقة منهم إلى فروع مهنية لا تؤدي إلى شيء. والمستوى الدراسي منخفض إلى درجة

ينهي التلميذ فيها دراسته الثانوية في ثانوية مارتن لوثر كينغ، دون أن يكون قادراً على كتابة جملة تامة، أو القيام بعملية كسور حسابية بسيطة. والحق أن مديرية التربية في شيكاغو لا تصرف على التلميذ إلا نصف المبلغ المتاح للمدارس الحكومية في المدن الميسورة المجاورة؛ ومن هنا تأتي الندرة المزمنة للمعلمين وقاعات الدرس والأدوات، التي تعاني منها مؤسسات الغيتو. ولهذا لم يرسل أي عمدة من عمد شيكاغو الخمسة الأخيرين أولاده إلى ثانوية حكومية. ومثلهم مدير التربية، وأكثر من نصف أعضاء الهيئة التدريسية. ويعترف أحد أعضاء المجلس البلدي قائلاً: «لا يرسل أبناءه إلى المدرسة الحكومية إلا من فقد عقله».

أدى ضياع المؤسسات العمومية مع الوقت إلى تصحر تنظيمي للغيتو، لأنه يحكم على المؤسسات الأهلية والمنظمات الخاصة التي ترتبط بها بالموت البطيء. كما في هذا الحي المنكوب في وست سايد الذي يعد 61.000 ساكن، يعيش نصفهم دون الخط الفيدرالي للفقر، وتقارنه إحدى ساكناته بـ«ثقب أسود» «بوسعنا تعداد ما ينقصه بسهولة. فلا مصرف فيه سوى مكتب «تحويل الأموال» الذي يقتطع ما قد يصل إلى ثمانية دولارات لكل شيك من المعونة الاجتماعية يصرف. ولا مكتبة عمومية أو دار للسينما، ولا باحة للتزلج أو ملعب بولينغ لتسلية شباب الحي. وليس للعجزة سوى عيادتين، (..) كلاهما على شفير الإفلاس وستضطران للإغلاق في نهاية 1989، مع أن معدل وفيات الأطفال يفوق مثيله في عدد من بلاد العالم الثالث كالتشيلي وكوستاريكا وكوبا وتركيا. ولا يوجد مركز لإزالة السموم عن مدمني المخدرات، مع أن الإدمان على المخدرات يتصاعد».

إن إخفاق المصالح العمومية صارخ في هذا القطاع من الغيتو. لدرجة جعلت الأم تيريزا بعد زيارتها له 1982، تعيّن راهبتين من بعثة الإحسان التي تنتمي إليها، في حي هورنر لفتح ملجأ للنساء والأطفال الذين هم بدون مأوى، وحضانة للأطفال ومطعم للمحتاجين. وعلى وجه الإجمال، فإن سياسة التخلي التي تتبعها الحكومة الأمريكية في المدن هبطت بالمؤسسات

العامة في الغيتو من منزلتها كقاعدة مفترضة للاندماج بالمجتمع إلى مجرد أدوات للتفرقة العنصرية. والقليل الذي بقي من الدولة في الغيتو يعمل باتجاه تعزيز ضروب الإقصاء التي كان الغيتو نتيجة لها.

فرنسا ليست أمريكا، وأحياء الضواحي التي يعتريها التردّي ليست أحياء غيتو بالمعنى الذي يكتسبه هذا المفهوم في السياق الأمريكي. فتفكك الأرضية العمالية في فرنسا يستجيب لمنطق خاص به، يتوافق مع تاريخها ومع الضغوط التي يمارسها إطار مؤسساتي وحكومي مختلف جداً. كما أن التمييز والعنف والفقر والانعزال الاجتماعي بعيدة جداً عن الحدة والانتشار التي تتصف بها داخل المدن الأمريكية. غير أنه على الرغم من الاختلافات الجلية في المستوى والبنية، فإن التطور الإنحداري للتفاوتات بين سكان المدن في فرنسا خلال العشرية الأخيرة، يميل مع الوقت إلى خلق الظروف المواتية للتقارب. وإذا ما ثابرت النخبة الحاكمة في فرنسا، من اليسار أو من اليمين، بقصر نظرها التقنوقراطي وتعلقها المفتون بالإنجازات المالية على المدى القصير، على سياستها الليبرالية الجديدة في إذلال القطاع العام والميركنتيلية المتصاعدة للعلاقات الاجتماعية التي كانت سياستها منذ منتصف السبعينيات، فلا ينبغي استبعاد الأسوأ: إذ يمكن للطوبائية السلبية البعيدة والمرعبة أن تصير واقعاً.

لوبيك ج. د. فاكانت

البؤرة

تعرفت على ريكي بوساطة أخيه، الذي كنت التقيت معه أثناء إجراء بحثي عن مهنة الملاكم بشيكاغو، في قاعة للتدريب تقع في قلب غيتو السود، على أطراف غابة من البنايات السكنية المتدهورة بصفة خاصة والتابعة للقطاع العام. «لقد كان ملاكماً محترفاً هو أيضاً، وهو يعود لذلك الآن، عليك التحدث معه»، قال لي نيد. وبالفعل، ظهر ريكي بعد ذلك بأيام؛ وبعدما استفسر عن الهدف من التحقيق الذي أجريه، وافق على الحديث، غير أنه كان يتهرب كل مرة في آخر لحظة، أو يختفي طوال أيام. وقد تمكنت من استجوابه أخيراً في آب 1991، بعد عدة مواعيد غير مثمرة، في قاعة الملاكمة، بعدما اطمأن قبل ذلك إلى «إمكانية الاعتماد علي».

كنت سابقاً قد استجوبت أخاه، الذي يجول بقامته المديدة طوال الأسبوع في الملعب، ويتعيش من أعمال صغيرة يقوم بها هنا وهناك. وبذا كنت على علم بالوضع الأسري لريكي، كما علمت من مدربه أن محاولاته في العودة للحلبة لا أمل فيها، بعد خمس سنوات من الانقطاع، حتى وإن أبدى الجميع تصديق ذلك بنوع من الحمية.

وأعلمني مخبر آخر من الحي بعض المعلومات الثمينة عن مناشط

ريكي الخفية، وخاصة عن كونه «شاطراً محترفاً»(*) وهو تعبير غير قابل للترجمة، لأنه يصف مجالاً دلالياً -واجتماعياً- لا معادل مباشر له بالفرنسية، ويمكن تحديده بشكل تقريبي بمفهومات الحيلة الدهاء ومخالفة القانون والخداع واللصوصية والإجرام لهدف مباشر هو المال. ويدل فعل to Hustle في الواقع على مناشط تشترك جميعاً في أنها تتطلب نموذجاً خاصاً من رأسمال المال الرمزي، أي القدرة على التلاعب بالآخرين وخداعهم بالجمع بين العنف والحيلة مع الجاذبية بغية الحصول على منفعة نقدية فورية. تمثل هذه المناشط سلسلة متصلة تبدأ بصنع الكحول وتوزيعه بصورة غير مشروعة وهذا غير مؤذٍ نسبياً (لاسيما في المقامر غير القانونية الموجودة في الغيتو والمسماة After hours clubs) ثم بيع أو إعادة بيع المسروقات، ومراهنات وألعاب حظ يمنعها القانون (ورق اللعب، كرابس، البلياردو)، ويانصيب موازٍ في الغيتو يعرف بـ Policy أو لعبة الأرقام. وتمر إلى الأفعال الجنحية مثل ضروب النهب المختلفة والسرقة من السيارات والبسطات، والسطو وتفكيك السيارات و«الحصول» على الآجر والأنابيب أو إطارات النوافذ والأبواب من البنايات المهجورة، وأفعال نصب واحتيال من كل العيارات، تتناقلها الألسنة. وتنتهي إلى الأفعال الإجرامية الصريحة، كالقوادة والابتزاز تحت التهديد بالإحراق (لتجار منطقة ما) وفرض الخوّة، وترويج المخدرات والاعتداءات، وحتى القتل تحت الطلب، الذي يعرف الجميع تعرفته في بعض قطاعات الغيتو.

وإذا كان يبدو هذا التعريف غير دقيق فذلك أن الـ Hustles شخصية بعيدة المنال وعصية على الإدراك، لأن «مهنته» بالضبط تقوم في حالات عديدة على التدخل بخفة في بعض المواقف، أو إنشاء علاقات ذات مظهر خادع، ليحصل من ورائها على أرباح مختلسة إلى حد ما. وعلاوة على ذلك،

(*)رأيت ترجمة «HUSTLER» بـ«شاطر» لأن هذا التعبير يجمع المعاني التي يعبر عنها اللفظ الأصلي.

إذ جاء في المعجم الوسيط: شطر على قومه: أعيا قومه شراً وخبثاً.

الشاطر: الخبيث الفاجر والفَهِمُ المتصرف. (المترجم)

فإن الـ Hustles إذا فضل أسلوب الغواية على أسلوب الإكراه أو التهديد الجسدي، وأسلوب البرود على استعمال القوة الغاشمة (الذي سيجعله مماثلاً لنموذج اجتماعي آخر في الغيتو، يدعونه الغوريللا) فقد تضطره الظروف غالباً للجوء إلى العنف للمحافظة على كرامته أو على سلامته الشخصية على الأقل. وإذن، فليست فاصلة تماماً تلك الحدود التي تميزه عن غيره من «الناهبين الاجتماعيين» للغيتو.

إن عالم الشطار يتعارض على طول الخط مع العمل المأجور الذي نرى فيه كل شيء، نظرياً على الأقل، قانونياً ومعترفاً به، منظماً ومضبوطاً ومسجلاً بموافقة القانون، كما يشهد به عقد العمل والبيان بالراتب. أما المحرم واللاشرعي الذي يستوجب القمع والاستنكار (حتى من قبل أولئك الذين يفعلونه أنفسهم: «إنك تنال ما جنته يداك» يتفلسف ريكي وهو يستحضر محاولة فاشلة لسرقة من سيارة، أدت إلى إصابته برصاصتين في كاحله) فهو معروف ويتساهل الجميع ضمنياً فيها، لأنه مألوف وضروري بآن معاً، إذ ينبغي على المرء أن يعيش ويضمن عيش ذويه. ونتيجة لنقص التجهيزات الجماعية، وعدم كفاية الدخول الآتية من العمل أو من المعونة الاجتماعية، فإن على سكان الغيتو جميعهم تقريباً اللجوء في وقت أو آخر إلى بعض الشطارة.

إن ريكي يتمتع، كما يقال، بالهيئة واللباس المناسبَين للعمل؛ فهو طويل القامة، يتخلع في مشيته، عريض الصدر، نحيل الساقين، يرتدي بزة ذات لون أخضر غامق من المخمل، مثقلة بجيوب وكتافيات جلدية بلون البيج، وحذاءً رياضياً ذا علامة شهيرة، ناصع البياض. تبرز هيئته الرشيقة والمتراخية وتخفي بروز بطنه: إذ عليه أن يفقد 15 كلغ لاستعادة رشاقته السابقة. وتخفي النظارات بزجاجها العاكس عينيه اللتين تعلوهما جبهة عريضة نحاسية اللون. له شاربان رفيعان وبداية عثنون، تعطيه مظهر المتأمل الذي يهتم بنفسه. أما شعره الأسود فمصفف بعناية تحت قبعة بيسبول مقلوبة من القماش الأخضر، واقيتها على الرقبة. ومع أنني كنت

عالماً بشهرته «كمتكلم حاذق»، وهي صفة يقدرها الناس عالياً في الغيتو، حيث يفردون مكانة خاصة للمهارة في الكلام، إلا أنني دهشت من طلاقة لسانه. ودهشت أكثر من التحفظ بل والحياء الذي كان يتكلم بهما عن حيه ورفاق طفولته، وعن آماله وخيباته ومعركته المستمرة «ليجعل اليوم يوماً آخر» كما يقول. هو ينظر إلى العالم المهدم والمختل نظرة طبيب إلى مريضه تقريباً؛ إذ يصفه دون زهوٍ ولا تغاضٍ، دون أن يسعى إلى تجميله أو الحط من شأنه؛ ومع أنه لا يأخذه على عاتقه، إلا أنه لا يتنكر له بالمقابل. هو هنا بكل بساطة: إنه عالمه، ولا يد له في ذلك. وشعوره بأنه مكرس لهذا الحي يدفعه إلى وعي مؤلم، يعرف معه أن لا فائدة من الرثاء لمصيره.

ولد في شيكاغو، سابع الأبناء وآخرهم لعائلة تضم 11 ابناً، وسكن ريكي دائماً في مجمع سكني عمومي في ساوث سايد، اشتهر بخطورته في طول البلاد وعرضها («إنه المكان الذي يرد ذكره في الأخبار دوماً»). وأمه، التي قدمت من تينيسي 1956، وقت بدأت الهجرة الكبرى التي أتت بآلاف السود من الولايات الجنوبية إلى شيكاغو تشرف على نهايتها، مع الشهادة الابتدائية فقط، ربّته لوحدها؛ وهي تتنقل بين أعمال كخادمة منزل (وعدة حانات وملاهٍ في الغيتو، بعدما عملت بعض الوقت في مصنع للصحون الورقية) والمعونة الاجتماعية التي لم تكن تسمح للأسرة إلا بالمحافظة على البقاء. ولا يكاد يذكر شيئاً عن أبيه الذي توفي في صغره، فكل ما يعرفه عنه أنه كان يكدح دائماً «في أعمال كثيرة بالمصانع في كل مكان» دون أن يصل إلى شيء. وعلى غرار عدد كبير من رجال ونساء جيله من الجالية السوداء في المدينة، لم يعرف ريكي أحداً من أجداده.

كبر ريكي «على الشقاء» في أحد القطاعات الأسوأ صيتاً في الغيتو، جنوب المدينة، الموجود تحت سيطرة عصابة المريدين Discibles ثم عصابة الركن، التي توجد قيادتها في شارع البروجيكت (مجمع كبير) نفسه الذي يقيم فيه (هذه البناية المبنية بالآجر، بعنوانها «مركز ديني إسلامي» هدمها الـ FBI على إثر مداهمة عسكرية، كلّلت بالنجاح ومصادرة كميات كبيرة من

المخدرات، وترسانة أسلحة مدهشة، مكونة من ذخائر ومسدسات آلية وقنابل يدوية ورشاشات عوزي، وحتى قاذفة صواريخ). مشاجرات، إطلاق نار، ترويج مخدرات، فرض الخوة، مواجهات مستمرة ودموية أكثر فأكثر بين العصابات: «ما تريده، تجده في المكان».

اشتغل أخوه الأكبر بعض الوقت لحساب عصابة محلية (فتوة Enforces) أي رجلاً مأجوراً يكلف باسترداد الأموال التي يدين بها «بائعو المفرق» المتأخرون عن الدفع لشبكة المخدرات، وذلك باستعمال القوة. وليس عبثاً أن عُرف هذا الحي باسم «البؤرة» The Zone وهو لقب يفضل ريكي عليه تعبير «حقل الموت» الذي بإيجازه المرعب يعبر أفضل من كل الإحصائيات عن الخطورة الشديدة لهذا الجزء من المدينة.

تابع ريكي كل دراسته في الحي، منهياً دراسته الثانوية بعد عدة انقطاعات، في ثانوية ويندل فيليبس الحكومية، وهي مؤسسة قديمة (ترجع البناية الرئيسية إلى 1930) محصورة بين عدة مجمعات سكنية، كأنها ثكنة (بأبوابها المصفحة ونوافذها القليلة المشبكة وتجهيزاتها الرياضية المهجورة) ويتردد عليها حصراً التلاميذ الأفرو - أمريكيون الفقراء من الجوار.

يحمل ريكي للمدرسة استياءً وأسفاً في آن معاً. استياء في البداية لأن القليل من التربية الذي اكتسبه لم يفده بشيء «كانت المدرسة مسخرة بالنسبة لي أو بالأحرى لم أكن في مكاني، فلم تفدني بشيء، ولم يبق لدي منها شيء».

وقد تابع بعض الدروس لمدة قصيرة في كلية للأصاغر[1] Junior college، دون أن يدري هو نفسه لأي هدف.

أما الأسف فيما بعد فلأنه يعرف جيداً أنه لن يتوصل دون شهادة

---

[1] كلية الأصاغر Junior college هي مؤسسة تعليمية ملحقة شكلياً بالتعليم العالي، غير أنها لا تتطلب إنهاء الدراسة الثانوية، وتستخدم في الواقع كدراسة استدراكية للبالغين من مستوى الثانوية، او مستوى الحلقة الأولى من الإعدادية. لأن معدل الإخفاق في هذه المؤسسات بشيكاغو يتجاوز 90٪.

إلى وظيفة مستقرة أبداً، وأيضاً لأن المدرسة تخالط ذكريات شباب يكاد يبدو له من بَعدُ سعيداً بالقياس إلى حياته الراهنة. وهو يتكلم عن نيته في تسجيل نفسه من جديد في كينيدي كينغ كوليج، لدراسة «التواصل» فيها، نتيجة لرغبة مبهمة في شق طريق يخرج بها من الغيتو، وواجب عقائدي ذكره به وضع التحقيق الذي أقوم بإجرائه[1].

ريكي عازب اضطراراً وليس اختياراً، ويعيش وحيداً في شقة من غرفتين بالطابق الثالث من برج مجاور للبناية التي كبر فيها. هو في التاسعة والعشرين من عمره. ولم يكن له عمل منتظم قط، بل عاش دائماً على «حيل» ومجموعة متنوعة من المناشط غير القانونية إلى حد ما. عندما سألته عن عمله، قدم نفسه في البداية كـ«بائع متجول» يعمل لحسابه: «كنت شاطراً دائماً كما ترى، أبيع جوارب وكرات وسجائر وماء الكولونيا؛ شيء من كل شيء». واعترف فيما بعد بأنه يربح ما لا بأس به من المال عن طريق اللعب، وأفهمني أن عدة «فتيات» يدفعن له مالاً. ثم أخذ يتهرب من الكلام بصراحة عن نشاطاته، مؤكداً بإلحاح يدعو إلى الريبة أنه لا يمارس أي ترويج للمخدرات -علمت فيما بعد من أحد المخبرين الموثوقين أن ريكي «يعمل» من وقت لآخر في إعادة بيع المخدرات من مثل: كراتشي، أنجل دست، كوكائين. وقد صرح خلال الحديث بأن دخله الشهري يتراوح فيما بين 600 إلى 1800 دولار (مع ذروة تصل إلى 3000 دولار). وهي مبالغ تناسب مختلف الصور التي يتمنى إعطاءها لنفسه. واعترف لي في نهاية المطاف مرتبكاً وبعد صمت

---

[1] يجمع الناس عملياً في الغيتو على الاعتراف بقيمة التعليم العظيمة، وضرورة التضحية في سبيله (يقول شاب من حي مجاور هذا القول المدهش: «حتى تشوي الهامبرغر عند ماكدونالو، لا بد لك من شهادة في الملاحة الجوية قريباً». وهناك مفارقة ظاهرية فقط تتمثل في كون الناس الأفقر ثقافياً هم الأكثر تقديساً للشهادات المدرسية مع تدهور قيمتها، ويصرحون (مصدقين أنفسهم) بأنهم على وشك استئناف «دراسة» «انقطعت» مؤقتاً، لمواجهة الظروف الراهنة. وعندما استجوبت الأمهات الوحيدات اللواتي يسكن في (HLM) الغيتو، ويعشن على الإعانة الاجتماعية (التي يشار إليها بالتعبير المذل Welfar mother) منذ عشر سنوات أحياناً أو أكثر، دون أية فرصة موضوعية لتغيير ظروفهن على المدى القصير، أجبن كلهن «سأسجل نفسي لإجراء امتحان GED وهي شهادة تعادل نهاية الدراسة الثانوية، ولا قيمة لها في سوق العمل. متى؟ «في أيلول القادم، عند الدخول المدرسي حينما أجد مربية لأطفالي. ومن ثم سأعثر على عمل جيد وأغادر هذا الحي».

طويل قائلاً: «ليس في ذلك ما يبعث على الفخر، إن دخلي يختلف، فقط ما يكفي لدفع الفواتير». إذ لا أحد يقبل بسهولة أن يكون خالي الوفاض في مجتمع ترتبط قيمة كل فرد فيه بدخله، وكذا ريكي في طبقته الأدنى من غيرها التي يُقدَّر كل شيء فيها بالمال، ويُشتَرى ويُباع بالنقود.

وإذا كانت دخوله غير منتظمة، فذلك لأنها تأتي من عدة مصادر، لكل منها مقدار شك خاص به؛ فهو يقبض معونة اجتماعية لا حق له فيها نظرياً (الإعانة العامة، أي حوالي 180 دولار شهرياً، بالإضافة إلى بطاقات تموينية). ويبتز مالاً من عدة «صديقات» يعشن هن أنفسهن من الإعانة الاجتماعية، غير أنهن يتلقين مبالغ أكبر من مكتب المعونة باعتبار أن كلاً منهن «أماً وحيدة تعول أطفالاً» أو على الأكثر، يعملن في مركز المدينة سكرتيرات أو موظفات في المصارف[1]. وأخيراً هناك الدخول من مناشطه المختلفة كشاطر في الشارع. وهو لا يملك حساباً في مصرف ولا ممتلكات شخصية ذات قيمة سوى الهاتف (أخذه القلق من نواياي عندما طلبت رقمه) وسيارة بلايموث قديمة، يصلحها بنفسه كلما حل بها عطب، لأن القدرة على التنقل شرط لابد منه لحرفته. ويحرص على دفع الكراء في وقته، بالاستعانة بصديقاته عند الحاجة، لأن ذلك أول أولوياته. ولهذا يجتهد في إبقاء علاقاته العاطفية المشبوهة، التي تربطه بعدة نساء، تعتقد كل منهن أنها «الحقيقية والوحيدة»، في الوقت الذي يعترف فيه بطيبة خاطر قائلاً: «إذا ما بحثت امرأة عن رجل، بوسعها الاعتماد عليه، لتنشئة عائلة. فلستُ هذا الرجل بكل تأكيد[1]».

---

[1] لا تختلط هذه الاستراتيجية الاقتصادية مع القوادة، حتى وإن أمكن أن تشملها. وما تدعوه لغة الشارع بأموال النساء هو مال يدفع غالباً دون إكراه جسدي، في مقابل خدمات حقيقية يقوم بها الرجل، كالحماية والرعاية والمصاحبة والمساعدة في ضبط الأطفال. وهذا النوع من المبادلة يجسد هامشية الرجال السود الاقتصادية القصوى في الغيتو، وتبعيتهم المالية للنساء، اللواتي يتمتعن بموارد مالية أكثر وأسهل (معونة اجتماعية، عمل في الصناعة لا يتطلب التأهيل، الخدمة في المنازل، البغاء). تقترب تلك الاستراتيجية إذن في جانبها الجنسي غالباً من البغاء الذكري أكثر من القوادة المعتادة.

[1] هذا النموذج من العلاقات، الذي يقوم على الحذر والاستغلال المتبادلين بين الجنسين، منتشر جداً في الغيتو.

لم أحتفظ بصورة رئيسية من الحوار الطويل (حوالي ثلاث ساعات، بوتيرة متسارعة) الذي تناول طفولته وتنقلاته اليومية في الغيتو ومحاولاته الخائبة للاندماج في سوق العمل وتجاربه في بيئة محترفي الملاكمة، إلا بما قاله لي عن حرفته كشاطر وعن الحياة اليومية في الحي. لا ينبغي في المحصلة أن نرى في ريكي شخصية غريبة وهامشية تنتمي لـ«شبه عالم» قريب من عالم اللصوص، تمكن مقاضاته بلغة تحليلية لظاهرة «الجنوح». لأن الشاطر الذي يمثل ريكي تجسيداً مكثفاً وشخصياً له، هو وجه يحتل وضعاً مركزياً في المجال الاجتماعي لغيتو السود الأمريكيين. وهو ليس بعيداً عن الندرة من الوجهة الإحصائية وحسب، بل يجمع، كمثال نموذجي حي، وبأسلوب مثالي، رصيداً من الخصال والممارسات المرموقة في سلم قيم سكان الحي. لأنه يجعل من حسن التخلص والمقدرة على البقاء بالاعتماد على «ذكاء الشارع»، وهي الشيء الوحيد المتاح للجميع، أساساً لأسلوب حياة ذي مغزى، وحده القادر على جعل الجو المتوتر والمقبض للحياة اليومية في الغيتو محتملاً، إذ يبعث فيه شيئاً من الانفراج. فريكي إذن ليس حالة لشذوذ اجتماعي أو ممثلاً لمجتمع مصغر منحرف على طريقة جماعة اللصوص، بل نتاج عبور إلى حدود مناطق الإقصاء الاجتماعي - الاقتصادي والعرقي القديم العهد، الذي يصيب جميع سكان الغيتو من قريب أو بعيد[1].

لأجل التفسير التام للمنطق الخاص لعالم الغيتو الأسود الأمريكي، الذي يكاد يكون سجناً، وللحتمية النوعية التي يخضع لها -وتنظمه من

---

[1] يبين بيتيلو فالنتين في كتابه (Hustling and other Hard work) كيف ينبغي على أغلبية سكان الغيتو الجمع باستمرار بين العمل المأجور والإعانة الاجتماعية والشطارة. للتوصل إلى البقاء في المجال الاجتماعي المضغوط والمبتور المنفيين فيه، باعتبار هذا الجمع نفسه من «الفن الاجتماعي» للشطارة. إذ يظهر من خلال تحقيق مفصل أجري على موازنات 50 أماً يعشن وحيدات مع أطفالهن من المعونة الاجتماعية في شيكاغو الكبرى، انهن جميعاً، دون استثناء، يضطررن إلى اللجوء إما إلى مساندة الوالدين أو الأصدقاء، أو «الآباء الهاربين» وإما إلى العمل غير المعلن، حتى يحققن البقاء لأسرهن في الحد الأدنى. فليس صدفة إذن أن نجد الشاطر شخصية حاضرة دائماً في الأدب الأفرو - امريكي أو سيره الذاتية.

الداخل، حتى عندما تستمد أصلها وقوتها القاهرة من خارجه[1]- والذي يشكل موقف ريكي، المتأرجح بين واقعية دون أوهام، وأحلام قدرية، الترجمة (الذاتية) لها؛ علينا تجنب الفخ المزدوج، الذي يقوم على القراءة السطحية المنفعلة بمنظر البؤس والمتعاطفة معه، وعكسها، أي القراءة الشعبوية التي تشيد بفضائل المغلوب وبراعته، وتقدم استراتيجية بطولية «للمقاومة» ما ليس غالباً سوى تكتيك اقتصادي للحفاظ على البقاء، في مواجهة نظام للهيمنة، بلغ في شموله وقسوته درجة لم يعد الناس فيها ينظرون إليه كذلك، ولا يضعونه موضع الاتهام. ولهذا ينبغي تعليق البادرة الأولى في التعاطف والاستنكار أو الاشمئزاز مؤقتاً، وقبول النظرة التي يتبناها ريكي لهذا العالم؛ أي «الموقف الطبيعي» الذي يرى أن الأشياء طبيعية هكذا.

وينبغي التسليم أيضاً، على عكس اتجاه البحث الأمريكي التقليدي للموضوع، الغائص دائماً في المناهج والاستدلالات الأخلاقية والطبيعية الموروثة عن مدرسة شيكاغو؛ بأن الغيتو لا يعاني من «اختلال اجتماعي» بل يكون عالماً تابعاً، متمايزاً بدقة ومتراتباً، ينتظم وفقاً لمبادئ نوعية يُنتج شكلاً مطرداً من التعادل الاجتماعي. ويمكن تلخيص أول هذه المبادىء الناظمة بالصيغة «الهوبزية» لـ«حرب الجميع ضد الجميع». في عالم الندرة والحاجة الملحة هذا، الذي يفلت شيئاً فشيئاً من قواعد وضوابط المجتمع المهيمن، وتضعف فيه أو تغيب المؤسسات العادية الضابطة للعلاقات بين الأشخاص؛ نتيجة للانسحاب المزدوج للسوق وللدولة. فلا الشرطة ولا العاملون الاجتماعيون ولا المعلمون أو رجال الكنيسة أو الوجهاء المحليون، ولا حتى المقيمين الأكبر سناً (الرؤوس القديمة Old Heads الذين كانوا يقومون بوظيفة الحكماء أو «قضاة الصلح» غير الرسميين ضمن غيتو ما بعد الحرب، وحتى الستينيات) يشكلون دوائر فاعلة كملجأ أو وسطاء. «سأهتم

---

[1] «عندما تكون الدخول غير منتظمة وغير كافية، يصبح ضرورياً استغلال الأصدقاء والأهل، وغياب الاستقرار يؤدي إلى انعدام الأمان (..) وهو ما يعبر عنه هذا المثل من الغيتو الذي هو تحريف للأمر المسيحي «اعمل للآخرين ما تود أن يعملوه معك»، «اعمله بالآخرين قبل أن يعملوه بك» (..).

بأخذ حقي منك». فرد الفعل الأول إذن هو أخذ المرء حقه بيده وفقاً لقانون الأقوى.

في هذا الوضع «حرب الجميع ضد الجميع» الموجود في كل مكان وكل لحظة، يكون التضامن الأكثر نزاهة موضعاً للشك بأنه مغرض -وكيف لا يكون الأمر كذلك في عالم يجد فيه كل امرىء نفسه كل لحظة أمام خيار أن يَخدَع أو يُخدع، يَقتل أو يُقتل؟- نفهم أن يكون التشكك هو القانون، وألا يكون المرء مستعداً إلا للاعتماد على نفسه، يقول ريكي باقتضاب «إنني أقود نفسي وحيداً».

إن انتشار المخدرات يزيد من حدة منطق التشكك والتحفظ، بتحويل كل معطيات الوجود اليومي في اتجاه عدم أمان أكثر عمقاً. ويشبه ريكي انتشارها بالوباء («الطاعون») الذي يجرف كل شيء في طريقه ويحطم كل صداقة مخضعاً كل اتصال إنساني إلى مجرد علاقة استغلال آني دون حد. ويصعب عليه إخفاء اشمئزازه من أولئك الذين أخذتهم هذه الدوامة، التي لا ترحم؛ بحيث لا يترددون في بيع المخدرات لأمهاتهم، ويرى في ذلك علامة على أن كل شيء يخضع اليوم لـ«الورقة الخضراء، تلك البغي[1]».

وكما أن ريكي لا يشتكي إلا قليلاً من شبابه، الذي يذكر منه خاصة أن هناك دائماً من هم أكثر بؤساً منه، «هناك أناس أسوأ مني» يلاحظ سكان الغيتو غالباً، بمن فيهم الأكثر فقراً، وكأنهم يواسون أنفسهم) فهو لا يعيش نبذه من سوق العمل على أنه صدمة. وذلك لأن الحصول على وظيفة ثابتة، بأجر مجزٍ، تضمن حياة هانئة، لم يكن حقاً ضمن تطلعاته؛ فبما أن الإقصاء جزء من نظام الأشياء، فهو يجرده حتى من الشعور بإقصائه. وهو فوق ذلك مستعد لتحمل مسؤولية هذا الإقصاء: إذ يقول عن نفسه بأنه شديد الحساسية («أعلم بأنني عصبي») وغير قادر على الخضوع لانضباط العمل المأجور. ولكن كيف لا نقرن، من جهة، بين «عصبيته» وبيئة العنف

---

[1] وبهذا يخرقون القاعدة الضمنية التي تقول بأنه «لا يجب أن نكسب أكثر مما هو ضروري للعيش. فأي شاطر مجرب سيقول لك: إن الربح المبالغ فيه هو الطريقة المثلى لدخول السجن».

المستديم، والعوز المادي المتواصل الوحيدة التي عرفها منذ طفولته[1]. ومن جهة أخرى، فإنه إن لم يكن عصبياً في البداية، فقد أدت الأعمال البائسة التي حكم عليه بها، إلى أن يصير «عصبياً»؟ وعلى كلٍ، فالصيغة التي يستعملها لتسويغ فقدانه لأية تجربة مهنية («لا أستطيع المكوث ثماني ساعات متواصلة في المكان نفسه») تعبر جيداً عن هذه «المسؤولية المشتركة». لأن الاستحالة المقصودة هنا، هي ذاتية وموضوعية في آن معاً. لست صالحاً للاستخدام لأنني شديد الحساسية، لكنني ما كنت لأمكث ثماني ساعات على كل حال وراء كُوّتي. ألم ينقص رب العمل الذي يعمل ريكي عنده ساعات عمله، مع أنه لم يكن يعمل إلا جزءاً من الوقت. في وظيفة يعترف بأنه أحبها؟

الفقر وانعدام الأمن داخل غيتو في شيكاغو

سجلت مدينة شيكاغو عام 1990، 849 حادثة قتل (أي بمعدل 28.3 لك مائة ألف ساكن، وهو معدل مشابه لمعدلي نيويورك ولوس أنجلوس. لكنه اقل من مثليه بكثير في واشنطن، عاصمة البلاد وديترويت) منها 253 وقعت على ضحايا دون 21 عاماً (و27 على أقل من عشر سنين) أطلقت عليهم النار، في تسع حالات من كل عشر. أكثر من نصف هؤلاء الضحايا كانوا يقيمون في المقاطعات الأمنية الست التابعة لأحياء «الحزام الأسود»، وكان 176 منهم (أي 73.5٪) من أصل أفرو – أمريكي. لقد تجاوز معدل حوادث القتل الرسمي -عدة أدلة وشهادات تحمل على الاعتقاد بأن عدداً لا يستهان به من حوادث القتل، لم يسجل قط- في مقاطعة وينتوورث، وهي شريط ضيق مساحته حوالي 20 كلم مربعاً يغطي قلب الغيتو التاريخي من الشمال إلى الجنوب، 106.1 لكل مائة ألف ساكن عام 1990. وقد أسقط منه مجموع 96 حادثة قتل، أي بزيادة 20 عن العام السابق.

---

[1] بينت أعمال حديثة في علم نفس الطفل أن الصبيان الذين يعيشون في المجتمعات السكنية الكبرى للغيتو بشيكاغو يعانون من اختلالات وصدمات نفسية مشابهة لتلك التي تصيب قدماء المحاربين.

من الصعب عدم افتراض علاقة مباشرة بين معدلات الجريمة هذه، والوفيات الكثيرة الجديرة بحرب أهلية -أظهرت دراسات حديثة في علم الأوبئة، أن معدل موت الشباب موتاً عنيفاً في هارلم مثلاً، أعلى من احتمال موت الجنود الذين أُرسلوا إلى الحرب في ذروة حرب فيتنام- وبين البؤس الساحق لهذا المنعزل العرقي، المفرغ من كل نشاط اقتصادي، الذي انسحبت الدولة منه عملياً فيما عدا آلتها القمعية.

في هذا الحي المقتصر على السود، ذي الـ 45.000 ساكن (في إحصاء 1980، وهو آخر إحصاء تتاح فيه أرقام يعتمد عليها) وفيه 37٪ دون 18 سنة، يعيش أكثر قليلاً من النصف تحت «الخط الفيدرالي» الرسمي للفقر (أي 9885 دولاراً لعائلة من ثلاثة أفراد، أو 12675 دولاراً لعائلة من أربعة، عام 1989) في مقابل 37٪ قبل عشر سنين. ولدى أسرة من كل عشرين أسرة فقط دخل مساوٍ أو يفوق المتوسط الوطني، باعتبار أن الدخل السنوي المتوسط 6900 دولار لا يكاد يبلغ ثلث المتوسط على صعيد البلدية. وثلاث أسر من كل أربع تقتصر على أحد الوالدين (نتيجة لفرار الأب)، ويوجد اثنان من كل ثلاثة بالغين، لم ينهيا دراستهما الثانوية، مع أن ذلك لا يتطلب أي امتحان.

أما المعدل الرسمي للبطالة البالغ 24٪ فيخفي بصعوبة واقع أن ثلاثة بالغين من كل أربعة، دون عمل. وهو ما يفسر كون 63٪ يعتمدون على الإعانة العمومية والمصالح الاجتماعية. ومن المعروف أيضاً أن 71٪ من سكان غيتو شيكاغو (ساوث سايد وويست سايد معاً) مضطرون للجوء إلى المعونة الغذائية لتأمين حياتهم اليومية، سواء على شكل طوابع للغذاء (بطاقات تموينية توزعها الحكومة الفيدرالية ويعاد بيعها في السوق السوداء، بنصف ثمنها الاسمي عند الحاجة إلى المال) أم في المطاعم الشعبية التي تشرف عليها بعض الكنائس والجمعيات الباقية في الأحياء، وأن ثلث الأسر تملك سيارة للإفلات، ولو مؤقتاً، من الجو الذي تعيش فيه، و10٪ منها تملك حساباً مصرفياً جارياً.

وعلى الرغم من هجرة السكان السريعة من الحي (إذ فقد 30.000

نسمة خلال السبعينيات، وأكثر من 61.000 نسمة بين 1950 و1980) فإن ما يقرب من ربع المقيمين في غراند بوليفار يسكنون شققاً مكتظة. لأنه تم اقتطاع خُمس المساكن المتوافرة خلال العشرية نفسها، ولاسيما بسبب الحرائق المتكررة -شيكاغو تحمل الرقم القياسي في الوفيات حرقاً- التي تجبر السكان على الرحيل بسرعة وإعادة السكن بقدر طاقاتهم في سوق لا تتوافر فيه مساكن بكراءات معتدلة. إذ إن 6٪ فقط من المساكن ملك، ويعتبر نصفها تقريباً قديماً وغير صحي.

يحتوي غراند بوليفار على كثافة غير عادية في المساكن الشعبية (20٪ من عدد المساكن المحلي، في مقابل 3٪ للمدينة في المتوسط) تتراكم حول مجمع روبيرت تايلور هومز العملاق، وهو مجمع سكني كبير يتكون من 28 بناية مسوّرة، في كل منها 16 طابقاً؛ مبنية على صف واحد بطول ستات ستريت، يمثل دون شك أكبر تركز للبؤس المدني حتى الآن، في الولايات المتحدة ثم العالم الغربي. في الوقت الذي يحده من الغرب حي 95٪ من سكانه بيض هو بريد جبورت -منطقة نفوذ عمدة المدينة، ريتشارد د. دالاي، الذي أشرف على إبقاء التمييز العنصري السكني ضد السود بشدة من 1955 إلى 1976، ثم ورثه في هذه المهمة ابنه ريشارد د. دالاي جونيور عام 1989- الذي لا يحتوي إلا على 14 مسكناً عمومياً، ويسجل معدل حوادث قتل أقل بثماني مرات، لسكان لا يتضمنون إلا 10٪ من الأسر دون «خط الفقر».

ومهما يكن من أمر، فإن العمل الوحيد الذي يدخل في إطار الممكن بالنسبة لريكي وأضرابه هو وظيفة دون مؤهل في الخدمات كـ«عامل في متجر» أو «في التنظيفات»، دون أمل في الارتقاء أو اطمئنان على العمل، دون عطلة ولا ضمان اجتماعي، بأجور لا تسمح في أحسن الأحوال إلا بالبقاء على قيد الحياة[1].

---

[1] فقد اجر الساعة الأدنى عند رفعه من 3.35 دولاراً إلى 3.75 عام 1989 (بعد عشر سنوات من الجمود على الرغم من التضخم القوي) أكثر من ثلث قيمته الحقيقية منذ 1968، إذ يربح اجير يعمل طوال العام دواماً كاملاً 6968 دولاراً، كحد أدنى مضمون، وهو مبلغ منخفض بـ 20٪ عن «خط الفقر» الفيديرالي، مع ان هذا الخط منخفض جداً، إذا وضعنا في حسابنا عدم وجود تحويلات اجتماعية (مع غياب الضمان الصحي والتعويضات العائلية، والتكليف الشامل لكل الدخول تقريباً).

فكيف لهذه الأعمال المهنية ذات الأجور الزهيدة، ومثالها العمل عند ماكدونالد، أن تستطيع منافسة اقتصاد المخدرات الذي عرف نمواً هائلاً خلال العقد الفائت مع ظهور مواد «الاستهلاك الواسع» مثل الكراك[1]؟

ما الفائدة إذن من اختيار الطريق المشروع عندما تكون مكافآته هزيلة، وبنفس القدر من الاحتمالية الملموسة والفورية، حتى وإن كان فيها مجازفة كبيرة، التي يعد بها اقتصاد الشارع، الذي يقدم بالإضافة إلى الأرضية التي تتحقق فيها قيم الشرف الرجولي، التي تشكل قاعدة الثقافة الشعبية في الغيتو، الوهم بأن المرء سيد نفسه على الأقل، وبالتالي إمكان الإفلات من المذلة والتفرقة اللتين تشكلان النصيب اليومي، لأولئك الذين يَقبلون عمل العبيد Slave jobs في اقتصاد الخدمات الجديد: «ليس هناك الكثير من الإخوان سيفعلون ذلك[2]».

وليس اقتصاد الشطارة الخفي بأقل تهديماً، وريكي يعرف ذلك جيداً -ومراسم الدفن التي يشارك فيها بأوقات متقاربة تذكره به- فهو لن يؤدي إلى شيء مع الوقت. والإحباط البنيوي الذي يولّده اقتصاد النهب هذا، يبرز عندما يحمل ريكي على مروجي المخدرات، الذين يبددون أرباحهم في مصاريف الترف (بالقياس إلى الغيتو) والملذات؛ على السيارات والنساء والملابس والمجوهرات.. والمخدرات- وهكذا تكتمل الدائرة. فأموال الشطارة، على صورة الناس الذين يمارسونها، لا تذهب إلى أي مكان؛ بل تُبذّر وتُستهلك وتحرق لتوها. لأن الأفضل هو التمتع اليوم، عندما لا يكون للمرء غدٌ يطمئن إليه.

يود ريكي الانسحاب من هذا الاقتصاد قبل فوات الأوان («إذا حصلت على شيء، فعليك تقدير قيمة ما لديك من حظ») ولكن كيف يستطيع ذلك؟ فالشطارة لا تتيح أي سبيل للتغيير، ورأس المال الذي يملكه لا

---

[1] الكراك: مادة مخدرة ذات منشأ تركيبي كيماوي. (المترجم)

[2] يعرف لص الشوارع جيداً انه «ليس سوى الانتهازيين من يستمرون في الاعتقاد بأنهم سيحصلون على اي شيء بعملهم عبيداً».

قيمة له إلا مؤقتاً وضمن سياق معين؛ وذكاء الشارع لا نفع منه إلا في الشارع، وفن «المداهنة» لا قيمة له خارج الغيتو، كما أن قوته العضلية وطاقته الجنسية لن تدوما إلى الأبد. كان يحلم بأن يكون موظفاً في البريد، وهي إدارة حكومية، كانت تاريخياً واحداً من السبل الرئيسية لنفاذ السود الأمريكيين إلى «الطبقة الوسطى»، أي وظيفة ترفعه درجة فوق المعسرة، وتتيح له الحصول على «سلة» من الممتلكات التي ترمز لتلك المكانة مثل: الأسرة والمنزل ومرئاب لسيارتين. لكن ريكي بوجوده مع أضرابه بين فكي كماشة إعادة هيكلة السوق التي أنتجت وظائف خدمية عالية الاستقطاب من جهة، ومن جهة أخرى، انهيار المدرسة الحكومية في الوقت الذي صارت الشهادات المدرسية فيه أشد ضرورة من أي وقت مضى، يرى كل أبواب الخروج من الغيتو تغلق أمامه باستثناء الاقتصاد غير الرسمي (واللامشروع) والرياضة.

وبالفعل، فهم نادرون، الأشخاص من محيطه المباشر الذين «نجحوا» وأفلتوا من الحي. فأخوه نيد «ذهب إلى الجامعة» في كلية صغيرة للجالية بميسوري، بفضل منحة لكرة السلة، دون أن يستفيد منها شيئاً. وعند عودته لشيكاغو أخذ يتعيش من أشغال صغيرة (كإعادة التجصيص والطلاء، والتنظيف لدى بعض الخواص) ويحلم هو أيضاً باحتراف الملاكمة الذي يجعل منه مليونيراً. وأخته بيرنيس فقط من بين أحد عشر ولداً، حصلت على وظيفة ثابتة كمساعدة ممرضة في المشفى الحكومي بكوك كونتي. أما الوحيد القريب منه الذي يعرفه، وقد «نجح» فهو لوروامورفي، رفيق طفولته الذي كان يسكن في بروجيكت مجاور، وأصبح بطل العالم في الملاكمة. ويقال إنه اشترى شقة في حي متاخم ميسور (إنه يكتريها بالفعل مواصلاً عمله كشرطي ومدرب رياضي في البلدية). فلم يعد أمام ريكي إذن فيما عدا الرياضة، إلا أن يعثر على رفيقة تقبل التكفل به: وهذا أقصى علامات الهوان، أن يصير تابعاً لإمرأة وهي الكائن التابع الأمثل.

إن الاحترام المشوب بالحسد، الذي يحمله ريكي لرفيقه الذي اتبع الطريق السوي، يعبر عن ضمير مضطرب ونادم، يشعر به لأنه «فوت

الفرصة». وكما أن مروجي المخدارت يضعونه في منزلة أعلى منهم، لأنه كان ملاكماً محترفاً (حتى وإن كان في الدرجة الدنيا في الملاكمة) فإنه يضع صديقه «المستقيم» فوق منزلته هو. والشيء ذو المغزى لديه، هو أنه عندما يتكلم عن رفاق الحي يستعمل «نحن» تارة، و«هم» تارة أخرى، وكأنه لا يدري إن كان منهم أم لا، أو كأنه يريد إعطاء نفسه الانطباع بأنه قد أفلت أو سيفلت، عن طريق الملاكمة من هذا العالم المنكوب الذي لا يتنكر له أبداً. وهو يشعر في قرارة نفسه شعوراً مبهماً بعدم واقعية الأمل في استعادة حرفته الرياضية أو دراسة تبعث بأعجوبة. وكلتاهما بنفس الأهمية مع تعارضهما. وهكذا وفي مثل هذه الظروف من الفقدان المستمر للأمان الاجتماعي، حيث تتلخص الحياة في فن المحافظة على البقاء، وفعل أفضل المستطاع بالشيء القليل المتوافر، أي لا شيء؛ يكون الحاضر متقلباً لدرجة يلتهم معها المستقبل ويمنع التفكير فيه إلا على صورة حلم.

لم يبق إذن لتفسير هذا العالم الذي ترك نهائياً فريسة للإهمال، حيث يهدد أبسط تضامن فيما بين الشباب، بجذب من تتوافر فيه بوادر النجاح إلى الأسفل، وتبديد مساعيه في الرقي الاجتماعي، وحيث تتراكم المصائب لتقود الأمور إلى الأسوأ، سوى نظرية المؤامرة. وليس بوسع ريكي إلا مساندة الفكرة المستحبة لدى قطاع واسع من الجالية الأفرو – أمريكية (تحت اسم المخطط The plane) والتي يكون التمييز العنصري بمقتضاها نتاجاً لسياسة سرية للدولة الأمريكية، تهدف إلى عرقلة تقدم ومطالب الجالية السوداء، بإغراقها في المخدرات.

شاطر بين الشطار

وهكذا وجدت نفسي في هارلم، شاطراً بين الشطار. لم يعد بوسعي بيع المخدر، لأن مفرزة المخدرات تعرفني جيداً. كنت شاطراً حقيقياً، دون تعليم ولا أهلية لأي نشاط شريف. وكنت أعتقد أن لدي من الجرأة والحيلة ما يكفي لكسب عيشي على حساب أولئك الذي يقعون في حبائلي. وكنت مستعداً للمجازفة بأي شيء تقريباً.

يوجد في أيامنا، ضمن أحياء الغيتو لكل المدن الكبرى، عشرات الآلاف من الشباب على هامش المنظومة التربوية، يتعيشون بكل أنواع الحيل (الشطارة) مثلي بالضبط. ولا مفر لهم من الغوص أكثر فأكثر، وأعمق فأعمق في طريق اللاشرعية والمنكرات. إن شاطراً يعمل كل الوقت لا يستطيع أبداً أن يسمح لنفسه بالوقفة الضرورية لفهم ما يفعل وإلى أين يذهب. وكما في أية غابة، فإن الشاطر يعي بطريقة عملية وغريزية معاً بأنه إذا ما تراخى في انتباهه، وأبطأ في وتيرة عمله، فلن يتردد كل من يصطادون معه من ثعالب وذئاب وبنات عرس ونسور، في الانقضاض عليه وجعله فريسة لهم.

– من سيرة مالكوم × الذاتية. نشر إليكس هالي، نيويورك، بالانتين بوكس 1964، ص 108-109.

لابد لنا من أن نندهش من أن ريكي لا يأتي على ذكر البيض إلا بالصورة المخففة للمكيدة الجهنمية اللاشخصية إجمالاً. ففي الحال السابقة لنظام الهيمنة، كان الاضطهاد يظهر بصراحة نتاجاً لفعل مقصود تعود مسؤوليته على البيض بوضوح. ويشهد على ذلك كثرة الألقاب المحلية التي تدل عليهم مثل: الرجل، شارلي، هونكي، بادي، وألقاب أخرى أيضاً. والتضاد بين السود والبيض، الذي كان يشكل القالب المولد لكل التصورات والمظالم، كأنه انحل من نفسه في هذه الحرب التي لا هوادة فيها، التي ينبغي على الأسود شنها ضد أمثاله، «أخ ضد أخيه». وبانقلاب القصة رأساً على عقب، لم يعد الرجل الخفي Invisible man الذي كان يتكلم عنه رالف أليسون بُعَيد الحرب العالمية الثانية، في ذروة الغيتو بشكله التقليدي، هو الأسود اليوم؛ بل الأبيض أو الغني (سواء أكان متحدراً من أصل أوروبي أو إفريقي). إذ إن كل شيء يجري، كما لو أن الغيتو، بسَيره على شكل دارة مغلقة، ونهشه لنفسه بنفسه، قد «حسن» من صورته، متحولاً إلى نظام هيمنة بلغ في نقائه وفي عتمته أيضاً درجة، لم يبق معها متاحاً كاستراتيجية للخروج والمقاومة إلا تكتيك التضحية بالذات، الذي بتراكمه يأخذ على ما يبدو هيئة انتحار جماعي.

مع شاطر في الغيتو الأمريكي الأسود

حديث مع لوبيك ج . د . فاكانت

❖ تعتبر أنك نشأت في أسرة فقيرة؟

ريكي: (صمت طويل) حسناً.. لقد كنا فقراء، لكننا متضامنون، فكانت ترسلنا أمي نظيفين إلى المدرسة دائماً، ولم يكن لدي ربما سوى سروال أو اثنين، لكنها كانت تبقيهما نظيفين. ولا أظن أننا كنا فقراء لحد الموت جوعاً، لا، مطلقاً. ولا أتذكر يوماً كنت فيه جائعاً هكذا.

❖ وإذن، كان لديكم دائماً كفايتكم من الطعام، في صغرك؟

ريكي: لن أقول الكفاية، بل كان لدينا دائماً ما نأكله. إنني أحب طفولتي أكثر مما أحب وضعي الآن، حقاً.

❖ لِمَ تفضل طفولتك؟

ريكي: حسناً، عندما كنت في المدرسة الابتدائية، كانت الأمور هادئة.

❖ كنتَ تحب المدرسة جداً، ماذا كنت تفعل؟

ريكي: حسناً، لم يكن رأسي معي، وأشياء كثيرة تفوتني، ولم أنتبه لها حقاً حينئذ. ربما أنتبه لها الآن، وأنا لم أعد في المدرسة.. في ذلك الوقت لم يكن بوسعي أن أرى وأفهم حقاً قيمة الدراسة (بحنين شديد). هذا لا يعني أن أمي لم تكن تدفعني وتوصيني. بل إنها لم تشرح لي بالتفصيل أهمية الدراسة حقاً. كانت تقول فقط «اذهب إلى المدرسة». وكانت تحصل لي مضايقات دائماً.

❖ أي نوع من المضايقات كانت؟

ريكي: كنت فقط أُرسَل إلى المدير، أتعارك وما شابه ذلك.

❖ كانت طفولتك صعبة، والحياة قاسية في صغرك؟

ريكي: حسناً، ليس حقاً. لم يحدث لي شيء أراه كابوساً في أحلامي، بل كنت أتعارك دائماً أو أبحث عن الشجار فقط، فحارتي كانت هكذا.

❖ كبرتَ إذن في حارة صعبة؟

ريكي: أجل، لقد كانت صعبة بالتأكيد، لكن الناس كانوا جد صادقين. ولم يعد الناس كما كانوا من قبل. فعندما كان أحد يقول لك شيئاً، فهو صحيح. لكن الكثير من الأشياء تغيرت؛ كالمخدرات التي جاءت كوباء، يا رجل، وغيرت كل شيء. فلا أهمية الآن إلا للمادة. ولم يعد هناك أصدقاء خلص، ولا أهمية إلا للورقة الخضراء، لم يبق إلاها.

❖ ألم تكن الأمور هكذا من قبل؟

ريكي: كلا، كلا ليس حقاً. إنني أحاول الحصول على بعض المال، لكنني وددت دائماً أن يكون لي أصدقاء حقيقيون، أترى ما أقصد؟ لدي كثير من الرفاق الذين اتخذوا طريقاً مختلفاً تماماً، وعندما نلتقي، نتحدث ولا شيء آخر. وكما قلت لك، أنا أسير وحيداً أكثر الأوقات. أتفهم قصدي؟ أعرف جيداً بعض النساء، ولكن ليس فيهن من لها خصوصية أو شيء آخر.

❖ حدِّثني قليلاً عما كان قاسياً في حيِّك؟

ريكي: حسناً، الكثير من السرقة، وشباب أعرفهم قُتلوا.

❖ أين حصل هذا؟ أقريباً من هنا؟

ريكي: في الشارع الثامن والعشرين. كثير من الحوادث تحصل، سرقات بالخطف.. ينبغي الحذر. وهذا كل شيء. تسمع إطلاق النار طوال الليل، وتحاول أن لا تكون في طريق المعروفين بفعل هذا. أعرف كثيراً من الشباب سُجنوا 15 سنة من أجل جريمة قتل، 20 سنة.. إنهم شباب كانوا معي في الثانوية. اثنان حُكم عليهما بالسجن المؤبد. وكثير من الشباب كانوا معي في الصف، ونشأنا معاً ثم وُجِدوا قتلى.

❖ وهل كنت تتشاجر كثيراً في الشارع؟

ريكي: أجل، فلقد كنت مشاكساً، لكنني كنت أتعارك فقط حين اللزوم. لم أكن جَلفاً أبداً أو مزعجاً، بل كنت أتعارك عند اللزوم

«إنهم يقتلونك لسبب تافه»

❖ هل حضرت حادثة قتل طيلة هذه السنين؟

ريكي: أجل، مرات كثيرة! فمنذ عشرة أيام فقط، رأيت حادثتي قتل (بجدية وبطء): رجل أُصيب بطلقة، في رأسه فمات، ولحقوا بالقاتل وقتلوه، هكذا.

❖ هنا، في الحي؟

ريكي: أجل، في وضح النهار وفي مثل هذا المكان، لكن في ضياء أكثر لأن الشمس كانت مشرقة وقتها. هكذا الأمور يا صديقي! تذهب إلى الدفن، وهذا كل شيء، والحياة تستمر. وعندما أتسكع أحياناً قرب المَقَامر، أرى هؤلاء الناس. إنهم يقتلونك لسبب تافه، هكذا، ويذهبون لشراء علبة جعة. أترى؟ إن عقليتهم هكذا..

❖ كيف يحدث هذا؟ أقصد لِمَ أصبحوا هكذا؟

ريكي: إنهم الصبيان الذين وَلَدوا صبياناً ولم يعلموهم، فهذا إذن كل ما يعرفونه (ريكي يحول لحسابه هنا تعبير «Babies having babies» الذي تستعمله وسائل الإعلام للدلالة على المراهقات الأمهات في الغيتو) وكل ما يريدونه هو محاولة الخلاص من هنا، ثم (بصوت خفيض) «بوم» وهاهو أخ آخر جثة هامدة، ثم أخ ثالث يزهو بنفسه متظاهراً بالقوة. إن الأمر كما أقول لك، فلا قيمة إلا للمال. وهم يفعلون أي شيء في سبيل المال، وحتى بيع المخدرات لأمهاتهم (ضحكة صغيرة مكتومة) لقد رأيت أناساً يفعلونها. بيع المخدرات لأمك، يا صديقي، وكل هذا من أجل الدولار، الدولار البغي، هل تدرك ذلك! إنه خطير.

❖ مع كل هذه المشاجرات، ألم تطلَق النار عليك أو تطعَن؟

ريكي: أجل، أُطلقت النار علي، عندما كنت أصغر، فأصابتني رصاصة في الذراع وأخرى في الكاحل الأيسر، (يكشف عن ساقه ليريني ندبة قبيحة تمتد على طول كاحله).

❖ أطلق الشخص النار عليك عمداً في الكاحل، ليوجه لك إنذاراً أم ماذا؟

ريكي: هوذا، هوذا. لقد كان قريباً جداً مني، وقادراً على إطلاق رصاصة على رأسي من الخلف، لكنني لا أعتقد أنه كان يحاول قتلي في النهاية.

❖ كيف حدث هذا؟ حدثني قليلاً.

ريكي: كنت مفلساً، أحاول خلع سيارة، كنت صغيراً ولا أعرف شيئاً. وكُشف أمري، فجريت هارباً وعندئذ أطلق الشخص على كاحلي النار. فهمت بعدها، وأخذت الأمر كما هو، لأنني كنت مفلساً، وكان علي تحمل النتيجة. أترى ما أقصد؟ عليك تحمل نتيجة ما تفعله.. كما حدث لي مع رفيق في أحد الأماكن، إذ اشتبكنا مع عصابة، ولم يكن معنا سوى مسدس واحد. أو بالأحرى رصاصة واحدة بقيت في المسدس، فتخيل! وكان شجاراً حقيقياً فهربنا إلى الطابق الثامن من بناية، فأخذوا ينادوننا للخروج، فاضطررنا لهدم الجدار للنفاذ إلى الشقة الأخرى والهرب.

❖ لماذا كانوا يلاحقونكما؟

ريكي: كنا نتشاجر مع أحدهم، فنادى كل رفاقه.

❖ هل هم من حي آخر؟

ريكي: أجل، لقد حاصرونا. وما خرجنا إلا لجرأتنا وهدمنا الجدار للتخلص منهم. أترى، يا رجل، إن الأمر كما أقول لك.. كنت اقامر أحياناً مع أناس أعرفهم طيلة حياتي، فإذا جعلتهم يخسرون مالهم، يُخرجون مسدساتهم. لقد عرفت كل ذلك. وكنت في أماكن مخيفة، فقد هاجمني شخص وضع مسدسه في فمي ليسلب مجوهراتي.

❖ هل كنت عضواً في عصابة آنذاك أو الآن؟

«كنت دائماً متمرداً»

ريكي: كلا، أبداً، فهذا غير وارد. فلم تكن لدي رغبة قط بأن أكون مأموراً من أحد. بل فعلت كل شيء وحيداً، دون أن أرتبط. لأنك عندما ترتبط وتكون في عصابة، عليك أن تكون شديد القسوة حقاً في هذا الحي. وأنا لا ابحث عن خمسين أو مائة رجل معي، فعندما يعمل رجل شيئاً معي، لا أفكر بعصابته بل به كفرد، وأول شيء أفعله هو تصفية حساباتي معه، وبعد ذلك أهتم بالباقي، لكنني أسوّي حساباتي معه قبل كل شيء. أتفهم؟ إنني لا أرى ذلك وكأنه سيبحث له عن ستة وثلاثين ألف صديق، أترى مقصودي؟ إنك تقتل مصدر القوة أو تُقتل.

❖ لكن ألم يُضغط عليك لتنتمي إلى عصابة؟ ألم تَطلب منك عصابة الانضمام إليها وخاصة لأنك ملاكم؟

ريكي: الأغلبية، نعم، طلبوا مني ولكن ليس بلهجة آمرة بل بلطف، صحيح أنني كنت ملاكماً، لكنني متمرد دوماً، وأغني وحيداً. لكنني لا أقبل أن يأتي شخص ويقول «تعال، سنذهب إلى هنا أو هناك، وسنعمل هذا أو ذاك» فليس هذا أسلوبي.

❖ عندما تكون في أماكن كهذه، عليك أن تأخذ حذرك، أليس كذلك؟

ريكي: أجل، يجب أن أكون مستعداً دائماً (لكل شيء). أعتقد أنني حملت مسدسي مرات عديدة في العام الماضي، صيف 90، لأنني كنت أقامر كثيراً في ذلك الوقت؛ كنت أقامر كثيراً في تلك الأماكن.

«وأقف وراء منضدة لثماني ساعات دون انقطاع»

❖ هل كنت تقوم ببعض الأعمال الصغيرة، مع ذهابك للثانوية؟

ريكي: حصلت مرة على عمل، عندما غادرت الثانوية. كان العمل في مصلحة الصحة التي تدعى GNC. الواقعة في مركز المدينة. وهي مركز للتغذية. لكنني تركت العمل لأجره القليل مع أنه كان يعجبني.

❖ ماذا كنت تعمل؟

ريكي: كنت أرتب الرفوف. وأعمل الجرد وما شابه. تكلمت مع رئيسي مرة فقال بأنه سينقص لي من ساعات عملي. فماذا فعلت؟ لقد خلعتُ باب المخزن، ودخلتُ ليلاً فأخذتُ كل مال ذلك اليوم. وبعد هذا، انتهى كل شيء.

❖ ماذا حدث عندئذ؟ هل اكتشفوا أنك سطوتَ على المخزن؟

ريكي: كلا في الواقع، فقد نجوت هذه المرة. وحاولت مرة أخرى، إلا أنني أنا الذي كشفت عن نفسي وليسو هم الذين كشفوني (بأسف) فقد كان علي أن أتحسب، لأنني عندما عدت إلى العمل وجدت شخصاً آخر معي ينتظر عودتي، وإذن..

❖ وإذن، قدموك للمحاكمة؟

ريكي: أجل، وقررت الاعتراف بأنني مذنب هذه المرة، وأظن أنني سجنت 20 يوماً في سجن المنطقة، أو شيئاً كهذا.

❖ لكن لِمَ لم تبحث عن عمل منتظم بعد الثانوية؟

ريكي: نعم، لابد من رؤية الأشياء كما هي، وجهاً لوجه، وعليك أن تكون صادقاً مع نفسك. فبما أنني عصبي؛ لا أستطيع البقاء لثماني ساعات دون انقطاع في المكان نفسه. ولا حاجة بي لأن أخدع نفسي، فأنا لا أستطيع البقاء واقفاً وراء منضدة لثماني ساعات متواصلة، أو حتى البقاء في مكان ما لتنظيف شيء ما خلال ثماني ساعات. أنا أعلم جيداً أنه ليس بوسعي فعل ذلك (..) وما أريحه هكذا، أستطيع الحصول على ثلاثة أضعافه في الشارع. أتفهم قصدي؟ فما يجب هو كسب المال مثل صديقي الذي نجح بعمل شريف. إذ إن ما يكسبه بعام، تستطيع كسبه في ثلاثة أشهر أو حتى أقل. غير أنه بماله ذاك يحصل على أكثر من الرجل الذي كسب المال في ثلاثة أشهر، أتفهم قصدي؟

❖ وإذن، فأفضل عمل حصلت عليه هو عندما كنت تقامر؟

ريكي: أجل، وهذه هي الشطارة، نعم هذا كل شيء.

❖ وهل ما زلت تعمله الآن؟

ريكي: أجل، أحياناً، أعرف الكثيرين في الشارع، يبخلون عليك بمائة فلس، ويسلبونك الآلاف بضربة واحدة. أتفهم ما أقصد؟ إنهم هكذا، وهذا يلخص كل شيء.

◆ لكن إذا كان شخص من الحي يبحث عن عمل بالأجر الأدنى المضمون، فهل بوسعه العثور عليه فوراً؟

ريكي: ربما يستطيع العثور على عمل، عند ماكدونالد أو برجركينغ أو وينديز، وما شابه ذلك؟

◆ لكن لِمَ لا يحاول سكان إيداب ويللز، لا يحاولون الحصول على هذه الأعمال؟

ريكي: لا، فإنك تربح أكثر في الشارع.

◆ هل هذا العمل جيد بالنسبة لك، عمل يروقك؟

ريكي: حسناً، ما كنت أقوله (وقفة) ما نوع العمل الذي أستطيع العثور عليه، وأربح الكفاية منه. كفاية للتكفل بعائلتي ودفع الفواتير والكراء مع مرئاب لسيارتين؟ أتفهم قصدي؟ ما نوع العمل الذي أستطيع العثور عليه بالدراسة التي قمت بها؟ أين رأيت أنهم يمنحون وظائف كهذه؟ فليس الأمر كما لو أنني كنت في الجامعة لأصير طبيباً أو محامياً، أو ما شابه ذلك.

◆ إن هذا يستحق العناء في هذه الحالة..

ريكي: أجل، يستحق العناء. فعندما يكون لك عمل كهذا، بوسعك الجلوس مرتاحاً ودفع فواتيرك، وإلا ستبقى دائماً تكافح وتكافح وتكافح. إن ما أريد قوله هو أنك لن تجد أخاً يأتي ليقول لك «اسمع،سأتوقف وأترك الشارع، وأبحث لنفسي عن عمل صغير بالأجر الأدنى المضمون» فذلك شاق، وليس هناك الكثير من الأخوة سيفعلون ذلك.

◆ ما هو العمل الذي تعتبره جيداً لك، عمل يروق لك؟

ريكي: سأقول لك شيئاً. إنه العمل بالبريد أو سائق حافلة، شيء مع امتيازات. إن هذا يعتمد على المستوى الذي تريده. إن هذه الأعمال ليست

بالشيء الكثير؛ غير أنه ليس بالقليل أن تلتقط واحداً منها (يفرقع بأصابعه) أليس كذلك.

(نظراً لكون التشريعات الاجتماعية في الولايات المتحدة قديمة بالية، فإن أغلب الأعمال التي لا تتطلب تأهيلاً، لا تستفيد من حماية طبية واجتماعية، ولا من عطلة مدفوعة الأجر أو عطلة مرضية. وبالتالي، فإن الوظائف التي يفضلها سكان الغيتو هي تلك التي تقدمها الإدارات الحكومية (الفيدرالية أو الولائية أو البلدية) التي تتضمن هذه «الامتيازات» لقوة النشاط النقابي فيها).

❖ هل تظن أنك ستتوصل للحصول على عمل عند الضرورة؟

ريكي: حسناً، لا أدري الآن، آمل أن أتخلص بحرفتي كملاكم من المشكلة. وليس لدي أوهام، كما قلت لك، سأستأنف دراستي هكذا، وإذا لم تسر الأمور، بوم، سأعثر لنفسي على عمل.

«كثير من المداهنة»

❖ فأنت مضطر إذن للشطارة دائماً، لكسب الرزق.

ريكي: أجل، فقد كنت من قبل شاطراً حقيقياً، لكنني تركت بعض الوقت. كنت مع اللعب وزهر النرد في الخارج طوال الليل، ثم امرأة من هنا وامرأة من هناك، وتدبيرات كهذه.

❖ كم تستطيع كسبه في أفضل أيامك؟

ريكي: علي أن أقول: 12.000 وأخرى 3000. كل تلك الأوراق المالية برزم من ألف، يا رجل، لا أعرف إن كنت تدرك هذا. كلها بالآلاف. ولكن..

❖ وهل هذا أسبوعي أو شهري أم ماذا؟

ريكي: إن هذا يعتمد، فمرات أربحها يومياً. وأحياناً أربح 700 دولار يومياً، 1000 دولار من القمار فقط. ولم أبع مخدرات قط. بل من القمار فقط.

❖ هل يمكن الحصول على كل هذا المال من القمار فقط؟

ريكي: أوه، يا رجل، لو تقامر ولديك شيء من الحظ في اللعب، يا رجل..

❖ أين يلعب الناس، هل هناك أماكن بعينها، أم يجري اللعب في كل مكان؟

ريكي: يجري هنا في كل مكان. فما عليك أحياناً إلا أن تقف في زاوية الشارع، هنا مثلاً، أو في أي مكان. ففي هذه اللحظة أستطيع الذهاب وقول «ماذا تفعلون جميعاً؟» فنخرج زهر النرد ونبدأ اللعب هكذا. يأتي الجميع وينطلق اللعب.

❖ وبكم يراهن الناس الذين يأتون للعب؟

ريكي: هذا يعتمد، أحياناً 200 أو 300.

❖ أحقاً، بهذا القدر؟

ريكي: أجل.

❖ ولكن من أين يأتون بالمال؟

ريكي: من الشطارة والمخدرات.

❖ وإذن، فهم بعدما يبيعون المخدرات، يسعون لمضاعفة أرباحهم باللعب؟

ريكي: أجل.

❖ ولِمَ توقفتَ عن هذا العمل؟

ريكي: حسناً، أحياناً تدرك الأمور، وعليك أن تقدر الحظ الذي تتمتع به. هناك أشياء كثيرة فعلتها..

❖ أشياء غير مشروعة؟

ريكي: أجل، أجل. فعندما تكون في ميدان الشطارة، وليس لديك عمل؛ تضطر عندئذ للقيام بأفعال غير مشروعة لمحاولة دفع الفواتير، وما شابه. قريباً من بيتي، إنه مثل إيداب ويللز. هل سمعت عن إيداب ويللز؟ إنه حي تجد فيه دائماً من يسبب لك المتاعب.

❖ نعم، سمعت عنه. هل هو بقسوة روبرت تايلور هومز؟ لأننا نسمع دائماً عنه وعن ستاتوي جاردن في التلفزيون.

ريكي: أعتقد أنه أسوأ حتى. إيداب ويللز ڤاس، يا رجل. ونحن نسميه «البؤرة» (The Zone) وأنا أسميه «حقل الموت»، لأنني رأيت الكثير من الأشخاص، (يفرقع بأصابعه) وحتى هذه اللحظة.

❖ وماذا يفعل أغلبية الرجال هنا؟

ريكي: إنهم يبيعون المخدرات، ويلعبون بزهر النرد.

❖ هل يمكن حقاً كسب المال بعمل كهذا؟

ريكي: أجل، فقد كنت أربح أحياناً (يحسب ذهنياً) ما يصل إلى ألفين وثلاثة آلاف دولار يومياً. وفي الأيام السعيدة، كنت أربح 9000 أو 10.000 دولار من اللعب بزهر النرد.

❖ ممن تأتي هذه المبالغ؟

ريكي: من المراهنات ومن اللعب فقط. ثم من بعض النساء اللائي أحتفظ بهن احتياطاً. وهذا لا يعني أنني قواد أو شخص من هذا النوع.. ولم أبع قط مخدرات حتى عندما كنت مفلساً. فهو عمل ليس لي، فلم أربح حتى عشرة دولارات من المخدرات. لأن هذا ببساطة، لم يكن مجال نشاطي. لكنني أحاول أن أحتفظ لنفسي بامرأة طيبة لها عمل أو شيء كهذا، أستطيع الحصول منها على شيء.

❖ وهؤلاء النساء، من أين يأتين، وأين يسكنَّ، هل يسكنَّ في البروجيكت؟

ريكي: نعم، قريباً من هنا، في إيداب ويللز.

❖ هكذا، لديك أكثر من واحدة، وتنتقل من الواحدة إلى الأخرى؟

ريكي: هوذا، هوذا.

❖ وكم تستطيع أن تربح هكذا؟

ريكي: حتى لو كانت 100 دولار من هنا و500 من هناك أو حتى 200 دولار، فإنها مقبولة. وأحاول أن أحتفظ بهذا مهما كلف الأمر.

❖ وهل ذلك سهل أم يتطلب منك عملاً كثيراً؟

ريكي: حسناً، إنه يتطلب الكثير. فلدي شيء لا يوجد لدى الكثير من الرجال؛ إذ أحسن الكلام. كلام الشارع، فبه تستطيع المداهنة كثيراً. وأنا لا أقصد أنني مزهو، بل أحسن الكلام. تتكلم وتتكلم وتتكلم، ولدي دائماً ما أقوله. ولم يحدث لي قط أن وجدت نفسي بدون شيء أقوله.

«لم أعرف أحداً من الأشخاص النادرين الذين نجحوا.»

❖ ورفاقك، الذين نشأتَ معهم وتجولت، عندما كنت في الخامسة عشرة من عمرك، ماذا حدث لهم؟

ريكي: حسناً إن من نجح منهم النساء، فتيات يعرفن ما يردن، فنجحن. أما الشباب..

❖ ماذا فعلت النساء للخروج من هذا الوضع؟

ريكي: تابعن الدراسة، وعثرن على عمل جيد، وما شابه ذلك. أما الشباب من الحي الذين نجحوا حقاً، وتابعوا الدراسة، فلم يكن بيننا شيء مشترك، أتفهم قصدي؟ تعرف..

❖ ماذا تقصد، هل كانوا جد مستقيمين، أم ماذا؟

ريكي: (حائراً) لا تستطيع قول هذا حقاً، بوسعك أن تصنفهم، ويستطيعون أيضاً تصنيفك. الشيء نفسه. كأنك تقول: «إنه وغد» أو «متشنج»، والأمر ليس بهذه البساطة، بل يعني من يستطيع الخروج من وضعه، والمرور أمام الناس. هذه هي المسألة.

❖ وهل خرج الكثير من الشباب من هنا؟

ريكي: كلا، كلا، فلم أعرف حقاً أحداً من الأشخاص النادرين الذين نجحوا في ذلك. هناك شخص واحد فقط، هو صديقي الآن، وكان لدينا أسلوبان مختلفان في الحياة، لكننا صديقان. إنه الآن (كأنما يتلو صلاة باحترام) يملك منزله الخاص، ويذهب إلى عمله كل يوم، ولم تكن له أية مشكلات قط. لم يدخل السجن، ولم يقامر. وقد نجح بشرف عن طريق العمل

فقط، العمل، العمل. لقد عمل دائماً بينما كنت أمارس الشطارة والخديعة. وعندما كنا نخرج معاً -لقد نشأنا معاً- فطريقتي بالكلام مع الناس تختلف عن طريقته، أترى؟ إن الأمور هكذا. ثم إن هناك كثيراً من النساء اللواتي يفضلن الرجال المتأنقين Slick (وهي تقال على الأخص للرجل الذي يحسن اللباس والحديث بأناقة وفق قواعد الغيتو، وهو معناها الإيجابي. لكن لها معنىً سلبياً ومهيناً (خادع، لعوب، سطحي، هوائي، أناقته وجاذبيته أكثر من اللازم ليكون شريفاً). وريكي هنا يلعب (بمهارة) على التباس اللفظ، الذي يمكن أن يفهم بالمعنيين معاً، تبعاً لوجهة النظر المتبناة). ولكن إذا ما بحثتْ امرأة عن رجل بوسعها الاعتماد عليه للتكفل بعائلة؛ فلست ذلك الرجل بالتأكيد.

❖ ماذا حدث إذن للذين نجحوا، وماذا يفعلون الآن؟

ريكي: إنهم هنا دائماً. وقد نشأت مع كثير من الأشخاص وهم حشّاشون حقيقيون. خذ مثال هذا الصديق الذي ركب مع سائق تاكسي، وحاول الهجوم عليه فقتله السائق الأسبوع الماضي. لقد كنا معاً من الابتدائية حتى الثانوية. ودفنوه بالأمس.

❖ أين حدث هذا؟

ريكي: ليس بعيداً من هنا، (مفكراً) بالقرب من الحي. أعرف، يا رجل، كثيراً من النساء، جميلات ومدمنات على المخدرات. لهن طفلان أو ثلاثة، ولا يعرفن أين أطفالهن. إنهن يتعاطين المخدرات، ولا شيء غير هذا. إنها معضلة عندما نفكر فيها (متجهماً ومتفكراً فجأة) وحتى تبدأ التفكير بالأمر جدياً.. لكنني وضعت شيئاً من المال جانباً، وأستطيع الملاكمة؛ ولذا أقول إنني بحاجة للاستمرار في ارتكاب الحماقات، لأنك تعيش حقاً، حياة مليئة بالجرائم دائماً (رافعاً صوته فجأة) فكم من الوقت تستطيع الاستمرار دون أن تقتل أو تجرح أو تجد نفسك في السجن؟ إنني أعرف كثيراً من الأشخاص على كراسٍ متحركة؛ فإما ساق بُترت وإما أصيبوا بالشلل نتيجة لطلقة رصاص. كثير منهم صغار السن، يا رجل، 13-14 عاماً، توقفوا عن الدراسة ودخلوا في العصابات..

«لقد كان حظي عظيماً.»

❖ نسمع غالباً أن الغيتو تدهور كثيراً في العشر أو العشرين سنة الماضية. فهل صار أسوأ حقاً؟

ريكي: أجل، أجل، بالتأكيد. القتل والمخدرات، يا رجل. المخدرات وباء حقيقي، انتشرت بسرعة، بين عشية وضحاها، هكذا: مثل «بانغ» (يفرقع بأصابعه) وهي تهيمن على كل شيء، دون أن ننتبه لاجتياحها.

❖ في أية سنة وصلت؟

ريكي: أذكر أن ذلك بدأ في 1983 كفورة حقيقية. لكن هذا لا يعني عدم وجود المخدرات من قبل، بيد أن ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً بالقياس لما هو موجود الآن. إنني أعتقد، يا رجل، أنها كمؤامرة كبيرة. فنحن -أقصد السود- لم يكن أمامنا سوى الازدهار ومواصلة التقدم. لكن عندما وصلت هذه المخدرات البغي!. وكأنها «فورة» أخّرتنا 50 سنة إلى الوراء. إن الأمر بهذه البساطة: أخ ضد أخيه الآن، وكل واحد يبحث عن مصلحته الخاصة غير مهتم بغيره. أما الذين يكسبون فلا يفعلون بها شيئاً. بل كل ما يفعلونه هو شراء السيارات، يا رجل، سيارات ونساء وانتهى الأمر. فليس عليك إلا أن تذهب إلى زاوية الشارع التاسع والعشرين، وتهبط حتى الشارع 119، ولن تجد في كل الحارات عشرة حوانيت يملكها سود في حي للسود. إن هذا يبعث على التأمل، أليس كذلك؟

(كانت حوانيت الغيتو للبيض في العادة. لكنها الآن تنتقل إلى أيدي الآسيويين (من كوريا والصين والفيليبين) وإلى أناس من الشرق الأوسط من أصل لبناني أو سوري).

❖ لكن، إلى أين يذهب كل هذا المال؟ فلابد في النهاية من أن يستخدمه شخص ما لفعل شيء.

ريكي: الأمر كما قلت لك؛ فلا يهتم هؤلاء الناس إلا بشيء واحد: السيارات والنساء. إذ أعرف أشخاصاً لديهم ثلاث سيارات وأربع. لكنك (مغتاظاً قليلاً) كم سيارة تستطيع أن تسوق؟

❖ نعم، لكنه لابد من وجود نساء يملكن الكثير من المال، ويروّجن المخدرات؛ فماذا يفعلن به؟

ريكي: بعض النساء يتلقين مالاً، فهم يعطونهن مالاً، ويخرجون كل مساء ولا يفكرون بالمستقبل. أترى ما أقصد؟ فإذا لم يكن لديك هدف، كما أقول لأصدقائي كثيراً: لا يمكن أن تستمر في بيع المخدرات هكذا طوال حياتك. فلابد أن يكون للإنسان هدف في الحياة. أعرف شخصاً مَرَّ مليون دولار بين يديه؛ فمنذ 1983 وحتى الآن وهو يبيع المخدرات، وكان حظه عظيماً. لكنه الآن لا يستطيع وضع يده على 3000 دولار، مع أن مليون دولار وأكثر مرَّ بين يديه.

❖ أكان يستطيع الاحتفاظ به؟

ريكي: كان يستطيع الاحتفاظ به، ربحاً له. أما الآن فليس معه 5000 دولار، وكان يبذر هذا المبلغ من قبل في أسبوع. ومثله شخص كان يملك مطعماً، وليس معه الآن ما يكفي للأكل فيه. وهذا ما يحثك على التفكير. ولهذا أقول لنفسي: حسناً، لن أعود شاباً، أليس كذلك؟ مازلت أستطيع الملاكمة، سأجد لنفسي امرأة وأحاول التزوج بها لتعنى بي ونكوّن عائلة. أريد أن أعيش فقط، فقد جربت حظي! وكان حظي عظيماً في الشارع؛ فلم أجرح، ولم أضطر لجرح أحد، ولم يسىء إلي أحد أبداً..

كانون الثاني 1991



فيليب بورجوا

بدون مأوى ، في الباريو

سجلت هذا الحديث مع رامون في ليلة من الليالي في نهاية شهر آب 1989. كنا في الشارع، قبالة العطارة Botanica[1] التي نبتاع منها الكراك، حيث كنت أمضي أكثر لياليّ منذ عدة سنوات. هذا المكان، على بعد خطوتين من البناية المتداعية -مملكة الجرذان- التي كنت أكتري فيها شقة مع زوجتي وابني، في الحي البورتوريكي أساساً، التابع لهارلم الإسباني والمعروف باسم الباريو، كان ذلك عندما بلغ وباء الكراك ذروته في الولايات المتحدة فيما بين 1985 و1991.

كنا جاثمين ذلك المساء على مقاعد عمومية، حالتها مزرية تغطيها الخربشات، في مدخل المكتب الإداري لأبراج المساكن الشعبية التابعة لحي روزفلت؛ لنحتفل بعيد ميلاد جوليو، المدير الليلي للعطارة الشهيرة.

وحتى لا نثير انتباه رجال الشرطة، لففنا علب الجعة الكبيرة، التي كنا نتقاسمها في ورق الصر. غير أن هذا لم يمنع جوليو ولا ويلي، فتوة بيت الكراك «Crak House»، من تحطيم القناني الفارغة على الدرج الموصل إلى مساكن روزفلت. وكان أصدقائي يغمسون من وقت لآخر أيضاً مفتاح شقة أو أظفراً بنفسجياً طويلاً في كومة صغيرة من الكوكائين، ملفوفة بورقة نقدية

---

[1] Botanica: هي صيدلية عشبية، تباع فيها أشياء دينية يستعملها الأفرو - كاريبيون في ممارساتهم الدينية. وترجمناها هنا بالعطارة. (المترجم)

من فئة الدولار، يحتفظ بها جوليو معه بعناية، ثم يحملون المسحوق الناعم إلى منخر ويحنون رؤوسهم قليلاً، ويسدّون المنخر الآخر مع تكشيرة بالشفتين، ويستنشقون فجأة بحركة سريعة ورشيقة، دون إضاعة أي شيء منه.

يحتل حي روزفلت، وهو واحد من المجمعات السكنية (وتملكها المدينة جميعها) الاثني عشر التي يحتويها هارلم الإسباني، المرتبة الثانية بين كل مجمعات منهاتن في المعدل القياسي لحوادث القتل. وتوحي صفوف البنايات في هذه الجهة، ككل بنايات الباريو، بالبؤس؛ فبنايات مهجورة، ومحلات خاوية، وأرصفة مغطاة بالنفايات. وسكان الحي، أطفالاً كانوا أم بالغين، يجتاحون الشوارع نهاراً والجزء الأكبر من الليل في أشهر الصيف القائظة.

ليست البناية التي أسكن فيها مستثناة من القاعدة، إذ كان بوسعي التزود بالهيروين والكراك والكوكائين وغيرها من المخدرات، ضمن دائرة مساحتها 200 متر مربع. وكان الكراك هو المفضل بالطبع لأنه الأرخص ثمناً والأكثر توافراً، إذ هناك ثلاث نقاط للبيع بأسعار تنافسية على بعد 30 متراً من بنايتي.

كانت المقاعد التي تكدسنا عليها تلك الليلة شديدة القرب من إحدى نقاط بيع الكراك التي أقيمت حديثاً، أي في بوابة المدخل الرئيسي لحي روزفلت. وتملك هذه النقطة عصابة غير منظمة بالأحرى من البائعين المراهقين، وتسيء كثيراً للعطارة التي يعمل فيها جوليو وويلي المقابلة تماماً، في الجهة الأخرى من الشارع؛ إذ إن «منشأة» هؤلاء المراهقين الطموحين أخذت بكسر سعر جرعة الكراك، التي انخفض ثمنها من خمسة دولارات إلى دولارين. ولهذا أخذ ويلي ينثر حطام قناني الجعة في قفص الدرج الذي «تزاول» فيه عملها، بسرور واضح. وعلى الرغم من أنه يعلم جيداً أن العصابة المنافسة تتعاطى المخدر، إلا أنه سمح لنفسه بفعل ذلك دون مخاطرة، لأن أخاه الأصغر ذا الثلاثة عشر عاماً كان في عداد العصابة، ويوحي بثقة كافية جعلتهم يكلفونه مع بعض زملائه بتخبئة المخدرات لديهم، كلاً بدوره، بعض الأيام في كل شهر.

كان علينا كما جرت العادة، أن نجتمع على الرصيف المقابل، أمام العطارة. لكن المالك طرد جوليو ويلي لأنهما كانا يصلان إلى العمل متأخرين في كثير من الأحيان، ويبدوان صعبَي المراس. وهذا ما حط من معنويات جوليو، لأنه لم يوفر فلساً واحداً. فلقد أنفق آخر بنس، خلال السنوات الخمس التي امتاز فيها بعمل ثابت كمسؤول عن بيع الكوكائين والكحول. وكانت صديقته ابنة الثمانية عشر عاماً وأختها الكبرى، عشيقة ويلي، تتصتان بإشفاق. ومضت بعض الساعات، دون أن يحدث شيء. لأن كلاً منا كان مشغولاً باستنشاق الكوكائين واحتساء الكحول.

رامون الذي كان الداعي للاحتفال، قطع نواح جوليو، لأنه سئم من سماعه يندب حظه، كما سئم من الإشفاق الذي يثيره حوله، بما في ذلك الجدية التي كنت أسجل بها شكاواه بآلة التسجيل الصغيرة الدقيقة، وهي معلقة بشفتيه، كأنني أحاول جاهداً التقاط كل كلمة يتلفظ بها، من خلال ضجيج الشارع في تلك الليلة الصيفية.

بوسعي القول، إن حياة كاملة من الإحباط المكبوت هي التي جعلت حكاية رامون تختمر، وجعلته ينفجر. فقد أدهشتني رغبته المفاجأة في التعبير عما يعتمل في صدره؛ لأنه في العادة خجول ولا يتكلم إلا قليلاً بينما كان منزوياً يتحقق بين الفينة والفينة من أن المسجلة تدور. فاعتبرته حتى ذلك الوقت إذن من أناس الشارع، الذين لا يريدون التورط مباشرة مع أحد البيض. لكن التفرقة في المدن الأمريكية لم تكن هي هَم رامون الأكبر عند حديثي معه. ولم أدرك أن رامون لم يقاطع جوليو لمجرد الغيرة -لأن جوليو كان يستقطب الانتباه- بل لأنه أراد بالأحرى إعطاء مثال مضاد لرواية جوليو حول ترويج المخدرات، إلا أسابيع من بعد، عندما كنت أدون هذه الصفحات. وكان رامون يعرف أيضاً مقدار قرب جوليو مني، والدور الهام الذي سيقوم به في بحوثي، ويخشى في الواقع أن تكون دراستي مقتصرة على أناس كسالى ومستهترين، عاجزين عن العمل بشرف -إذ سيكرر عدة مرات، مثلاً، أنه على العكس من جوليو، يبيع الكراك للضرورة حتى يطعم أسرته: «فقط لأعيل من تركتهم أمي لي»-.

وقد بدا عليه الحماس والتفاؤل، لأن زوجته دفعت عربوناً لكراء شقة مدعومة[1] من قبل المدينة. وإذا سارت الأمور على ما يرام، فسيكون بوسعها مغادرة بيت الإيواء الذي تقيم فيه مع ابنهما وسط المدينة، منذ أن طرد قبل سنة من شقة والدة رامون. وإذن فهو يأمل في أن يستطيع إعادة تكوين خليته الأسرية («الآن، وقد حصلت زوجتي على شقة، فلن نعود إلى الشارع. ولسنا بحاجة إلى شيء سوى القدرة على البقاء فيها والذهاب إلى العمل، ثم العودة إلى المنزل وإنجاب الأطفال»).

لكن رامون كان قلقاً في الوقت نفسه، إذ كان يخشى وقوع الشقة في أيدي المعونة الاجتماعية، ولم يكن متأكداً، زيادة على ذلك، من محبة امرأته له. ولم يكن يستطيع التوصل إلى قرار بالعودة إلى ترويج المخدرات، لا سيما أن أحد منافسيه هدده بالقتل فيما لو عاد إلى نقطة بيعه السابقة في جنوب برونكس. وكان هذا الخصم أطلق عليه النار في الماضي؛ فأخذ رامون التهديد بجدية جعلته يحمل مسدساً -خبّأه في جعبة رياضية متسخة من القماش- وضعها دون مبالاة تحت مقعدنا، حتى لا يلفت انتباه الشرطة. وباختصار، فإن رامون لمعرفته بأن راتبه الرسمي كساعٍ لا يكفي لإعالة أسرته، لا يجد مورداً آخر فيما عدا ترويج المخدر («لم أعد أريد مجرد المحافظة على بقائي، بل أريد العيش.. لا أدري، فربما علي استئناف بيع المخدرات، وربما أستطيع إيجاد مكان آخر أكثر أمناً، لا أدري») كانت الضائقة المالية تسحقه، وإعانة الدولة دون أي أثر، بل على العكس، وفقاً لنطق غير منتظر. إذ إن المساعدة الاجتماعية خفضت المعونات التي تدفعها لعائلة رامون عندما أصبحت بدون مأوى، بحجة أنه لم يعد عليهم كراء يدفعونه، وأنهم يأكلون في المطاعم الشعبية.

---

[1] يقدر الوقت اللازم للحصول على شقة مدعومة في نيويورك بـــ 17 أو 18 عاماً. وكان في وقت هذا الحديث 88.000 عائلة بقائمة الانتظار. ويصل عدد الشقق التي تدعمها البلدية في نيويورك كلها إلى 175.000 شقة فقط، ومعدل المساكن غير المشغولة هو 0.1٪. تمكنت إيريس، زوجة رامون، من الحصول على شقة، على الرغم من أن قائمة الانتظار تحوي 80.000 أسرة، لأنها جاءت من بيت للإيواء، عاشت فيه أكثر من عشرة أشهر.

كان رامون يشعر في أعماقه خفيَة، بالحنق على جوليو لعدم فهمه عمق الحب الذي يربطه بزوجته إيريس. فعلى الرغم من أقواله («لم أعد أشعر بشيء، لقد أنهكتني الحياة لدرجة لم يعد يهمنيَ معها شيء»). لاتزال حياة رامون تتضمن عبئاً عاطفياً أساسياً: إذ يحب امرأته، ويهتم بابنه. غير أن حبه المطلق لزوجته، الذي سيعبر عنه عدة مرات خلال الحديث، لا يتناسب -وفقاً لثقافة الشارع- مع السلوك المنتظر من رجل. والأخطر من هذا معرفة الجميع أن إيريس، زوجة رامون، كانت لها علاقات مع نساء أخريات في بيت الإيواء. ولم يشر رامون إلا تلميحاً إلى الصدمة التي شعر بها عندما فوجئت زوجته مع امرأة أخرى في حمامات بيت الإيواء («هناك الكثير من السحاقيات، والكثير من البغايا. وقد فاجأت بعضهن يرتكبن الفاحشة في الحمام»). ومع ذلك فهو يحب زوجته لدرجة يميل معها إلى تفسير سلوكها الجنسي بالظروف الموضوعية للحياة التي يعيشها من هم دون مأوى في نيويورك. ولم يسع قط إلى التقليل من مسؤوليته أو خطئه، إذ لم يتكلم بصراحة في الواقع إلا عن خيانته الجنسية.

أما جوليو، فهو على عكس رامون؛ لا يتساهل مع أية مخالفة للنظام الأبوي التقليدي. ويزعم بأن إيريس («ترتكب الفاحشة من أجل بضعة دولارات») بعد أن صارت «مدمنة على الكراك، وتتنشق الهيروين». ولذا أخذ في تحريض رامون منذ أشهر على أن يوقف سخرية امرأته منه ويؤدبها ويهجرها. وأصبح جوليو أكثر عدائية لإيريس، بعد الحديث بأسابيع، عندما أدخل رامون السجن ليمضي عقوبة سنة أو اثنتين؛ لأن القاضي لم يمنحه في الواقع وقفاً للتنفيذ، بل أطلق سراحه قبل النطق بالحكم، لأن سجون بلدية نيويورك كانت مكتظة كلها. لقد ذهلنا جميعاً لسجن رامون، إلا أن رامون هو الذي أصيب بالصدمة، كإيريس وابنهما ذي السنتين والنصف.

وعندما أطلق سراح رامون، عن دون انتظار، بعد أربعة أشهر؛ بسبب اكتظاظ السجون أيضاً، سكن في الشقة المدعومة التي تقيم فيها زوجته مع ابنه الآن، ووجد فوراً عملاً بدوام كامل -عملاً مشروعاً في الظاهر على الأقل- في منشأة هدم تتبع نقابة، بأجر مجزٍ وفقاً لمعايير الشارع، أي عشرة

دولارات للساعة. وبدأ رامون في تحقيق حلمه الذي تحدث عنه، أثناء لقائنا منذ عام: «أنا أحب ربح المال والعودة إلى بيتي لأرتاح وأبقى مع عائلتي». لكن جوليو حاول إقناعي، على انفراد، بأن إيمان رامون بالخلية الأسرية، ليس إلا برهاناً على ميوله للامعقول ومزاجه الضعيف: «إن رامون من هذا النوع من الزنوج ذوي القلوب الضعيفة. يقع في الحب فريسة سهلة، ولا أدري ما مشكلته».

غير أن عمل رامون المشروع ظاهرياً لم يدم للأسف أكثر من ستة شهور. حل بعدها كساد 1991 ليعصف بسوق البناء في نيويورك. ولم يكتشف إلا عند تسريحه، أنه كان مستخدماً بصورة «غير شرعية». إذ أن النقابة لم تكن سجلت عقد عمله، وأعلمته بأن لا حق له في المطالبة بتعويض عن تسريحه. وكان رب العمل في الواقع مقاولاً من الباطن يعمل، من خلال عمليات تخويف، مع نقابات البناء التي تهيمن عليها المافيا. ولذلك يشغل أصحاب السوابق من السود أو ذوي الأصل الإسبانيك لكي يصطنعوا مظاهرات عنيفة أمام مسكن شعبية، تجري فيها أشغال للتجديد وتستخدم عمالاً بيضاً بعقود سخية، للعمل من الباطن في هدم البنايات، بالأسعار النقابية. فيدفع بدوره لعماله نقداً، أجوراً بتسعيرة تزيد قليلاً عن نصف التسعيرة الرسمية المتمثلة في 18 دولاراً للساعة، التي تجري مراعاتها في نيويورك. ثم يقدم وثائق زائفة لتبرير المصروفات؛ ويتيح له هذا الاحتفاظ بثمانية دولارات لكل ساعة يعملها العامل، مدة الأشغال كلها. ولم يكن رامون ولا أي واحد منا في كراك هاوس يظن لحظة أن الأجر النقابي الرسمي في الهدم يمكن أن يكون على هذا الارتفاع.

وهكذا كان رامون يجهل ما يخبئه القدر، عندما دعانا بروح المنتصر، ليلة إجراء الحديث للاحتفال بعيد ميلاد جوليو، باحتساء الجعة وتنشق الكاوكائين.

مع مروّج بورتوريكي للمخدرات في هارلم

حديث مع فيليب بورجوا

«أريد أن أعيش، وليس مجرد البقاء على قيد الحياة»

رامون: أنت لم تعش قط ما عشته؛ فلم تجد نفسك قط في الشارع، ولا تعرف ما يعني عدم وجود المأوى. تقول دائماً إنك قمت بتضحيات، لكنك لم تضح بنفسك. أما أنا فقد فعلت!

إذ بقيت هكذا دون سقف يظلني تسعة أشهر (ثم ملتفتاً إلي وملقياً نظرة خفية إلى آلة التسجيل) نعم لقد ضحيت بنفسي عندما اشتغلت ساعياً في وال ستريت بمائة وخمسة وأربعين دولاراً في الأسبوع، وهو ما لم يكن كافياً، لأنه لم يكن يسمح لي فقط إلا بإطعام عائلتي، وشراء حذاء لابني، ولا شيء لي ولزوجتي. ولهذا أردت بيع المخدرات، لكي أشتري أشياء أخرى لابني. إنه لا يتجاوز السنتين، ويحب التسلية باللُّعب. لكن ليس لديه لُعب، لأنه يعيش في بيت للإيواء مع زوجتي. تفهم إذن أنني أردت كسب المال لابتياع سيارة جديدة -أنا بحاجة إليها- وحلية صغيرة لي من وقت لآخر. هذا ما أريده، كل ما كنت أريده.

لا أريد مجرد البقاء على قيد الحياة، بل أريد أن أعيش، لكن هذا (يشير بحركة من ذراعه إلى بنايات الحي الشعبي وإلى الزجاج المحطم المنثور في كل مكان حولنا، ثم يدخل أظفر خنصره في كومة الكوكائين الصغيرة الملفوفة في ورقة من فئة الدولار، الموضوعة على ركبة جوليو،

ويتنشق ببطء، قبل أن يأخذ جرعة من قنينة الجعة الكبيرة التي كنا نتقاسمها).. إنه مجرد بقاء على قيد الحياة، مع راتب لا يكاد يكفي. (يحتسي من الجعة بسرعة ثم يناولني القنينة). لا أريد هذا. بل أريد أن أكسب كفاية من المال، لكي أرتاح وأستطيع الشراء دون تردد.. أتفهم؟ وأكون مسروراً وأنا أعرف أن بوسعي فعل ما أشاء بمالي. أريد أن أنتزع من الحياة أكثر، ولا أقنع بما عندي. إن هذا يجعلني أفقد الثقة، ولهذا فكرت في بيع المخدرات، كما تعلم.

(..)

(التصق بي حتى يتكلم بصوت خفيض غير أنه واضح في ميكروفون آلة التسجيل الذي حملته قريباً من فمه لألتقط كلامه) كنا نسكن عند أمي مع إخوتي وأخواتي، إلا أنهم مدمنون على الكراك، ولا يودون فعل شيء للتخلص منه. فتركت أمي كل شيء فجأة، لتعيش حياتها. مثلما فعلت أنا أيضاً وفعل إخوتي وأخواتي. تركت لي أمي الشقة، في الوقت الذي لم يكن معي فيه ما يكفي من المال (..) والكراء مبلغ كبير علي دفعه. وهكذا بدأت ببيع الكراك والمخدرات في المحطة فقط للتوصل إلى دفع كراء الشقة التي تركتها أمي لي (..) أترى، يا رجل، ما أعني بكسب عيشي، والحياة الأفضل.. أتفهم؟

«حياتك تافهة هناك في مركز الإيواء»

كنت أبيع الكراك وحيداً، لكن الأمر كان شاقاً، وليس على ما يرام. ولذا قررتُ أن أعمل لحساب شخص، فأخفقتُ، إذ قُبض علي للمرة الأولى في اليوم نفسه الذي بدأت فيه العمل لحساب ذاك الشخص. وقد حصلتُ لتوي على عمل الساعي في وال ستريت، ومازلت أحتفظ بهذا العمل. ذهبت إلى السجن، لكنهم أطلقوا سراحي فوراً، فاستأنفتُ عملي. غير أن صاحب الشقة قال: «سأطردكم خارجاً»، وحاولتْ زوجتي الاحتفاظ بالشقة، ولكن بعد فوات الأوان. وجاء الشتاء فحططتُ رحالي في بيت الإيواء مع أسرتي، حيث بقيت خمسة أشهر كنت خلالها تعيساً. لأن مركز الإيواء كالسجن. تنام فيه مع 20

شخصاً آخرين، لا تعرفهم ولم ترهم قط، ولا تعرف ما لديهم: ربما الإيدز أو أي شيء آخر. ثم إنهم لا يستحمون، فمرش الحمام مقزّز. وكان على أمرأتي أن تنظف الحمام قبل أن تغتسل. إن الحياة هناك مثيرة للأعصاب إلى أقصى حد. والمركز مكان فظيع، فظيع حقاً. وكنت أفضّل أحياناً لو كنت في السجن، لأنهم لا يحترمونك هناك. فهذا المكان ليس لناس جيدين وهادئين يشتغلون، مثلي ومثلك، بل لناس الشارع المتسكعين. أما أنا فأحب كسب المال والعودة لبيتي لأرتاح وأبقى في منزلي مع أسرتي. وهذا المركز لا يمت بصلة لكل ذلك. هناك أغلبية من النساء في بيت الإيواء، يتصافعن على وجوههن كل يوم، لأنهن ساقطات حقيقيات. وفيهن سحاقيات وكثير من البغايا والسافلات وما يشبه ذلك. إنهن يرتكبن الفاحشة في قاعة الحمام وما شابه. إنه مكان تجد فيه كل ضروب التوحش، إنه غابة! إنه يؤدي للإحباط (مستنشقاً الكوكائين وهازّاً برأسه) وبينما أنت نائم، تثور المشاجرات فجأة، فتستيقظ في منتصف الليل، لأن هناك في القاعة المجاورة أناساً يحطم بعضهم بعضاً لسبب لا تعلمه. وقد تبدأ في استلطاف شخص بجانبك والتعرف عليه، وفجأة يذهب ويأتي غيره إلى جانبك. وأنت تنتظر وينتابك القلق، لأن شخصاً آخر سيأخذ السرير الذي بجانبك، ولا تعرف عنه شيئاً. أهو قاتل أم لديه الإيدز أو شيء آخر، لا تدري. وتبدأ في التفكير عندما ترى الشخص، فربما يتعاطى المخدرات أو لديه الإيدز. لابد لأشياء كهذه أن تقيم بجانبك في المركز. أجل فلابد أن يكون أحد القتلة أو المغتصبين أو اللواطيين أو متعاطي المخدرات أو غيرهم، هكذا بجانبك. إذ لابد أن يكونوا على هذه الشاكلة. وإذن تكون حياتك شقاء في مثل هذا المركز. وهذا ما أخرجنا عن عقلنا، أنا وزوجتي.

«كان بوسعي أن اقتل أياً كان»

ولم يكن بإمكانك أن تعاشر زوجتك، لأنهم جميعاً هناك ينظرون إليك (مشيراً إلى الصغير باكو في عربته، وهو يصغي باهتمام) كما أن لزوجتي.. حاجات. وأنا أيضاً أعاني من ذلك، وليس لدي مال للذهاب للفندق أو غيره، فما العمل إذن؟ وكان لابد من فعل شيء، فقررت بيع المخدر من جديد. وكان

ذلك هدفي من بيع المخدر «سأبيع المخدر، وأفعل أي شيء حتى تكون حياة زوجتي وابني أفضل. حتى لو اضطرني ذلك لقتل شخص ما. سأصير قاتلاً مأجوراً، وأفعل أي شيء لكسب المال والبقاء على قيد الحياة». هذا ما كنت أفكر فيه. وقد كانت هذه العشرة أشهر المشؤومة مع زوجتي وابني في بيت الإيواء صعبة وقاسية حقاً. كان بوسعي قتل أي كان ممن يبيعون كثيراً من المخدر ويكسبون المال ويبتاعون السيارات والحلي.. كنت أود تحطيم رؤوسهم، فقط لأنني لم يكن لدي الشيء ذاته. وكان ذلك من الأنانية. أجل، لقد كنت أنانياً، وأشعر بالتفاهة لوجودي في هذا البيت الدنيء. وبالتالي كنت أنظر إلى أولاد الساقطات هؤلاء، وهم ينعمون بالحلي والسيارات وكل ذلك، بينما أنا مفلس أرمقهم (..) لكنني عوضاً عن ذلك، استأنفت عملي مع المخدرات. ومرة أخرى أخذتُ ببيع المخدرات ولم أتوقف منذئذ كما تعرف.

(..)

وما حصل هو أنني لم أعد أطيق البقاء في المركز، فقد كان قاسياً. وعانينا لخمسة أشهر، وبدأت أتصايح مع زوجتي، لأنه قد فاض بي الكيل. احتملت خمسة أشهر ثم قلت: إنني أُفضّل الرصيف على البقاء في هذا المكان! تعاركت مع زوجتي بشدة خارج المركز حتى كدت أخنقها.. وغادرت. ادركت أنني ما عدت قادراً على العيش معها، لأنني كدت أقتلها. إنني أحبها وأحب ابني، لكن كان علي أن أغادر المركز، ولم أعُد إليه قط. وبقيت أسبوعاً في الشارع حتى قلت لنفسي: «سأبيع المخدرات» وهذا ما فعلته. فعندما استرددتُ بعض المال من الضرائب التي دفعتها، استثمرته في المخدرات وبدأت أبيعها، لقد أنفقت كل المال في شراء المخدر، 400 دولار وزيادة. وبقيت في الخارج أبيع المخدر وحيداً لأربعة أشهر. وبدأتْ الأمور تتحسن في النهاية عندما استلمت راتبي كساعٍ. لكن ذلك لم يكن سهلاً، بل كانت فترة عصيبة، انتهت بشجار مع جماعة الحي -مع الشخص الذي يريد قتلي الآن (يرفع الجعبة الرياضية قليلاً مع ماسورة بندقيته الصغيرة، ثم يضمها إلى صدره قبل أن يحتسي عدة جرعات من القنينة)..

«كان علي البقاء على قيد الحياة»

رامون: (مواجهاً جوليو، مرة أخرى، كأنما يريد أن يبين أنه إذا كان مروِّجاً فذلك لأسباب مختلفة عن أسباب جوليو). لكن، كان علي البقاء على قيد الحياة. فقد كنت أعيش.. في الشارع عملياً. وتركت زوجتي وابني في بيت الإيواء، بينما كنت أعيش في نقطة بيع الكوك(ملتفتاً إلى) نقطة بيع الكوك هي مكان يباع فيه الكوك بكثرة، حيث يموّن المستهلك داخل شقة. وقد عرّضت نفسي لمخاطرة بذهابي للسكن هناك، لأن الشرطة بإمكانها مداهمة الشقة ووضعي في السجن عن طريق الخطأ، لغلطة لم أرتكبها؛ فما كنت أسعى إلا إلى مكان يؤويني. ورتبت أموري مع حارس البناية. وهكذا أخذ يزعم بأن الشقة مغلقة، في الوقت الذي فتحها فيه، وتركني أقيم فيها لأنني شخص جيد، وكنت أعطيه 40 دولاراً في الأسبوع، فاستطعت البقاء شهرين إضافيين. أضعت في البداية كثيراً من المال بسبب امرأة سلّمتها الكثير من المخدر لتبيعه، لكنها استهلكته مع أصدقائها. وأمضيت سبعة أيام لاستعادة المال، لأنها ردّت لي المال بالتنقيط. قلت لها: «الأفضل لك أن تردّي لي مالي وإلا ستحصل لكِ أشياء» -كانت تعلم بأنني سأؤدبها- فأخذت بدفع 10، 15 دولار يومياً حتى ردّت لي الـ 120 دولاراً التي كانت تدين بها لي في النهاية (..) وسلمتُ لأخي بضاعة، لكنه خدعني هو الآخر، فبقيتُ خالي الوفاض. وكان لدي سوار، فرهنته لقاء 185 دولاراً، وبدأت من الصفر عندئذ.

«لا وجود لي بالنسبة للإعانة الاجتماعية»

لقد شقيت، عملت عاماً ساعياً، ولم أتغيب يوماً واحداً. وأنا غداً في عطلة لأخذ ابني، عمر ابني سنتان ونصف، مثل باكو بالضبط (يشير إلى ابن كارمن الصغير الذي بسبب تقييده في العربة، توقف عن الحركة ليصغي باهتمام، معجباً بأضواء آلة التسجيل البراقة) ويذهب إلى الحضانة. ولذا سأذهب لأخذه منها غداً بعد الظهر. إنها عطلة غير مدفوعة الأجر، فليس لي أية امتيازات اجتماعية في عملي ما عدا الراتب. أما زوجتي فهي مسجلة في مركز الإعانة الاجتماعية ولديها المعونة الطبية Medicaid (المعونة الطبية هي

نظام طبي، أقر في السبعينيات لمعونة الفقراء والمعوزين) التي لا تعطى إلا لطفل واحد هو ابني. إذ يحصلان على 144 دولاراً كل 15 يوماً، ويعطيان 129 دولاراً شهرياً في مركز البطاقات التموينية. ولكن ذلك ليس كافياً للمعيشة، ولذا عليك العمل حتماً. ولهذا نتظاهر بأننا لسنا متزوجين، فلا وجود لي بالنسبة للإعانة الاجتماعية وإلا يمنعون عنها منحة المعونة الطبية. لكننا عندما فقدنا شقة أمي، وجب علي تقديم المسوغات للإعانة الاجتماعية حتى نذهب لبيت الإيواء. فبدأت المعونة الاجتماعية منذ تلك اللحظة بتخفيض المنحة التي كانت تعطى لزوجتي، معلّلين ذلك بقولهم: «أنتم تعيشون في بيت للإيواء، وتقدَّم لكم ثلاث وجبات يومياً في مركز الاستقبال، وإذن ستُخصم من بطاقاتكم التموينية» ومنذ ذلك الوقت، لا تستلم إلا 85 دولاراً كل خمسة عشر يوماً، بدلاً من 144 من المعونة الاجتماعية، بالإضافة إلى 75 دولاراً فقط على شكل بطاقات تموينية، لأنها تتغذى مع الطفل مجاناً في بيت الإيواء. وقد طفّ بها الكيل، لأنها لا تستطيع عمل شيء بهذا المبلغ. فلا تستطيع شراء إلا الطعام، لكن ما تشتريه من طعام ينفد بسرعة، وليس الطعام كذلك الذي تعودنا عليه في المنزل (يتنشق الكوكائين ويشرب) كانت الشقة إشارة بأن علي التوقف عن بيع الكراك

❖ لكنك كنت تقول، يا رامون، بأن من الممكن أن تحصل زوجتك على شقة، أليس كذلك؟

رامون: ساعدها مركز المعونة الاجتماعية في الحصول على شقة، لأنها امرأة معوزة. فقد قضت تسعة أشهر مع ابني في بيت الإيواء. ولهذا حصلتْ على الشقة. ولا تدفع المعونة الاجتماعية إلا 50 دولاراً شهرياً، أتفهم قصدي؟ وتُخصم مباشرة من منحها. وليس علي أن أدفع شيئاً لأنهم لا يعرفون عني شيئاً، مع أنني أعمل ساعياً في وال ستريت. ولهذا يمثل راتبي الآن شيئاً ذا قيمة. إنه 145 دولاراً صافية. فلن يحسموا منه شيئاً للتعويضات العائلية. ولعل هذا سيجعل حياتنا أكثر يسراً، فسأقتصد وأشتري ما أشاء. وبما أن زوجتي حصلت على الشقة الآن، أظن الأمور ستسير على ما يرام. إنني أستطيع الراحة الآن، وتقرير ما أريد عمله. وهذا

ما لاحظته زوجتي لأنها تعرفني. نعم، أشعر بالتحسن، وبدأتُ بالشفاء. فعندما حصلتْ على الشقة، شعرتُ بأن هذا علامة بأن علي التوقف عن بيع الكراك. إذ كانت لدي مشكلات كما تعلم: (يشير إلى جعبته الرياضية عند قدميه، حيث يوجد المسدس) مع البائع الآخر، الذي يريد قتلي!

أما الآن وقد حصلتْ زوجتي على الشقة. فعلي الابتعاد عن الشارع والانقطاع عنه (ملوحاً بيده في اتجاه الكراك هاوس، في الجانب الآخر من الشارع). وكأنما يقال لي: «لديك الآن مكان، لا تدفع فيه سوى 50 دولاراً شهرياً، ولست بحاجة إلى شيء آخر، فاذهب إلى العمل وعد إلى المنزل واهتم بأطفالك.

(يفتح جوليو عينيه واسعتين، عند سماعه قرار رامون الجديد، ويقدّم بشيء من المناكدة الكوكائين ويتنشق رامون الكوكائين، مستأنفاً حديثه وهو مستغرق في التفكير). لا أدري، فربما أعود للبيع، ولكن في مكان أكثر أماناً. لا أدري (بعدما شرب القطرات الأخيرة من قنينتنا الكبيرة، قذفها جاعلاً مسارها على شكل قوس كبير، قبل أن تتحطم بصوت عالٍ على الإسفلت، باعثة البهجة في نفس باكو. وبالطريقة نفسها تقريباً وضع في يد جوليو دولارين، مشيراً له بالذهاب لشراء قنينة أخرى من البقالة الكبيرة). لأنني اتمنى فقط أن تحصل على الشقة حقاً. لدينا العقد وكل ما يلزم. لكن المالك لايزال يضايقها قبل أن يترك لها الشقة. وقد دفعتْ عربوناً، منذ يومين وسيأتون غداً للتحقق من حالة الشقة. وأعلَم غداً إذن إذا ما كنت ساحصل عليها أم لا. (مشدّداً قبضته في قلق). إنها الفرحة إذا حصلتُ عليها! وإلا سيكون علي الانتظار شهراً أو شهرين للحصول على شقة أخرى. والمشكلة هي في أنني لا أستطيع البقاء طويلاً حيث أعيش الآن، نعم، إنني أسكن الآن عند ابن عم زوجتي، غير أنه لم يدفع الكراء وسيطرد. وأقصى وقت أستطيع البقاء فيه أسبوعان لأن ابن عمي سيطرد. إنه يعمل ولكنه يقتصد لشراء شقة في مكان آخر بمحيط أفضل، ولهذا فهو لا يعبأ إذا ما طُرد.

❖ إذا لم تسر الأمور بالنسبة للشقة، ألا تستطيع السكن مع أحد آخر من عائلتك؟

رامون: أخي وأختي، وكانا أيضاً في مركز الاستقبال؛ يعيشان الآن في بيت للإيواء من ثلاث غرف، كالذي تعيش فيه زوجتي. وأختي الكبرى، تعيش مع زوجها الآن، وقد خرج لتّوه من السجن، وتؤويهما المدينة في فندق (تؤوي مدينة نيويورك من هم بدون مأوى في فنادق عندما تكون بيوت الإيواء الاستعجالية مملوءة). وأختي الصغرى الأخرى في السجن، وكذا أخي الأصغر. ولذا فليس منا خارج السجن سواي وأخي الأكبر وأختي الكبرى. أما أمي فرحلت إلى كوينز (دائرة من دوائر نيويورك، التي تتكون من مانهاتن، برونكس، ستاتن إيسلاند وكوينز) وهي سعيدة في بيتها، وأفهمها أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لي، فلا أريد أن أُحزنها. فإذا ذهبتُ إليها، أرتدي أحسن ما عندي وأقول لها: «لا تحملي هماً بشأني، فكل شيء على ما يرام».

«جاء وقت كان لدي فيه ما استطيع به شراء شقة تقريباً»

جوليو: (مقاطعاً رامون، وهو يناوله قنينة الجعة الجديدة) أسرتك، لا يمكنك الاعتماد عليها، يا رجل!

رامون: (نزع غطاء القنينة، وهو غارق في التفكير، ودلق بعض القطرات منها على الرصيف. وهي حركة بورتوريكية تقليدية، للترحم على الأموات. ثم احتسى جرعة صغيرة، دون أن يحسب أن القنينة بهذه البرودة، فبصق وهو يناول القنينة لجوليو دون أن ينظر إليه). أبحث عن شقة منذ ثلاث سنوات ونصف، ولسوء حظي لم أجد شيئاً. وكان لدي منذ بعض الوقت ما أستطيع به دفع كراء شهر تأميناً. وأعطيت لشخص مرة أخرى 400 دولار، ادعى أنه سيجد لي شقة. لكنه كان محتالاً، فذهبت لأمه وهدّدتها. واستعدت مالي بعد يومين أو ثلاثة، ليس منه بل من أخيه، ولو كان في متناولي لقتلته دون شك أو أرسلته للمستشفى. لكنني لم أسمع عنه شيئاً.

◆ هل تعلم يا رامون أن ما سجلته رائع. أعتقد أنني سأستخدمه في كتابي. لكنني منهك الآن؛ إذ لم أتنشق مثلكم، وعلي مرافقة ابني إلى المدرسة صباح الغد. ولذا سأنسحب.

رامون: (غير قادر على الكلام، لأن فمه مليء بالجمعة الباردة. لكنه يشير إلي بترك آلة التسجيل دائرة. وبنفس الحركة من يده تقريباً، يغمس إصبعه في كومة الكوكائين الصغيرة، ويتنشق بلطف).

إن نشأتي في الباريو علّمتني الكثير! (متنشقاً الكوكائين من جديد، ومسرعاً في إيقاع خطابه) لقد تعلمت كيف أتخلص من الخطر. لأنك عندما تكون صبياً، وترى الناس يموتون أمامك (متنشقاً من جديد) وقد انفجرت رؤوسهم، يسقطون ووجوههم إلى الأرض. هنا بالضبط (مشيراً إلى حافة الشارع القريبة من الصغير باكو الذي كان ينظر من عربته مأخوذاً) ترى جثة، وقِطع المخ متناثرة على الجدار (يشير إلى آجر البنايات الشعبية خلفنا). لقد رأيت هذا (يتنشق) وكنت في المدرسة، في الثانوية. في المكان الذي يقع فيه النادي بالضبط، على الجدار، هنا تماماً. رأيت المخ يتناثر هنا بالضبط (مادأ يده كأنما إعجاباً بمنظر شامل رائع).. لقد رأيت ناساً يقتتلون، يعتدون (يتكلم بسرعة أكبر) يعتدون هنا أمامي، ناساً يتعاركون، ويتطاعنون. (يبطىء من جديد). إن هذا ليس له أي معنى عندي الآن. فلم أعد أشعر بشيء. بوسعك أن تصوب بندقيتك إلي، ولن أقول لك سوى شيء واحد: «هيا اقتلني». فلم أعد أبالي. لم يطلق أحد النار علي إلى الآن.. هكذا عاملتني الحياة: عاملتني بقسوة، لم أعد معها مبالياً بها. من هنا، تعلمت كل شيء.. العقلية وكل شيء، من هنا.. من الباريو.

آب 1989



بيير بورديو

تخلي الدولة

إن إرادة الذهاب لمعاينة الأشياء، بصفة شخصية عن كثب جديرة تماماً بالثناء، إلا أنها تحمل أحياناً على البحث عن المبادىء التي تفسر ما يلاحظ من وقائع، في المكان الذي ليست موجودة فيه (ليست كلها على كل حال)، أي في مكان الملاحظة نفسه. وهكذا من المؤكد أن حقيقة ما يحدث في «الضواحي الصعبة» لا تكمن في هذه الأماكن المنسية عادة، والتي تبرز إلى صدارة الأخبار، في فترات متباعدة[1]. فإن موضوع التحليل الحقيقي، الذي ينبغي بناؤه ضد المظاهر، وضد أولئك الذين يصادقون عليها، هو البناء الاجتماعي (أو السياسي بصفة أدق) المعروض على الحدوس والتمثلات، وخاصة منها الصحفية والبيروقراطية والسياسية لهذا الواقع، التي تسهم في إحداث تأثيرات واقعية فعلاً في العالم السياسي، حيث تصنع بنية النقاش منذ البداية، وحتى ضمن العالَم العلمي.

نبذ الدولة والليبرالية :

إن كنا أفردنا هنا مكاناً واسعاً للتحليل النقدي للتمثلات، فليس مرد

[1] يتجسد التقسيم بين التخصصات من انثولوجيا وعلم اجتماع وتاريخ واقتصاد، من خلال تقطيع غير ملائم لموضوعات الدراسة، إذ إن هناك تعارضاً مثلاً بين البحوث الأحادية الموضوع، المحصورة فيما هو كلي، وبالتالي غير قادرة على تبين الآليات التي تسجل تأثيراتها، وبين التحليلات الطموحة الأكثر شمولاً، ولكنها تميل للاختيار، بصفة اعتباطية إلى حد ما، من الوقائع المعقدة من أجل بناء نماذج «مصنوعة بأسلوب شخصي».

ذلك لمجرد الاستمتاع بلذة الجدال. إذ إن هذه البناءات الجماعية تشكل جزءاً من الواقع، الذي علينا أن نفهمه، وهي مسؤولة عن جزء كبير منه. وتلك هي حالة الرؤية الليبرالية الجديدة التي أوحت بالإجراءات السياسية التي اتخذت في سنوات السبعينيات، بشأن التمويل العام للإسكان، والتي أسهمت في خلق التقسيم الاجتماعي الذي تجسد في أكثر الأحيان في المكان بمجرد شارع بسيط بين ملاك المنازل الصغيرة، وسكان المجمعات الكبرى، كما في سان – فلورانتان. ولكن من تذكر، عندما حدثت «فتن فولكسان فيلان» أو «حادثة الاغتيال في سان فلورانتان» واحتلت صدارة الجرائد المصورة وصفحات الصحافة الأولى، الكتاب الأبيض للسكن المعتدل الكراء (HLM)، ولجنتي بار ونورا – إيفينو، وكل المناقشات حول (المعونة في البناء) و(المعونة الشخصية)، التي هزت الأوساط الحاكمة قبل 15 سنة، تحت رئاسة جيسكار ديستان، وسكرتير الدولة للإسكان، جاك بارو؟ إن البيروقراطيات ضعيفة الذاكرة؛ إذ محا النسيان أسماء كل أولئك الذين أسهموا في الإعداد الجماعي لبعض القرارات الأكثر حسماً فيما بعد الحرب[1].

وهل يمكن أن ننتظر من صحفيين يسهبون بحذلقة في افتتاحياتهم عن «الحجاب الإسلامي»، أو عن «الأحداث» التي طرأت في هذا الحي أو ذاك من الضواحي الباريسية أو الليونية، أن يتساءلوا حقاً عن إسهام الصحافة في إنتاج «الأحداث» التي يعتقدون بأنهم يسجلونها ويحللونها؟

إن التعارض بين الليبرالية وسيطرة الدولة، الذي طالما شغل الكتاب، لا يصمد لحظة واحدة أمام الملاحظة. إذ يتم التثبت مثلاً من أن الدولة تسهم بطريقة حاسمة بإحداث السوق العقارية، لاسيما عبر الرقابة التي تمارسها على سوق الأراضي، وعبر شكل المعونة التي تقدمها لشراء المساكن أو اكترائها. كما أنها تسهم بالوقت نفسه في تحديد التوزيع الاجتماعي للمكان أو بالأحرى، توزيع مختلف الفئات الاجتماعية في المكان (الذي تؤثر عليه من خلال رقابتها على سوق العمل والسوق المدرسي). وانسحاب الدولة

---

[1] نجد كل هذه الأسماء، بالإضافة إلى تحليل لإنتاج سياسة الإسكان على الخصوص في العدد 81 – 82 من أعمال البحث في العلوم الاجتماعية، الذي نشر في آذار 1990، والمخصص لـ «الاقتصاد المنزلي».

وتضاؤل المعونة العامة للبناء، الذي تأكد خلال أعوام السبعينيات، باستبدال وانسحاب الدولة بالمعونة للشخص، هو الذي كان المسؤول الجوهري عن ظهور أماكن النفي، حيث يتركز السكان الأكثر فقراً، تحت تأثير الأزمة الاقتصادية والبطالة.

فمن المستحيل إذن فهم الأشياء في ميدان الإسكان، مثل العديد من الميادين الأخرى، دون الأخذ بالحسبان للتحول الجماعي إلى النظرة الليبرالية الجديدة الذي بدأ في السبعينيات، واكتمل وسط الثمانينيات بانضمام الحكام الاشتراكيين إليه. فلم يقتصر هذا التغيير على التحولات في المزاج الإيديولوجي، التي يعلنها «الفلاسفة» الإعلاميون، كأنها «عودة للذات» أو «موت لفكر 68»، بل صاحبه تقويض لفكرة الخدمة العامة، أسهم فيه أسياد الفكر الجدد بسلسلة من الكتابات المزورة والمعادلات الفاسدة المؤسّسة على منطق العدوى السحرية، والخلط المهاجم الذي لجأ إليه خصومهم الماركسيون في الماضي غالباً: فهم بجعلهم الليبرالية الاقتصادية شرطاً ضرورياً وكافياً للحرية السياسية، ساووا بين تدخل الدولة و«الحكم الشمولي». وبتوحيدهم النظام السوفييتي بالاشتراكية، سلموا بأن الكفاح ضد أشكال اللامساواة التي يعتبرون أن لا مفر منها، غير ذي جدوى، (مع اتهامهم لهذا الكفاح بأنه مثبط لهمّة الأصلح) ولا يمكن أن يقوم إلا على حساب الحرية. وبربطهم الفاعلية والحداثة بالمبادرة الخاصة، أرادوا إحلال العلاقة مع الزبون، بافتراضها أكثر مساواة وأكثر فاعلية، محل العلاقة بالمرتفق (صاحب حق الاستعمال)، وطابقوا بين «التحديث» وتحويل الخدمات العامة الأكثر ربحاً إلى القطاع الخاص، وتصفية أو إخضاع العاملين المرؤوسين في المصالح العمومية، باعتبارهم المسؤولين عن عدم الفاعلية بكل أشكالها، وعن «الجمود» بجميع صوره.

يد الدولة اليمنى، ويدها اليسرى

حسبنا أن نقف على هذه السمة الأخيرة، لنرى أن كل هذه الكومة من الأفكار المبتذلة، المعدة في لقاءات هُيئت خصيصاً لتشجيع المبادلات بين

«مفكرين» متشوقين للسلطة، وذوي سلطة متشوقين للفكر (مجلات، نوادي، ملتقيات)، والتي ترددها الجرائد والأسبوعيات دون ملل ولا كلل، تعبر بصورة مباشرة جداً عن نظرة ومصالح طبقة نبلاء الدولة العظيمة، المتخرجة من المدرسة العليا للإدارة ENA، والمكونة وفقاً لتعاليم كلية العلوم السياسية[1] PO. فإنهم هؤلاء الموظفون الكبار بنهمهم للمكافآت، واستعدادهم الدائم لملازمة مكاتبهم، وسأمهم من التبشير بروح «الخدمة العامة» (للآخرين) كما في الستينيات، أو بتمجيدهم الولع بالمبادرة الخاصة، ولاسيما بعد الثمانينيات، هم الذين يدّعون إدارة المصالح العامة كمنشآت خاصة، مع بقائهم بمنجى من الضغوط والمجازفات المالية والشخصية الملازمة للمؤسسات التي يحاكون ممارساتها (السيئة) فيما يتعلق بشؤون العاملين خصوصاً. وهم الذين يحملون -باسم مقتضيات العصرنة- على المنفذين من العاملين. وهم «المحظوظون» في الملاك العمومي، المحميون من المجازفات ومن المبادرة الحرة بقوانين صلبة ومتشنجة للدفاع عن مكتسباتهم المهنية الاجتماعية. وهم أيضاً الذين يتبجحون بمزايا المرونة في العمل، عندما لا يوصون بتخفيض أعداد العمال تدريجياً باسم الإنتاجية.

وإذن، فمن المفهوم أن يشعر الموظفون الصغار، ولاسيما أولئك المكلفون بالمهام المسماة «اجتماعية» والمقصود بها تلافي التأثيرات والنواقص الأكثر قسوة، دون أن تتاح لهم الوسائل الضرورية لذلك، كرجال الشرطة والقضاة المرؤوسين، والمساعدين الاجتماعيين، والمربين، وحتى المعلمين والأساتذة، بأن السلطات تتخلى عنهم، إن لم تتبرأ منهم، فيما يقومون به من عمل لمواجهة البؤس المادي والمعنوي الذي هو العاقبة الوحيدة للسياسة الواقعية المتبناة شرعاً. وهم يعانون من تناقض دولة، ما عادت يدها اليمنى تعرف أو تريد أن تعرف، وهو أسوأ، ما تفعله يدها اليسرى على صورة «ضغوط مزدوجة» مؤلمة أكثر فأكثر. إذ كيف لا نرى مثلاً أن

---

[1] يمكن التحقق من أن التحليل الذي تم لهذا الموضوع وظروف إعادة إنتاجه، قبل انتصار الاشتراكيين بكثير، يبقى صحيحاً تماماً، على الرغم من التعديل الظاهري الذي أدخله عليه خريجو المدرسة العليا للإدارة من الاشتراكيين.

الحماس للمردود والإنتاجية وروح التنافس أو للربح ببساطة أكثر، يؤدي إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها الوظائف، التي لا تتم إلا ببعض التجرد المهني عن الغرض، المرتبط في كثير من الأحيان بتفانٍ نضالي[1]؟

وبصفة أكثر عمقاً، فإن التعريف نفسه لوظائف هذه «البيروقراطية القاعدية» (بيروقراطية التماس مع الناس) قد تم تحويره بعمق، عن طريق إحلال المعونة المباشرة للشخص في ميدان الإسكان، وأيضاً بإحلال الدخل الأدنى مثلاً محل الأشكال السابقة للمعونة في الخدمة. وهو ما أدى إلى نتائج مختلفة تماماً. إذ إن المعونة المباشرة، بتطابقها التام مع النظرة الليبرالية «تختزل التضامن إلى مجرد تعويضات مالية». وتهدف فقط إلى إتاحة الاستهلاك (أو التحريض على المزيد من الاستهلاك) دون السعي إلى توجيه الاستهلاك أو هيكلته. وهكذا يتم الانتقال من سياسة الدولة التي تستهدف التأثير على بنيات التوزيع نفسها، إلى سياسة تستهدف مجرد تصحيح آثار التوزيع غير المتكافئ لرأس المال الاقتصادي والثقافي. أي يتم الانتقال، بعبارة أخرى، إلى صدقة الدولة المخصصة لـ«الفقراء المستحقين» كما كان الأمر في الزمن الغابر للإحسان الديني. وبهذا تسهم الأشكال الجديدة التي يتخذها عمل الدولة، مع ضعف النشاط النقابي والقوى المحفزة، إلى تحويل الشعب (بالقوة)[*] إلى جماعات متنافرة من الفقراء المفتتين المبعدين كما يدعوهم الخطاب الرسمي، الذي يُستَحضَر خصوصاً (إن لم يكن حصراً) عندما «يسببون مشكلات» أو لتذكير «المحظوظين» بالامتياز المتمثل في حيازتهم على وظيفة دائمة.

مدرسة المعدمين (Sous Proletairés)

لا مناص من هذا التعرض للدولة ولقراءاتها السياسية، لفهم ما

---

[1] لوحظ أن العاملين الذين يدخلون الخدمة العامة، ولا سيما أولئك الذين يوجدون على تماس مع الناس، لديهم غالباً نوع من التفاني في سبيل وظائفهم، ويعتبرونها نافعة اجتماعياً.

[*] المقصود بـ (القوة) هنا، المعنى الأرسطي للكلمة، أي الوجود بالقوة، في مقابل الوجود بالفعل. – المترجم – .

يلاحظ هذه الأيام «في الميدان»، أي الوضع الحرج الذي يجد «العاملون الاجتماعيون» أنفسهم فيه. وهم الذين توكل لهم الدولة (أو البلديات) مهمة ضمان الخدمات الأساسية العامة، كالتربية والصحة خصوصاً، للسكان الأكثر فقراً في الأحياء أو الضواحي التي تهجرها الدولة أكثر فأكثر. فتستغرق تناقضات الدولة هؤلاء الموظفين، بصورة يعانون فيها هذه التناقضات في قرارة نفوسهم كمآسٍ شخصية غالباً؛ إذ هناك التناقض بين المهام المفرطة التي توكل إليهم، ولاسيما في ميدان التشغيل والإسكان، وبين الوسائل الموضوعة بتصرفهم التي تكاد تكون تافهة دائماً. ثم هناك التناقضات الأكثر مأساوية والتي يؤدي إليها جزء من عملهم، كتلك التي تنتج عن الآمال وخيباتها التي تثيرها المؤسسة المدرسية.

إذ كيف يتسنى لهؤلاء الذين هم على تماس يومي مع الناس الأكثر فقراً، اقتصادياً وثقافياً، أن يجهلوا أو يتجاهلوا كون العديد من المشكلات التي تواجهها العائلات عبر أطفالها، ويواجهها هؤلاء الأطفال أنفسهم، مرتبطة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بعمل المدرسة؟ ومن هنا فليس علينا أن نبحث في مكان آخر عن المبدأ الحقيقي لخصوصية هؤلاء «الشباب» الذين يوصفون غالباً بأسلوب ما يعجز اللسان عن وصفه، وما لم يُرَ قط. وهو أسلوب يعادل من الوجهة العلمية أسلوب الصحافة البليغ في الإثارة. فلدى هؤلاء المراهقين في سلوكياتهم، ولاسيما في علاقاتهم بالمستقبل، كل السمات التي تميز المعدمين. لكن هذه السمات متأثرة بصفة عميقة ومستديمة بتأثيرات بقائهم الطويل في المدرسة.

تتفق كل التشخيصات، دون شك، على ما هو في قلب تجربة هؤلاء المراهقين؛ إنه شعورهم بأنهم مكبلون، بنقص المال ووسائل المواصلات، إلى مكان مذل («متعفن») مصيره إلى التردي، يرمي بثقله كلعنة حلت عليهم، أو ببساطة، كوصمة تمنع الوصول إلى العمل والتسلية والبضائع الاستهلاكية، إلخ. ثم شعورهم الأكثر عمقاً بتجربة الإخفاق المتكررة التي لا ترحم، في المدرسة أولاً ثم في سوق العمل، والتي تمنع أو تثبط كل تطلع معقول للمستقبل. بيد أنه لا يظهر أن أصل هذه التجربة الزمنية، التي تميز

المعدمين الذين لعدم قدرتهم على السيطرة على الحاضر؛ صائرون إلى الاستقالة أمام المستقبل أو التقلب في تطلعاتهم، يكمن في ظروف معيشة تتصف بغموض تام فيما يتصل بالمستقبل، وتنافر داخلي في التطلعات التي تفتح المدرسة المجال أمامها، وتغلفه في الوقت نفسه.

إن هؤلاء الشباب الذين يحكم انعدام رأس المال الثقافي عليهم بإخفاق مدرسي شبه محقق، وُضعوا حتى سن متقدمة نسبياً، في ظروف من شأنها رفع سوية تطلعاتهم، على الرغم من كل شيء. إذ إن المدرسة، بإبعادهم مؤقتاً عن النشاطات الإنتاجية وقطعهم عن عالم الشغل، تفصم الدورة «الطبيعية» لإعادة إنتاج العمالة، التي تقوم على الملاءمة المسبقة للمواقع المرؤوسة. وتميل بهم إلى رفض العمل اليدوي، ولاسيما في المصنع، ورفض وضع العامل. وبهذا تدفعهم إلى رفض المستقبل الوحيد الذي يمكن أن يتاح لهم، دون أن تضمن لهم المستقبل الذي تبدو أنها تعدهم به، وتعلّمهم أن يتخلوا عنه نهائياً بتأثير قراراتها المصيرية. ويظهر وقع هذه الآليات بصورة خاصة على المراهقين ذوي الأصل الأجنبي، ولاسيما المغاربيين الذين تضاف إلى صعوباتهم الخاصة في السوق المدرسية، صعوبات أخرى في سوق العمل، تنجم عن رأسمالهم الرمزي السلبي، الذي يؤثر كوصمة، كالاسم الشخصي واللكنة ثم مكان الإقامة، من الآن فصاعداً.

إن هذه العوامل البنيوية التي تشكل العلاقة مع الزمان أو بالتالي العلاقة مع الشغل، تفسر تآلف هؤلاء الشباب باستعداداتهم المتقلبة مع الوظائف المؤقتة. غير أنه من المستحيل تقديم حساب تام عن استعدادات وممارسات هؤلاء المراهقين، ولاسيما الأكثر «انحرافاً»، دون أن ندخل في حسابنا عوامل أخرى. وأول هذه العوامل هو اضمحلال أو إضعاف دوائر التعبئة الجماهيرية كالمنظمات السياسية والنقابية، التي لم تكن تكتفي -في «الضواحي الحمراء» السابقة كما يقال غالباً- «بتوجيه وضبط الثورة» بل تضمن نوعاً من «التغليف المستمر» لكل الوجود (عبر تنظيم المناشط الرياضية والثقافية والاجتماعية خصوصاً) وتسهم بذلك في إعطاء مغزى للثورة، وللوجود كله أيضاً. ثم إن هناك أزمة البنى الأسرية، التي تضرب الأسر

المغاربية بوجه خاص، وتشكل السبب الأكبر في الخلاف بين هذه الأسر وأطفالها، وبين الأسر المهاجرة الأخرى. إذ إن الخصوبة العالية لهذه الأسر (والتي لابد أن تنخفض بازدياد رأس المال الاقتصادي والثقافي) لا تتلاءم إلا بصعوبة مع المشروع التربوي (بالمعنى الواسع) الذي تتطلبه بيئتها الجديدة ضمنياً. كما أن البون شاسع بين آباء أميين أو قليلي التعليم، وبين الأبناء الذين تأثروا ببقائهم طويلاً في المنظومة المدرسية، سواء في أسلوب الحياة أم في التطلعات أو النظرة إلى الحياة برمتها. فتأثيرات المنظومة المدرسية متناقضة، أو ظاهرها التناقض على الأقل. لأن المدرسة بالنسبة للشباب المهاجر تشكل فرصة لاكتشاف وعيش انتمائهم القانوني التام للمجتمع الفرنسي (وأيضاً، بصفة صريحة إلى حد ما، انتمائهم للثقافة الديمقراطية التي تولد تطلعات عالية كنبذ العنصرية مثلاً) وإقصائهم التام الذي يؤكده القرار المدرسي بالفعل. أما الآباء الذين يعانون الصدمات والأوجاع التي يعاني منها أولادهم فنادراً ما تكون لهم المقدرة لأن يقدموا وسائل العيش، أو أسباباً للعيش تقدر على انتزاعهم من شعورهم بأنهم زائدون عن الحاجة، ومجرد زيادة عدد. وخاصة أن البطالة تقصي هؤلاء الآباء عن الوجود الاقتصادي والاجتماعي، بالإضافة إلى أنهم مقطوعون عن مجتمعهم الأصلي، وشديدو الانعزال -وتلك مفارقة- في هذا السكن الشعبي، الذي يجمع الأسر تبعاً لتوافر الشقق ومستوى المداخيل، وليس تبعاً لعلاقة القرابة، كما كان الأمر في المدن الصفيحية. وبما أنه ليس لديهم ما يقترحونه لأولادهم للحاضر، وأقل من ذلك للمستقبل؛ فإنهم يجدون مشقة في السيطرة على تطلعاتهم الاستهلاكية، التي يحرضها تردد الأطفال على المدرسة، ومتطلبات عالم اجتماعي هاجسه البضائع الاستهلاكية المستحيلة المنال، الحاضرة في كل مكان؛ في الشارع حيث السيارات الفارهة، وفي المجمعات التجارية، أو حتى في قلب الحياة الأسرية عبر التلفزيون ونشرات الدعاية التي تملأ العلب البريدية كل يوم.

وإن كان هناك تأثير خاص لهذا التعايش في السكن الجماعي، فهو يكمن في عدم مساندة أحد لأحد في مثل هذه البيئة، حيث لا تلقى السقطات الاجتماعية المكابح أو شبكات الحماية التي قد تلقاها في مكان

آخر. كما يكمن ذلك التأثير أيضاً في هذا النوع من المزاودة بالعنف، الذي يحدث عندما تفتح «الحماقات الصغيرة» (هرب من المدرسة، سرقات تافهة، سرقات السيارات، إلخ) أو انفجارات العنف الجماعي المفاجئة (تلك التي تحمل بعض الشباب مثلاً، على إتلاف المحلات أو التجهيزات التي طالبوا هم أنفسهم بها) الطريق تدريجياً لعبث أقلية نشيطة ومنظمة؛ حيث يسود منطق العصابة، التي تكونت منذ المدرسة غالباً، فيُفرض الانضمام على أولئك الذين يودون النجاح في دراستهم، إلى الأكثر فقراً، ولا يترك لهم إلا الإذعان المستكين، والانطواء على الألم والكراهية، التي تولد إدانات جماعية ذات أساس عنصري، أو الرحيل الذي يضاعف تردي ووصم المكان الذي هُجر بهذه الصورة.

إعادة صنع التاريخ

إذا ما بدا لي ضرورياً استحضار إحدى السلاسل السببية، التي تبدأ من الدوائر الأكثر مركزية في الدولة، وتنتهي إلى المناطق الأكثر إملاقاً في العالم الاجتماعي، مع التشديد في الوقت نفسه، على البعد السياسي للعمليات التي أدت بالفعل إلى حالة لم يفكر بها أحد ولم يردها أحد؛ فليس هذا مسايرة لمنطق التنديد والمقاضاة، بل محاولة لفتح إمكانات لعمل عقلاني يستهدف تقويض ما صنعه التاريخ، أو إعادة صنعه.

إن البحث عن منظومة تفسيرية تقوم على أساس سليم، ليس مسألة مجانية في الواقع. إذ إن أماكن الإقصاء وسكانها أصبحت، من خلال المشكلات التي تطرحها، واحداً من الرهانات الكبرى للكفاح السياسي. ومن المهم مجابهة التفسيرات التي سيظهر طابعها الاعتباطي الصريح فوراً، لو لم توقَظ الأوهام الأكثر قدماً في التقاليد الغربية. (أفكر مثلاً بهذه النسخة الملطفة بشكل سيء للتفسير العنصري، الذي يمثله استنكار الطابع الاستثنائي للتقاليد الإسلامية، واعتبارها أساساً لغيرية جذرية ونهائية).

وهكذا، مع تحاشي رؤية ذلك على أنه سلسلة آلية للمسؤوليات، من المفيد كشف النقاب عن الصلة بين سياسة ليبرالية جديدة تهدف إلى انتزاع

البورجوازية الصغيرة من السكن الجماعي، وبالتالي من «الجماعية» وربطها بالملكية الخاصة لمنزلها الفردي أو لشقتها في الملكية المشتركة، وفي الوقت نفسه، بالنظام السائد، والتمييز المكاني الذي تعززه الدولة وتشجعه. وأيضاً عن الصلة الأكثر وضوحاً بين هذا التمييز بتأثيراته الأكثر جلاءً، وبين الموقع الذي يحتله اليوم، في الميدان السياسي وغيره، تعارض «أبناء الوطن» مع «المهاجرين»، والذي أتى ليحل محل التعارض بين المهيمنين والمهيمَن عليهم، والذي كان في الصدارة حتى هذا الوقت. وقد تم هذا بفضل تردي دوائر التعبئة الجماهيرية، وضعف قدرتها النظرية القائمة على تفعيل التقاليد الأممية، وقدرتها العملية بإحداث أشكال جديدة للتضامن، على تذليل الصعوبات التي تنجم عن الصراعات المتصلة بالتعايش في قلب العالم العمالي نفسه، وحتى في الأماكن التي يشكل فيها «أبناء الوطن» أكثرية واسعة (كالأحياء الأكثر شهرة: لوكاترميل في كورنوف، ليه مينجيت، أو حي بلزاك في فيتري).

ومع اقتحام حزب جديد للحلبة السياسية؛ أسس كل استراتيجيته على استغلال كره الأجانب والعنصرية، أخذ النقاش السياسي يتمحور بصورة مباشرة إلى حد ما حول مشكلة الهجرة. ففي الصراع السياسي بين الدوائر المتعارضة بشأن فرض مبدأ مشروع في النظرة والتقسيم، من أحزاب ونقابات على وجه الخصوص، أصبحت مسألة إعادة التوزيع مركزية تماماً،بالإضافة إلى مسألة تحديد أولئك الذين يحق لهم المطالبة بالمزايا المرتبطة بالانتماء الوطني. وهكذا يستطيع الوطنيون المهيمَن عليهم أن يشعروا بالتضامن مع المهيمنين الوطنيين، ضد «المهاجرين» بالفعل، على أساس المطالبة باحتكار الحصول على المزايا الاقتصادية والاجتماعية المتلازمة مع المواطنة.

نرى من كل هذا كيف أدى تخلي الدولة أو انسحابها إلى آثار غير منتظرة، ولم يتمناها أحد على كل حال، من شأنها مع الوقت تهديد السير الحسن للمؤسسات الديمقراطية؛ إذا لم تقرر الدولة من خلال سياسة حازمة أن تتخذ حقاً الوسائل لتحقيق نواياها المعلنة، على وجه الاستعجال، لتلافي تلك الآثار.

بيير بورديو

مهمة مستحيلة

اقترحت باسكال ر. تقديم شهادتها من تلقاء نفسها، إثر النداء الذي وجهتُه في ملتقى جمع بعض العاملين الاجتماعيين. كانت وقت إجراء الحديث معها رئيسة مشروع في ف.، وهي مدينة متوسطة الحجم في شمال فرنسا. وموقعها هنا، كما تقول هي نفسها، ملتبس. فلكونها متعاقدة، تدفع البلدية راتبها وتستطيع إنهاء خدمتها. لكن العقد ينص على أنها «تحت سلطة رئيس البلدية» مع أنها «مرتبطة أولاً ببنية خارجية». «إن هذا ملتبس جداً؛ إذ علي أن أكون تحت سلطته ومستقلة في الوقت نفسه، وعلي مساءلته وإطاعته». ويتضاعف هذا الالتباس لاضطرارها، من أجل القيام بعملها كما يجب، إلى التخاطب مع جهات مختلفة جداً، وجد متفرقة؛ أي 17 مديرية في المحافظة مرتبطة بالدولة (مديرية التجهيز، مديرية العمل الصحي والاجتماعي، العمل الثقافي، الشباب والرياضة، التربية الوطنية، على وجه الخصوص)، والتي لا يلتقي المسؤولون عنها أبداً، وتجد نفسها إزاءهم، أكثر الأوقات، في موقع المستجدي (في الوقت الذي عليها فيه أن تنسق، بل تنظم أعمالهم على مستوى وحدة محلية). أما على صعيد المنطقة فعليها التخاطب مع المنتجين والتقنيين، باعتبار أن القرارات المتعلقة بالميزانية، التي تتحكم في الوسائل الموضوعة تحت تصرفها، من صلاحية المُنتَخَبين.

وبما أن باسكال ر. كانت شغلت في السابق منصباً مماثلاً في مدينة

كبرى مجاورة هي ت.، فبوسعها المقارنة بين التجربتين، إذ كانت في ت. تتبع مكتب السكن المعتدل الكراء (HLM) (وليس البلدية) وذلك ما كان يمنحها سلطة حقيقية. «كنت في (HLM) رئيسة لعملية إعادة اعتبار، وبهذه الصفة كانت لدي سلطة واسعة، لأنني مالكة للمساكن، وبيدي السلطة والالتزام بإعادة إسكان الأسر، ثم البحث عن التمويل، والشروع في الأشغال وتخصيص المساكن الجديدة». وفضلاً عن ذلك «شرعنا هناك بعمل تشاوري» حيث كان بوسعها الاعتماد على جماعات معبأة مسبقاً. وبذا استطاعت إنجاز واحدة من وظائفها الرئيسية وهي «تعديل العلاقات بين الأشخاص» أي بين السكان أولاً، كما سنرى مع قضية المرأة المسنة صاحبة القطط، ثم بين السكان والسلطات البلدية أو الحكومية. وهكذا تجمعت الشروط اللازمة لتسيير ذاتي حقيقي «إذ انتهى ممثلو السكان أنفسهم إلى القيام بتخصيص المساكن» لكن باسكال ر. اكتشفت في هذه الآونة بالذات، أن المؤسسة التي انتدبتها «لم تعد تحتملها». فنجاحها إخفاق؛ لأنها وفت بالتزامات عقدها بأكثر مما يجب. وتحت هذا الضغط المزدوج شعرت بالتناقض الذي هو مبدأ المؤسسة التي انتدبتها، والوظيفة التي كلفت بها رسمياً. فما شعارات إنعاش الحياة في الحي، وإشراك السكان في الإدارة إلا كلمات وخيالات للخداع الذاتي، يسعى التكنوقراطيون من خلالها إلى إعطاء أنفسهم مزيداً من الروح. وتظهر المقارنة بين التجربتين ذلك جيداً. ففي ت. حيث كانت تتمتع بسلطة حقيقية على أحد عوامل المشكلة التي عليها معالجتها وهو السكن، استطاعت أن تسير بعملها إلى الحد الذي تتمكن فيه من كشف النقاب عن النية المتناقضة للمهمة التي أسندت إليها. أما في ف. حيث تركت إلى إمكاناتها الشخصية وحدها، أي إلى قدرات رمزية محضة، تقوم على الاقتناع والإقناع، فقد اكتشفت فجأة أنه ليس بوسعها تقديم أي شيء مما يطلبه الناس، وأنها لا تستطيع أن تقدم سوى أشياء لا يريدونها (مثل «الدورات التدريبية» التي ما هي إلا مسكنات للبطالة)؛ لأن ما يمكن أن يغير في الوضع الذي يطلب منها تغييره حقاً ليس متوقفاً عليها. بينما الذي يتوقف عليها ليس بإمكانه تغيير أي شيء في الوضع. «أنا أعرف أن

كل ما ينتظره الناس في الحي هو العمل (..) وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن تقديمه» ثم «إن العمل الاجتماعي هكذا يتضمن تناقضاً في ذاته، وينبغي على رئيس مشروع التنمية الاجتماعية للحي (DSQ) أن يتخيل حلولاً ويقترحها على مختلف الإدارات. وهنا أيضاً تناقض؛ لأننا عندما نعثر على شيء يقال «ينبغي أن يدخل في الاعتمادات»، وجواب الإدارة دائماً «هذا لا يدخل في الاعتمادات المالية».

ونظراً لأنها حرمت من الظروف الاستثنائية التي أفادت منها في منصبها السابق، فقد اصطدمت باسكال ر. مباشرة، بعقبتين هامتين يواجههما كل عمل اجتماعي: الأولى هي إذعان أفراد مشتتين ومثبطي الهمة، بفعل سلسلة طويلة من الإخفاقات وخيبات الأمل، والثانية هي قصور إدارة مُفتَّتة ومفتِّتة، حبيسة صلابتها وروتينها ومسلماتها («الاعتمادات»)، ولا تكون بمثل عدم الفاعلية هذا إلا عندما تمارس الديمقراطية بأمر من «بيروقراطية - اجتماعية» تكنوقراطية.

وبما أن العامل الاجتماعي ليس بوسعه إلا إعطاء ما عنده؛ أي الثقة والحد الأدنى من الأمل لمحاولة الخروج من الوضع، فإن عليه النضال على جبهتين دون انقطاع: ضد أولئك الذين يرغب في مساعدتهم، وهم غالباً مثبطو الهمة، لأخذ مصالحهم الخاصة بأيديهم، ومن باب أولى مصالح الجماعة، من جهة، ومن جهة أخرى ضد إدارات وموظفين منقسمين، حبيسي عالمين منفصلين -إلى درجة سنرى معها، فيما يتعلق بتطبيق التعويض الأدنى للاندماج (RMI)- أنها ليست المصالح نفسها ولا الموظفون أنفسهم، المكلفون بدفع التعويض للمستفيدين وضمان اندماجهم.

إن مناقضة منطق العمل الاجتماعي، الذي يقوم على نوع من الروح النضالية التبشيرية والتطوع الملهم، لمنطق البيروقراطية بأنظمتها واحتياطاتها، لا تُلحَظ جيداً إلا حينما يتحول الموظفون «بين عشية وضحاها إلى العمل الاجتماعي» إطاعة «لتوجيهات أتت من فوق» وفقاً للمخطط الثاني على وجه الخصوص: «إننا ننزل بعمل يتطلب الإبداع والاقتناع ثم العلاقات بالناس إلى عمل مؤسساتي: وهنا!.. الكارثة».

وللمفارقة، فإن المؤسسات البيروقراطية على درجة من الجمود، لا تستطيع معها العمل، إلى حد ما، إلا بفضل مبادرة وإبداع، بل موهبة الموظفين الأقل تقيداً بوظيفتهم. لأن البيروقراطية إذا ما تركت لمنطقها الوحيد، منطق تقسيم السلطات إلى وزارات منفصلة، تمنع كل عمل فعال شامل؛ ومنطق الملفات التي ينبغي «تحويلها وتحويلها» بلا نهاية؛ ومنطق الفئات البيروقراطية التي تحدد ما هو معقول بيروقراطياً («إن هذا ليس مقرراً»)؛ ومنطق اللجان التي تتراكم فيها الاحتياطات والرقابات والضوابط، فإن البيروقراطية ستحكم بنفسها على نفسها بالشلل. وهكذا فإن التناقضات الناجمة عن التقسيم البيروقراطي هي التي تفتح دون شك هامش المناورة والمبادرة والحرية، الذي يستطيع استغلاله الأشخاص، الذين بتخليهم عن الروتين والأنظمة البيروقراطية، يحمون البيروقراطية ذاتها من نفسها.

مع رئيسة مشروع في شمال فرنسا

حديث مع بيير بورديو

كنت على علم بكثير من الأشياء

باسكال ر.: أمضيت ستة أعوام، سبعة أعوام تقريباً في ت. وعندما غادرتها، فذلك لأنني كنت مشرفة على الانهيار. عقدت هناك شيئاً فشيئاً صلات مع الناس، لأنه كان لدي الوقت، وكانت هناك ديناميكية. هم جماعة واسعة من ممثلي السكان، منهم رجال ونساء ومتقاعدون وشباب، وحتى من العاملين -لأن من الصعب على شخص عامل أن يخصص وقتاً بالإضافة إلى شغله وأسرته- وكانت هناك مساعدات اجتماعيات. كنت على تعارض معهن من حيث المبدأ، لأنني ممثلة مكتب السكن المعتدل الكراء، الذي عليه إعطاء السكن، والمساعدات الاجتماعيات هن اللواتي يطلبنه، ويمثلن المستأجرين السيئين..

(كانت الاتصالات الأولى مع المساعدات الاجتماعيات سيئة. لكنها تحسنت سريعاً أثناء المخطط التاسع، إذ كان العاملون الاجتماعيون متطوعين غالباً، يضحون بوقتهم للإسهام في المشروع «وهكذا تكونت لدينا منذ البداية مجموعة تكونت من خلال آلية دينامية»)

تعديل العلاقات بين الأشخاص

باسكال ر.: تمكنا إذن في بضع سنوات، عبر عمل يقوم على فاعلي

الخير أو المتطوعين المناضلين، من عقد صلات ثم طرحنا المشكلات. لكن ذلك تم خلال سنوات ولم يأت من المرة الأولى.. والآن في ف. بدأت بالتعرف إلى الأشخاص في الميدان الجديد، غير أنني أعلم جيداً أنه ليست لديهم الثقة التي ستكون لديهم في ظرف أربعة أو خمسة أعوام. إن معرفتي الجيدة للمشكلات ترجع إلى أنني كنت أقوم بنفسي بالمهمة الموكلة إلي لحساب مكتب الـ(HLM) في ت. وهي عملية إعادة اعتبار «شاملة» لأننا اضطررنا لترحيل الجميع. فكان أول ما علي فعله، هو إعادة إسكان كل واحدة من الأسر. وهذا منحني دوراً هاماً بصفة خاصة، لأنني كنت أعرف الأسر معرفة مباشرة. وأعرف عدد كل عائلة، وفي أي نمط من السكن كانت من قبل، وفي أي نمط أعيد إسكانها.

(..)

نعم، حسناً.. سأعطيك مثلاً يستحق الاهتمام، لقد توصلنا في ت. إلى جمع ممثلي الـ(HLM) وكنت من بينهم، مرة في الشهر، مع ممثلي السكان الذين كانوا متطوعين وأهلاً للثقة بأنهم لن يرددوا ما يقال عن الحياة الخاصة للناس في كل مكان. أما المساعدات الاجتماعيات فهن في الاجتماع لمساندة الأسر وليس لعرض عيوبها، وإذن أجتمعنا وطرحنا المشكلات. ومثال ذلك سلوك امرأة شكلت موضوعاً لعريضة، وكان لديها كثير من القطط والكلاب التي تبول وتنتن كل المدخل، طلبت هذه المرأة الانتقال لتقترب ربما من صديقة لها، لكن الدافع الحقيقي هو أن مسكنها صار ضاراً بالصحة.

وهذا يتأتى من الناس وطريقتهم في استعمال المسكن. وهناك مسألة الموارد المالية؛ فمن أجل عدم الصرف على التدفئة، يقومون بسد الشقوق والنوافذ فتشيع الرطوبة. ولنقص المال لا يعيدون الطلاء، ولا غطاء الأرضية. فيفسد كل ذلك، حتى نرى سقوفاً برمتها تهدم، لأن الجص يتشبع بالماء ثم يسقط. هذه أسباب مالية حقاً، ويجب أخذ هذا الأمر بالحسبان. ثم هناك طريقة الحياة. فكيف وصل الأمر إلى هذا الحد؟ إن الأمر يستغرق

عدة سنوات أحياناً، فقد تكون امرأة فقدت عائلها أو العكس، أو حدث طلاق، أو فقد الشخص عمله أو ابناً من أبنائه. فيهمل كل شيء ويتغير السلوك عندئذ. وبعد ذلك لديك طريقة التربية، لكن الأمر هنا أكثر صعوبة لأنه يرجع إلى الأجداد والآباء، فيربى الأطفال هكذا.

(..)

فقلنا للمرأة صاحبة القطط «نحن موافقون على انتقالك، لكن شريطة أن تعيدي المسكن إلى حالته الأصلية» وكان ذلك عسيراً على الفهم؛ فهي تطلب الانتقال لأن منزلها لم يعد قابلاً للعيش فيه، فيقال لها «عليك إعادته إلى حالته الأصلية» وهذا واجب المستأجر، لأنه حينما يدخل مسكناً يكون المسكن قابلاً للسكن فيه، وحينما يتركه ينبغي أن يكون في حالته الأولى. وإلا سنصل ببساطة إلى مبلغ 15.000 فرنك كدين. وإذن يرفض الانتقال.. أما عن المرأة فقد طلب منها واقتنعت. وكانت المساعدة الاجتماعية هي التي نقلت الرسالة، وأفهمتها بأن عليها تسليم مسكنها في حالته الأصلية، وحيث أنها لم تكن قادرة على ذلك لوحدها، قام بعض الشباب من الحي بمساعدتها فأعادوا الطلاء وتغطية الأرضية من أجلها.

كانت هناك سلسلة كاملة، سبعة أشخاص من الجيران والحراس ومناضلي الحي والمساعدة الاجتماعية والـ(HLM)، وأخيراً قطاع التخصيص في الـ(HLM). اتفق هؤلاء جميعاً على أن تغير هذه المرأة طريقة سكنها في الحي، وطلب منها التخلي عن بعض حيواناتها، ففعلت مستبقية كلباً واحداً ورحّلناها. ثم غادرتْ بعد ذلك، ولا أعرف ما آل إليه الوضع. لكننا إذا واصلنا البقاء مع الناس عن كثب، يمكن إنجاح هذا الاندماج، ولولا ذلك لطردت المرأة.. وهذا مثال (..) عندما وصلت إلى المرحلة العملية، كان الناس قد شرعوا منذ سنين في عمل تشاوري، وإذن كان لدي مناضلون من سكان الحي لأحاورهم.

❖ روابط أسرية؟

باسكال ر.: إن من عرفتهم وكانوا نشيطين جداً هم من المركز الاجتماعي للحي، لكنهم لا يمثلون إلا عدداً قليلاً.

❖ وكان هؤلاء الناس يقومون بدور الكشافين، الذين يرصدون الأوضاع..

باسكال ر.: أجل، هوذا، إذ كانوا يبادرون إلى ملاقاة الأحداث، واستجواب المدير. فعندما عينت، طلب المدير مني أن أحضر قبل مباشرتي العمل بقليل، لأنه سيستقبل سكاناً جاؤوا لاستجوابه بشأني. وفي ذلك المساء كنت في مكتب المدير، في مواجهة اثنين أو ثلاثة أشخاص من المركز الاجتماعي للحي، اعتادوا على اللقاء فيما بينهم منذ سنين والمناقشة والعمل معاً. فلقد كانت هناك إذن أرضية تشاورية.

❖ وما كانت مهنتهم؟

باسكال ر.: كانوا متقاعدين، فلديهم الوقت. ثم تعرفت على بعض ممن يعملون. لنقل إن الفريق كان قوياً بما فيه الكفاية لضم أناس يجدون حَدَثاً من الأهمية بحيث يأتون بعد عملهم.

● فيمن تفكرين مثلاً؟

باسكال ر.: أذكر سشخصياً كان يعمل في مجمع تجاري كبير، لاحظ أن الإدارة ترمي بكل ما هو مخروق أو فقد لصيقته، لأن من المستحيل بيعه. فحصل على موافقة الإدارة لتوزيع تلك البضائع على المعوزين.

❖ وهل فعل ذلك بعلمك عندئذ؟

باسكال ر.: لقد فعل ذلك من قبل أن أبدأ، وحينما رأى أن هناك شبكة تضامن تقام في الحي، انضم إليها. كانت هذه الشبكة تسير جيداً. إذ لدينا جميع الممثلين تقريباً، فكنت على علاقة غير مباشرة مع الراهبات، وعلاقة مباشرة مع مرشد ديني كان يعمل مع الشباب، وعلاقة مباشرة مع المتقاعدين والمركز الاجتماعي والمساعدات الاجتماعيات من كل المؤسسات.. كما كان لدي علاقات مع صندوق التعويضات العائلية والضمان الاجتماعي والتربية الوطنية والبلدية.

❖ وهل كان يتم ذلك على شكل اجتماعات دورية، أم لمناسبة معينة وعمل معين؟

باسكال ر.: كانت نقطة الانطلاق هي لقائي مع السكان في المركز الاجتماعي. حيث طلبوا مني تنظيماً معيناً، فقبلت! طلبوا أن أقيم مناوبات في الحي أيام انعقاد السوق، لأن المكان مناسب للقاء أكثر الناس، وشيئاً فشيئاً تقرر أن نلتقي كل يوم اثنين.

لم يعد بوسع مؤسسة (HLM) احتمالي

❖ متى كان ذلك على وجه التقريب؟

باسكال ر.: لقد بدأ في 1983 وانتهى في 1988.

❖ ولِمَ انتهى؟

باسكال ر.: لأنها كانت نهاية العملية، فتوقفت في ت.

❖ أجل واستمرت البنية..

باسكال ر.: آه، كلا، كلا، كلا.

❖ هل زالت؟

باسكال ر.: زالت تماماً. أنا أعتبر أنني توقفت عن هذا العمل على مضض، لأن مؤسسة (HLM) لم يعد بوسعها احتمالي.

❖ إن هذا مدهش..

باسكال ر.: لم يعد بوسعهم تحمل إقامة هذه السلطة المضادة.

❖ أيعني هذا أنها كانت تتدخل كثيراً في تخصيص المساكن، مما أحدث صراعات مع مؤسسة (HLM)؟

باسكال ر.: صراعات مكتومة.

❖ صراعات في كل شيء، أليس كذلك؟

باسكال ر.: أجل، في كل شيء. وأصبح ذلك اتهاماً لي، إذ أصبحت مستقلة أكثر من اللازم.. وهذا ما يقال عن الشخص الذي..

◆ هدام؟

باسكال ر.: أجل، هدام وسيء الطبع، لا ينصاع للسلطة. لقد تطور موقف إدارة مكتب (HLM). فقد قال مديري في البداية «أنا أثق بها، وأريد أن تنظم الأمور». وقد فعلت. وحدث تغيير في البلدية وفي إدارة مكتب (HLM) وكان علي أن أغادر، لأسباب تتعلق بمحافظة شخصية على البقاء. فطردت عندئذ من مكتب (HLM). وتساءلت: هل هم المُنتخبون أم إدارة الـ(HLM)؟ وهل أخذت موقعاً هاماً على أرضية سياسية، وأزعجت بذلك المنتَخَبين، أم أن سير المكتب هو الذي ليس على ما يرام؟ وتوصلت أخيراً إلى أن سير المكتب هو المسؤول وحده، إذ إن إدارته تريد استئناف الأساليب القديمة، وتكنس العمل الذي قمت به.

◆ وبصورة خاصة، تخصيص المساكن..

باسكال ر.: أجل، كل شيء (..) أظن بأنني شخص كان يعرف أكثر من اللازم.

◆ وإذن، تلاشى كل شيء، أعني هؤلاء الناس الذين كانوا يعملون معك كالمساعدات الاجتماعيات والمتقاعدين والجميع..

باسكال ر.: كلا، أظن أن هؤلاء الناس مازالوا موجودين وناشطين. لكن العدد أقل، فمع تغيير المخطط تقلص الفريق إلى ممثلي السكان. لقد كان لدينا ثلاث مؤسسات؛ مكتب الـ(HLM) والمركز الاجتماعي والسكان. وقام السكان بشيء جديد، إذ عينوا سكرتيرة، بينما كانوا يوكلون هذه المهمة لمتطوع غير مأجور، وقالوا: «نريد عملاً دقيقاً وتقنياً. وسنتصرف كرب عمل».

لقد توصل ممثلو السكان إلى القيام بتخصيص المساكن.

◆ إن ما كنت تفعلينه، بعبارة أخرى، شيء هدام. فالروابط وما شابهها يحبها الجميع، لإرضاء الحمية الديمقراطية -«لدينا رابطة لسكان الشارع» «لدينا رابطة للحي» إلخ. لكنها دوائر بدون سلطة، يستشيرونها

عندما يريدون، ويستمعون إليها عندما يشاؤون، إنها ضرب من التنفيس بدون طائل. أما أنت فعملت شيئاً مختلفاً جداً، إذ قرنت ذلك بسلطة حقيقية.

باسكال ر.: أجل، هو ما تقول.

❖ لقد صنعت، بعبارة أخرى، ديمقراطية قاعدية، مخالفة تماماً..

باسكال ر.: مخالفة للقواعد المرعية.

❖ فهذا لا يطاق إذن، لأنك جعلت الناس يتدخلون بسلطة حقيقية في اتخاذ القرار، ومعارضة تخصيص المساكن..

باسكال ر.: أجل، لقد وصلنا إلى هذا الحد..

❖ وفيما يتصل بالسلطات الرئيسية على هذا الصعيد، فإنها غير راضية بالطبع، لأن المنتَخَبين، أقصد الكوادر لا يحبون هذا، فهم يفقدون كل السلطة.

باسكال ر.: هوذا، بالطبع. فقد توصل ممثلو السكان إلى تخصيص المساكن. وأصبحت إحدى المناضلات موظفة في المكتب، تنظم الزيارات للشقة النموذجية. وكانت تجيب الناس عما يتعلق بالمدارس والأشخاص المكلفين بحل بعض المشكلات.

❖ وكم كان عدد الناشطين من حولك؟

باسكال ر.: أوه، قليلون.

❖ خمسون شخصاً، ثلاثون..

باسكال ر.: وحتى ليس هذا العدد، فهم يزيدون وينقصون.

❖ وما كانت صفتهم، متقاعدون، أساتذة، مستخدمون؟

باسكال ر.: كانوا من المتقاعدين لأنهم على دراية، ولديهم الوقت. وكان المستخدمون قليلين. لأن المستأجرين الجدد من الأسر الشابة كانوا مشغولين تماماً بعملهم وأولادهم وقضاء حوائجهم، إلخ. فلم أرهم إذن. بينما رأيت نساء عاملات أو لديهن أعمال صغيرة في خدمة المنازل. ورأيت رجالاً

عـاطلين عـن العمـل فـي الثلاثـين مـن العمـر، كـان لديـهم الوقـت للمجـيء، ويجدون في ذلك وسيلة للالتقاء مع من يستطيعون التحدث إليهم. المهم هـو هذا؛ المشاركة.

◆ البحث عن معنى للوجود، أليس كذلك؟

باسكال ر.: هوذا، معنى للوجود وطريقة للعيش.

◆ وبـين هـؤلاء الثلاثـين، أكـانت مسـاعدات اجتماعيـة، عـاملون اجتماعيون، منشطون؟.

باسكال ر.: كان هنـاك مربـون - منشـطون، والسـكرتيرة التـي وظفتـها لجنـة الحـي، والمستشـارة فـي الاقتصـاد الاجتمـاعي والعـائلي التابعـة للمركـز الاجتماعي، وأناس من صندوق التعويضات العائلية ومن الضمان الاجتمـاعي ومـن البلديـة وأحيانـاً مـن التربيـة الوطنيـة. وهـؤلاء عـاملون اجتمـاعيون أكـثر اهتماماً بهذه المشكلات من عامة البيروقراطيين، وخارج المنطق البيروقراطي نوعاً ما.

◆ وبعبارة أخرى، إنهم يرسلون إلى المواقع المتقدمة..

باسكال ر.: وعندما تحدث مشكلة، فهي غلطتهم.

◆ إنهم طليعة، يمكن أن يتم سحبهم..

باسكال ر.: أجل، فلم يكن لديهم انتداب.

◆ وإذا ما نجحوا في تكوين بنية كتلك التي كونتها، يكون ذلك مزعجاً لأن فيه تغييراً..

ليس لدي من أتكلم معه

باسكال ر.: كان بوسعي أن أتكلم عما ينتظره النـاس عـن درايـة، لأنني كنت أذهب بنفسي إلى منازلهم، فهذا ضروري جداً. أما الآن فأنا في البلدية وعلي التوجه إلى وسطاء للقـاء السـكان، فليسـت لـدي سـلطة علـى السـكان، ورئيـس البلديـة هـو الـذي بإمكانـه فعـل ذلـك. ينبغـي أن أقـول أنـه بإمكـاني شخصياً فعل ما فعله الآخرون؛ أي الذهـاب للقاء الناس من باب لباب، لكنني

لم أرد فعل ذلك نتيجة تجربتي الأولى في ف. إذ قلت في نفسي: «إذا ما التقيت مع الناس فسأعطيهم أملاً. وباعتباري رئيسة مشروع، لست الوحيدة القادرة على أن أقدم لهم، بل قد يكون المعلم أو مدير المركز الاجتماعي إذا ما عدّل من.. أما أنا فلا أستطيع تعديل موقف البلدية، ثم مواقف كل المعنيين بالحي، أعني كل الإدارات بممثليها المحليين في الميدان. لكن دوري هو تعديل العلاقات فيما بين الأشخاص، وتقديم التمويل ثم أذهب. فما لم يقم هؤلاء الناس إذن بهذا الدور فوراً، أو إذا لم يقوموا به من أنفسهم، أحثهم على القيام به. وإذا لم يأت ذلك منهم فلن أكون سوى مجرد موظفة إضافية تعطل اللعبة قليلاً.

- عندما يكون شخص مثلك في بنية ويسعى للإفلات منها -أو قد يكون مهندساً شاباً في المديرية الجهوية للتجهيز- ويثير قليلاً من الضجيج في دائرته، فإما أن يغادر أو يطرد أو يتعب..

باسكال ر.: - أج، إنه ينهك قواه، أجل.

- ... ويترك كل شيء، أليس كذلك؟

باسكال ر.: أجل، إنه ينهك قواه.

- إنهم يأخذون الناس بالإنهاك؟

باسكال ر.: نعم، نعم بالإنهاك، تماماً.

- وليس هناك البتة بنية للتنسيق بين أعوان الإدارة. فمثلما توجد روابط للأحياء، يمكن وجود روابط (بالمعنى الواسع) لموظفي إدارة مجددين، قد يستطيعون...

باسكال ر.: إن ما بدا لي الأكثر خطورة في ف الآن مثلاً، هو أنني بوسعي تحليل حاجات الحي، ونقلها إلى رئيس البلدية قائلة «سنتحرك مع هذا أو ذاك»، والمتعهد في الحي الفلاني ليس في مستوى مهمته، إذ لا يأتي ويلتقي بالناس، والإدارات غير موجودة. يمكن أن أكتب كل هذا وأنقله، غير انهم إذا قرروا أن لا يفعلوا شيئاً، أي يغطوا الشمس بالغربال، فما من أحد أستطيع التكلم معه.

إن الناس لا يظهرون.

باسكال ر.: وإذن ما الذي يمكن عمله؟ يمكن التأثير فيما يتصل بالمسكن وأوقات الفراغ، ويمكن التفكير في كل الميادين، لإعادة الثقة للناس. المهم هو إعادة الثقة إلى كل إنسان بنفسه، والتي يمكن فقدانها في كل البيئات الاجتماعية، نتيجة حادث ما، أو أي شيء يجري في حياتك. لكن هذا على وجه العموم، ولذا ينبغي السعي لإيجاد حل شخصي لكل امرئ. لكننا وصلنا إلى طريق مسدود. وقد استسلم الناس إلى نوع من القدرية.

{...}

إن الناس لا يعبرون عن وجودهم بأية طريقة. وقد قمت خلال عام بشتى المحاولات للتواصل معهم. إذ نرسل رسائل تقول «رئيس بلديتكم..». لكنهم لا يأتون، لا يأتون للبلدية لرؤية رئيسها. ونظرنا في وسائل أخرى؛ فسنطلب من رئيس البلدية أن يأتي إليهم، ونشرع في الحضور بالميدان متفقين على مكان مشترك. وبدأنا في أفضل ما يمكن من الظروف. إذ أخذت الـ(HLM) والبلدية المحل نفسه في مركز الحي، وفي الساعات نفسها؛ حتى يكون لدى الناس رغبة في المجيء، ولا يتجهوا إلى أماكن عدة. وقد عملت رسالة وزعت على كل علب البريد، 1000 رسالة فردية وزعت ودعوت فيها الناس. رسالة موقعة من رئيس البلدية تقول «سآتي في اليوم الفلاني والساعة الفلانية، إلى المكان الفلاني القريب منكم. وآمل أن ألتقي معكم» فلم يأتِ سوى أقل من عشرة.

{...}

انطباعي هو أنهم يقولون في أنفسهم أن ذلك دون فائدة. يجب تمحيص الأمر، لأنني أعتقد بأن الخطر الأكبر يأتي من صمت الناس.. فالصمت قد يؤدي في لحظة ما إلى الانفجار.

{وهكذا تزداد الهوة عمقاً بين السكان والعاملين الاجتماعيين، ناهيك عن الإدارات التي ترمي كل منها المسؤولية على الأخرى، أو تتجاهلها تاركة للأفراد، أي لكل الناس ولا أحد، هموم المرافق المشتركة وكأنها أرض فضاء صائرة إلى الهجران والتلف.}.

باسكال ر.: إن أول خط فاصل هو بين المتعهد الذي يتكفل بالمساكن، والمدينة التي تتكفل بالمساحات الخارجية. فلديك إذن، الشارع والداخل وإشكال يتكرر دائماً هو مسألة الإضاءة. فعلى السكان أن يعرفوا إذا كان المصباح المكسور، الذي لم يصلح، تابع للمدينة أو لمكتب (HLM).

– تقصدين معرفة من يتجهون إليه للاحتجاج، وعلى من يتوجب إصلاحه. لأن كل واحد منهما يستطيع القول..

باسكال ر.: على من يتوجب إصلاحه!.. إن الجواب هو: لست أنا بل الآخر. لأن من يجيب في المكتب لا يعرف هو نفسه أكثر الأحيان. وبما أن الأمر يتعلق بملكية عقارية، فينبغي معرفة ما إذا كان في طريق عام أو طريق خاص. ولا يعرف ذلك إلا موظف قديم.

– لدينا هنا مشكلة؛ فمن سيقدم الشكوى؟ لأن بوسع الناس...

باسكال ر.: أجل «هذا لا يهمني... فسيمر شخص آخر»...

– ... وبعد ذلك عليهم معرفة إلى من سيقدمون الشكوى.

باسكال ر.: نعم، لأن الناس لم يعتادوا عليه.

– ويصير الأمر أكثر صعوبة بمرور الوقت وتدهور الأوضاع وظهور الصراعات. إذ ليس هناك دوائر تحكيم أبداً.

باسكال ر.: كلا، كلا. إذ كان لدينا مجمعات سكنية كبرى (HLM) (تقصد حالة ت) يسكن فيها متقاعدون أمضوا حياة عادية. فقد حصلوا على هذا المسكن وأثثوه، وقضوا كل حياتهم في العمل. حصل بعضهم مع إصلاح التمويل عام 1977 على الملكية الصغيرة، لكن بعضهم كانوا مسنين وقالوا «لا، إن هذا ليس لنا، فشققنا جيدة وسنتمسك بها» ولم يخطر ببالهم إذن شراء منزلهم الصغير. وأظن أنهم كانوا راضين عن مسكنهم وحيهم وبيئتهم. ثم انقلب الوضع مع الأزمة الاقتصادية. وإذا بنا مع نوع آخر من الناس، جاؤوا لأنه لم يكن لديهم الخيار. وإذن فهؤلاء الذين يجيئون لهذه المساكن لا يجيئون لأنهم وجدوا عملاً، بل لأنهم لا يستطيعون العثور على مسكن آخر. ومن يطالبون ويتظاهرون هم المتقاعدون، الذين اعتادوا على

الدفاع عن أنفسهم وقول ما لديهم، لأن لديهم حقوقاً. وبالتالي فهم يستمرون في التعبير عن أنفسهم. وكلما حدث شيء، مهما كان تافهاً، يأتون للشكوى لمقر الـ(HLM) والبلدية، ليشعروا الجميع بوجودهم.

ليس موجوداً في أي اعتماد

{وليس «للعمل في الميدان» أي معنى إلا إذا صاحبه جهد متواصل لإقناع الإدارات المنغلقة على روتينها، والقليلة الاستعداد لمساندة عمل «غير بيروقراطي»، يقوم به العاملون الاجتماعيون}.

باسكال ر.: كان لدي ملف مقبول، أقنعت به كل من يفكر بقول لا.. وأخذت بالبحث عمن لديه المال، وأتساءل إن كنت سأعجبه؟ وإذا به يقول لي بأن لا أخبر أحداً بأن لديه مال باقٍ. وجرى الاتفاق هكذا، كما يجري الأمر مع بائعي السجاجيد.

❖ بِمَ كان يتعلق هذا الملف؟

باسكال ر.: إنه ملف حصلت بموجبه على مال لإعادة الاعتبار للمتاجر الموجودة. فلم يكن ذلك موجوداً في أي اعتماد. إذ لا يمكن الحصول على مال لأجل النشاط التجاري إلا إذا أُحدث نشاط تجاري. لكن الحي الذي كنت فيه قديم جداً، والتجارة فيه منذ 50 سنة. وما أردته هو استبقاء التجارة الموجودة. بيد أن هذا لم يكن مقرراً، وليس له أي اعتماد. فقمت بمساعٍ حتى مع وزارة التجارة. فجاء موظف واستعرض كل المعايير ليستخلص أن إعادة الاعتبار، لا مجال لها للتجارة. بينما كانت إعادة الاعتبار للمساكن..

❖ سهلة..

باسكال ر.: حصل عليها الجميع. فلقد كنت أعيد الاعتبار بمبالغ هائلة ثم بقي في أسفل البناية محلات كما هي. حتى إنني رفضت أن يقوم المهندس بمجرد طلائها. على الرغم من أنه جدد كل البناية، ولم يبق إلا أربع محلات بدت كالثآليل لعدم تجديدها. فقلت له: «إنني أرفض ذلك عمداً،

لأنني أريد ذلك من أموال التجارة، وينبغي أن يعرف الناس أنني لم أحصل على المال، ولن أجدد المحلات بأموال المساكن». ثم جاء شخص أمضى وقتاً طويلاً في دراسة الموضوع بمكتبه وبالقطار. منهك القوى ليقول لي: «لا، مستحيل، فهذا غير مقرر».

(بعد سلسلة من المساعي، نجحتْ باسكال ر. بإقناع مسؤولين في الوزارة بإعطائها التمويل لإعادة اعتبار المتاجر من أموال متبقية).

عثرنا على الحل الأسرع

(إن الهاجس المختص بالسياسيين لوضع قرار بيروقراطي موضع التطبيق سريعاً، قادهم إلى تكليف صناديق التعويضات العائلية بتنفيذ منحة الدخل الأدنى للاندماج (RMI)، باعتبار هذه الصناديق منتشرة في طول البلاد وعرضها. وبذلك فصلوا بالفعل بين دفع منحة البحث عن الاندماج وبين الرقابة على عقد الاندماج).

باسكال ر.: أنا أرى أن منحة الاندماج (RMI) وهم، لأن الفكرة جيدة في البداية، لكن التطبيق خاطىء (..) فلا شيء كان مهيئاً للطريقة التي سيجري بها عقد الاندماج، كانت المسألة الأولى هي من يدفع المال؟ وبعد مناقشات طويلة، استقر الرأي على صناديق التعويضات العائلة، لأن لديها الخبرة والوسائل لذلك، وتدفع كل التعويضات. وبهذا عثروا على الحل الأسرع، في الوقت الذي طلب البعض فيه ولاسيما المراكز الاجتماعية والعاملين الاجتماعيين؛ باعتبارهم على تماس مباشر مع العائلات، طلبوا بصراحة قبض الأموال لأجراء عقود الاندماج بأنفسهم، وتكون لهم بالتالي القدرة على هذا القول: «أنا أعطيك المال، المنحة، عقد الاندماج، أي ما ينتظرون من الشخص الذي سيقبض المنحة، وأنا الذي سيرى إذا ما طُبِّق أم لا».

وأعتقد أن الأمر لم يجر بهذا الشكل لأسباب تتعلق بالتطبيق السريع، لأن الأوضاع لم تكن واحدة في فرنسا. فصناديق التعويضات العائلية على نفس النمط تقريباً، أما المراكز الاجتماعية فجدّ مختلفة، ثم إنها لا تغطي كل المناطق. ولابد أن يكون التأكد من دفع المنح للجميع في فرنسا كلها عملاً

واسعاً جداً. وهكذا قامت صناديق التعويضات بدفع المنحة، ثم أخذ المسؤولون بالبحث عمن يقوم بعقود الاندماج. ولم يزل الأمر على حاله، بعد سنة.

(..)

أعتقد أن جميع من هم على علاقة بمن ينتظرون شيئاً من المجتمع، يتوصلون بسرعة إلى الخلاصة: إن أغلبيتهم تنتظر عملاً. إلا أننا لسنا هنا لنعطيهم عملاً! وقد كشف عقد الاندماج الشهير هذا عن أوضاع كانت مجهولة حول مداخيل الناس. وأدى إلى تخيل المستفيدين من منحة الاندماج غالباً على أنهم.. متشردون. سنصل إلى هذا.. سنعتقد بأنهم أشخاص كانوا يعملون ثم قبضوا منحة رابطة التشغيل في الصناعة والتجارة (ASSEDIC) ووصلوا إلى نهاية استحقاقهم لها، ويجدون أنفسهم الآن دون مورد. هؤلاء موجودون بالفعل. لكن هناك آخرون كثيرون لم يصرحوا عن أنفسهم، لأنهم لم يكونوا عاطلين عن العمل، بل هم شباب لم يكن لهم عمل قط، وأطالوا مدة دراستهم بصفة اصطناعية نوعاً ما، وكوّنوا أسرة. وهم يتدبرون أمر أنفسهم بأعمال صغيرة ويعيشون معسرين دائماً مع الأسرة وراءهم، من الممكن..

وإذن لدينا أسرة شابة مع طفل دون أي مورد. فكيف يفعلون؟ حسناً، إما أن تساعدهم العائلة قليلاً، وإما أن يحصلوا على وظائف مؤقتة،.. وإما لديهم منحة الطالب كما قلت آنفاً: «يطيلون أمد دراستهم..» أجل، ولكن بصفة اصطناعية. ولكنهم يقولون بأنه ليس هذا ما يريدونه، بل يبحثون عن الدورات التدريبية. فماذا تمثل لهم منحة الاندماج في هذه الحالة؟ والصيغة الوحيدة التي يقدمها المسؤولون للناس هي الدورات التدريبية.. لكن هناك نوعاً من السأم عندما نتكلم عن الدورات التدريبية، لأننا نعرف جيداً أنها مجرد مسكن. إن الناس يريدون عملاً، وينتهون إلى الدورات التدريبية.. وسينظر المرء إلى أية دورة يتوجه، بحسب المرتب الذي يعطى فيها. لأن المرتب يأتي في المقام الأول ثم محتوى الدورة. وإذن، فعندما تقترح دورات بمنحة الاندماج أو بغيرها، فليس هناك استجابة إلى طلب الاندماج الذي يتم بالعمل. وهذا ما كانت المساعدات الاجتماعيات اللواتي يتصلن بالأشخاص المعنيين يَقلنه لي ثم..

❖ ومحتوى عقد الاندماج..

باسكال ر.: ليس من محتوى محدد (..) فما يجري الآن هو توزيع صناديق التعويضات العائلية لجميع المنح، بحسب معايير الدخل، وما ينتظر هو تحقيق عقود الاندماج الشهيرة. وتقول المساعدات الاجتماعيات المعنيات مباشرة بهؤلاء الأشخاص: «أنا لا أريد عقد عمل فارغاً». وهناك ضغوط تمارس نتيجة مقارنات «للنتائج». فأداء لجنة الاندماج المحلية في ف. لم يكن حسناً، لأنها لم تنجز عقود اندماج كافية بالقياس إلى عدد المستفيدين من منحة الاندماج؛ بينما لدى لجنة ي. عقود أكثر بكثير: فهم يتحدثون عن الكمية، ولا وقت لديهم للبحث في التفاصيل. وما يطلب إذن هو توقيع عقود الاندماج. وعند هذه النقطة أجابتني المساعدة الاجتماعية بأنني مخطئة تماماً عندما قلت لها: «لكن، إذا لم يحترم الشخص عقده -وأنت تعرفين ذلك جيداً- تستطيعين القول: لست موافقة على تجديد العقد» وقالت: «لكن هناك غيري، أي اللجنة المحلية التي يرأسها المحافظ. وهو الذي يوقع..».

(لم تُزل مأسسة العمل الاجتماعي الصعوبات الملازمة للمنطق البيروقراطي؛ كما تبينه الظروف التي تم فيها إعداد وفحص وتقويم المشروع الذي اقترحت باسكال ر.).

باسكال ر.: إن ما أردت وصفه لك، هو موقف الموظفين، المبعوثين..

❖ يأتون للاجتماع، استجابة لأمر..

باسكال ر.: .. استجابة لأمر، أجل! لقد كان رائعاً حقاً: فالمأسسة تتم استجابة لأمر الحكومة. وعلى الجميع أن يكونوا حاضرين في كل الاجتماعات والإسهام فيها، وذلك منذ 1989.

❖ لقد مأسسوا التنسيق بين جميع الأعمال التي يقوم بها الناس الذين وضعتهم في خطتك؟

باسكال ر.: أجل، فمدير المنطقة ينظم الاجتماع الذي سيحضره ممثلو جميع الإدارات المموّلة، بالإضافة إلى ممثلي الأحياء، حياً حياً. وكان

علي في زمن قياسي، تقديم وثيقة تمثل حصيلة المشاورات. وكنت انطلقت في نهاية 1989، لأن سنة 1989 برمتها انقضت في المناقشات مع المنتَخبين الذي لم يتوصلوا إلى تقسيم المواقع.

◆ ماذا تقصدين؟

باسكال ر.: أقصد المدن التي ستستفيد من التمويلات.

◆ إن تلك غايتهم بالطبع، إذ كانوا جميعاً مهتمين بالحصول على المال..

باسكال ر.: أجل، وهذا ما حصل. لأنهم لم يتخذوا قراراً إلا في ظرف سنة..

◆ سنة من الشجار؟

باسكال ر.: حتى يصلوا في النهاية إلى عملية ذر المال.

◆ وهل اشتركت في هذه العملية أم..

باسكال ر.: لم أشترك مطلقاً.

● مطلقاً. وكان الأمر يجري بين المنتَخَبين والإدارة؟

باسكال ر.: لا أعتقد. أظن أن الأمر جرى بين المنتَخَبين فقط.

◆ في المستوى الجهوي، ولا يستشار أحد مثلك؟

باسكال ر.: آه، كلا.

◆ ألم يكن هناك أناس للتعبير عن الحاجات..

باسكال ر.: كان هناك تقنيون. تقنيو الجهة الذين كانوا يقومون بتقديرات كمية وإحصائية، ويسعون إلى التوازن، وإيجاد معايير..

◆ وهل هم موظفون دائمون في الجهة، أم أنهم يعملون معها عند الحاجة؟

باسكال ر.: إنهم متعاقدون.

◆ متعاقدون. ولكن بالإمكان تجديد عقودهم؟

باسكال ر.: أجل، هوذا.

❖ .. نسبة المهاجرين، نسبة هذا وذاك. بينما يناقش الآخرون مسألة المال. أليس كذلك؟

باسكال ر.: (ضحك) أجل، إنهما عالمان متباينان.

❖ هناك على المستوى الجهوي، المنتخبون ذوو النظرة السياسية، وبعض التقنيين الذين يفيدون في تقديم المسوغات.

باسكال ر.: وفي لحظة ما، يتخذون قراراً.

❖ وقد اقتسموا ذلك بالأسلوب الأكثر تشتتاً، على شكل قطع صغيرة..

باسكال ر.: بالضبط.

❖ فصار الأمر غير معقول.

باسكال ر.: أجل، هوذا.

❖ ألم يكن هناك عمل إجمالي ذو معنى؟

باسكال.: لا شيء البتة.

❖ وحتى أنه ليس مؤكداً أن تستعمل الاعتمادات المخصصة لهذا؟

باسكال ر.: أوه، كلا. ولا هذا. لأن الأهداف غير معلنة.

❖ وإذن، كيف تجري الأمور بعد هذه الاجتماعات؟

باسكال ر.: مضت سنة في حالة طوارىء، ثم بدؤوا في نهاية 1989 بتعيين رؤساء المشاريع، ومنذ 1990 أخذوا بتعيين رؤساء المشاريع في كل مكان، لأنهم عرفوا في النهاية مواقع المشاريع. ورئيس المشروع لابد منه؛ أي أن البلدية تعين شخصاً بمؤهلات معينة.

(هنا يأتي ذكر الوضع الملتبس لرئيس المشروع)

❖ وإذن، ذلك الاجتماع؟

باسكال ر.: أود أن أقول إن المنتَخَبين على صعيد الجهة أضاعوا سنة

لذر المال. ثم عين رؤساء المشاريع سريعاً، وكان عليهم أن يتشاوروا مع أناس لا يعرفونهم مطلقاً.

◆ إنها أوهام الروابط. والاستشارات الزائفة. والديمقراطية الفارغة..

باسكال ر.: نعم، عندما نعلم الظروف التي عُمل فيها كل هذا. إنه جنون مطبق! إذ كان علي أن أثبت في وثيقة بأنني استشرت الجميع والتقيت مع الجميع. وأن الجميع شرحوا وجهات نظرهم، وأنني توصلت إلى تصميم مشروع -في ظرف ستة أشهر، إنه خيالي حقاً- مشروع إجمالي. وبالتالي يعمل شيء من أجزاء وقطع، ظاهرها التماسك ويقدم. وأنا أعرف جيداً كيف يعمل النظام..

◆ وعن ذلك الاجتماع الشهير؟

باسكال ر.: نعم، عن هذا الاجتماع. كان علي الشرح لأن حيي يطلب هذا، بينما طلبتَ ذاك.. وبما أنني على دراية، شرحت سير الإدارة السيء. وكان المفروض أن يكون لكل واحد نسخته، حتى يعطي رأيه خلال الاجتماع. وإذن، عليك وضع ملفك في مقر المحافظة على 16 نسخة، في 10 حزيران كآخر مهلة.

◆ لاجتماع سيحصل في..؟

باسكال ر.: لا أحد يعرف تاريخه. ربما في تموز أو آب. وينبغي القول إن الجميع عملوا بدأب؛ فقام الموظفون بساعات إضافية. وكل الأشخاص الذين تحملتهم، كانوا مثلي، يعانون من ضغط شديد.

◆ وهل كانوا في الاجتماع، هؤلاء الأشخاص؟

باسكال ر.: أجل، أجل.

◆ وهل قرؤوا الملف حقاً؟

باسكال ر.: كلا.

◆ أليس ذلك مدهشاً؟

باسكال ر.: كلا، لأن الموظفة الموجودة في مقر المحافظة، استقبلت 20 نسخة من 60 مرسل مختلفين بين عشية وضحاها. وكان عليها التحقق من كل شيء، فالبعض لم يحسنوا العمل، أما أنا فأرسل ملفي اليوم، وأمر على المكتب بعد عشرة أيام.

❖ ولم يرسل الملف بعد؟

باسكال ر.: بالطبع، لم يكن قد أرسل، فقلت لها: «هل وصل الملف؟ وهل لديك النسخ المطلوبة؟ ألم أخطىء في شيء؟»، «كلا، كلا، كل شيء على ما يرام» فقلت: «لأنهم قالوا لي بأن الاجتماع سيعقد خلال 15 يوماً». «أصحيح هذا؟ فأنا لست على علم بذلك»..

❖ ألم تكن الملفات قد أرسلت..

باسكال ر.: «آه، حسناً، سأرسل الملفات فوراً» فكنت أعرف إذن بأن الناس الحاضرين في الاجتماع، لم يكن لديهم الوقت لقراءة الملف.

❖ وكان في هذا الاجتماع كل السلطات المعنية بموقعك؟

باسكال ر.: هوذا.

❖ وماذا قالوا، كلاماً..

باسكال ر.: أجل، فبما أنني كنت على علم بمختلف البنود والاعتمادات، إلخ ولكي يكون تقريراً سهلاً في القراءة، قسّمته. فهنّأني الجميع عليه..

❖ كل واحد يقرأ ما يعنيه..

باسكال ر.: بالضبط. وبما أن على كل منهم أن يقرأ فصلين مختلفين؛ عرفت من خلال أجوبتهم، من الذي قرأ الفصل الأول ومن قرأ الفصل الثاني. ورأيت هنا كيف يتصرف امرؤ في اجتماع، وكيف يتغير سلوكه.. إذ يرسل إنسان في مهمة ليعطي رأيه حول شيء يعرفه جيداً، ويتمسك عندئذ بالاعتبارات المادية، فيراجع بسرعة «العمل الثقافي؟ إنه الصفحة الفلانة. حسناً. لقد قالت ذلك. فعلي أن أبدو بمظهر المهم وسأقول لها: إن هذا غير

كافٍ». وسيقول شخص آخر بمزاج آخر «كلا، حقاً إنك لم تفهمي شيئاً هنا». كل واحد في قطاعه، وخاصة عندما نسمع «إن هذا لا يتفق بتاتاً مع التوجيهات التي لدينا، ولا نستطيع التمويل إلا للتوجه الفلاني. وما تقدمينه لنا لا يدخل في اعتماداتنا». حقاً لقد أصبت بصدمة قوية.

❖ وكان هذا في تموز الماضي؟

باسكال ر.: كان في تموز الماضي. وما صدمني فعلاً على وجه الخصوص هو الجو الذي أثاره. أي رؤية هؤلاء الناس الذين أرسلوا في مهمة، ولم يكونوا في مستوى ما طُلب منهم -فلم يكن لدينا الوقت للحوار-، والذين كانوا مضطرين للإجابة. فلم يجدوا مخرجاً وحيداً إلا إنهاك المسكينة التي كانت وحيدة..

❖ وكانت المسكينة أنت؟

باسكال ر.: أجل، أنا.

شباط 1991

بيير بورديو

سوء نية السلطة

مع أن ديني ج. وهو قاضي تنفيذ للعقوبات، يشغل وظيفة بعيدة جداً، من الوجهة البيروقراطية، عن وظيفة باسكال ر. رئيسة المشروع في شمال فرنسا، إلا أنه يعيش ويروي تجارب شديدة الشبه بتجاربها؛ لأنه يجد نفسه دون شك في مواجهة التناقضات البنيوية نفسها. فباعتباره مكلفاً بـ« تنفيذ» العقوبات التي يقررها قضاة النيابة العامة، أي تخفيضها أو تحويلها في أغلب الحالات بمنح «حرية جزئية وتنقلات خارجية وإفراج مشروط»، فهو موضوع في نقطة تقاطع منظومتين متناقضتين في مقتضياتهما وتصوراتهما. وهو مع كونه موضع شك دائم بأنه يقوض ما يصنعه القاضي بحكمه؛ ويضعف بذلك سلطة العدالة، ينظر القضاة إليه من علٍ لأنه يمثل «الاجتماعي» بالنسبة إليهم. «إن الاجتماعي ليس مثيراً للاهتمام، بل للنكد (..) إنه من الدرجة الثانية(..) وليس من القضاء النبيل (..) إن القضاء يعني إصدار الأحكام القضائية (..) وبحث المشكلات القضائية (..). أما مرافقة الناس في حياتهم لمعرفة ما يصيرون إليه، والسعي لمساعدتهم، فهو..». وتتضاعف صعوبة وضعه حيث يوجد، ليس فقط بضرورة إقناع النيابة العامة والمحكمة بقبول إجراءات الرحمة، مع أنها مقررة في القانون، وطمأنة مديري السجون الذين يسوغون حذرهم دائماً بـ«الإخفاقات» السابقة، بل بالقيام

بدور الملتمس عن طريق «المساعي» لدى شتى المنظمات والروابط والهيئات التابعة للجماعات المحلية.

أما العلاقات الأفقية فليست أكثر يسراً من العلاقات العمودية: «فمنذ وجودي هنا، مثلاً، لم تُعقد قط جمعية عامة لجميع القضاة في المحكمة نفسها. (..) ولا وجود لفِرَق تقوم بالعمل الداخلي. إن لدي عدة مشروعات تتعلق بسياسة بديلة عن السجن؛ ولا أعرف كيف أتحدث عنها للآخرين، لأنني كلما طرقت الموضوع مع الرئيس يقول: «اسمع، فرقة عمل، جمعية عامة، اجتماع.. (لا أريد شيئاً من هذا) فلا مجال لهذا إذن».

ومن أجل تفسير «المصادمات وخيبات الأمل وعدم الفهم» التي عليه مجابهتها باستمرار، يستدعي هو نفسه، بنظر ثاقب، التناقضات الملازمة لوضعه «إن أي قرار يتخذه قاضي تنفيذ العقوبات يضع قاضي المحكمة التي أصدرت قرار الحبس موضع الشك.. كما يضع النيابة العامة. لأن النيابة العامة ليست موافقة في قرارة نفسها، لكنها لا تجرؤ على التصريح بذلك.. ويضع مدير السجن أيضاً، لأن من المزعج له أن يشرف على أناس في الخارج، مع أنهم باقون تحت سلطته. وهكذا يضع الجميع موضع الشك!.. الجميع! الجميع!. وإذن فبقدر ما تكون نشيطاً تضع موضع الشك كل (المنظومة)..».

كما يستحضر بشكل أدق «القلق» الذي يستثيره «الوضع الخارجي» للمحكوم عليهم، عند كثير من الموظفين (طبقاً لمنطق معروف جداً لمستشفى الأمراض العقلية): «أين هم؟ وماذا يفعلون؟». ويبين أن ما يتيحه القانون من إمكانات محدود بظروف تحقيقه الواقعية، بدءاً بنزعات الأعوان المكلفين بالتطبيق؛ كالتعلق بالتسلسل الوظيفي، وذلك النوع من التعصب الطبقي الذي يمنع المجابهة المباشرة للواقع أو مجابهة الآخرين ولاسيما عندما يكونون من مكانة أدنى: «إن جعل الناس المؤهلين لدراسة الموضوع يجتمعون (..) من باب المستحيل»، «إن المشكلة هي أن

لدينا إدارة للسجون تعمل على أساس علاقة تسلسل وظيفي، والشريك لا يعمل بهذا الأسلوب». «عندما يكون لديك مدير سجن لا يستطيع التكلم -لقد عشت ذلك- بالهاتف مع مؤسسة، بصفة شريك بل يصدر الأوامر، نعم يصدر أمراً. إلى هذا الحد وصلت الأمور!».

وهكذا يتوصل إلى نتيجتين متفارقتين (كما فعلت رئيسة المشروع) أولهما: إنهم الأشخاص (وهم أقل استقلالاً في وظائفهم مما قد يظن «فمنذ اللحظة التي يتم فيها تغيير شخص، يتم تغيير السياسة») من خلال روح الإبداع لديهم أو حتى مخالفتهم للقوانين، ينتزعون البيروقراطية من الجمود، بل من الشلل. والنتيجة الثانية: هي أن التفاني في الولاء للمؤسسة، وبذل الجهد لتحويل القدرات الإيجابية الكامنة فيها إلى أفعال، للتكفل الفعلي بالمهام المنوطة بها، لا يجدان من المؤسسة أية مكافأة: «تسألني إن كان التجديد يعود بالفائدة على من يجدد...، أوه، لا، مطلقاً! بل على العكس! فسأعطيك مثال القاضي الذي سبقني في وظيفتي، لقد كان يود أن يكون مدرساً بعد تجربته في ي.، ليتحدث عن قاضي تنفيذ العقوبات، لكنه لم يعين، لأنه كثير الإزعاج وجدّ عصبي وقليل.. بل عيّن مستشاراً في محكمة الاستئناف في ز. ثم في و.، ولا أعرف ما حصل له بعد ذلك، لكنهم لم يشاؤوا تعيينه حيث يكون أكثر أهمية من الوجهة التأسيسية».

ويعترف أيضاً بأنه نقل إلى x، مكان عمله الحالي؛ أي تراجعت مرتبته بعد تجربة ناجحة في ز. حيث استطاع الاضطلاع بمهمته على الوجه الأكمل معتمداً على هيبة ونفوذ القاضي الذي سبقه في المنصب، ثم على حماسته وبراعته في الإفادة من كل الإمكانات التي تتيحها النصوص التشريعية. ويستذكر دون فخر ولا مرارة مراحل حياة مهنية غير عادية: إذ بدأ محاضراً بالقانون العام في الكلية، وانتسب إلى SGEN، وهي نقابة أقلية ذات اتجاه يساري. وبعدما حصل على الدكتوراه، امتهن المحاماة أولاً، ثم القضاء، ليتوجه بعد ذلك -باختيار

أخلاقي وسياسي في آن- إلى القطاع الأكثر قرباً من الجانب الاجتماعي في السلك القضائي. حيث اعتقد أن بوسعه التعبير عن الاستعدادات المعطاءة (ليس هو الذي يتكلم) التي يرجعها إلى تأثير أمه المناضلة الكاثوليكية (تابع هو نفسه دراسته في مدرسة لليسوعيين). بيد أنه يكتشف هنا البنية المتناقضة لمؤسسة منقسمة على نفسها، على صورة صراعات متواصلة مع رؤسائه، وتوترات شخصية مؤلمة: فاليد اليمنى - النيابة العامة هنا- لا تريد أن تعرف ما تفعله اليد اليسرى، أي الأعوان والمنظمات الموكَل إليها ما يسمى بالعمل «الاجتماعي». وإذا كنا نستطيع -مع سارتر- تسمية كذب المرء بنفسه على نفسه، نية سيئة؛ فإن بإمكاننا الكلام عن نية سيئة للمؤسسة، لتسمية نزوع مؤسسات الدولة الدائم لرفض أو إنكار الإجراءات أو الأفعال المطابقة فعلاً لرسالة للدولة، من خلال نوع من اللعب المزدوج والضمير المزدوج الذي يتحمل مسؤوليته الجميع.

بيير بورديو وغابرييل بالاز

وضع حرِج بين نارين

انحاز فرانسيس ت.، باعتباره ابن مثقف شيوعي، في وقت مبكر جداً إلى «جانب المستضعفين» فمنذ تجربته المهنية الأولى في إحدى مدن الصفيح المتاخمة لباريس، لم ينقطع عن مزاولة مهنة المربي في الشارع؛ باذلاً من نفسه ليلاً نهاراً، ولاسيما بعد اشتغاله بمتعاطي المخدرات.

ولكونه مناضلاً في أعوام الستينيات، فقد أوقف بسبب مشاركته في المظاهرات التي جرت بصدد محاكمة أحد القادة اليساريين، وسجن. وهو يرى أن تكوينه تم «في الشارع» مع أنه «قرأ كتباً بالطبع»، وتابع تدربه كمربٍ أثناء قيامه بعمله.

عينته إحدى بلديات الضواحي الباريسية في مهمة تتصل بمكافحة المخدرات. فأنشأ «مصلحة إعلام واستقبال بشأن المخدرات»، بيد أنه لا يكتفي بانتظار إبداء متعاطي المخدرات الشباب رغبتهم في الانقطاع عن المخدرات، بالمجيء من تلقاء أنفسهم والاستجابة للعديد من الأحاديث مع الأطباء والمربين والمتخصصين النفسيين؛ بل يحوز على ثقتهم من خلال وجوده إلى جانبهم في اللحظات الحرجة، وأيضاً حين «يأخذون جرعتهم» وتنطلق آمالهم القصوى؛ وهي آمال متزنة و«بورجوازية صغيرة» تبعث على الاندهاش، يوليها فرانسيس ت. التفهم ذاته الذي يوليه لشططهم الأكثر جنوناً.. عندما

يعتريهم العوَز، إذ يحصل لهم على بدائل دوائية من الصيدلي، ويجنبهم التوقيف أو حتى السجن، بإخراجهم من مفوضية الشرطة، وتزييف بيانات بالراتب لهم، ومساندتهم لدى قضاة ومحامين «يعرفهم جيداً». وهو بقربه من المتعاطين وأريحيته الدائمة، ينحاز باقتناع إلى جانبهم؛ مخالفاً نظم المؤسسة، غير متردد في «التزييف» و«الاحتيال». إنه بذلك يعارض الخطاب الأكاديمي الذي يرى فيه «حصراً» للمتعاطي، كما يعارض الرؤية البيروقراطية للعلاج التي بتوجهها الكلي، من خلال الأحاديث المتكررة والمتباعدة في الزمان، إلى معرفة فيما إذا كان المتعاطي مصمماً على الفطام تقود إلى «فرض حواجز أمام إرادة الخلاص لديه». فقد وضع ترتيبات بسيطة موضع التنفيذ: إذ بمساعدة رئيس مصلحة في مشفى كبير بالإضافة إلى مساعدة زوجته الممرضة هناك، يستطيع في أي وقت الحصول على غرفة لصالح أي متعاطٍ مستعد للفطام، وعند انتهاء العلاج بوسع هذا المتعاطي الذهاب إلى «عائلة استقبال» والشروع في البحث عن عمل.

ولأنه يعرف بالتجربة أن المتعاطي لا ينتظر، «وأنه حينما يريد الخلاص، ينبغي الاستجابة فوراً» وباعتباره يشكل ضرباً من الطليعة لمؤسسة يقدم لها خدمات لا تقدر بثمن، لكنها مستعدة دوماً للتنكر له؛ يبدو وكأنه الناطق بلسان متعاطي المخدرات «رجل غامض لأنه يقضي أيامه ولياليه في الشوارع والحانات». ولذا يشعر بأنه ضمير المؤسسة المرتاح وضميرها المعذب في آن. وما الأزمة التي تفجرت عندما ندد علناً بمنتدب للشباب من مناصري نوبان وأدت إلى تسريحه، إلا دليل على وضعه الحرج والمهمة الملتبسة التي أوكلت إليه: «إن ما لم يحتملوه إلا بصعوبة في البلدية هو أنني أقمت سلطة مضادة». فمن حيث هو «مرب في الشارع» ينقل السلطة إلى الشارع بمعنى من المعاني، لكنه يذكر أصحاب السلطة دون انقطاع بسلطة الشارع التي يسهم في توجيهها باعتباره في موقع متقدم «لبيرقراطية التماس مع الناس». وهو موضع شبهة أيضاً لقدرته على التعبئة.

ويتضاعف ما يشعر به من ضيق لوجوده الدائم في وضع حرج، مع

اكتشافه بمرور السنين، للقيود التي كبلته في حياته الخاصة نتيجة ممارسته «لمهنة شاقة»، يفضل الجيل الجديد من المربين تجنبها بالبقاء «في بيوت الشباب مع الألعاب والمسليات» وهي «أماكن استهلاك في النهاية، حيث نشرب ولكننا ندفع، ونلعب وندفع أيضاً». «لو ذهبت إلى وكالة تشغيل المربين لوجدت إعلانات طلب مربي الشارع.. كما هي.. وليس إلا غبي مثلي يأخذها». وهكذا يبدو وهو في الرابعة والأربعين كأنه ابن الخمسين. فعلى الرغم مما يظهر عليه من قوة بدنية، يدعمها صوته القوي إلا أنه يبدو منهكاً ومتعباً. ولهذا يبحث عن مهمة أكثر هدوءاً مثل «المعونة مع العائلات على الواجبات المدرسية»، لاسيما وأن أسرته مع أطفاله الثلاثة، وآخرهم في الرابعة من عمره، تتطلب نصيباً أكبر من وقته. وهو وإن كان يطالب بالحق في «التنفس» قليلاً، إلا أن «رد فعل قديم» يقود خطاه في الليل دائماً، للاستماع إلى المتعاطين في «أماكن اجتماعهم» (فقد ذهب إلى فراشه في الثانية صباحاً، عشية الحديث). وهو يعتقد دائماً بأن واجب المربي أن «يكون مع»: «فمنذ اللحظة التي يتعرف المتعاطون علي فيها كامرىء من خارج المؤسسة. وتنشأ بيننا علاقات وعواطف خارج العملية المؤسسية، يمكن لعملي أن يكون ذا جدوى». ولكنه من خلال دفعه لهذا الثمن فقط، يشعر بأنه «يستطيع النظر إلى وجهه في المرآة، وبأنه ليس ذليلاً».

مع مربٍّ في الشارع

حديث مع بيير بورديو وغابرييل بالاز

«إن الناس في الشارع يثيرون الخوف الشديد»

فرانسيس ت.: عندما عينني رئيس البلدية، بدأت الاهتمام بمركز أوقات الفراغ، حيث كان الشباب يأتون للعب بكرة الطاولة إلخ. وحصلت ظاهرة الاحتلال غير الشرعي في مونتبارناس التي تساهلت الدولة معها زمناً طويلاً، حيث كان الشباب يذهبون للتزود بالحشيش. وبما أن أوليفنستاين أدلى بتصريحات سمعها الشباب وفحواها أن الحشيش ليس بهذه الخطورة، وأنه يشبه قدحاً من الكحول؛ أقبل الشباب على الحشيش بابتهاج. ومن ثم انتقلوا إلى المحقن بالطبع. وتكونت شبكة كاملة لنشر المخدر في تلك الضاحية، وكنا إذا ما أردنا القيام بعملية مؤسسية وإرسالهم إلى الطبيب أو الجمعيات التي تهتم بالأمر، وجب عليهم القيام بالعديد من المقابلات قبل البدء في العلاج؛ بينما تجب الاستجابة الفورية عندما يطلب أي متعاطٍ للمخدرات الخلاص. وحتى عندما يكونون تحت سيطرة المخدر، ينبغي الاستجابة فوراً، وليس الانتظار عشر سنين لمعرفة إذا ما كان مستعداً ذهنياً، فحياة الشاب في الميزان، وساعدني الحظ بالتعرف على أستاذ في مشفى كبير، حيث كانت زوجتي تعمل ممرضة، ففتح لي غرفة في مصلحته، وهكذا أشركت أطباء الحي، كما أشركت المصلحة الاجتماعية للبلدية، التي

كانت تستقبلني كممثل عن متعاطي المخدرات، وترى فيَّ.. وهنا بدأت الحواجز. لأن المؤسسة لم تر فيَّ عضواً فيها بل امرءاً غامضاً يمضي أيامه ولياليه في الشوارع والحانات. ومع أن رئيس البلدية كان متفهماً، إلا أن مؤسسة البلدية برمتها لم تكن ترى فيَّ واحداً منها.. بل كنت المتعاطي القادر على الكلام. وبالفعل، كنت المتعاطي القادر على الكلام مع بعض السلطة.. التي لا يجرؤون على الوقوف ضدها، لأن رئيس البلدية كان ورائي يساندني.. وكذا السلطة العليا التي تعلم.

يفرضون الحواجز على مجرد الإرادة في الخلاص

❖ تقول إنه يجب الإسراع بالتعامل مع المتعاطين.. ماذا كانت تقترح المؤسسة عليهم؟ أكان عليهم الانتظار طويلاً؟

فرانسيس ت.: إنها مؤسسات الإعلام والاستقبال حول المخدرات، إلخ وهناك إجراءات طويلة لمعرفة إذا ما كان المتعاطي مصمماً حقاً على الانقطاع. وهذا يعني فرض حواجز فعلية أمام إرادة الخلاص. صحيح أن هناك من لا يريد الخلاص حقاً، بل يشعر بالحاجة للإفلات في المستشفى أسبوعاً (حتى وإن ارتكب فعلة سيئة أو ما شابه ذلك). لكن ليست هذه هي المشكلة. فبما أنهم يريدون وهناك مكان، سيذهبون ثم يعودون من جديد. وهناك من كرر الفطام عشر مرات! ثم يأتي المرة الحادية عشرة، وتتجح، ثم يأتي للبحث عن العمل.. لكن حصرهم في خطاب أكاديمي لا يفهمون منه الشيء الكثير، يذهبون إليه لأنهم مرغمون من قبل القضاء على أن يكونوا موضع متابعة، إلخ.. إنه مبدأ البرامج التوجيهية، فعندما يراد إجبار شخص لديه مقاومة، فليس عليه إلا الطاعة، لكن ذلك لا يغير مما في نفسه شيئاً. أما إذا طلب هو نفسه لسبب أو لآخر، فأنا موجود في المدينة ليلاً ونهاراً. وليس من النادر أن يرن جرس الهاتف في الثالثة صباحاً، لأن فلاناً في مفوضية الشرطة وعلي الذهاب لإخراجه. أو يأتي آخر في الثالثة صباحاً بحالة سيئة، وينبغي الحصول على حبة ترانسكين 50 كمسكن..

◆ هل كنت مستخدماً من البلدية؟

فرانسيس ت.: أجل، كنت مستخدماً من المدينة. وظهر الحشيش بعد تعييني بثلاثة أسابيع، وأتت فورة تعاطي المخدرات. وكان ذلك من قبيل المصادفة. فتراجعت للوهلة الأولى، لأن المتعاطي برأيي امرؤ تعوزه الإرادة. ولكنني غيرت أفكاري وأخذت في مساعدة المتعاطين؛ ساعدت الشباب في كل القضايا التي رفعت ضدهم حتى أصبحت مقيماً دائماً في محكمة نانتير. وجعلني ذلك، في ظرف سنتين، ثلاث سنوات، أرى القاضي قبل المحاكمة لتقرير ما سيحدث وما الحكم المناسب. ولم يكن سوى القليل من الأحكام بالحبس، لأن القضاء ممثلاً بهذا القاضي اعترف خلال ذلك الوقت بطريقتي، وبي عبر هذه الطريقة..

◆ أكان يساندك في عملك؟

فرانسيس ت.: أجل، فقد ترسخ بيننا حوار ونوع من التوافق والتعاطف حول الشباب، وهذا ما أتاح لي مؤازرة هامة. لم تساندني المدينة إلا قليلاً، لكنني أوجدت مع بنى السلطة صلات أدت إلى الاعتراف بي وإعطاء الشباب صورة للأمان. إذ حول صورة الأمان هذه نمت الثقة. لكن هذا لا يعني عدم وجود صراعات معهم.. فلقد كانت هناك العصا بيننا أحياناً. لأن الأمور كانت تتفجر بيننا عندما لا أكون متفقاً معهم، ومن ثم يحدث النزاع.

◆ كان عليك كسب ثقة الطرفين، وهو ما ليس سهلاً كل الوقت.

فرانسيس ت.: كلا، ولكن ذلك دام عشر سنوات مع ذلك (ضحك) (صمت)

إذا ما عُرضتَ على المحكمة فسأكون هناك

◆ فكل هؤلاء الشباب إذن.. على غير هدى الآن؟

فرانسيس ت.: إنهم على غير هدى، إنهم..

◆ وهل يواصلون زيارتك؟

فرانسيس ت.: أجل، يمر بعضهم، وبعضهم يهاتفني. وهناك من يكتبون لي، وهناك من رحل إلى الأقاليم وتزوج.. وهم جميعاً مصابون بمرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) ويحملون فيروسه HIV.

أما كيف تمضي حياتهم، فنحن هنا لا نستطيع شيئاً.. وكل ما سعيت إليه هو إعطاؤهم الإمكانات لإعادة التأهيل، وتحضرني حالة مومو الذي صار سائقاً مناولاً؛ وهو مصاب بالفيروس. لكن الفيروس لا يزداد، وهو سعيد الآن.. وأذكر شخصاً آخر في الأقاليم وهو طباخ، وثالثاً في جنوب فرنسا، تزوج ورزق بأطفال وهم يحملون الفيروس أيضاً. يمكنني القول بأن لدي الكثير من الحالات الناجحة اجتماعياً، على الرغم من كل شيء.

(..)

عندما أعود إلى المنزل في المساء متأخراً -عدت البارحة في الثانية صباحاً- يراودني رد فعلي القديم للمرور بالأماكن التي يجتمعون فيها.. والمحقن يدور بينهم فيها. إن المثير للاهتمام هو مشاركتهم جلسات التعاطي، لأنهم من خلال هذيانهم يفصحون عن عذاباتهم الحقيقية وأوهامهم ورغباتهم. ثم إن هذا يؤدي إلى صلة قوية بالنسبة لمرب في الشارع؛ أن يتمكن من مشاركتهم الضياع.. حسناً -تعلم أنني لست موافقاً على ما تفعل- أنت في مرحلة التعاطي، لكنك عندما تريد التوقف فأنا هنا. وإذا ما عرضت على المحكمة فسأكون هناك أيضاً، لمحاولة تقريب وجهات النظر. وكم رتبت من شهادات زور، مع معرفة القاضي جيداً بأنها كانت شهادات زور.

❖ ولِمَ كانت؟ الأجل أفعال صغيرة؟

فرانسيس: أجل، من أجل سرقات صغيرة: تسمح بشراء جرعتين أو ثلاث.. إذ ببيع جرعة بثمن غالٍ يمكن شراء جرعة ونصف.

❖ تتحدث عن تطلعاتهم ورغباتهم. ماذا كانوا يقولون مثلاً؟

فرانسيس: وإحباطاتهم أيضاً، ولكنني لم أتكلم عنها. كانوا كلهم فيما عدا واحداً من المعدمين الذين يرغبون في تأسيس بيت لهم مثلاً وهو شيء

مهم جداً. فأملهم الذي كان يتردد على ألسنتهم دائماً هو أن أحصل لهم على شقة أو غرفة. أملهم جميعاً.

◆ أين كانوا يسكنون؟ ألدى أهلهم؟

فرانسيس: عند الأهل عموماً أو في أقبية عندما يطردهم الأهل.

◆ في المساكن المعتدلة الكراء (HLM)؟

فرانسيس: أجل، وفي منازل هدمت اليوم لبناء مكاتب أنيقة في مكانها. عندما سمعت رئيس البلدية يقول: «ينبغي على هؤلاء الناس الذهاب للسكن على بعد 50 كلم من هنا، على كل حال».. كانت مشكلة بالنسبة لي..

◆ تتحدث عن بيت لهم، فهل من شيء آخر، صديقة؟

فرانسيس: التطلع إلى بيت خاص وعمل وطفل (أميل لقول طفل - عائلة - وطن) (يضحك)

◆ إن هذا لا يصدق، فليست هذه هي الفكرة التي تعطى عن..

فرانسيس: ماذا فعلوا، أولئك الذين ذهبوا للأقاليم؟ لقد توجهوا إلى عائلات الاستقبال. كانوا يأتون إلى المشفى وينهون فطامهم، بينما كنت أعمل مع عائلات الاستقبال. وأرافقهم إلى القطار ما إن ينهوا فطامهم، دون أن يكون لهم الوقت للمرور على بيوتهم. وغالباً ما يبقون بعدما تنتهي فترة الإقامة مع عائلة الاستقبال؛ لأنهم وجدوا بالفعل عائلة بديلة، فيبقون ويعثرون على عمل وصديقة ثم على شقة، ويحصلون على رخصة السياقة لأنهم يودون شراء سيارة. وهكذا يكونون قد كونوا عالماً بورجوازياً صغيراً مثالياً، بعدما عاشوا في الحضيض.

◆ وهل كانوا شباباً تركوا المدرسة؟

فرانسيس: أجل، عموماً. وأقواهم وصلوا إلى الصف التاسع.

◆ ما كانوا يقولون عن المدرسة؟

فرانسيس: لقد نبذتهم المدرسة، فهم من المطرودين. ولديهم بالتالي عقلية المبعدين. وبما أنه ليس لديهم من المؤهلات ما يستطيعون به الحصول

على عمل، كانوا يبحثون عن الإعانة، أي عمن يعينهم. وهذا شيء رفضته دائماً، ولهذا جعلتهم يكسبون بعض المال والغذاء، بأشياء محددة وغايات واضحة.

❖ لابد أنهم كانوا ينتظرون الشيء الكثير منك؟

فرانسيس: حسناً، لقد كانوا يطلبون أن أبني لهم العالم الذي وجدوه عندما ذهبوا لعائلات الاستقبال واستقروا.

❖ كل ما كنت تستطيعه في الواقع هو الاستماع إليهم، وحمايتهم..

فرانسيس: وقد أسست أعمالاً صغيرة. أنشأت رابطة حصلتُ لها على دعم مالي من المديرية. وأحدثت فيها بنىً للعمل: إذ اشترينا شاحنتين. وكان معنا حداد سيارات فاشترينا أدوات إذن.. وكان يصلح السيارات، وهو الآن ناجح في عمله. كما كنا نقوم بنقل الأثاث من المحطة، والبيع، وطلاء الشقق. والأمور تسير على ما يرام! ثم أنشأتُ بنفسي شركة لسيارات الإسعاف مع شخص خرج لتوه من عشر سنوات في السجن.. ومازال ذلك يكلفني غالياً الآن. لكن الأمر لا يهم (يضحك) فلقد استأجرنا محلاً في حالة سيئة، وكان هناك قبو بإمكاننا استعماله؛ فاستخدمتُ الشباب الذين كنت مهتماً بهم في هذا المحل، ودفعتُ أجورهم من دعم المحافظة المالي. فما كان منهم إلا أن سرقوا سيارة وصدموا محرس المشفى (يضحك). يا للفضيحة! إذ كان السائق دون رخصة وأعاره صديقه سيارة الإسعاف. وهكذا بدأت المحاقن تختفي من المشفى وكذا الأدوية أيضاً.

❖ لقد كانت تلك مجازفة منك نوعاً ما.. (يضحك)

فرانسيس: لقد تحملت المسؤولية. وعندما رأيت القاضي قلت له أن يرتب لي الأمور، لأنني لا أستطيع تغييرهم بين يوم وليلة. فلن يتحول الرجل إلى حمل وديع بمجرد إعطائي عملاً له، أليس كذلك؟ وانا إذن بحاجة إلى مرحلة انتقالية. لقد احتاج إلى المحاقن فسرقها، وهذا يعني أنه لم يتخلص من المخدرات. وأنه سينزل في المشفى نفسه الذي سرقه، وستعتني به، زيادة

على ذلك، زوجة المربي التي يعرفها جيداً، ثم يخرج شخصاً آخر. وهكذا كانت تجري الأمور غالباً.

◆ هل كان الشفاء يستغرق وقتاً طويلاً؟

فرانسيس: أنا أضع له ثلاثة أعوام، بيد أن ذلك ليس مؤكداً بل إنه احتمال. فلا يمكن رؤية النتيجة إلا بعد الفطام وأسرة الاستقبال واللحظة التي يتم فيها الاندماج المهني. فلابد إذن من متابعة لثلاثة أعوام. وهو ما فعلته خلال عشر سنين.

(..)

لم يعد الأمر محتملاً من قبل السلطة.

◆ لقد كان لديك العديد من الحلفاء في شتى القطاعات، فقد أنشأتَ شركة لسيارات الإسعاف..

فرانسيس: لقد أنشأتُ الشركة بنفسي، مع أنني دُعمت مالياً. إن شركة الإسعاف ليست للبلدية، بل لفرانسيس ت. مع أنها هي التي أتاحت لي الحصول على الدعم المالي، وهي التي سمحت لي بإنشاء الشركة من وقت عملي، لكنها لم تتورط قط (وحتى الآن فإن الجمعية الوسيطة الموجودة في المدينة، أنشأها الكاثوليك وليست البلدية). وما يدعو إلى الاستغراب هو ما تقدمه سلطات صغيرة إلى سلطة كبيرة من خدمات. لأن البلدية حولتْ هذه الخدمات إلى مصلحتها؛ حولتها سياسياً.. رئيس البلدية.. وكل بنى السلطة ترتكز على سلطات صغيرة، مع أن هذه السلطات تتبع تلك البنى في إثبات وجودها. إذ ما كنت أستطيع إنشاء شركة الإسعاف لو لم يدعوا لي الوقت لإنشائها.

◆ ربما كانوا يساعدونك في تهيئة الملف للحصول على..

فرانسيس: لا شيء من هذا البتة. بل كان لي صديق محامٍ. وواقع الحال أنهم لم يكونوا في البلدية يحتملون إلا بصعوبة، إنشائي لسلطة مضادة. لأنني كنت سلطة مضادة. إذ كانت الأمور تسير على ما يرام

مادامت البنية لا تزعج أحداً. غير أنه منذ اللحظة التي حدثت فيها القطيعة للتحالف مع لوبان، وشرعتُ بإصدار جريدة أو على الأصح ورقة مسحوبة أخذتُ أرسلها إلى كل مساعدي رئيس البلدية، أخذتْ السلطة المضادة بُعداً جعلها غير قابلة للتحمل من قبل السلطة، وحصلت القطيعة.

❖ إذن، هناك دولة ممثَّلة بالبلدية التي لم تساندك إلا قليلاً، ومن الجهة الأخرى مجموعة من الناس كنت على صلات بهم، في القطاع الطبي، ولدى المحامين، وفي القضاء.. وآخرون كأرباب العمل..

فرانسيس: وصلات مع الصيادلة لإقناعهم بأنني أعرف فلاناً جيداً..

❖ ولماذا، هل كانوا يعطون أدوية ومحاقن؟

فرانسيس: أجل، إذ كنت أدخل الصيدلية طالباً علبة ترانسكين لأنني بحاجة إليها لشاب في حالة عوَز. فيعطيني الصيدلي إياها ثم أجلب الوصفة فيما بعد.

❖ هل ربحت الوقت في كل مرة؟

فرانسيس: أجل (صمت) لقد كانت بنية البلدية تعارضني، ولكن بما أنها غير قادرة على وضع نفسها مكاني وفعل ما أفعله، فقد كنت الأقوى. إذ كنت أعمل مع محامٍ وطبيبين، أحدهما معتمَد من قبل القضاء، وأعرف قاضي المدينة جيداً. كما كنت أعمل مع مجموع العاملين الاجتماعيين في المدينة، على الرغم من اختلافنا أحياناً. وكل هذا أدى إلى وجود بنية عملياتية تتيح.. ثم إن رئيس البلدية كان يدعنا نعمل (صمت) إن العوائق أتت في واقع الأمر من السلطات الموجودة تحت إمرته.

❖ الرؤساء الصغار؟

فرانسيس: أجل، هم الرؤساء الصغار. لكنني عند تراكم المشكلات، كنت أطلب موعداً من رئيس البلدية أو أكتب له حتى يزيلها.

أُخرجُ البطاقة المهنية

❖ أساعات عملك ثقيلة جداً؟

فرانسيس: حسناً، لو كنت في مكان ما وحدثت عملية شرطة، أُخرج بطاقتي المهنية. لكنهم إن أوقفوا شخصاً، فعلي مهاتفة وكيل النيابة والتدخل في مفوضية الشرطة، للدخول معهم في مساومات. وقد يكون شخص في حالة سيئة، فعلي البقاء معه، لأنني لا أستطيع تركه..

◆ وهل تأخذه للطبيب؟

فرانسيس: وإما أنه يهذي، وهو بحاجة للكلام؛ أي أن يهذي مع شخص آخر يستمع له. لأن أصدقاءه لا يستمعون إليه. وهذا يشكل جزءاً من عملية اعترافهم بي. فهم يعلمون جيداً بأن حياتي تختلف عن حياتهم، وحتى يعترفوا بي كشخص قادر على مساعدتهم، يتعين عليهم أن يتعرفوا على باعتباري من خارج المؤسسة التي أمثلها، وتخلق بذلك عواطف وعلاقات بيننا خارج العملية الرسمية؛ وهكذا يغدو عملي ذا جدوى.

تشرين الأول 1992

باتريك شامبانيه

رؤية الدولة

أدى النقاش الواسع في وسائل الإعلام حول «ضروب القلق الاجتماعي» إلى تكاثر منشورات وتقارير شتى، تستهدف وصف وتفسير و«علاج» هذا «القلق» الذي انتقل هكذا إلى الساحة العلنية. إلا أن وسائل الإعلام الشائعة ليست أبداً، كما يدعي البعض، مجرد شهود تكتفي بعرض الوقائع أو بطرح المشكلات على الأقل. لأنها بمجرد أن تتكلم علانية عن القلق، تغير وضعية ضروب القلق تلك: فما كان «مشكلة خاصة» أو «محلية» صار «مشكلة مجتمع» يتعين حلها سياسياً. وما كان راجعاً إلى المسؤولية الشخصية تحول إلى المسؤولية الجماعية. وما كان، باختصار «قلقاً فردياً» معيشاً كشأن حميمي أو خاص، يجنح للتحول إلى موضوع لحلقات بحث، وملتقيات للتفكير، وصفحات «جدال» في الصحف الوطنية اليومية؛ يتواجه فيها معلقون سياسيون ومثقفون مشهورون إعلامياً. وبهذا تفتح وسائل الإعلام سوقاً حقيقية رابحة من الوجهة الاقتصادية، تتقاطر عليها الشهادات والتحقيقات التلقائية أو المصطنعة. وتفرض وسائل الإعلام من جهة أخرى رؤيتها الخاصة للمشكلات الاجتماعية. تلك الرؤية التي ترتكز أساساً على تصوير الوقائع الأكثر إثارة والأكثر سطحية أيضاً في الغالب. فعبر الكلمات التي تفرضها («أحياء الغيتو»، «جريمة عنصرية» إلخ)، والأشخاص الذين تختارهم للكلام أو التحاور، تسهم في إيجاد خطاب حقيقي عام حول

«ضروب القلق» التي تتحدث عنها. وفي الوقت الذي تشخص فيه القلق («شقاء الضواحي» مثلاً أو «قلق الأساتذة») يقال لنا ما يجب أن يكون رأينا فيه. ولا تفرض هذه التفسيرات نفسها على غير المعنيين فحسب، بل أيضاً على المعنيين الرئيسيين الذين يجدون فيها خطاباً شرعياً حول قلق، قد يشعرون به بصورة مبهمة نوعاً ما، ولكنه عصي على التعبير لأنه غير شرعي.

ويشكل هذا الخطاب العلني ستاراً يحجب الوقائع، لاسيما وأنه يتمتع ببداهة تتناسب مع قربه من الأفكار المتداولة. ولأنه، علاوة على ذلك، يميل إلى وضع السلطة السياسية موضع الاتهام؛ فهو يشجع تزايد إنتاج يعتمد على إشكاليات ذات نمط سياسي، من استبيانات الرأي حتى الأدبيات البيروقراطية المتكونة من التقارير التي تطلبها السلطات السياسية التي تشعر بأنها مطالبة من الصحافة (ومن الذين يعبرون بوساطتها) بالحل السريع لهذه المشكلات التي تتصدر «الصفحات الأولى» للأخبار.

وحالة الضواحي التي تعاني من الصعوبات، هي هنا أيضاً، أوضح مثال بهذا الصدد. فقد تمت منذ نهاية الستينيات تحقيقات عديدة في علم الاجتماع الحضري، وعلم اجتماع الهجرة، وقدمت عملياً منذ ذلك الوقت كل عناصر التحليل الضرورية لفهم الوضع الحالي لهذه الأحياء (مثل أعمال هنري كوانغ وكوليت بيتونيه حول السكن الشعبي، وأعمال عبد المالك صياد حول المهاجرين أو أعمال ميشيل بيالو حول علاقات شباب هذه الأحياء مع العمل بالنيابة، والأعمال الأحدث في العدد 81-82 من أعمال البحث في العلوم الاجتماعية المخصص لـ«الاقتصاد المنزلي»). مرت هذه الأعمال التي يعرفها المتخصصون دون كبير انتباه، لأنها كانت خارج الأحداث الراهنة. وعندما طفت مشكلة الضواحي على السطح في وسائل الإعلام ولأجلها خلال الثمانينيات، لاسيما مع مواجهات حي منجيت، ثم في بداية التسعينيات على الخصوص مع حوادث فولكسان فيلان، شهدنا انفجاراً حقيقياً للنشريات والأعداد الخاصة للمجلات حول تلك الموضوعات؛ لجملة من الأسباب: أحدها الصعود الانتخابي لليمين المتطرف في هذه الأحياء خاصة الذي جعل من مشكلة الضواحي تلك مشكلة سياسية، اهتم بها الصحفيون والجمهور

الواسع أيضاً. وهكذا أسهمت الإصدارات التي ظهرت آنذاك، من الشهادات البسيطة إلى التحقيقات الاجتماعية في النضال السياسي الرمزي أكثر منه الفكري الذي استهدف فرض رؤية وتفسير «على الحامي». ولا يستطيع علم الاجتماع تجاهل هذه الإصدارات. ليس لأنها تحتل الميدان نوعاً ما وتشكل عقبة، من حيث طبيعتها ذاتها، أمام تحليل أكثر عمقاً وحسب؛ بل لأن تعبئة كهذه لابد أن تنتج معلومات هامة وتحليلات سديدة. فمن قراءة هذه المنشورات حول «الضواحي» و«الشباب» و«الهجرة» و«الشباب المهاجر في الضواحي» -التي يشق علينا اليوم عمل قائمة شاملة بها- يقتنع المرء بأن كل شيء قد قيل، بمعنى ما، ولا ينبغي أن ننتظر من عالم الاجتماع الكشف عن واقعة خفية أو غير منتظرة، أو عن سلسلة أفاعيل اجتماعية لم تخطر على بال أحد من قبل. بيد أن وفرة المعلومات والتحليلات المتنافرة تولد البلبلة وتطلق العنان للتفسيرات المجتزأة أو الوهمية؛ فبمقدور أي شخص منذ الآن أن يعثر بسهولة على التفسيرات التي يرغب في سماعها: وهكذا يمكن العثور على سبب «شقاء الضواحي» في تخطيط سيء للسياسة العمرانية أو في الأزمة الاقتصادية أو في تراخي قوى الأمن (أو العكس) أو في عدم التحكم بالهجرة أو في التفكك العائلي أو في المخدرات أو في كل ذلك مجتمعاً. ومهمة عالم الاجتماع حول هذه الموضوعات تحديداً -وهي ليست المهمة الأسهل- أن يميز فيما بين الوجيه والأقل وجاهة، وما بين المهم والثانوي أو الفرعي. ويتعين عليه على وجه الخصوص ترتيب وإدماج مجموعة عوامل ليست لها القيمة الوظيفية نفسها ضمن منظومة تفسيرية متماسكة.

ونود هنا، لإلقاء الضوء على هذه الأدبيات، تقديم مثالين متعارضين تماماً عن تلك المنشورات الظرفية: هما استبيان رأي بسيط ذو نوايا سياسية، من جانب، ومن الجانب آخر تقرير الخبير الذي يحاول أن يجمع للسلطات السياسية، المعلومات المتاحة ويلخصها.

تبدو تحقيقات سبر الآراء لدى الجمهور الواسع والصحفيين -وحتى بعض الخبراء- على أنها «علمية» لأنها تكتسي جميع المظاهر الخارجية للبحث العلمي: من عينة تمثيلية للمحقَّق معهم (كأنما الأمر الجوهري هنا)

واستمارة أسئلة، وأجوبة تقدم على شكل نسب مئوية أو رسوم بيانية، إلخ. ولها بالإضافة إلى ذلك ميزة إخفاء عالم الاجتماع من حيث هو كذلك، بأسئلته النوعية المقصود منها تحليل آليات اجتماعية عبر تحقيقات تتم بطريقة تجريبية. كما أنها تحظى بتقدير الصحفيين بصفة خاصة، لأنها لا تقتضي تلك التعليقات المعقدة والمستحيلة التي يصعب إيجازها في بضعة أسطر، ولأنها تقدم بسرعة معلومات يعتبرونها صحيحة. فالأسئلة الوحيدة التي تطرح هي التي تتطلب السياسة طرحها. ولهذا تبدو هذه الأسئلة الناجمة عن الإشكالية السياسية الغالبة ومن أجلها، بديهية لأولئك الذين يوعزون بطرحها على الأقل. فتَحْتَ أية حجة يمتنعون مثلاً عن سؤال «الشعب» عن المسؤولية في جنوح الأحداث، أتقع على الأسرة أم على المجتمع؟ أفلا يحصلون عبر هذا السؤال الذي «يطرحه الجميع» بعد أن تصدرت «مشكلة الضواحي» وسائل الإعلام، على معطيات إحصائية بينة وغير قابلة للنقاش، وأرقام «تتكلم عن نفسها» تدلل على أننا بإزاء «مشكلة مجتمع (بطالة، عنف في وسائل الإعلام، إلخ) جديدة».

لكن الأسئلة التي يطرحها القائمون بسبر الآراء، أضحت بديهية كذلك للجمهور العريض، لأن معاهد سبر الآراء تطرحها وتكرر طرحها منذ سنوات، بالعبارات نفسها (للمقارنة بدقة بين التغيرات، كما يقولون) بحيث لا يندهش أحد من طرحها، لأنه سمعها عشرات المرات؛ في الوقت الذي لا تكتسي فيه أي معنى أو وظيفة إلا داخل الدائرة الضيقة للمهتمين بالسياسة. وقد أنتجت عادة سبر الآراء أنموذجاً جديداً من الرأي -هو الرأي من أجل سبر الرأي- الذي يبعد أكثر الأحيان أشد البعد عن الواقع الذي يفترض قياسه، ويحجب الأسئلة الحقيقية التي ينبغي طرحها. فواقع الحال هو إن هذه التحقيقات المكلفة والمتواصلة التي تجري دائماً بصفة استعجالية وتغذي الوهم بوجود معرفة علمية سريعة، لا تنبىء إلا عن صنوف ذهنيات الذين يوعزون بإجرائها ويصممونها ويستعملونها، إذ تبدو الأسئلة، بعبارة أخرى، أكثر أهمية من الأجوبة المعطاة، لأنها تكشف بصورة مباشرة عن انشغالات الحكام والمسؤولين السياسيين.

ولنأخذ كمثال استبياناً جرى في آذار 1991 (أي بعد بضعة أشهر من حوادث فولكسان فيلان، وإحداث وزارة للمدينة) لحساب جريدة لوباريسيان وإذاعة فرانس أنتير. والأسئلة الثمانية التي طُرحت تستحق الذكر كاملة (مع تعليق موجز) باعتبارها عينة للصيغ المختلفة التي تتخذها هذه الأسئلة عموماً. كما تشكل أنموذجاً للتساؤل السياسي.

1) هل تشعر بأن أشكال عدم المساواة بين الناس في فرنسا منذ عشر سنوات.. تميل بالأحرى إلى الازدياد؟ بقيتْ ثابتة؟ تميل إلى التناقص؟ لا تبدي رأياً (هل هذا السؤال الذي هو موضوع إنشائي كلاسيكي في مسابقات الدخول للمدرسة العليا للإدارة ENA (لاسيما بعد عشر سنوات من الاشتراكية) سؤال عن رأي أم عن واقع؟ فماذا يراد عمله بـ«مشاعر الناس» في هذا السؤال الذي يحرك الأوساط السياسية خاصة؟ وماذا سيعمل بالأجوبة الجريئة للشباب الذي سئلوا ويجدون صعوبة في إعطاء رأيهم عن التطور منذ عشر سنوات؟ الواقع هو أن علينا انتظار الأسئلة التالية لمعرفة النوايا الحقيقية الكامنة وراء هذا السؤال).

2) هل ترى أن أشكال عدم المساواة في فرنسا الآن.. لا تطاق؟ قوية؟ ليست قوية؟ ليست قوية البتة؟ لا تبدي رأياً.

(ما هو المحتوى الذي ستعطيه مختلف الفئات التي سئلت لصفات «لا تطاق»، «قوية»، إلخ لكن هذا الأمر قليل الأهمية. لأن المقصود فقط هو جر الناس إلى أرضية سياسية محضة، لتهيئة الأشخاص المسؤولين للسؤالين التاليين).

3) ما هي الميادين التي ينبغي التحرك فيها أولاً: السكن؟ الدخول والمرتبات؟ الصحة؟ التربية والتكوين؟ لا تبدي رأياً.

(إن مشكلة الأولويات هي أنموذج للأسئلة التي يطرحها السياسيون على أنفسهم «الحكم يعني الاختيار» كما كان يقول منديس فرانس. ولكنه كان يقصد الاختيار عن علم، ومن وجهة نظر الصالح العام، حتى لو تبين أن إجراءاً معيناً لا يحظى بالتأييد الشعبي من خلال سبر الآراء.

أما الآن فترتب قائمة الأولويات بناءً على استشارة المواطنين مباشرة، الذين يفترض أن تعبر أجوبتهم عما يرون له الأولوية في الميادين التي تعنيهم مباشرة وبصفة شخصية).

4) هل لك شخصياً، ثقة تامة؟ ثقة بالأحرى؟ لا ثقة بالأحرى؟ لا ثقة البتة؟ بأن حكومة ميشيل روكار ستنقص من عدم المساواة بين الفرنسيين؟

(هذا هو السؤال الذي كان يراد طرحه بالفعل منذ البداية، والذي يأتي خلاصة للأسئلة الثلاثة السابقة. فالمقصود هنا هو «مسألة ثقة» لا تطرح على الجمعية الوطنية، حيث الأكثرية البرلمانية غير مؤكدة. بل مباشرة على الشعب، على «الناس» الذين لديهم كما يبدو «رأي جيد» بروكار منذ عشر سنوات).

5) مع تطور مجتمعنا، هل الحياة في المدن الكبرى برأيك.. صعبة جداً؟ صعبة بالأحرى؟ طيبة بالأحرى؟ طيبة جداً؟

(ليس المقصود من هذا السؤال المبهم والعام جمع معلومات دقيقة، بل تهيئة الأسئلة التالية حول الضواحي التي تذكر بأحداث إعلامية محددة سياسية تعالت أصداؤها في وسائل الإعلام).

6) وضمن الضواحي..؟

(نقترب من السؤال الذي كان يحرق شفاه طالبي الاستبيان منذ البداية).

7) ما هي الفئة من بين الفئات التالية التي يستحق وضعها الاهتمام أولاً من قبل الوزير الجديد للمدينة، المسؤول عن مشكلات المدن الكبرى والضواحي، المسنون؟ التجار؟ الشباب؟ المهاجرون؟ النساء الوحيدات؟ لا تبدي رأياً.

(أفلت السؤال أخيراً. فهم يذكرون بمنطوق السؤال أن هناك منذ الآن وزيراً للمدينة وهو مسؤول ويريد إعطاء الأولوية لعدد من فئات السكان. هذه الفئات مستعارة من اللغة الشائعة (أين تصنف امرأة شابة وحيدة مثلاً، من أصل مهاجر، ولديها تجارة صغيرة؟) ومهيئة جيداً لاستبعاد المشكلات

الحقيقية. والوظيفة الوحيدة، في واقع الحال، لهذا السؤال هي معرفة نسبة الناس الذين يقبلون مساعدة المهاجرين كأولوية، باعتبارهم كما يقول الجميع أول المعنيين بمشكلات الضواحي، ويتم مزجهم هنا مع فئات أقل توريطاً من الوجهة السياسية).

8) تعلم أن البلديات تتلقى جزءاً من مواردها من المنشآت المقامة على أرضها وهي الرسوم المهنية. والحكومة تهيىء مشروع قانون يتم بموجبه توزيع جزء من الرسوم المهنية التي تجبيها البلديات الأكثر حظوة على البلديات الفقيرة. هل توافق أو تعارض هذا المشروع؟

(يبدأ هذا السؤال بـ«تعلم» والحال أن أكثرية الذين يُسألون لا يعرفون. ويستمر على شكل تذكير موجز بوساطة جمل بسيطة ومألوفة، يقوم مقام درس حقيقي في قانون الجباية (يعلم جميع المتخصصين بما دار حول الرسم المحلي من بحوث، لتعقد المشكلة) لينتهي بتقديم مشروع قانون حكومي بعبارات يتعذر معها معارضته: فقد صرح 80٪ من الذين سئلوا بأنهم موافقون على مشروع القانون الذي يقترح أخذ بعض المال من البلديات الأغنى لإعطائه للبلديات الأفقر).

ويبين التقرير الذي عمل عن الاستبيان، الوظائف الذي يؤديها هذا الاستبيان. فهو يتكون من وثيقة تحتوي على سلسلة من الجداول، دون أي تعليق. وفي أعلى كل صفحة ذكر نص السؤال والأجوبة من تحته.

صفحة أولى تعطي المجموع الكلي للتوزيعات، وتتقاطع الأجوبة في الصفحات التالية وفقاً لمتغيرات «اجتماعية» معتادة، وهكذا دواليك بالنسبة لكل سؤال. وقد تم عرض النتائج في الواقع تبعاً لانشغالات سياسية محضة؛ إذ تقدم الصفحة الأولى التوزيعات بمنطق الاقتراع أو الاستفتاء («ما تراه أكثرية الفرنسيين») بينما تذكر الصفحات التالية الأجوبة المتقاطعة واحداً واحداً، ومتغيراً بمتغير، وفقاً لمجموعات مبنية خصيصاً للمسؤولين السياسيين. وهي فئات فائدتها للعمل أكثر منها للتحليل (الجنس، العمر، المهنة، الاتجاه الحزبي، السكنى). فهذه الجداول المتقاطعة

لا تستهدف، بعبارة أخرى، التفسير بقدر ما تستهدف التعرف على الفئات التي تساند أو تعارض رأياً صنعه السياسيون، ثم تأتي أجوبة هذه الفئات لتغذي نزاعاتهم الداخلية. كما تسمح هذه الجداول بالتعرف على الفئة التي يتعين إقناعها، وتوجيه الحملات السياسية نحوها في المستقبل (الشباب أو المسنين، الرجال أو النساء، سكان المدن أو سكان الأرياف). أما المعلومة الأكثر أهمية في الاستبيان فهي تاريخه بدقة الذي يوجب قانون 1977 ذكره؛ لأنه يذكر بأن القيمة الوحيدة لهذا النمط من التحقيقات ليست في فهم مشكلة الضواحي، بقدر ما هي معرفة «مستوى الرأي العام» إزاء الحكومة يوم إجراء التحقيق (وهو ما يعبر عنه السابرون كنايةً بالصورة، إذ ليس المقصود هنا سوى «لقطة آنية للرأي العام»). كما يذكر هذا التاريخ بأن الاستبيان المعنوَن بـ«الانشغالات الاجتماعية للفرنسيين» يشير في الواقع إلى «الانشغالات السياسية لميشيل روكار» الذي كان في هذا التاريخ وزيراً أولاً.

وفي الجهة المقابلة من هذه المنشورات التي أثارتها وسائل الإعلام بصورة غير مباشرة، يمكن أخذ مثال التقرير المقدم لوزارة الدولة ووزير المدينة والتهيئة العمرانية المعنوَن بـ«المنفى». واضع التقرير هو جان - ماري دولارو، العضو في مجلس الدولة. وقد كلفه الوزير الجديد للمدينة بإيضاح الوضع في الضواحي التي تعاني من الصعوبات في أعقاب حوادث فولكسان فيلان. ويستمد التقرير الذي سلم بعد عدة أشهر قيمته من السجايا التي يتصف بها واضعه؛ فعلاوة على اهتمامه السابق بالمشكلات الاجتماعية، وهو أمر مألوف لدى شريحة «يسارية» أو «مثقفة» في الوظائف الإدارية العليا، فإنه يمتلك تأهيلاً سوسيولوجياً سمح له بتناول هذه المسألة بالحد الأدنى من الكفاءة، منددأً على وجه الخصوص بالطريقة المنحازة التي قدمت بها وسائل الإعلام هذه المشكلات. إذ نجد في هذه الوثيقة التي ترتكز على قراءة أعمال سوسيولوجية مختلفة، وعلى استماع فعلي لكل العاملين في هذه الأحياء، شروحاً هامة. وباختصار، فإن هذا النمط من التقارير قد تم إنجازه في ظروف سمحت دون شك بحشد معرفة للعالَم الاجتماعي تفوق بكثير تلك التي تحتويها العديد من التقارير البيروقراطية، وتفوق من باب

أولى تلك التي يمتلكها الأكثرية من كبار الموظفين حول هؤلاء السكان المظلومين الذين يفترض فيهم الاهتمام بهم.

ولكن لهذا التحليل حدوده المتأتية من ظروف إنتاجه الاجتماعية. فالجزء المخصص للتثبت من الوقائع، أي لفهم وضع هذه الضواحي المعسرة قصير نسبياً (عشرون صفحة مما يقرب من 200 صفحة)، باعتبار أن المهمة الموكولة لهؤلاء الموظفين الكبار -ولا ينبغي نسيان هذا- ذات طبيعة سياسية. لكن التحليل نفسه يميل إلى اتباع منطق سياسي أكثر منه فكري. إذ يجب على هؤلاء الموظفين الكبار الاستماع إلى الجميع بصفة ديمقراطية «دون تحزب» وفقاً لمنطق جمع آراء الخبراء الذي لا يتوافق -دائماً تقريباً- إلا قليلاً مع بناء عقلي صارم. وينتمي المؤلفون المذكورون، الذين اقتطفت من أعمالهم مقاطع تحليلية في غير سياقها عموماً، إلى عوالم نظرية شديدة التنافر، إن لم نقل بصراحة إنها متناقضة (تكفي إلقاء نظرة على قائمة المؤلفين المذكورين في هذا التقرير التي تشكل خليطاً غير منسجم بالنسبة لعالم اجتماع). وينحو المنطق السائد في تهيئة هذا التقرير منحى الوصف أكثر من التفسير، وإلى تنظيم فهرس بالعوامل المسببة، وليس إلى بناء منظومة تفسيرية.

فالواقع الاجتماعي مقسم وفق أصناف إدارية (ج. م. دولارو يميز بين ثلاثة عناصر «الحضري» و«الاجتماعي» و«الشباب») ليست سديدة بالضرورة من وجهة نظر اجتماعية، لكنها إطار ملائم ومفهوم من قبل السياسيين لاقتراح الحلول. لأن ما ينتظر أساساً من مثل هذه التقارير هي الأفكار والحلول؛ أفكار لحلول يفضل أن تكون محسوسة وذات أثر فوري، أي قابلة للتسويق إعلامياً. ويظهر عدم كفاية التحليلات بصورة خاصة في نمط الحلول المقترحة التي تبقى على سطوح الأشياء؛ فهي إما حلول بسيطة تعتمد «العقل السليم» (كضرورة التنسيق مثلاً بين أعمال مختلف الإدارات الجارية في الضواحي، والتي كانت مشتتة إلى الآن) وهو كثير من قبل موظف كبير، إذا أخذنا المنطق البيروقراطي الحالي بالحسبان، لكنه لا يرجع في أكثره إلى تحليل للوضع؛ وإما حلول تريد أن تكون أكثر تجديداً، لكنها بالإضافة إلى كونها لا تستند أيضاً على تحليل مسبق، فهي لا تخرج إلا بصعوبة من أوهام الإرادية السياسية، مثل

كل ما وضع في تقرير دولارو تحت مفهوم «المواطنة» التي يفترض فيها أن تحل مشكلات ليس أصلها سياسياً محضاً.

ليس بوسع هذه التقارير أن تفترق حقاً عن الإشكالية المسبقة البناء من قبل وسائل الإعلام، لأن وظيفتها الرئيسية هي الرد عليها. إذ لا يرى المقرر إلا ما ينبغي تحليله في الواقع وهو الفئات الاجتماعية المتواجدة في المكان؛ ومن ينبغي استجوابهم حول طريقتهم في إعادة الإنتاج الاجتماعي ومسار الأفراد الذين يكونونها، وما ينبغي قياسه وهو تأثيرات السياسات العامة المتصلة بالسوق العقارية ومنظومة التكوين (المدرسة) وسوق العمل على هذه الفئات، بيد أنه ليس علينا سوى الإنصات حقاً لكل أولئك الذي يعملون في هذه «الضواحي» من عاملين اجتماعيين، ومسؤولين عن وكالة التشغيل، ومديرين لوكالات التشغيل بالإنابة، لنكتشف أن الحلول ليست موجودة في «الضواحي» ذاتها. وذلك لأن أسباب المشكلات ليست في الأحياء ببساطة، بل في مكان آخر، أي في قلب الدولة نفسه غالباً.

«تكاليف» الهجرة و«الأرباح» منها

عبد المالك صياد

ليس من سبب، «في التصوّر المجرد»، لوجود الهجرة والمهاجر إلا إذا كانا «ينفعان» أكثر مما «يكلفان». فكيف تتم زيادة «الأرباح» للحد الأقصى (اقتصادياً خاصة) وتخفيض «التكاليف» (الاجتماعية والثقافية خاصة) للحد الأدنى؟ ليست هذه المسألة اقتصادية محضة، يبحثها الاقتصاديون صراحة. ولكنها مسألة موجودة ضمناً في كل الأحاديث عن الهجرة، وتفرض هذه الإشكالية نفسها بدرجة تبدو فيها أمراً بديهياً. وبما أن الممارسة الحسابية التي تعبر عنها تنطبق على أناس يتمتعون بوضع قانوني، فهي لا تماثل أية ممارسة تتناول أية فئة أخرى. فإذا تعلق الأمر مثلاً بالطفولة والشباب أو بالمسنين، يكون السؤال كيف نحصل على الوسائل اللازمة التي

يتطلبها وضعهم. أما في حالة المهاجرين، فيتعلق الأمر بحساب الأرباح والتكاليف التي تنتج من اللجوء للهجرة؛ أي وجود أو «اختفاء» المهاجرين. وهكذا تطرح عبر سؤال تقني في الظاهر مشكلة شرعية الهجرة برمتها. ولا نسمع أي كلام تقريباً عن المهاجرين ولاسيما عندما يتناول هذا الكلام عمداً وبصورة صريحة وظيفة الهجرة، كما هو الحال مع «النظرية الاقتصادية للتكاليف والأرباح المقارنة للهجرة التي تقوم على إعطاء الشرعية للهجرة تارة، وعلى التنديد بلا شرعية الهجرة تارة أخرى»

ولأن «النظرية الاقتصادية للتكاليف والأرباح المقارنة للهجرة» لم تثر إلى الآن إلا خلافات تتصل بتقدير العناصر التي ينبغي أن تدخل في الحساب. فقد حجبت سلسلة أخرى من الأسئلة كمسألة معرفة من تقع عليه «تكلفة» الهجرة وعلى من يعود «ربح» الهجرة.

فإذا كانت هناك «تكاليف» ينبغي تحميلها للهجرة، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو التكلفة المالية التي يتحملها كل بلد يلجأ للهجرة، بسبب التحويلات المالية التي يقوم بها جزئياً المهاجرون أنفسهم مما يوفرونه ، وفي جزء آخر المؤسسات الاجتماعية (تعويضات عائلية، منح الضمان الاجتماعي، التقاعد، معاشات مختلفة). لكن هذه التكلفة التي تعتبر واضحة وغير مشكوك فيها تتضمن «أرباحاً» من نوع آخر: «فيمكن التساؤل عن تأثير التحويلات إلى الخارج؛ إذ يظهر أن نقص مليون فرنك من التحويلات للخارج لا يعني إلا تحسناً في التوازن الخارجي قدره 38.000 فرنك تقريباً. لأن انخفاض التحويلات للخارج يزيد من استهلاك الأسر، ويتم إشباع جزء كبير من هذه الزيادة عن طريق زيادة الاستيراد أو إنقاص التصدير. كما يؤدي انخفاض تحويلات التوفير للبلاد الأجنبية إلى الحد من اكتسابها للعملة الصعبة، وبالتالي الحد من استيراداتها، بما فيها تلك التي تتم من فرنسا».

وفي المقابل، إذا كان لبلد الهجرة «ربح» فوري وصاف من كل تكلفة، فهو يتمثل في «استيراد» رجال بالغين ومازالوا شباباً، وإذن «نافعون»

ومنتجون منذ لحظة وصولهم. إن هذا الربح الناتج من الوفر المحقق لما يسميه ألفريد سوفي «تكلفة التربية» قد هُوِّن من شأنه كثيراً في تقرير فيرناند إيكار، إن لم نقل إنه تحول إلى «تكلفة» لأن «نوعية» هؤلاء الرجال الذين نشؤوا في بلاد فقيرة ومتخلفة و«بتكلفة» أقل من «التكلفة الفرنسية المتوسطة» تجعلهم «أغلى» (أو على الأقل «أغلى مما يُظَن» بسبب «تكلفة» تلاؤمهم مع المجتمع الذي يستخدمهم).

يمكننا الاستمرار طويلاً في تعداد «التناقضات» من هذا النوع، حيث يمكن لأي معيار أن يصنف «تكلفة» أو «ربحاً»، أو يتضمن على الأقل نصيباً من «التكلفة» وآخر من «الربح». وسنبتعد بهذا عن النواحي التي يتناولها الاقتصاد تقليدياً وبصورة أولية. وبعبارة أخرى، كلما اقتربنا من العوامل التي تهملها التقنية الاقتصادية، لأنها عصية على «القياس» يزداد الإبهام، ويكثر بالتالي التلاعب بالمعاني وقلبها. وتظهر الوقائع التي تحلل وتفسر على أنها معطيات اقتصادية محضة، وقائع سياسية واجتماعية وثقافية قبل كل شيء ربما. فيُنظر مثلاً إلى معدل الولادات لدى العائلات المهاجرة عموماً، والعائلات ذات الأصل المغاربي خصوصاً من الوجهة الرسمية على أنه نعمة تارة لسكان أخذوا في التناقص والشيخوخة. وينظر إليه (رسمياً أيضاً) تارة أخرى على أنه شيء مؤسف لدى أناس مازالوا يسمون «بالمهاجرين» (مع أن الجيل الجديد المولود في فرنسا لم يهاجر إلى أي مكان) لأنه «مُكلِف» ويشكل عبئاً ثقيلاً على آليات معونة العائلات، باعتبار أن الحجج «الاقتصادية» أو صوغ الحجج الأخرى بتعبيرات اقتصادية يجعل الإقرار بها أكثر براءة وسهولة.

وما قيل عن معدل الخصوبة لدى المهاجرين، أي عن الهجرة العائلية، والانتقال من المهاجر القديم، العامل البسيط المنعزل بدون عائلة إلى الوالد، يصلح اليوم لوضعية العامل التي تميزه وتعرفه: فـ«الربح» المتمثل في قوة عمله -وفي مقابله المرتب الذي يدفع له والذي يستطيع تحويله- يُسعى إلى إعادة تعريفه كـ«تكلفة» مباشرة عندما يكون المهاجر عاطلاً عن العمل،

فاقداً بذلك مسوغ وجوده. و«تكلفة» غير مباشرة عندما يعمل المهاجر، وكأن الوظيفة التي يشغلها تشكل نوعاً من الخسارة، وضرراً محتملاً لليد العاملة الوطنية.

كان على هذا الضرب من «اقتصاد الهجرة» لكي يكون مقبولاً، أن يكون اقتصاداً شاملاً، أي يحتوي على كل «التكاليف» الأخرى، وكل «الأرباح» الأخرى التي تُركت أو أُهملت تماماً من قبل النظرية الاقتصادية الصارمة. وتتعقد الأمور أكثر إذا علمنا أن «النظرية الاقتصادية للتكاليف والأرباح المقارنة للهجرة» بسلوكها وفق المنطق نفسه، وبقائها خاضعة للتساؤلات والانتقادات نفسها، يمكن لها أن تنتقل إلى البلد الذي تأتي منه الهجرة، فتؤدي إلى نظرية مماثلة.



ريمي لونوار

خلل في النظام لدى أعوان النظام

إن ما يدعى بـ«القلق القضائي» أو «أزمة العدالة» أيضاً يشمل في واقع الأمر وقائع متباينة جداً. فهذان الاصطلاحان يشيران في الوقت نفسه إلى مشكلة اجتماعية («تزايد الجنوح») والصعوبات التي تلاقيها مصلحة عمومية («بؤس العدالة») والنزاعات التي يتعارض فيها القضاة مع الحكام («الفضائح»). بيد أنه لهذا المزج أساسه؛ فلا يمكن إنكار تزايد «الجنوح الصغير والمتوسط» (سرقات وترويج مخدرات)، ولا السير السيء للمؤسسات القضائية («بطء»، «أخطاء») أو تفاقم «الشعور بعدم الأمن». كما أن الصراعات بين القضاة ورجال السياسة معروفة على رؤوس الأشهاد، وفي وسائل الإعلام. لكن الكلام عن قلق قضائي يعني أيضاً نسيان أن القضاة ليسوا الوحيدين الذين يسهمون في حفظ النظام. صحيح أن الكلام يجري أيضاً عن «أزمة» لدى رجال الشرطة والدرك أو مراقبي السجون، وهي مهن تتعاون في ضمان النظام العام، لكن حالتهم لا تذكر إلا فيما يتعلق بمشكلة المرتبات وظروف العمل والتنظيم النقابي والتكوين، إلخ، أي ما يسمى «مشكلات مهنية» باختصار.

إن واقع الحال يدل على أن المصطلحات المستخدمة للإشارة إلى الصعوبات التي تعاني منها فئة اجتماعية ما، تتنوع بحسب هيبة ومكانة المهنة. وتقسيم عمل حفظ النظام الاجتماعي أكبر مثال بهذا الصدد، لأن

توزيع المهمات فيه محدد مؤسسياً كما يبينه تمهين مختلف الوظائف المشمولة بهذا النشاط (توقيف، سجن، حكم، إعادة دمج، إلخ) فصلاحيات كل فئة محددة ومثبتة وخاضعة لتسلسل وظيفي بالقانون. لكننا إن بقينا في مجال العقوبات، وجدنا القضاة يؤدون فيه دوراً مهيمناً؛ إذ لا يقتصرون على الإمساك وحدهم بكل ما هو من تخصص النشاط القضائي (الملاحقة القضائية، الحكم) بل يمارسون سلطتهم على الفئات الأخرى. فالنيابة العامة أو قضاة التحقيق يوجهون التحقيقات التي يقوم بها رجال الشرطة أو الدرك في الميدان؛ ولقاضي تنفيذ العقوبات كل الصلاحية لتحديد شروط تنفيذ الأحكام، إلخ. وبهذا تكون رفعة شأن القضاة قانونية واجتماعية معاً؛ فالقضاة على وجه الإجمال من أصل اجتماعي أرقى من أصل مفوضي الشرطة ومديري السجون، وأرقى أيضاً من ضباط الدرك الوطني. وهذه الرفعة الاجتماعية (يرى فيها البعض غطرسة) تقترن بارتقاء ثقافي يشهد عليه أدلة عديدة منها نجاحهم المدرسي.

ولهذا فليس من قبيل الصدفة، عندما يتعلق الأمر بالقضاة، الكلام عن «هبوطهم الاجتماعي» وهو ما يعبر في الوقت نفسه عن المنحدر الذي يتبعونه في المجال الاجتماعي («قضاة صغار» «مهنة صغيرة لأناس صغار») وعن «تضاؤل» سلطاتهم («فقدان الاستقلال»، «البؤس المادي»، «قاض لكل المهمات»).

أما إذا أريد التعريض برجال الشرطة والدرك فلا يشار إلى مكانتهم الاجتماعية، بقدر ما يشار إلى صورتهم؛ «المتعفنون» و«التجاوزات» للشرطة، و«البلادة» للدرك. ويتم التعريض بحراس السجون من خلال ظروف عملهم: إذ يُشبَّهون -ويتشبهون هم أنفسهم- بالمساجين الذين يراقبونهم، إذ يصفون أنفسهم بأنهم «قيد الاعتقال» عندما يكونون على رأس عملهم.

وإذا كانت أزمة العدالة متطابقة مع أزمة القضاة، فذلك لأن بوسعهم فرض تعريفهم لقلقهم على الجميع، مثلما يحدث في كل الفئات التي تهيمن

على أحد قطاعات النشاط الاجتماعي. فبمقدورهم من خلال وضعهم المهيمن في النظام الاجتماعي تصيير مشكلاتهم المرتبطة في جزء منها بانتمائهم الطبقي -«استقلاليتهم» أو «سلطتهم»- مشكلات أكثر عمومية «أزمة القانون» ومشكلات مجتمع بأسره «تزايد الشعور بعدم الأمن»، إلخ.

إن استعمال مصطلحات عامة كهذه يقود إلى إغفال تنوع العاملين على حفظ النظام، وإغفال أن الأزمات أو الصعوبات التي يلاقونها تنتج من عوامل شتى، وحتى بالنسبة لسلك القضاة وحده، فمن الواضح أنها تشتمل على أوضاع متباينة، لا يذكر الإدراك العادي منها إلا الأكثر تطرفاً: أي القضاء «الأدنى» والقضاء «الأعلى». فهل يعني «هبوط القضاء» هذين الصنفين من القضاة؟ إن طريقة انتقاء القضاة عُدلت منذ الخمسينيات، وأفسح المجال لشرائح كانت تبدو بمنأى عنه، وخاصة أبناء الموظفين الصغار. بيد أن كل الدلائل تشير إلى أن المسار المهني للقضاة مازال متأثراً بالأصل الاجتماعي، بحيث إن ما يعتبر هبوطاً اجتماعياً، قد لا يكون إلا علامة على تنويع متزايد لسلك القضاة.

إن تنامي الفوارق الاجتماعية -النسبي جداً- بين صنوف القضاة، وبالتالي عدم تجانس السلك، يرجع في جزء كبير منه دون شك إلى تراجع طريقة الانتقاء التي كان الانتماء لعائلة من القضاة يلعب فيها دوراً كبيراً. إلا أن هذا التراجع قد مس، كما يبدو، القضاء «الأدنى» أكثر من القضاء «الأعلى». ولم يخفف توحيد التكوين، بفضل المدرسة الوطنية للقضاء التي حلت محل المسابقات المحلية منذ نهاية الخمسينيات، من آثار ارتفاع التنافر الاجتماعي للانتقاء، بل على العكس إذ أدى التعيين المكثف نسبياً للقضاة، اعتباراً من السبعينيات، بفضل زيادة عدد المناصب، وأيضاً بفضل إجراءات الانتقاء الموازية (مسابقات داخلية وتعيين بالشهادة) إلى تضخيم التمايز الاجتماعي للسلك. كما أن الزيادة السريعة لعدد القضاة (جدد 40٪ من السلك خلال 20 عاماً) أثرت في تخفيض آفاق الترقية، لاسيما بالنسبة للجيل الجديد، لدرجة تزايدت فيها المنافسة بقوة ضمن السلك. وإذا أضفنا

إلى كل هذه العوامل المقلقة التدهور الفعلي لظروف العمل نتيجة تحويل القضايا المتنازَع عليها، وجدنا أن كل مكونات «الأزمة» تجمعت. ولكن هل هي أزمة وحيدة؟ وهل أصابت مجموع القضاة بالأسلوب نفسه؟

لقد فرض المرور الإجباري على مدرسة مختصة، الاعتراف بمعايير مدرسية بمعنى الكلمة (وخاصة رتبة التخرج) تسمح بتقويم القضاة بعضهم لبعض. بحيث تكون شرعية التعيينات والترقيات أكثر قابلية للرقابة، وقابلة للاحتجاج عليها. وهذه الشرعية تثير الجدل بالفعل أكثر فأكثر، لأن الحدود بين القضاء «الأدنى» و«الأعلى» أكثر إبهاماً مما كانت عليه في القرن التاسع عشر، حيث كان يكفي لـ«قضاة الصلح» أن يتصفوا بـ«الحس السليم» و«الشعور بالإنصاف»، ولم يكن طموحهم يتعدى كونهم «أعياناً» في بلداتهم التي كانوا غالباً متحدّرين منها ولا يسعون لمغادرتها. أما اليوم فلم تعد الحال كما كانت عليه، إذ بفضل تطور المنظومة المدرسية، وطريقة الانتقاء بالمسابقة، اتسعت سوق الشهادات والفرص المهنية لتشمل التراب الوطني بأسره. فبينما يتحدر ما يقرب من ثلثي القضاة من أسر كوادر عليا أو مهن حرة، إلا أنهم ليس بوسعهم جميعاً اتباع مسار مهني يتناسب مع التطلعات المرتبطة تقليدياً بشهاداتهم.

وكل هذا يعني أن القضاة لا يعانون من قلق واحد بل من عدة ضروب من القلق، يختلف أساسها بحسب كون القاضي من القضاء «الأعلى» -الذي يشكل «سلكاً ضمن السلك»- يرجع بصفة رئيسية إلى علاقاته مع أعضاء الأسلاك القضائية الكبرى في الدولة. إذ يتمتع هؤلاء بميزة أضحت حاسمة بعد نمو نشاط الدولة فيما بعد الحرب، تتمثل بإسهامهم المباشر في السلطة السياسية- والتي لا يتمتع بها القضاء العالي بنفس الدرجة. وهذا ما منح الأسلاك الأخرى أفضلية فاصلة للرقابة على الدوائر التي تتآزر لحفظ النظام الاجتماعي والتي ازداد عددها أكثر فأكثر. وهكذا فإن تضاعف عدد «اللجان» التي يرأسها غالباً عضو من القضاء الإداري، والتي تمس مباشرة بصلاحيات القضاء، يدلل على الهبوط النسبي لمنزلة القضاء. كما أن وضع

القضاة في ميدان الطبقة المهيمنة قد هبط، بصورة عامة، بسبب صعود مهن أخرى ربما في القطاع الخاص أكثر من القطاع العام، وخاصة في كل ما يسهم في الاقتصاد والاتصالات. وهما عالمان غريبان عن عالم القضاة.

أما قلق «القضاء الأدنى» فناشىء أيضاً عن تدني سلطته بالقياس إلى الأعوان الآخرين الذين يمثلون السلطة العمومية (لاسيما المحافظ وإدارته). لكنه ينشأ عن عوامل داخلية خاصة، كتدهور ظروف العمل (تضاعف وتعقد الإجراءات، وقضايا ومنازعات أقل فأقل «نبلاً») أو تأثيرات الرؤساء على أعوان يرتبط وضعهم الاجتماعي أكثر فأكثر بممارستهم لنشاطهم المهني فقط.

إلا أن هناك بعداً آخر يتصل بإعادة تقسيم العمل بين المهن، والنزاعات المتواصلة التي تنشب بينها للحفاظ على صلاحياتها وتوسيعها، وهو ما لا يبعد كثيراً عن ضروب القلق التي قد تشعر بها. وعالم المهن القضائية مثال واضح على ذلك؛ إذ أصبحت أولوية القضاة في احتكار التعبير عن الحق موضع الشك: من قبل العاملين الآخرين في الوسط القضائي أولاً وخاصة الشرطة، وبدرجة أقل الدرك الذين يَشكّون في وظيفة إدارة التحقيق التي توكل للنيابة العامة وقضاة التحقيق، ومن المهن القانونية الأخرى (المحامون والمستشارون القانونيون أيضاً)، ومن الدوائر الإدارية المتعددة التي اعتُرف لها بسلطات شبه قضائية، فيما عدا المحاكم الإدارية ومجلس الدولة (الجمارك، والضرائب، إلخ).

ترجع هذه الظاهرة غالباً لتنامي نشاط الدولة وتعقد القضايا (ضرورة اللجوء للخبراء) وكثرة اللجوء إلى العدالة، وهو ما يتجاوز قدرة المحاكم على المعالجة. بيد أنه ما كان لهذه العوامل مثل هذه الآثار لو لم يصب الاضطراب قواعد تَفوُّق القضاة الاجتماعية. فإذا اقتصرنا على النشاط العقابي وحده، نجد جزءاً متزايداً من مفوضي الشرطة وضباط الدرك يحوزون على ممتلكات اجتماعية وثقافية ومدرسية تقرب من ممتلكات القضاة. وهذه الأجيال الجديدة من الشرطة القضائية أفضل من

القديمة تسلحاً للمطالبة بما يشكل واحدة من السلطات الأساسية للقضاة وهي إدارة التحقيقات. لكن القضاة في مواجهة هذا الهجوم الشرطي خاصة يقدمون اعتراضات مبدئية يختفي وراءها أساس امتيازاتهم الاجتماعية، باعتبار أن نشاطهم تقلص بالفعل في هذا المجال. إن هذه الصراعات الجارية في السلطة ومن أجلها قد تتحول إلى صراعات مكشوفة يتكشف فيها طابعها الطبقي، مادام الحفاظ على النظام العام أحد المكونات الدائمة للحفاظ على النظام الاجتماعي نفسه.

لكن هذه الصراعات متواصلة على جميع الصعد بين مختلف الأسلاك (بين الشرطة والدرك خاصة) وضمن كل سلك أيضاً (نذكر مثلاً فيلم «حرب الشرطة») وهو ما يؤدي إلى تدعيم موقف القضاة المهيمن. ونجد بالإضافة إلى ذلك انقسامات أخرى، فإذا أخذنا مثال مفوضي الشرطة، نرى أن اعترافهم بسيطرة القضاء يختلف وفقاً للطريقة التي وصل بها القاضي إلى منصبه (هل مارس وظيفة في الشرطة أم لا؟). إلا أن أسلوب تكوين مفوضي الشرطة هو موضوع صراع داخل السلك نفسه، بين «القدماء» الذين يدافعون عن التعلم في الميدان، و«الشباب» الذين يفاخرون بالكفاءات المدرسية. وليست هذه الخلافات هي أيضاً بمنأى عن الأسس الاجتماعية. فالانقسامات الطبقية لم تعد تتطابق مع التقسيمات الوظيفية لعمل المحافظة على النظام وحدها، بل تعتري من الآن وصاعداً شتى الأسلاك. بحيث أن الصراعات في هذا المجال كما في غيره بين الأسلاك وضمن كل سلك، وخاصة في الجيش، لم تعد راجعة إلى صراعات طبقية فقط بل أيضاً إلى نزاعات ضمن الطبقة ذاتها من أجل المناصب العليا، وبصورة أخص بين الفئات المختلفة التي تكون الطبقة المسيطرة.

ريمي لونوار

شرطة الفقراء

جان في الأربعين من عمره، متحدر من عائلة من الأقدام السوداء. وكان أبوه حلاقاً. عاش حتى سن الثانية عشرة في حي شعبي بمدينة كبرى في الجزائر. ويتكلم عن مغادرته للجزائر كـ«نزوح». لم ينقطع عند وصوله إلى فرنسا عن محيطه وأصدقائه وحسب، بل أرسل لأسباب عائلية (طلاق والديه) إلى مدرسة داخلية، ما انفك يحاول الفرار منها. وبعد حصوله على الشهادة الثانوية، أدى خدمته العسكرية التي نمّت فيه الخوف من الحبس. ومع أن لا شيء كان يهيئه للدخول إلى الشرطة «غير عارف بما سيعمله» إلا أنه تقدم لمسابقة مفتشي الشرطة الوطنية، بعدما رأى إعلاناً عنها في مفوضية للشرطة. وما أن دخل المدرسة حتى ولّت مرحلة الحيرة الاجتماعية تلك «كان يبدو لي كل شيء غريباً» لتحل محلها فترة تلاحقت فيها سلسلة من الالتزامات المهنية والنقابية والزوجية.

ولم يكن قصده، من وجهة النظر المهنية، مساراً مهنياً بقدر ما هو اتباع مسلك كأنما خط مقدماً في أواسط الوظيف العمومي، مادام موافقاً لما تنتظره منه المؤسسة. وهكذا كان «تحت التصرف» كما يقول «ومستعداً لأن يلعب اللعبة». وانتسب للنقابة مثل جميع مفتشي الشرطة تقريباً. فالعمل النقابي أكثر من النشاط الشرطي بمعنى الكلمة هو الذي قاده إلى

التفكير في «مهنة الشرطي» التي يشعر فيها بالضيق، وإلى الاستعداد للمسابقة الداخلية ليصير مفوض شرطة. وقد نجح في المسابقة، وهو الآن رئيس مصلحة في مديرية جهوية للشرطة الحضرية.

إنه يجمع بين تجربة شرطي القاعدة وتفكير المسؤول النقابي حول الطريقة المناسبة ليكون المرء شرطياً. وهو يفلت هكذا، جزئياً على الأقل من اللغة الرسمية المجوجة: فخطاب منظمته النقابية يزوده بوسيلة للتعبير، وبتصور لعمل الشرطة يتناسب مع ما أصبح هو عليه، لاسيما بفضل نقابة أقلية لدى المفوضين والمفتشين (لكنها أقلية أكثر بين الأفراد من الشرطة) تربطه بها إلفة قوية جداً.

فباعتباره من أصل شعبي، ومقطوع عن جذوره الأسرية والمحلية، فهو يدافع عن تصور يمكن القول إنه «اجتماعي» للعمل الشرطي («شرطة الفقير والفقراء») مباين للتصور المهيمن لدى المفوضين والمفتشين، والذي يضع التخصص والتقنية والنتائج في المقدمة («شرطة النخبة»). ووراء هذا التضاد هناك فئتان اجتماعيتان من الشرطة تتواجهان فعلاً: فالأولى تضطر للتخصص في «القذارات»، أما الثانية فتهتم «بأفراد من مستوى معين» أي «الجنوح المنظم».

وتحليل جان لـ«دوافع» رجال الشرطة يوضح جيداً المركز الملتبس الذي يشغله في هذه المهنة التي تَبنَّى جزئياً قيمها، وقبِل «أهدافها». إنه رئيس مُبعد في مصلحة لا تتمتع بالكثير من الهيبة. إذ تهتم بـ«الجنوح الصغير والمتوسط»، حيث تتطابق مرتبة الشرطة -«الشرطة العاملة» الوحيدة ذات القيمة في نظره، وليست «شرطة المكاتب»- مع مرتبة الجانحين والصفات الاجتماعية التي تميزهم.

إن تشبيهه للشرطي بطبيب الحي («إن عناصر المفوضية هم الأطباء العامّون للمجتمع») وآماله بصدد تكوين رجال الشرطة «في القاعدة» («بجعلهم يعملون خمس سنوات في مفوضية صعبة») وحنينه لوظيفة قاضي الصلح، كلها تعبيرات عن وجعه الأصلي، وجع الاغتراب الذي يسمح له انتماؤه لقيم تدافع عنها منظمة نقابية؛ ليست مهنية حصراً، بتحمله.

ريمي لونوار

امرأة وشرطية

أنييس في الرابعة والعشرين من عمرها. وهي ابنة وحيدة. تخرجت لتوها من المدرسة العليا لمفتشي الشرطة الوطنية، التي كانت قد دخلتها بعد حصولها على الشهادة الثانوية بدون درجة. أصلها من مدينة صغيرة في الجنوب الغربي. التقيت معها منذ ثلاثة أعوام، عندما شرعتُ في دراسة حول إصلاح التحقيق الجنائي.

إذا كان صعباً الحصول من رجال الشرطة على أقوال متحررة شيئاً ما من توجيهات الرؤساء أو تعليمات المنظمات النقابية، فليس مرد ذلك للانتماء إلى سلك، كما هي الحال مع الدرك أو القضاة، بقدر ما هو للحيطة شبه الراسخة إزاء كل ما هو أجنبي («عن المصلحة»). وهذا النوع من الريبة التي تحولت إلى فضيلة مهنية -«اليقظة»- يتعزز، بخلاف المهن الأخرى حيث التحفظ والتستر، إلخ من متطلبات الوظيفة أيضاً، بالهاجس الدائم لتصحيح صورة السلك المتدنية لدى الآخرين. إن وسواس «الصورة السيئة» للشرطة يتبدى بأشكال مختلفة على حسب الوظائف والرتب؛ إذ يبدأ من الأدب الجم ليصل إلى أناقة اللغة مروراً باللغة الرسمية الممجوجة لدى الرؤساء. ومن الحرج المريك إلى الثرثرة العنترية لدى المرؤوسين.

وعلاوة على ذلك، فإن محترفي الاستجواب وهم دوماً في موقع الدفاع، لديهم في الوقت ذاته مشروع السيطرة على التحقيق ووسائله، إذ

يحاولون الحصول على مأخذ حول تعريف المشكلات واستعمال كل الحيل المعادية والخفية والحجج، إلخ.

والمشكلة تطرح بصورة أقل حدة مع أولئك الذين لم يتطابقوا بعد كلياً مع الوظيفة ومع المؤسسة. وتلك هي حالة النساء خاصة؛ إذ مازال عددهن قليلاً، وتوكل لهن أعمال ينظر إليها على أنها «أنثوية» في هذا العالم الذكَري الذي يُنَصِّب «الرجولة» وكل ما يتصل بها كمزية مهنية. ومن هنا تأتي دون شك نبرتهن الحرة وصراحتهن، وحتى روح الدعابة التي تُلحظ لدى هؤلاء النساء اللائي مع تمثلهن لـ«القيم الشرطية» يتكلمن -ما إن يقبلن الكلام- دون كثير من الحرج بالطريقة المتفق عليها.

وإذا استطاعت أنييس أن تتكلم بهذه الصراحة والواقعية، فذلك لأنها تجد في هذا الحوار أيضاً فرصة للتعبير عن تمرد مشوش ولا يمكن كتمانه في آن. ويظهر هذا التشوش في غيظها الذي يتبدى في ثلاثة أوجه متلازمة تلازماً شديداً لديها: وجه المرأة الشابة التي هي على صدام مع أبويها، ومع نمط الحياة التي يمثلانها، ووجه المرأة النشيطة التي تستذكر روتين البيروقراطية المعتاد، ووجه الصراع الاجتماعي الذي يجعلها كمبتدئة تشتبك مع الفاعلين الآخرين ومع مرتفقي الخدمة العامة الذين تتبنى موقفهم.

وإذا كانت في هذا الحديث تتكلم عن ظروف عملها وعن تكوينها فقط تقريباً؛ فذلك لأن حياتها الشخصية تختفي وراء مشاغلها وانشغالاتها المهنية التي أتاحت لها «الخلاص» والانعتاق من كل ما كان «يكتم أنفاسها»: أي أبواها والثانوية ومدينتها الأصلية، ولا شيء له حظوة في عينيها سوى مناخ «بلدتها».

إن جسمها النحيل وشعرها الكستنائي القصير ونظرتها اليقظة وهيئتها المسترخية؛ بملابسها المكونة من حذاء تنس وسروال جينز وسترة جلدية تغطي كنزة بيضاء، كل ذلك يعبر للوهلة الأولى عن إرادة قوية لتكون حرة. وكل ما يمكن أن يوقظ فيها الشعور بالاضطهاد أمر لا يطاق -وهو تعبير تستعمله مراراً- سواء أكان ذلك «التسلسل الوظيفي» في مفوضية

الشـرطة الباريسـية التـي عينـت فيـها، أو المفشــين «غـير المبــالين» الذيـن «يحطمون» الشباب.

وتتناسـب نظرتها بـ«المسنين» كالمفوض المسـن «الـذي لا هـمّ لـه سـوى المال» والمفتشين المسنين «الكسالى» و«المرتاحي البال» مع نظرتها لوالديها: فالأب مراقب لـ«الغش» (فـي إدارة المنافسـة والأسـعار) والأم ممرضـة فـي المستشفى «لم يعودا يهتمان بعملهما، هذا إذا اهتمّا به يوماً». وعلى العكس من ذلك يجسد ابن عمها الذي دفعها إلى التقدم إلى المسابقة كل ما «تحبه في الحياة» وتعتقد أنها ستجده فـي مهنتها الجديـدة، أي «التحقيـق» (العمـل والمغـامرة) و«النتـائج» (فـي مقـابل العمـل المكتبـي) وذلـك الفـرع مـن الشـرطة القضـائية المهتم بـ«النصب والاحتيال» وليس بـ«القُصَّر» («فأنا أمقت ذلك») تلك الوظيفة التي تشتمل على أكبر عدد من النسـاء المفتشـات، وتقـترب أشـد الاقتراب مما تمنى والدهـا لها «لقـد ودَّ والـداي أن أصـير ممرضـة، أو أعمـل فـي حضانـة أطفـال، أو مسـاعدة اجتماعيـة ومـا أشـبه ذلـك. والبقـاء فـي × خصوصاً».

لـم تنتسـب للشـرطة لميل طبيعي لديها، حتى وإن أكـدت ذلـك «كنـت أريد دائمـاً أن أعمـل فـي الشـرطة»، بـل نتيجـة نفـور عميـق مـن كـل مـا هـو «جالس» أي كل ما يذكر بـ«المسنين» ووالديها خاصة. وعلى الرغم من كونـها ريفية وبعيدة عن أصولها ومنعزلة، فهي ثائرة على شتى أشكال العوائـق التـي توضـع أمــام ســير المؤسســة، ويكمــن ســببها فــي أن «النــاس لا يتحملــون مسؤولياتهم» كما تقول، سواء تعلق الأمر بوقاحة الجانحين («يرمي بمحفظة النقـود، وانتـهى الأمـر، فليـس هـو السـارق») أم بإهمـال الضحايـا الـذي لا يتقدمون بشـكوى، أو يسـحبونها («إنـهم خـائفون مـن الانتقـام») أم انتهازيـة المحامين («حتى وإن اعترف زبونه بالذنب، فسيبحث عن الخطأ») أو أيضـاً برخـاوة بعض زملائها («يتركون أنفسـهم على هواهـا، إنهم يشـربون») إلـخ. تترافق هـذه الكراهيـة لعدم الفاعلية التي تذكر أسبابها -التقسيم الشـديد للعمل الشـرطي، الشـكلية القضائيـة، غياب الوسـائل المادية، لامبالاة النـاس

بعمل الشرطة- مع رد فعل استكاري ضد كل ما يتعارض مع الغاية التي وجدت الشرطة من أجلها وبصورة عامة ضد كل من ينتحل صفة الشرطي («إن رجال الشرطة المزورين يدخلون كما يشاؤون، أما نحن فلا ندخل!»).

وهكذا نجد في أصل ثورتها، زيادة على نبذ بيئتها الأصلية، مبادىء انتمائها إلى أسلوب إدارة فاعل للحفاظ على النظام. وهو ما تعبر عنه بطريقتها الفجة والمباشرة «معرفة (..) إن كنا عملنا لشيء ما أو بدون طائل». إذ لم يعد المقصود هنا فقط التنديد بكل ما له علاقة مباشرة بالعالَم الاجتماعي لطفولتها، بما فيه من اضطهاد واحتقار («لا أطيق شخصاً يتقدم بشكوى ثم يسحبها بعد ثلاثة أيام»)، وصِغَر («نحن مفوضية حي صغيرة، لا نهتم إلا بالجنح التافهة») إلخ. بل بكل ما «يغيظها» من العقبات التي تميز البيروقراطية الشرطية؛ أي عدم التنسيق بين المصالح («نضيع وقتاً طويلاً»)، والملل المشوب بالقنوط («لا يستحق العناء. ماذا ستعملين؟ دعيه وشأنه» «إنهم خائرو القوى»). إلا أن خواء الإرادة الشرطية وخمودها، لأنهما يكبحان تلك الطاقة التي سمحت لها بالخروج من بيئتها، هما من دون شك علّة نظرتها الثاقبة المصطبغة بالتهكم -باعتبار أن من يتوصلون إلى «منصب» غير منتظر، لا يبلغونه إلا بحدة ملاحظتهم لسير الإدارة التي يعملون فيها والعلاقات التي تتم هناك.

وليس لديها من الكلمات ما تكفي قسوتها للتنديد بالمفوضين خاصة، أي رؤسائها («إن المفوض هنا يقبض المال») أو بالتجار الذين لا يسارعون إلى تقديم شكوى، ولا يهتمون إلا بقيمة الأشياء المسروقة («القيمة دائماً! لكن القيمة لا تعنينا»). وما هذه العلاقة المنزّهة عن الغرض والحيادية تجاه المال إلا الوجه الخفي للاحتقار الذي تحمله للذين يحتقرونها هي وأمثالها كالمحامين والقضاة وقادة الشرطة، أو الضحايا الوقحين الذين تستهجن سلوكهم، معلنة بذلك أنها ليست منهم. ولكنها لاتنفك بالمقابل عن الدفاع عن هؤلاء «الجانحين المساكين» مثل ذلك الذي يخرج من السجن ثم يعود إليه لعدم عثوره على عمل، أو تلك «الفتاة المسكينة» التي لا تجد أمامها «إلا المخدرات أو الرصيف»، أو الشاب المراهق «الذي انساق مع أولاد الشوارع».

إن شعورها الغاضب بخيبات الأمل من القوة بحيث يشكل الثمن القسري والمؤلم لالتحامها الكلي بالمؤسسة التي تشعر بأنها مدينة لها بالتغيير الحاصل لمسارها الاجتماعي. لكن زوال الوهم هذا، القائم على أساس مبرر، عوضاً عن أن يثير لديها نفوراً ما إزاء ما تقوم به، لا يضع «الاهتمام» الذي توليه لمهنتها موضع الشك («إنه مثير للاهتمام» «إن ما يروق لي هو عمليات الاحتيال») حتى وإن تضعضع هذا الاهتمام أحياناً، نتيجة لتجارب مخفقة («نهيِّء الأوراق ونقوم بالإجراءات، وبعد ذلك تُحفظ القضية: دون ملاحقة») وإذا ظنت أحياناً بأن «لا حل»، فذلك لا ينزع عنها على الرغم من كل شيء تلك الفكرة الثابتة بأنه يمكن الحصول على «نتائج».

إن كلام أنييس يتفق في نقاط كثيرة مع حوادث فيلم برتراند تافيرنيه L.627. حيث نجد فيها ما هو معتاد في «مهنة الشرطي» بين البعد الرياضي والنزوع للمخاطرة وما يرافقها من زمالة بين أعضاء فريق يواجهون الأخطار والعقبات ذاتها من جانب؛ وبين الروتين وتفاهة البيروقراطية الإدارية من الجانب الآخر. لكن مرتكزات قوة الفيلم مختلفة عن مرتكزات تصور أنييس. فلأن على الفيلم دون شك أن يتوافق مع القواعد المتبعة في هذا النوع من الأفلام، كانت الشخصيات والمواقف مرسومة بطريقة تقترب من النماذج الجاهزة للأفلام البوليسية.

كانت أنييس طوال هذا التفاعل الآني والفريد فيما بيننا تنتقل دون انقطاع بين الاستنكار لكل ما يعرقل «عملها» والتأكيد على كل ما استثمرت فيه (لاسيما خروجها من ظروف المرأة المتحدرة من بورجوازية الأقاليم الصغيرة). ومن هنا ربما يأتي التهكم الذي اصطبغ به حديثها. وهو منتشر لدى أولئك الذين يأخذون وظائفهم بجدية، من رؤيتهم عدم تقدير هذه الوظائف كما ينبغي، وعدم القيام بها كما يجب.

مع مفتشة شابة في الشرطة

حديث مع ريمي لونوار

«إن الشباب الذين يصلون (..)،
يُحطّمون منذ السنة الأولى»

انيبيس: لدينا في مفوضية الحي مشكلة الوقت أولاً والوسائل. فعندما تكون لدينا شكوى، كسرقة من البسطة مثلاً، يؤتى لنا بالسارق فنأخذ الشكوى وننتظر تقرير الشرطي. والتقرير يستغرق ثلاث ساعات لأن على الشرطي الذهاب لطبعه.. وإذا كانت السرقة من بسطة في دكان، فالتاجر لن يأتي على الفور، «إنه يعمل، وليس لديه سوى هذا ليعمله» إلخ، وسيتقدم بشكواه لاحقاً. لكننا نحتاج إلى هذه الشكوى في الحال لإحالة السارق إلى القضاء. فعلينا إذن انتظار التاجر حتى يأتي. فإذا أتى تكون الساعة السابعة إلا خمس دقائق.

❖ وهل توقفونه في المفوضية؟

انيبيس: نوقفه، وإذا لم تكن هناك شكوى، ننتظر شكوى التاجر. وعندما نحصل على الشكوى نُحيل الشخص، وعليه أن يمثل أمام القاضي في السادسة، والساعة هي الرابعة. فنستدعي سيارة لنقله إلى النظارة. لكن الساعة هي السادسة إلا خمس دقائق، والسيارة لم تصل لأن هناك مشكلة أيضاً، إلخ وهكذا تجري الأمور دائماً. إذ نضيع وقتاً طويلاً.

❖ ماذا يجري عندما يُقبض على الشخص متلبساً، وهل تطبَّق عليه إجراءات الجرم المشهود؟

انييس: يُحال بصورة عامة إلى القضاء، عندما يكون مقدار السرقة كبيراً أو تمرد أو جرح أحداً. أما إذا كان المقدار صغيراً فإما أن تعمل له بطاقة لدينا ولا يلاحق، وإما يستدعى للمثول، ونخبر النائب العام لإعطائنا موعداً. لكن هذه الحالة تستدعي التحقق من مكان إقامة الشخص. وهذا يتطلب وقتاً.. المشكلة الكبرى في السرقة من البسطة هي مع الأجانب ذوي الوضع غير القانوني. فهم ليسو من اختصاصنا بل من اختصاص المخابرات العامة، لكن لابد من وجود أثر لهم في المفوضية من أجل الإحصائيات على ما أظن؛ إذ نملأ أوراقاً بخانات، ثم تهتم المخابرات العامة بالقضية. وهنا لدينا مشكلة السيارة أيضاً. لأن المخابرات العامة تأخذ الأشخاص ذوي الوضع غير القانوني حتى الخامسة مساءً، وإذ أُوقف الشخص بعد الخامسة فنحن الذين نهتم بالقضية.

❖ ولِمَ هذا؟

انييس: من أجل الإحصاءات، إنه إجراء قضائي بينما لا تقوم المخابرات العامة بإجراءات بل تهتم بالأجانب لأنهم مصدر معلومات، كما يزعمون. أما المشكلات الأخرى فهي مع الشاكين. يأتون قائلين «لقد سرقت سيارتي». فنأخذ المعلومات ونعثر على السيارة، ولكنهم غير راضين: «لن يرد لي التأمين قيمة السيارة».

❖ إنهم يشكون من العثور على مسروقاتهم؟

انييس: تقريباً. نوقف في الليل سارقاً بالجرم المشهود. ونتصل بالضحية في صباح الغد «لقد أوقفنا يا سيدتي السارق الذي كسر زجاج سيارتك، ينبغي أن تأتي إلى المفوضية وتتقدمي بشكوى». نخبرهم في التاسعة صباحاً ولا يأتون إلا في الثانية بعد الظهر بحجة أنه يوم الأحد (والشيء ذاته أيام الأسبوع الأخرى، لأنهم يعملون). ثم نعيد لهم المذياع المسروق: «وإذن، هل تتقدمين بشكوى يا سيدتي؟» «أوه لا، فلدي مذياع سيارتي، ولا أريد مضايقات

مع مفتشة شابة في الشرطة

حديث مع ريمي لونوار

«إن الشباب الذين يصلون (..)،
يُحطّمون منذ السنة الأولى»

أنييس: لدينا في مفوضية الحي مشكلة الوقت أولاً والوسائل. فعندما تكون لدينا شكوى، كسرقة من البسطة مثلاً، يؤتى لنا بالسارق فنأخذ الشكوى وننتظر تقرير الشرطي. والتقرير يستغرق ثلاث ساعات لأن على الشرطي الذهاب لطبعه.. وإذا كانت السرقة من بسطة في دكان، فالتاجر لن يأتي على الفور، «إنه يعمل، وليس لديه سوى هذا ليعمله» إلخ، وسيتقدم بشكواه لاحقاً. لكننا نحتاج إلى هذه الشكوى في الحال لإحالة السارق إلى القضاء. فعلينا إذن انتظار التاجر حتى يأتي. فإذا أتى تكون الساعة السابعة إلا خمس دقائق.

❖ **وهل توقفونه في المفوضية؟**

أنييس: نوقفه، وإذا لم تكن هناك شكوى، ننتظر شكوى التاجر. وعندما نحصل على الشكوى نُحيل الشخص، وعليه أن يمثل أمام القاضي في السادسة، والساعة هي الرابعة. فنستدعي سيارة لنقله إلى النظارة. لكن الساعة هي السادسة إلا خمس دقائق، والسيارة لم تصل لأن هناك مشكلة أيضاً، إلخ وهكذا تجري الأمور دائماً. إذ نضيع وقتاً طويلاً.

❖ ماذا يجري عندما يُقبض على الشخص متلبساً، وهل تطبَّق عليه إجراءات الجرم المشهود؟

انيبيس: يُحال بصورة عامة إلى القضاء، عندما يكون مقدار السرقة كبيراً أو تمرد أو جرح أحداً. أما إذا كان المقدار صغيراً فإما أن تعمل له بطاقة لدينا ولا يلاحق، وإما يستدعى للمثول، ونخبر النائب العام لإعطائنا موعداً. لكن هذه الحالة تستدعي التحقق من مكان إقامة الشخص. وهذا يتطلب وقتاً.. المشكلة الكبرى في السرقة من البسطة هي مع الأجانب ذوي الوضع غير القانوني. فهم ليسو من اختصاصنا بل من اختصاص المخابرات العامة، لكن لابد من وجود أثر لهم في المفوضية من أجل الإحصائيات على ما أظن؛ إذ نملأ أوراقاً بخانات، ثم تهتم المخابرات العامة بالقضية. وهنا لدينا مشكلة السيارة أيضاً. لأن المخابرات العامة تأخذ الأشخاص ذوي الوضع غير القانوني حتى الخامسة مساءً، وإذ أُوقف الشخص بعد الخامسة فنحن الذين نهتم بالقضية.

❖ ولِمَ هذا؟

انيبيس: من أجل الإحصاءات، إنه إجراء قضائي بينما لا تقوم المخابرات العامة بإجراءات بل تهتم بالأجانب لأنهم مصدر معلومات، كما يزعمون. أما المشكلات الأخرى فهي مع الشاكين. يأتون قائلين «لقد سرقت سيارتي». فنأخذ المعلومات ونعثر على السيارة، ولكنهم غير راضين: «لن يرد لي التأمين قيمة السيارة».

❖ إنهم يشكون من العثور على مسروقاتهم؟

انيبيس: تقريباً. نوقف في الليل سارقاً بالجرم المشهود. ونتصل بالضحية في صباح الغد «لقد أوقفنا يا سيدتي السارق الذي كسر زجاج سيارتك، ينبغي أن تأتي إلى المفوضية وتتقدمي بشكوى». نخبرهم في التاسعة صباحاً ولا يأتون إلا في الثانية بعد الظهر بحجة أنه يوم الأحد (والشيء ذاته أيام الأسبوع الأخرى، لأنهم يعملون). ثم نعيد لهم المذياع المسروق: «وإذن، هل تتقدمين بشكوى يا سيدتي؟» «أوه لا، فلدي مذياع سيارتي، ولا أريد مضايقات

مع العدالة وما شابه». وكذا الأمر في حوادث النشل، إذ نقبض على السارق متلبساً، والسيدة تراه وتسترد محفظة نقودها، لكنها لا تريد التقدم بشكوى! وكم من أشياء مسروقة وجدناها، وتعرفنا على أصحابها، ثم اكتشفنا أنهم لم يصرحوا بأنها سُرقت منهم. إن الناس لا يتحملون مسؤولياتهم.

◆ لِمَ لا يتقدمون بشكوى؟ أهم خائفون؟

انييس: إنهم يخافون الانتقام «سيعرف اسمي وعنواني».

◆ وهل تلك مشكلة بالنسبة لك أن لا يتقدموا بشكوى؟

انييس: ليس لهذا الحد، لأن النائب العام حر في متابعة القضية مادام على معرفة بالوقائع.

◆ وهل تتصلين به بصورة منتظمة؟

انييس: كلا، إنه ضابط الشرطة القضائية الذي يتصل عندما يكون لدينا موقوف بالجرم المشهود. وحتى بالنسبة لقاصر علينا الاتصال بالنائب العام لمعرفة إن كان علينا إحالته للقضاء أو إطلاق سراحه.. إن هذا يغيظني شخصياً. أما بالنسبة لضرب وجرح بين زوجة وزوجها: «أتقدم بشكوى، فقد ضربني زوجي منذ ثمانية أيام». وأنا متأكدة من أنها ستأتي بعد ثلاثة أيام عند استدعاء الزوج لسحب شكواها، لأن هناك الأطفال وكل ذلك.. وتجري الأمور على هذا المنوال؛ فقد ملأنا الأوراق وقمنا بالإجراءات ثم تحفظ القضية دون ملاحقة حتى لحادثة الضرب والجرح.

◆ ألا يستطيع النائب العام هنا الملاحقة؟

انييس: فيما يتعلق بالضرب والجرح بين الزوج والزوجة، لا أظن أنه يلاحق إلا في الحالات الخطيرة. لكنه لا يلاحق حالات التلبس والسرقة من البسطة عموماً.

نملأ الأوراق، وانتهى الأمر.

- وهل يعمل ذلك بانتظام؟

انييس: أجل، أجل، إحالة واستدعاء للمثول، لكنه لا يلاحق سرقة

200 فرنك من البسطة. بل 500 فرنك على ما أظن. إنهم التجار الذين يحرصون على تقديم الشكوى، مع علمهم بأن شكواهم ستُحفظ. أما نحن فنَحفظ القضية إلا إذا كان هناك تمردٌ أو سرقة 40 فرنكاً وجَرْحُ أحد، عندئذ نأخذ الشكوى.. لكنها تُحفظ عموماً أيضاً. والأمر ذاته للشيكات دون رصيد، فشيك بـ 150 فرنكاً أو 200 فرنكاً، سيُحفظ على الرغم من أخذ الشكوى! وهناك الكثير من هذا..

❖ ولديك العمل نفسه في النهاية، مهما كانت خطورة الأفعال، سواء أكانت سرقة حقيبة يد أم شيك بمليوني فرنك..

انييس: إن ذلك منصوص عليه في القانون عادة، لكن الواقع شيء آخر. فعندما تكون عملية إثبات واقعة بالنسبة لعملية سطو، وليس لدى الأدلة القضائية ما يكفي من الموظفين، نقوم نحن أنفسنا بالتثبت من الواقعة. ولا نستدعي الأدلة القضائية إلا عندما يكون المبلغ كبيراً، أي يزيد عن 100 ألف فرنك. لكننا نذهب للتثبت من الواقعة إذا كانت هناك بصمة واضحة على الزجاج مثلاً.

❖ ينبغي معرفة وجود بصمة مسبقاً..

انييس: إنه الشاكي الذي يخبرنا، ونذهب لنرى. لكن البصمة الجيدة لا تكون إلا على بعض السطوح فقط ويجب أن تكون مضغوطة جيداً وغير منزلقة.. هناك سطو مقداره 500 ألف فرنك مثلاً. فنستدعي الأدلة القضائية، وإذا بالأثر منزلق ولا يمكن استعماله. وربما نجد بصمة جيدة لسطو صغير، لكن الأدلة القضائية لا تأتي إلا لأكثر من 100 ألف فرنك، أو عندما يكون هناك شيء غريب. كما يجب بالنسبة للسطو مصادرة قبضة الباب والتحرز عليها، وهناك في ديوان المحكمة المئات منها، لكن كل ذلك يبقى بدون طائل. إذ إن ما نفعل في الواقع هو ملء الأوراق، وانتهى الأمر.

❖ وهل تملؤون كثيراً من..

انييس: إن الضحايا لا يأتون للشرطة للتصريح عن السرقة بل لعمل ورقة للتأمين، لأنهم يثقون بالتأمين أكثر من ثقتهم بالشرطة.

❖ وهل يطلب التأمين ورقة من الشرطة؟

انيبس: أجل، ولذا يأتينا الضحايا: «ما الشيء المسروق؟» «سرقوا لي جهاز تلفزيون» «من أية علامة تجارية؟» «لا أدري، لكن لدي الأوراق. إن قيمته 3000 فرنك» (القيمة دائماً! لكن القيمة لا تهمنا). أما للتأمين فيقولون كل شيء، الطراز والعلامة التجارية. ولا شيء للشرطة. وقد وجدتُ الحل، فلا آخذ شكوى السطو إلا إذا كانت لدي الفواتير أو كل المراجع. إننا نعمل من أجل التأمين (..)

إن الضحايا يثقون بالتأمين أكثر من ثقتهم بالشرطة (..)

وإذن فلا لزوم لنا.

❖ لأن الناس لا يقومون بالتصريح؟

انيبس: بلى، أحياناً. إنني أقول لهم أحياناً «هل أتيتم من أجل التأمين أم لاسترداد مذياع سيارتكم؟» إن ذلك من أجل التأمين طبعاً. وعندما نعثر على المسروق أحياناً، لا يكونون راضين. وإذن فلا لزوم لنا: «تعلمين أن التأمين قد ردَّ لي قيمة المذياع، وليس لدي الوقت. لقد كان المذياع قديماً جداً» إلخ.

❖ ألا يعتقد الناس بأنهم سيستردون مسروقاتهم؟

انيبس: أجل، إن الناس مقتنعون بأننا لن نعثر عليها، ونحن نعتقد أيضاً بأننا لن نعثر عليها إلا في حالة التلبس بسطو. لأن ذلك نادر نتيجة التحقيق، فليس لدينا أي دليل، ولأنك عندما تعمل التحقيق في الجوار، لا أحد يفتح لك الباب «ليس من جثة في بيتي» بينما يدخل رجال ينتحلون صفة الشرطة كما يشاؤون، ولا أدري كيف يفعلون. أما نحن فلا ندخل: «لم أر شيئاً، فلم أكن في البيت» وحتى لو رأوا «لن آتي، فلدي عمل» «لا أريد أن يظهر اسمي» إلخ ولا أحد رأى أو سمع شيئاً. وهناك الشاكي الذي يشك بالجميع، فنحاول تهدئته -«إذا لم يكن ما تدعيه صحيحاً، فسينقلب عليك»- لأننا نعلم عموماً إذا ما كانت الشكوك ذات أساس.

❖ هل تعلمون ذلك؟

انييس: أجل، ثم إننا نرى الشخص الموجود أمامنا.

❖ إنها المهنة التي تعطي..؟

انييس: إذا كان ما تقوله ذا أساس نسجله. أما إذا كان، في البيت في الساعة كذا، وفعل هذا أو ذاك، فينبغي التحقق.

❖ وعلاقاتكم مع النيابة العامة؟

انييس: هذا يعتمد على نوع النيابة. فهناك نيابات متشددة جداً، وأخرى «يسار متطرف» ومتراخية: «الصغار المساكين، كل هذا ليس ذنبهم». وإذن يعتمد الأمر على نوع النيابة.

❖ وهل يزعجك تراخي القضاة؟

انييس، أجل، فحوادث النشل كثيرة، ومن الصعوبة بمكان القبض على النشال متلبساً. فما أن يترك محفظة النقود حتى ينتهي الأمر، فليس هو. وتسمع القاضي يقول «استدعاء للمثول أو إفراج» لأن الأدلة غير كافية. بينما المتهم معروف لديه ولديه الكثير من السوابق. ولكن لعدم كفاية الأدلة..

❖ عدم كفاية الأدلة؟

انييس: في هذه الحالة «يكون قول الشرطي مقابل قول النشال» يقول الشرطي «رأيته يأخذ الـ..» ويقول النشال «كلا، كلا، كلا، لم يكن معي شيء. كانت المحفظة على الأرض، وجدتها والتقطتها» إلخ، فهناك من يصدق النشال، هكذا، وآخرون لا يصدقون. وفي هذه الحالة يحال المتهم، لكننا لا نعرف العقوبة ولا ما سيصير عليه.

❖ ألا تتابعون..

انييس: لدينا رقم هاتف. ونود أحياناً معرفة العقوبة بعد قضية ناجحة، لنعلم أنه أخذ ثلاثة أشهر أو لا شيء البتة، أو غرامة مالية لا يستطيع حتى دفعها.

❖ هل تهمكم المتابعة؟

انييس: أجل، لمعرفة ما حدث لهم. وما إذا كان عملنا ذا فائدة أو بدون طائل.

◆ لأنكم تشعرون بأنكم عملتم بدون فائدة إذا ما..

انييس: إذا ما أطلق سراح المتهم. إذ يتجشم المرء عناءً كبيراً ليصل في النهاية إلى «الصغير المسكين. كانت هذه هي المرة الأولى». وأحياناً يحصل العكس. ولقد حصل لي ذلك ثلاث مرات وأخرجني عن طوري حقاً.

مدعاة لليأس

◆ ماذا فعلوا؟

انييس: كان منهم واحد متخصص في كسر السيارات وسرقة المذياع منها. دخل السجن ست مرات، وعند خروجه لم يجد عملاً، فعاد إلى السرقة. قال لي «لا أريد العودة إلى السجن، لقد عشت ثلاثة أسابيع بما اشتغلته في السجن، لأنني كنت أعمل، لكنني لم أجد عملاً بعد ذلك، واضطررت..» فأحيل إلى القضاء طبعاً لأنه من أرباب السوابق، ولم يكن يستطيع الإفلات. والمرة الأخرى تتعلق بزوجين مع طفل عمره 20 شهراً. سرقا محفظة فيها بطاقة ائتمان ودفتر شيكات، وذهبا للتسوق وشراء حلي وقلم حبر كارتييه. كان الرجل أنيقاً والمرأة مسكينة. اعترفا بفعلتهما، فأحيل الرجل للمحاكمة. أما هي فلم تحل لأنها أم لطفل وشعرنا بأنها المرة الأولى لها، وأن أمامها إما المخدرات وإما الرصيف إن واصلت العيش مع هذا الرجل.. الذي كان نموذجاً غريباً، أنيقاً ومن عائلة طيبة من البورجوازية الصغيرة. ولا أدري لِمَ كان يفعل هذا. وقد دخل السجن سابقاً. إن ذلك مدعاة لليأس.

والمرة الثالثة كانت سطواً توصلنا إلى فاعله عن طريق التحقيق. وكان مراهقاً في السابعة عشرة من عمره ربما. انساق مع أولاد الشوارع، ولا تبدو عليه مظاهر الجانحين حقاً، ومع ذلك فقد دخل السجن وكان في الحبس المؤقت. وأنا متأكدة بأنه لن يسرق أبداً. لكن لديك جانحين لا عمل لهم إلا هذا، ويسخرون منك لأنهم يعلمون بأن لا أدلة ضدهم ويعرفون الإجراءات.

◆ نعم، ماذا ترين كحل؟

انيبيس: لو أعطينا للأولين عملاً لانتهى كل شيء.

- وللآخرين؟

انيبيس: الآخرون كسالى، ولن يعملوا أبداً. إنهم يفضلون كسب 500 فرنك في خمس دقائق على الشغل ثلاثة أشهر. وهؤلاء نعرفهم للوهلة الأولى؛ إنهم الجانحون المعتادون. يستطيعون العمل ولكنهم سيسرقون في كل الأحوال. نراهم ونقبض عليهم: لديهم عمل.. ويواصلون دائماً.. لقد سجنوا سابقاً ويعرفون كل شيء. فلا حل بالنسبة لهم. فربما ينصلحون -أتكلم عن الجانحين ممن هم في 18-25 سنة- وقد تكون العقوبة غير كافية. فلديك لسرقة دراجة نارية أو دراجة عادية غرامة مالية و«حذاري، ستذهب في المرة القادمة إلى السجن» ولكنهم يعودون، ولا يذهبون إلى السجن لأن هناك ثلاثة شهور مع وقف التنفيذ. فالسجن ليس إلا في نهاية لا أدري من المرات. ولا أحكام بالسجن تقريباً أبداً..

❖ هل تعتقدين ذلك؟

انيبيس: في هذا النوع من الجنح، سرقة مذياع سيارة وجنح صغيرة. فبما أن السجون مكتظة، فهي الغرامة أو وقف التنفيذ. أعتقد بأننا لو أخذناهم بالخوف من المرة الأولى فقد يصلح أمر البعض منهم «حذاري، حسناً بالنسبة للمرة الأولى لسرقة من البسطة، لكن المرة القادمة إلى السجن» فهذا قد يخيف البعض الذين لم يتعودوا بعد كابن المهندس الذي فعل هذا لسبب لا أدريه. ولكنه بدون فائدة للشاب الذي يقضي وقته مع أولاد الشوارع. وهنا ينبغي القمع.

❖ وما علاقتكم بالقضاء؟

انيبيس: إنها في إطار لجنة الإنابة القضائية (لجنة الإنابة القضائية هي ترخيص مبرر يقوم قاضي التحقيق بإعطائه لإنجاز أعمال تدخل في نطاق تحقيق قضائي) التي تسمح لنا بالتفتيش أو لا تسمح. والقاضي هو الذي يقرر مبدئياً. فعندما نتصل به يقول لنا «حسناً، تواصلون الاستنطاق أو تجلبوا المتهم لي» وفي هذه الحال توجه التهمة له.

◆ وما رأيك بقرارات القضاء؟

انيبس: قد يُنقض حكم بسبب الإجراءات الجزائية، لأننا سهونا عن شيء ما، إنه عيب شكلي وما شابه ذلك! ترتكب حماقات كهذه لأننا لم نفعل كما يجب. رأيي أنه لابد من الإجراءات ولكن ليست بهذه الصرامة. فالمحامي يستمر في البحث عن الأخطاء حتى عندما يعترف موكله بأنه مذنب. إن هذا غير مقبول.

◆ ما أثر أن يصير المرء ضابط شرطة قضائية؟

انيبس: سأقول لك، فقبل عام من حدوث ذلك، نشرع في الخوف والقلق لأننا غير واثقين من أننا نعرف كل شيء، فهناك الكثير مما يتوجب علينا معرفته، وخوف دائم من نسيان شيء ما. والكثير مما ينبغي عمله في الوقت نفسه. وهناك خوف من عدم معرفة ما يجب عمله عندما يتطلب الوضع ذلك.

◆ نعم، لأنها مسؤوليات..

انيبس: مسؤوليات ثقيلة، ثقيلة، تقع عليك.

◆ وكيف يهيئونكم لها؟

انيبس: لكنني لم أدرس قانون العقوبات، ولا قانون العمل. لقد علمونا كل هذا في المدرسة نظرياً. فقد ننسى مهام الشرطة الإدارية إذا لم نمارسها. وهناك دورات للشرطة في باريس، أما الشرطة الإدارية فنتعلمها بالبقاء أسبوعاً وراء الكوة لمعالجة الأشياء المفقودة، وفقدان بطاقة الهوية، ثم حمل الأسلحة وطلبات التبني.. ولا ندرس كل هذا تقريباً بل نتعلمه في الميدان. إن المفوضية هي القاعدة، ومن أراد أن يكون مفتشاً فلابد له من المرور بها، لأن فيها نتعلم كل شيء، وبعد سنتين أو ثلاث تتم الترقية.

◆ هل الترقية ممكنة؟

انيبس: الترقية في مدينة باريس سهلة جداً، لكن الانتقال إلى الأقاليم بعد ذلك شيء آخر.

◆ هل هو أكثر صعوبة؟

انييس: أجل، إذ يتطلب 15 عاماً.

◆ أحقاً؟

انييس: إن الأمر بسيط، ففي مسابقة المفتشين يكوّن الباريسيون 10٪ ربما، والباقي من الأقاليم ولا يرغبون بالعمل في باريس، بل يفضلون بلداتهم على المفوضيات الباريسية. وهكذا فالمفتشون في باريس شباب، 26 عاماً أو شيء كهذا. وكلما نزلت إلى الجنوب أكثر كان المفتشون أكبر سناً!. فهم في الأربعين والخامسة والخمسين في بلدتي.

◆ وهل تودين الانتقال إلى بلدتك؟

انييس: أود ذلك من ناحية المناخ، إلخ لكنني لا أود ذلك من جهة التفاهم مع المفتشين القدماء. فأنا أحتمل الأقدمية جيداً، لكنني لا أحتمل العقليات، لا.

◆ لماذا؟

انييس: إنهم متراخون، ولا يعرفون سوى «لا، لا لزوم لفعل هذا هنا، فلن تتم متابعته» ويتركون أنفسهم على هواها، ويشربون. فلديهم مناصبهم، وسيبقون حتى سن التقاعد مرتاحي البال، لدينا هنا واحد منهم منذ 14 عاماً، ولم يشارك تقريباً في أية عملية تفتيشية أو أي شيء من هذا القبيل. والشباب الذين يأتون ويريدون القيام بالتفتيش وما شابه، يحطمون منذ السنة الأولى: «لا لزوم لهذا، ما تريد أن تفعل؟ دعه وشأنه». إنهم متراخون.

- وهل الشرطة القضائية أكثر بعثاً للاهتمام؟

انييس: إنها أكثر بعثاً للاهتمام، والعمل أكثر أهمية. إنه يرى في التلفزيون.. ليس كما يرى في التلفزيون. بل التحقيق. بينما نقوم هنا باستقبال الشكوى. ولدينا هنا لجنة إنابة قضائية لعمليات الاحتيال المتعلقة بالشيكات الباهظة، لكن الأمر لم يكن عملياً. إذ يجب القيام باستنطاق في مدريد أو ألمانيا، ولهذا تحول إلى غرفة مختصة.

❖ هل تمر مباشرة إلى مصلحة مختصة؟

انبيس: تمر إلى ضابط الشرطة القضائية، إذا كان السطو يتجاوز 100 ألف فرنك، لأن لديهم الوقت والوسائل الكافية لمعالجة القضية. فالجرائم والجنح في باريس أكثر من الأقاليم بكثير.

❖ في باريس وليون ومرسيليا، توجد مصالح مختصة. وهناك حتى قضاة مختصون..

انبيس: المفرزة السابعة والمفرزة الثانية والمفرزة الثانية عشرة..

❖ وهل يعجبكِ أن تذهبي إلى مصلحة مختصة؟

انبيس: أنا أتمنى ذلك، إذ ما يعجبني هو عمليات الاحتيال، وكل ما هو تزييف. فهي إذن الغرفة الخامسة في باريس، ثم إدارة الشرطة القضائية في باريس.

إن ما افضّله هو التحقيق

❖ لِمَ تهتمين بهذا؟

انبيس: لأنك إذا أردت التحقيق.. فلم يعد هناك تحقيق أو نجاح في عمليات السطو، حيث لا يرى الناس أو يسمعون أي شيء. أما في عمليات الاحتيال المتصلة ببطاقات الائتمان فيصف لك التاجر الشخص، ويتساءل الناس عما إذا كان الشخص هو مالك البطاقة أو غيره. وفي أحد الأيام تكفي بطاقة ائتمانية للحصول على البنزين، إذ يسجل صاحب المحطة رقم السيارة.. ولم يعد هناك تحقيق.

❖ ولا نتائج؟

انبيس: لا نتائج فيما يتعلق بالشيكات المزورة أو المسروقة، فلا نعثر عليها. إن ما أفضله هو التحقيق. هناك مصالح أخرى في الشرطة تقوم بالاستجواب فقط.. أما أنا فأفضل التحقيق.

❖ هل هناك من زميلاتك من يهتممن بالشرطة القضائية، أو بأشكال أخرى للشرطة القضائية؟

انبيس: أجل، على ما يبدو. فهناك الآن نساء في المفوضيات، لكنهن

قليلات. إذ لا يتجاوز عدد النساء ربع عدد دورة المفتشين، نجدهن في المفوضيات ويترقين مثل البقية. صحيح أن على المرء أن يكون متين البنيان في مفرزة مكافحة الجريمة أو في مصلحة يتوجب فيها القبض على شخص ما.. وبالتالي ففيهما القليل من النساء. أما لدى الأحداث فهن كثيرات. وأنا أمقت هذه المصلحة. إن الناس في باريس لا يندهشون لرؤية امرأة مفتشة شرطة، أما في الأقاليم..

❖ إنهم لا يصدقون ذلك؟

انييس: لأن المفتشات لسن كثيرات منذ عشر سنوات. واللواتي تخرجن في 1979 مازلن في باريس. وقليلات هن اللواتي نزلن إلى الأقاليم، فهذا هو السبب..

❖ هل هناك فروع مخصصة للنساء فيما عدا الأحداث؟

انييس: كانت النساء يرسَلن في البداية إلى مفرزة الأحداث، ثم فتح المجال لهن في المصالح الأخرى. لكنني لا أستطيع أن أكلمك عن تلك المصالح.. فمن المؤكد أنهم لن يصطحبوا فتاة في عملية تفتيش.

❖ إن هذا يعتمد، أليس كذلك؟

انييس: إذا كان الشخص خطراً، فلن يصطحبوا فتاة.

❖ لكنهم سيحمونها؟

انييس: أجل، فقد كنا في المفوضية يوماً وسمعنا «أمسكوا بالسارق» في الشارع. وسبقت الجميع خلفه، وورائي زميلان يركضان. وعندما قبضت على الشخص قالا لي «كنا نحاول الركض أسرع منك لأننا خائفين عليك» أما أنا فلم أفكر حتى فيما إذا كان السارق يحمل سكيناً أو قنبلة مسيلة للدموع، وسارعت راكضة هكذا».

إن المفوض يعمل هذا لكسب المال عموماً

❖ ما هي علاقتك مع ضباط الشرطة القضائية؟ هل هم على حدة؟

انييس: لا علاقة لي معهم في المفوضية. فهنا -إذا شئت- تسلسل

وظيفي: المفوض والمفتشون والمحققون. وهناك ضباط الشرطة القضائية. هنا «السيد المفوض» وأنت. أما ضباط الشرطة القضائية فشيء آخر. إنها الشرطة الحقيقية التي أحبها على كل حال.

❖ والمفوض، ماذا يفعل؟

أنييس: إنه يوقع.

❖ لا يبدو أنه يعمل الشيء الكثير.

أنييس: إدارة المفوضية. إن المفوضين بصفة عامة -وهذا ليس قدحاً- هم هنا لكسب المال أي من عمليات المصادرة والطرد وترتيب الجنائز.

❖ ترتيب الجنائز؟

أنييس: عندما يتم دفن شخص ما، يجب أن يكون شخص من المفوضية قبل غلق التابوت للتأكد من أن الشخص الموجود في التابوت هو الميت. ويتعين فعل ذلك على المفوض في العادة، لكنه يرسل مندوباً عنه، ويقبض 75 فرنكاً عن كل تابوت. وهناك مفوضون يفعلون هذا لأنهم يحبونه، وآخرون يفعلونه للفلوس؛ وبالتالي يختارون حياً فيه مستشفى ومقبرة. ولذا نجد أن لبعض المفوضيات قيمة كبيرة بسبب المستشفى والمقبرة. ويكسبون في الأماكن الجيدة 10.000 فرنك شهرياً زيادة على مرتباتهم. وحتى لو حدث خطأ أو ما شابه ذلك، فلن يقع على عاتق المفوض، بل علينا، لأن اسمنا هو الموجود!. إنهم يفعلون ذلك لكسب المال عموماً.

❖ أحقاً؟

أنييس: هذا صحيح، فهم لا يقومون بالتحقيق بأنفسهم إلا قليلاً.

❖ نعم، إنهم المفوضون الحقيقيون. فعندما يكون لديك مفوض في أحد الأحياء، يشرب أو سيء السمعة، سيجدون له منصباً آخر. ومنصبه هنا.

تشرين الثاني 1989

ريمي لونوار

لوم مشخَّص

أندريه س. في الخامسة والثلاثين من عمره. وهو قاض متزوج من إحدى زميلاته، وأب لطفلين صغيري السن. أندريه وزوجته متحدران من مدينتين كبيرتين في الأقاليم، ويزاولان عملهما في إحدى هاتين المدينتين، التي سيبقيان فيها من دون شك لأسباب عائلية (وجود عائلة أحد الزوجين) ومهنية؛ لأن حظوظهما في الترقية، التي تتطلب في أكثر الأوقات حراكاً جغرافياً كبيراً، ضعيفة. إذ بدأ «مسارهما المهني» بعد تخرجهما من المدرسة الوطنية للقضاء بدرجة «متوسطة» في محاكم إقليمية صغيرة، بعيداً عن باريس، وهو ما لا يتوافق مع الترقيات البراقة. بالإضافة إلى أنهما يتصفان كلاهما بالتصلب في رفض كل «التسويات» التي إن لم تسهل حسن «سير العدالة» فهي تيسر على الأقل العلاقات (الطيبة) التي لا يتم بدونها أي ترفيع في سلك منغلق على نفسه كسلك القضاء.

جرى الحديث بيننا يوم سبت في منزل أندريه س. بينما كانت امرأته منشغلة بأعمال البيت وبالطفل الذي لم يبلغ سن الحضانة بعد. ولم يكن تواريها من قبيل الصدفة، فإن كان تفانيها في حياتها المهنية بقدر تفاني زوجها، إلا أن لدى زوجها، بحسب تعبيره، «أشياء أكثر يقولها». ومع أنهما يتقاسمان الأعمال البيتية بالتساوي تقريباً؛ غير أن الحديث عن «القضاء» حتى لو كان متقطعاً، كالذي جرى أثناء الغداء، يبقى من نصيب الزوج.

وكأنما خوّل لنفسه نوعاً من الشرعية التي لا تنازعه فيها زوجته كما يبدو، ولا ينازعه فيها زملاؤه أيضاً.

لا يتوافق أندريه مطلقاً مع التمثلات التي تبثها وسائل الإعلام عن قضاة انفض الأنصار من حولهم من مثل: «طغاة مستبدون» «شغوفون بالعدل غير مسؤولين» «أناس صغار، جبناء ومتشنجون». إلخ تذكر هذه الصور الكاريكاتورية إلى أي حد يشكل فيه نشاط القضاة موضوعاً لأحكام علنية، تنتج على الخصوص من أطراف على نزاع بنيوي معهم (مع الصحفيين بصدد سرية التحقيق ومع رجال السياسة بصدد استقلالية القضاء ومع المحامين بصدد احترام الحق في الدفاع) ويستحضر القضاة وضعهم ويقيمونه بالمقارنة مع تلك الأحكام: «يجري الكثير من الكلام عنا، لكننا لا نستطيع التحدث عنه كما نريد، وعندما نفعل يعتبروننا مهرجين». إن القضاء سلك متراتب تتم فيه رقابة شديدة على التصريحات العلنية، ويفقد الذين يقومون بها مكانتهم في أعين زملائهم، إن لم يكونوا في مناصب رفيعة ضمن التسلسل الوظيفي.

توسط الحديث بيني وبين أندريه ذلك التعريف الاجتماعي لـ«قلق القضاء». وإذا ما تكلم بمثل هذه الصراحة والاقتناع فلأسباب منها اعتقاده بوجوب تصحيح هذه الصورة، ولأنه وجد فيَّ بعض الإمارات التي توحي بالثقة. فأنا لا أتحدث فقط مع «الرؤساء» ولا مع القضاة وحسب كما أنني باحث جامعي وعالم اجتماع، وبذا أضع نفسي خارج اللعبة القضائية. وبوسعي من خلال كتاباتي ودروسي أن أشهد علناً على القلق الذي يعاني منه. وعندما أفضى لي أندريه بمكنون نفسه كان ينتظر مني في المقابل أن أنقل نظرته لسير العالم القضائي بأقل تحريف ممكن، وهي نظرة قاضٍ من «القاعدة» منكد بل حطم، على أمل أن يكتب هو نفسه كتاباً حول القضاء وما يسميه «اختلال العالم القضائي» حتى يصير صحفياً متخصصاً في هذا الميدان. أفليس هذا المشروع هو الانعكاس الخيالي لإخفاقاته الوقتية في المنظومة القضائية؟ من الواضح على كل حال بأن شروط التعبير عن القلق مجتمعة: لقاء بين إنسان مهمش وواهن حتى في حياته الخاصة، وبين

عالم اجتماع أي فاعل اجتماعي ذي وضعية غير محددة نسبياً؛ وظيفته «فهم» الآخرين وربما مساعدتهم، والذين تقترب خصائصهم من الخصائص التي يتمنى وجودها لدى القضاة.

إن الإشكالية المطروحة في وسائل الإعلام خاصة («استقلالية القضاء»، «العلاقات مع ضباط الشرطة القضائية» «العلاقة مع الرؤساء» «فقدان المكانة» «الحاجة للعدالة» إلخ) قد أسهمت أيضاً إسهاماً كبيراً في خلق هذا النوع من التحليل الذاتي لأنها تتناسب، لكن من وجه آخر، مع إشكالية أندريه. إذ يجد هذا القاضي الذي كيفت المؤسسة القضائية حياته برمتها في التمثل العلني لـ«القلق القضائي» الوساطة والأداة التي تسمح له بالإفصاح عن ألم الوجود الذي ما كان بوسعه الشعور به ربما أو التلفظ به خصوصاً لو لم يكن مصيره الشخصي، من حيث هو، مرتبطاً بمصير المؤسسة ذاتها. فبما أن القيم المعلنة للمؤسسة القضائية -«الاستقامة»، «الكرامة»، «النزاهة»، «الاستقلالية»، «الخدمة العامة»، «الصالح العام»- هي القيم نفسها التي يعرف بها نفسه، فإن استعادة هويته تمر عنده باستعادة المؤسسة لهويتها، تلك المؤسسة التي طالما خيبت أمله ومزّقته ودفعته لمفارقتها نوعاً ما. إنه يعيش القلق الذي يعتري المؤسسة في أعمق أعماقه، بفعل الانسجام المسبق بين مؤسسة تستحق أن يُتَنكَّر لها باسم مبادئها الخاصة، وأحد أعضائها الأكثر إنكاراً من قبلها؛ ولاسيما أنه يتصرف وفقاً لما يجب أن يكون عليه مبدأ سير هذا العالم الذي يفصح عنه، عندما يبسط طريقته الخاصة في إصدار الأحكام: «تطبيق القانون بلباقة وإحساس بالناس، مع الحزم في بعض الحالات، وبلوغ ما هو ضروري، والتدليل على أن وجودنا هو لتطبيق القانون وليس للانتقام».

حزن أندريه س. مثل بقية زملائه وخاصة أبناء جيله للتقهقر الجماعي الذي اعترى مهنتهم على الأقل بالقياس مع النشاطات القانونية والإدارية الأخرى، والنشاطات التي تبرز في الوظائف الحكومية العليا (وخاصة تلك التي يسمح بها التخرج من المدرسة العليا للإدارة) وفي صعود

المهن الحرة العليا أيضاً. لكن ما يضاف إلى هذا التقهقر الذي يعاني منه الجميع، ويشكل المحور الإجباري لكل خطاب راهن حول القضاء، هو خيبة الأمل لديه التي كانت بعظم الآمال التي كان يعلقها على «مهنته». إذ إن كل شيء هيئه لهذا التفاني الذي لم يحصل من ورائه على ما ينتظره من نتائج. فقد جاء دخوله لسلك القضاء نتيجة للاستراتيجيات التي اتبعتها الطبقات الوسطى في الستينيات مستهدفة تحويل جزء من رأس مالها الاقتصادي إلى رأس مال مدرسي. وكان أبوه تاجراً ثرياً متشبعاً بمُثُل الكاثوليكية الاجتماعية، فحث ابنه على متابعة دراسته العليا. وشجع لدى أندريه س. تلك الأريحية إزاء الآخرين، التي ما انفكت قيَمه الدينية تعززها. فاتخذت بحسب العمر شكل النشاط الكشفي ثم النضال السياسي والنقابي لتكتمل (كما هو الحال غالباً لدى سكان الأقاليم خاصة) في مسار مهني ضمن الوظيف العمومي. ومثل كثير من القضاة الشباب، وعلى الرغم من أن أبويه ليسا من القضاة، فقد مارس بعض أفراد عائلته مهنة قانونية (كان جده لأمه وكيل دعاوى، وأحد أعمامه محامياً) وهو ما أثر على توجهه المهني، كما ينوه هو نفسه.

إن أباه يجسد في آن معاً، ما يهرب منه («أرباب العمل» «المال» «الرؤساء» «اليمين» إلخ) وما أتاح له الهرب. فبعد صراع مع أبيه، كان صراعاً مع نفسه أيضاً، حرره الاعتراف بصلاح وجهته «للدفاع عن الصالح العام شيئاً ما ومصلحة أولئك الذين كانوا في الشقاء بصورة خاصة» ومنحه الطاقة التي تسمح بالتفوق على النفس، أي بتجاوز الشعور بالذنب الذي يولده الترقي الاجتماعي غالباً، أو بالقطيعة مع المحيط العائلي على الأقل «كان أبي يعترف لي في النهاية قائلاً: «حسناً، إن الأفضل مع ذلك أن يكون المرء قاضياً من كونه تاجراً».

لكن مشروعات التحول لا تخلو من المخاطرة، لأنها لا تقترن دائماً باكتساب الاستعدادات والسلوكيات المطلوبة في العالم الاجتماعي الذي يتيح النجاح في المسابقة النفاذ إليه؛ فلغياب الإلفة وما يرافقها من يسر ومرونة،

يأخذ هؤلاء القادمون الجدد «بجدية» وحرفياً، التمثلات التي يقدمها هذا العالم عن نفسه. وقد حمل أندريه س. إلى العالم القضائي القيم نفسها التي جعل منها القضاة عقيدتهم المعلنة، إلا أنها ليست مع ذلك القيم التي تتحكم في ممارستهم، ولاسيما تلك التي لها علاقة مباشرة بتدبير «مسارهم المهني» الذي يشكل محور اهتمامهم وحساباتهم في أكثر الأسلاك انغلاقاً. ومساره هو مسار زوال الأوهام الناجم عن التباين بين مبادىء سير البيئة القضائية الحقيقية، والمبادىء التي يعتقد أنه يجد فيها «النزاهة» و«الاستقلالية» و«خدمة المتقاضين» و«احترام الغير». وإذا كان لم يرضخ للنظام القضائي، فذلك راجع لقوته الأخلاقية بقدر ما يرجع إلى القوة الأخلاقية التي لما تزل كامنة في هذا العالَم على الرغم من تعرضها للانتهاك على الدوام باسم مقتضيات «المسار المهني» لأن «تدبير المسار المهني لدى القضاة، شيء يستنفذ الكثير من الوقت في عقول الناس».

وهو إذ يقدم مساره المهني كشكل من أشكال درب الآلام، فليس مرد ذلك لأن سلوكياته وطريقة عمله قد «قُيّمَت دون ما تستحق» -مع أنه حزين لذلك أيضاً- بقدر ما يرجع لمثال أخلاقي صعب المنال هو «الولع بالعدالة». فلقد كان متهيئاً منذ البداية لتبني القاعدة الصريحة للعبة القضائية، وخاصة لرفض «القواعد غير المكتوبة» التي تشوه وظيفة القاضي كما كان يتصورها قبل دخوله للمدرسة العليا للقضاء: «إن النزاهة لا طائل من ورائها». والشيء الأكثر إثارة للانتباه في كلام أندريه س. هو من دون شك التطابق التام بين طريقته في تصور القضاء التي ماينفك يحاول فرضها، وبين الطريقة التي يرى بها نفسه؛ حتى أن «القضاء يؤلمه». وإذا كان بعض القضاة «مدعاة للرثاء» و«تافهين» و«مهترئين» إلخ فذلك لأن كل ما في هذا العالم يؤلمه، أي «القضاة التافهون الذين يبعثون القشعريرة في بدنه» و«الرئيس الذي يُبكي امرأة لأنها ارتكبت سرقة عند انفصالها عن رفيقها» وهو «يتضايق من مشاركة إنسان في قسوته، فذلك مخجل أحياناً». ويتعزز شعوره بالضيق من خلال تصرفات سلك القضاة؛ كعجزهم و«رداءتهم»

و«كسلهم» و«جبنهم» حيال رؤسائهم أو الفاعلين الآخرين في الحقل القانوني (رجال شرطة أو درك أو محامين) أو حتى في الحقل السياسي (وزارة العدل، الأعيان المحليين). وأقل ما يقال هو أنه يتألم منها لأنه لفرط «إرادته بفعل ما عليه بهدوء» «وفعله كما يجب» أي «بنزاهة» انقلب كل شيء ضده؛ من «الرؤساء» -رؤسائه، ولكن أيضاً رؤساء كل الأطراف المعنية باللعبة القضائية- إلى رجال النقابة المستعدين للتفاهم مع وزارة العدل، وصولاً إليه نفسه الذي «انضم إلى قيم المنظومة شيئاً ما» بعدما رأى نفسه مهدداً بالفصل.

ولعل من خلال حماس أندريه س. لهؤلاء «القضاة المتفوقين» وهؤلاء «المحامين الذي يقومون بواجبهم على خير مايرام» وحتى لأولئك المحكوم عليهم المعترفين بالجميل، أي باختصار لهؤلاء «الناس الفاضلين» يتبدى بحدة أساس ألمه. فبما أنه استثمر كل ما لديه فيما يشكل قضية («نبيلة») يدافع عنها (وهو ما يفعله في عمله وفي النقابة وفي تطوعه عموماً إزاء كل شخص في شدة) فقد منع على نفسه أي مخرج (وخاصة المحاماة) وهذا ما يدفعه، بعد أن وُضع موضع الاتهام، إلى أن «يضع الجميع موضع الاتهام» أي «المنظومة» بما فيها شخصه.

«على من يقع واجب الحكم على عمل القضاة؟» على هذا السؤال كان يحاول الإجابة طوال الحديث، محللاً في الوقت نفسه ما يتعارض مع تصوره للقضاء في طريقة ترفيع القضاة، ومعدداً هكذا ضروب الإذلال التي خضع لها والسلوكيات التي أثارت استنكاره («المعايير الخاطئة») وبعض جوانب سير العالم القضائي التي تشكل «القرارات» و«الأحكام» نتيجتها الجوهرية. ومستذكراً بأسلوب مؤثر الوسائل الكفيلة وحدها، كما يقول، برد المصداقية لهذه المؤسسة أي («شرعيتها في إصدار الأحكام») التي تقوم على «العمل الذي ينجزه القاضي بالفعل» و«سعة الأفق» و«الهيبة» اللتان تصاحبان هذا العمل، بالإضافة إلى التقويم الذي يخضع له من قبل كل الأطراف المعنية (الزملاء، المحامين، ضباط الشرطة القضائية، والمحكوم عليهم أنفسهم).

إنه يرى وراء استقلالية القاضي الرضوخ للرؤساء، ووراء سلطة القضاء التبعية لرجال الشرطة والسياسيين، ووراء السكينة الكراهية، ووراء الصرامة الجبن، إلخ «إن الأمر يصبح مشيناً لمجرد قيام المرء بعمل أشياء عادية في حد ذاتها». وبلغت خيبة أمله حداً زاد منه عدم قدرته على التخلي عن الاعتقاد بضرورة المؤسسة القضائية (وإلا فإنه «الانتقام») ولذا فما من مخرج لديه، وهو حبيس أوهامه وأحلامه، إلا تأليف عمل يكتب فيه «هذه الأشياء التي يتعين نقدها، ولا أحد يتحدث عنها». إذ سيكون ذلك الوسيلة الوحيدة لبقائه في هذا العالم الذي لا يسعه تركه إلا إذا فقد قيمته التي يسعى جاهداً لجعل الآخرين يقرّون بها، أي «نزاهته» بالإضافة إلى «إنسانيته»؛ وباختصار «كل ما هو خير في نظره» ولا يستطيع أن يجد له تقديراً في العوالم المهنية الأخرى التي لا يهم فيها سوى «المال». ولذا فالتطابق مع هذه المؤسسة التي أذاقته صنوف العذاب هو في أصل مشروعاته الإصلاحية. وكلما ازداد نبذه منها، ازداد تعلقه بها ولو من الوجهة الرمزية؛ لأن إعادة الاعتبار له يمر بإعادة الاعتبار لهذه المؤسسة. وحتى مضمون الإصلاحات التي يقترحها يصطبغ بمنظومة القيم التي يجسدها؛ فهو يبني مشروعه على الأسس نفسها التي أدت إلى نبذه. هذا المشروع الذي لا يمكن إلا أن يكون مشروعه ويُعترَف به من حيث هو كذلك. فتلك هي الوسيلة الوحيدة -في نظره- كي يتصالح تماماً مع عالم هو كل وجوده.

قاضٍ يتكلم

حديث مع ريمي لونوار

«من المفزع أن يصبح الأمر مشيناً

لمجرد قيام المرء بعمل أشياء عادية في حد ذاتها»

❖ ماذا يعجبك بمنصب القاضي؟

اندريه: إن ما يعجبني في وظيفة القاضي هو مفهوم الاستقلال، والحصول على مهنة.. فالوظيفة الحكومية تعني خدمة عامة دون رب عمل، وأن يكون علينا القيام بالوظيفة الموكلة إلينا من قبل القانون، واحترام القانون وخدمة الصالح العام. وما يعجبني أيضاً هو مفهوم العدالة وفي الوقت نفسه مفهوم الاتصال الإنساني؛ أي تطبيق القانون بلباقة وإحساس بالناس، مع الحزم في بعض الحالات، والتدليل على أننا موجودون لتطبيق القانون وليس للانتقام. يعجبني في النهاية كل ما هو خير في المؤسسة القضائية على صعيد المبادىء، لأنه لا غنى عن المؤسسة القضائية من حيث مبدؤها. وأرى أنها تمثل تقدماً حضارياً؛ كان كل هذا يبدو طيباً.

❖ كان بإمكانك أن تكون محامياً بهذه القيم نفسها..

اندريه: محامٍ، إن ما كان يحرجني في ذلك الوقت هو..

❖ أو طبيباً حتى..

اندريه: لم أكن أشعر بجاذبية نحو الطب؛ فليس لدي عقل علمي. أما

المحاماة، فشيئان يحرجانني فيها؛ قول أشياء لا أعتقدها، عندما يضطر المحامي للدفاع عن أطروحات لا يعتقد بصحتها تماماً، حتى وإن كان ذلك نبلاً.. وحتى لو كان البعض يقولون ما يعتقدون في كل مناسبة. ثم هناك أيضاً منطق المحامين، أي كسب المزيد من المال دائماً، وهو ما لا يروق لي. فهذه العلاقة مع المال تبدو لي معقدة، بينما أشعر بالارتياح لحصولي على راتب مقابل قيامي بخدمة عامة. نعم.. كان يظهر لي مفهوم العدالة هاماً (..) وعندما تقدمت للمسابقة في نهاية السبعينيات لم تكن موجة الربح قد اجتاحت..

❖ نعم لقد تغير هذا؟

اندريه: أجل، تماماً. فلم نكن نود العمل لدى رب عمل في تلك الفترة. ولم يكن مفهوم الربح يهمني، بل قد يصدمني. فما كنت أريد أخذ المال من الآخرين. أما القيام بالخدمة العامة فأمر حسن.

❖ هل ناضلت في شبابك؟

اندريه: لقد كنت على الدوام مناضلاً، وأنا كاثوليكي أقوم بواجباتي الدينية. وعند إجراء المسابقة كنت في الحزب الاشتراكي، وانتميت إلى حركة طلابية كنت واحداً من قادتها، وفي الجيش أيضاً، إلخ.

❖ نعم، ولكنك كنت دائماً واحداً من الذين يعملون للجماعة..

اندريه: هوذا، ويعترف أبي مثلاً بذلك، إذ يقول لي «حسناً، إن ذلك أفضل من كونك تاجراً» وهو يقصد في قرارة نفسه «أنا عملت لنفسي، مع أنني عملت بنزاهة، بينما لديك ميزة ليست عندي». لنقل أنني كنت مولعاً دائماً بالمسائل السياسية عموماً، وسعيت إلى الدفاع شيئاً ما عن الصالح العام ومصلحة أولئك الموجودين في الشدة خاصة. ينبغي القول إنني بقدر ما تمتعت بالحياة إبان دراستي في المدرسة العليا للقضاء، فإنني قمت أثناء الوظيفة بعملي حقاً، لأنني كنت مجداً دائماً، وعملت كل ما يجب علي لمصلحة المتقاضين، واجتهدت قدر طاقتي حتى لا أنسى شيئاً. وكنت أعمل بعض الأوقات 12 ساعة يومياً، فعندما يكد المرء هكذا في سبيل المصلحة العامة، ثم لا يرى الرؤساء إلا أنه غير متوافق مع فكرة النائب العام أو الشرطة.. يكون ذلك مشيناً.

(٥٠)

في هذه الآونة، ولأنني مصاب بخيبة أمل، أنتقد كل الناس نوعاً ما. ولعل هذا شيء سهل.. لكنني أرى أن الأمور لا تسير سيراً حسناً.. وأنا أشعر بكل صدق بأنني خلقت لأكون قاضياً، وأعتقد أن بوسعي أن أكون قاضياً نزيهاً، وأقوم بمهنتي باستقامة. فلدي نوع من الولع بها أعني أنه عندما تكون قضية شائكة تثير اهتمامي، أبحث وأمحص وأحلل ثم أناضل للحصول على الإفراج، وأحصل عليه مع أن الآخرين يريدون الإدانة. أو على العكس عندما أحصل على إدانة بينما الآخرون يريدون الإفراج، ويكون ذلك متوقفاً على رأيي. فأشعر بالسرور، وبأنني قمت بعملي كما يجب. أعتقد إذن أن بوسعي أن أكون قاضياً لائقاً، لأنني لا أحمل حقداً، ولا أحب تعذيب الآخرين. وأظن أن لدي بعضاً من الإنسانية؛ إذ أحب الناس مع احترامي للعدالة، وبذا لا يشعرون بأن قضيتهم لدى شخص لا إنساني همه إيلامهم. غير أنني ليس بوسعي أن أؤدي هذه المهمة بفاعلية، لأنني أعمل على التقدم بالعقليات في الاتجاه الأكثر إيجابية. وأنا لا أستبعد المحامي بالطبع لأنه يسهم في العدالة، وعندما ينقذ موكله فذلك يبعث على الفخر، وعندما يجعل المحكمة تغير رأيها فهو عمل طيب. ولا أستبعد أن أصير محامياً، لكن هناك مشكلات مادية وتقنية، وسأفكر في الأمر.. لكنني الآن عاجز عن تغيير المنظومة، فلست نائباً ولا رئيساً للجمهورية. والمنظومة كما هي إذن، فينبغي تطوير الأفكار على الأقل والدفاع عن مفهومي للعدالة أي الدفاع عن روح العدالة.. نعم.. وأن يكون القضاة ذوي عقول حرة وعلى شيء من الهيبة، وقادرين على وضع أنفسهم موضع الشك،ويقبلون احتمال فصلهم في ظرف عشر سنوات إذا لم يكونوا أهلاً لمهمتهم، فلابد من اعتبار عمل كل شخص في الواقع. لأن مما يبعث على الاستهجان رؤية من يعمل جيداً ومساره المهني سيئ، مع أن كل الذين يعملون معه يقرون بأن عمله جيد. ثم رؤية من يعمل بشكل سيء ومساره المهني ممتاز؛ لأن هناك العلاقات والمحسوبيات والدعم السياسي ربما.

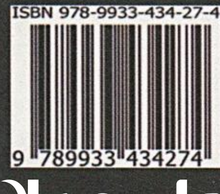
1991

الفهرس

LA MISERE DU MONDE

رحلة كابوسية متعددة الوجوه في أرجاء «الرأسمالية القائمة فعلاً». هذا هو قوام «بؤس العالم»، الكتاب الضخم، الذي أنجزه بيير بورديو ومعاونوه، متواطئين، وبشكل حميم، مع سلسلة بشرية متعددة الوجوه والقضايا، وقد يبدو الكتاب مربكاً، تتمازج فيه الحكايات الحزينة وسير ذاتية ناقصة، واستقصاء اجتماعي، وإشارات فلسفية وتعليقات سياسية، إلى درجة تُوهم «هواة الاختصاص المعرفي» أن الكتاب يهرب من «المعرفة العميقة»، ويكتفي بنثارها. غير أن بورديو، الذي يوظف المعرفة من أجل خدمة البشر المضطهدين، يقوم بغير ذلك تماماً، معطياً درساً نموذجيا في إنتاج المعرفة الصحيحة، ولهذا يدفعه مسعاه النبيل إلى حوار البشر وقراءة الشروط المشخصة التي يعيشون فيها، ذلك أن المعرفة تتراءى في أرجاء الحياة اليومية، ولا تستولد من صفحات الكتب الجاهزة، وبورديو، في هذا يقول بأولوية أسئلة الحيّاة على الجهاز المفهومي، ويقوم باختبار الأخير على ضوء المعيش العاري، الذي يتطير عادة منه «الأكاديميون التقليديون».





تصميم الغلاف: باسم صباغ